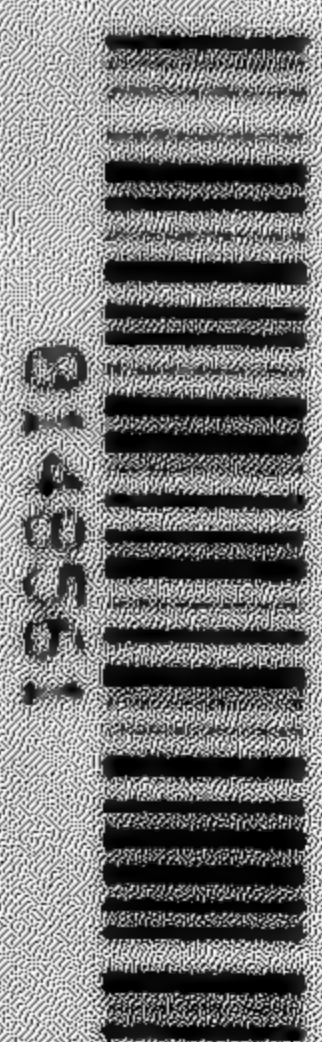




العصور الوسطى المملوكية

ترجمة وتعليق: دكتور قاسم عبده قاسم



0148561

Bibliotheca Alexandrina

ف. كانتور

العصور الوسطى الباكورة

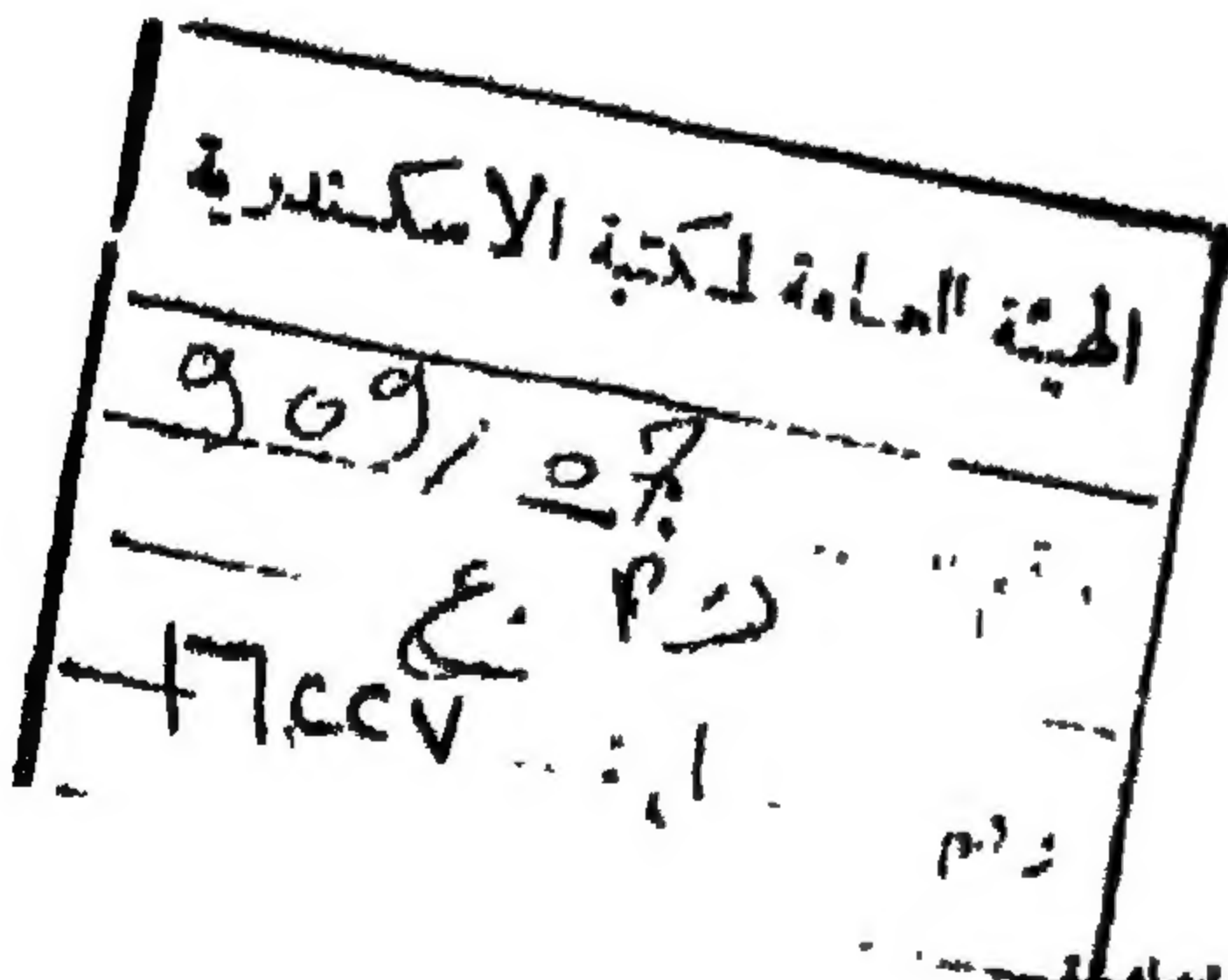
القرن الثالث / القرن التاسع الميلادي

ترجمة وتعليق

دكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الزقازيق



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)



Bibliotheca Alexandrina

مركز للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

NORMAN F. CANTOR
MEDIEVAL HISTORY
THE LIFE AND DEATH OF A CIVILIZATION
SECOND EDITION
LONDON 1969

المستشارين

د . أحمد محمد إبراهيم الهوساوي
د . شكري عبيد القوي حبيب
د . علي السبيسي
د . تيسام عبيد تيسام
مفهر اللغز . محمد عبد الرحمن عفيفي
تمميم اللغات . محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي - اسكندرية - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٢٨٥١٢٧٦

PUBLISHER FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
6, Youssef Fahmy St., Helwan - A.R.E. Tel : 2851276

محتويات الكتاب

صفحة	
ز	مقدمة المترجم.....
٣	فأخرة الكتاب.....
١١	تقديم.....
١١	١ - موجز تاريخي.....
٢٥	٢ - فترات التاريخ الوسيط.....
٢٩	٣ - موضوعات التاريخ الوسيط الباكر.....
٣١	الجزء الأول : المصير الروماني، من القرن الثاني حتى القرن الخامس.....
٣٣	الفصل الأول : الاضمحلال والسقوط.....
٣٣	١ - الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني بعد الميلاد.....
٣٦	٢ - أزمة العالم الروماني.....
٤٧	٣ - المطلب الديني للعالم الروماني.....
٥٥	الفصل الثاني : الامبراطورية المسيحية والكنيسة المسيحية.....
٥٥	١ - تشكيل الكنيسة الكاثوليكية.....
٦٣	٢ - قنسطنطين الامبراطور المسيحي.....
٧٦	٣ - الامبراطورية الرومانية المسيحية.....
٩٧	الفصل الثالث : بناء المسيحية اللاتينية.....
٩٧	١ - أثينا واورشليم.....
١١٣	٢ - حج أوغسطين.....

صفحة

١٢٣	٢ - الموضوعات الرئيسية في فكر آباء الكنيسة اللاتين
	الجزء الثاني : تحول الحكومة والمجتمع في أوروبا من القرن الخامس حتى
١٦٥ القرن الثامن
١٦٧ الفصل الرابع : عصر الغزوات الجرمانية
١٦٧ ١-الجرمان
١٨٤ ٢ - القرن الأول للغزوات الجرمانية
١٩٢ ٣ - المرحلة الثانية من الغزوات
٢١٥ الفصل الخامس : بيزنطة والاسلام
٢١٥ ١ - لعنة السلطة البيزنطية
٢٣٠ ٢ - تأثير الاسلام على أوروبا في العصور الوسطى المبكرة
٢٥٣ الفصل السادس : نمو الزعامة الكنسية
٢٥٣ ١ - المؤسسات الديرية في حضارة العصور الوسطى
٢٦٨ ٢ - جريجوري الكبير والبابوية في مطلع العصور الوسطى
٢٧٧ الجزء الثالث : أوروبا الأولى : القرنان الثامن والتاسع
٢٧٩ الفصل السابع : بناء الملكية الكارولنجية
٢٧٩ ١ - الثقافة الانجلو - أيرلندية والظاهرة الاستعمارية
٢٩٤ ٢ - اللغز الكارولنجي
٢٩٧ ٣ - الملكية والبابوية
٣١٣ الفصل الثامن : الثقافة والمجتمع في أوروبا الأولى
٣١٣ ١ - العالم الكارولنجي
٣٢٩ ٢ - التنظيم الاقطاعي للمجتمع

الجزء الرابع : التوازن في العصور الوسطى الباكسة، القرن العاشر وأائل

٣٤٥ القرن الحادى عشر
٣٤٧ الفصل التاسع : الكنيسة والعالم
٣٤٧	١ - طبيعة التوازن في العصور الوسطى الباكسة
٣٤٩	٢ - الدولة الاقطاعية النورمانية
٣٥٦	٣ - الامبراطورية الاوتوية
٣٦٧	٤ - المثال الكلونى
٣٧٧ الفصل العاشر : بيزنطة، والاسلام، والغرب
٣٧٧	١ - مواطن الضعف في الحضارة البيزنطية والحضارة والاسلامية
٣٨١	٢ - صعود أوروبا

فهرس الخرائط

صفحة

- ١ - خريطة الامبراطورية الرومانية عند بداية القرن الرابع ٢٥
- ٢ - هجرات الشعوب - توضيح طرق الهجرات الجرمانية ١٦٩
- ٣ - أوروبا سنة ٥٢٦ م ١٩٥
- ٤ - أوروبا والبحر المتوسط عند موت جستنيان الأول سنة ٥٦٥ م ٢٢٥
- ٥ - عالم البحر المتوسط سنة ٨٠٠ م ٢٤١
- ٦ - الامبراطورية الكارولنجية بعد معاهدة فردن سنة ٨٤٣ م ٣٢٥
- ٧ - ألمانيا سنة ١٠٠٠ ٣٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

تاريخ العصور الوسطى وحضارتها مجال رحب للبحث والدراسة. ومنذ بدأ إدوارد جيبون التعرض لدراسة العصور الوسطى، ظهرت دراسات عديدة، ولعت أسماء كثيرة لعلماء وباحثين تخصصوا في دراسة تاريخ هذه الفترة، كما صدرت كتب ومؤلفات عديدة وبلغات شتى، تدور موضوعاتها حول الفترة التاريخية التي اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى. ومن خلال هذا النشاط المتزايد في مجال دراسة هذه العصور تشكلت الملامح التي تميز المدارس العلمية المختلفة. وتمثلت نتيجة ذلك كله في هذا التراث الهائل والذي يعجز المرء، أو يكاد، عن متابعته في ميدان كتابة ودراسة تاريخ العصور الوسطى وعلى الرغم من ذلك تبقى حقيقة هامة مؤداها أن الكتب التي قامت بدراسة شاملة لكافة جوانب حضارة العصور الوسطى لاتزال قليلة؛ ومن ثم فإن أية دراسة شاملة من هذا النمط لابد وأن تلقى ترحيباً من المهتمين بهذه الدراسات.

والكتاب الذي نقدمه اليوم للقراء العرب، نقلاً عن اللغة الانجليزية، واحد من هذه الدراسات الشاملة، ومؤلفه هو الأستاذ الأمريكي المعاصر نورمان ف. كانتور NORMAN F. CANTOR وقد اختار لكتابه عنواناً معبراً هو "Medieval History and the life and death of a civilization" وترجمته «التاريخ الوسيط، قصة حضارة: البداية والنهاية». والواقع أن هذا الكتاب يمثل ذخيرة هامة، لاغنى عنها، لمن يرغبون في اتخاذ فترة العصور الوسطى ميداناً لدراساتهم، فضلاً عن أنه يفتح أمام القارئ صفحة هامة من صفحات رحلة الانسان، التي لم تتم بعد، في رحاب الزمان. وإذا كان الكتاب يركز على دراسة التاريخ الأوربي، فهو طبيعي، لأن التقسيم الثلاثي للفترات التاريخية (عصور قديمة، ووسطى، وحديثة) تقسيم أوربي النشأة، يتخذ من الحضارة الأوربية حضارة مرجعية، ويجعل من هذه الحضارة الحديثة النشأة مركزاً لحضارات العالم وهو أمر

نراه طبيعيا بالنظر الى تفوق الحضارة الأوروبية الملموس حاليا. بيد أن هذا لايعنى أننا نوافق على تقسيم الفترات التاريخية لتاريخنا العربى الاسلامى (بما فى ذلك تاريخ الحضارات القديمة، قبل الاسلام فى المنطقة العربية الاسلامية) على أساس هذا التقسيم التعسفى، على الرغم من أن هذا التقسيم سائد فعلا فى جامعاتنا العربية. وثمة بدائل لتقسيم الفترات التاريخية يمكن أن تكون أكثر فعالية وجدوى^(١) ، ولكن المجال لايتسع لمناقشتها.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى تسعة أجزاء عالج فيها جوانب الحضارة الغربية فى العصور الوسطى، رجوعا إلى عصر الامبراطورية الرومانية الأخير فى القرنين الثانى والثالث. كمدخل طبيعى لدراسة هذه الفترة التاريخية.

ولست أظننا بحاجة إلى تكرار العرض الذى قدمه المؤلف لموضوعات الكتاب، ومن ثم فإننا نكتفى بالإشارة إلى أن الترجمة قد قسمت الكتاب، لضخامته، إلى قسمين، نقدم القسم الأول منهما فى هذا الكتاب الذى يقف بالقارئ عند نهاية الجزء الرابع من الأجزاء التسعة التى وضعها المؤلف، أى بنهاية فترة العصور الوسطى الباكورة Early Middle Ages سنة ١٠٥٠، وفقا لتقسيم المؤلف. وسوف يضم القسم الثانى، إن شاء الله، بقية الأجزاء الخمسة التى يضمها النص الاصلى. وقد اخترت عنوانا هذا الجزء « العصور الوسطى الباكورة ».

وإذا كانت هناك بعض الصعوبات التى اعترضت الترجمة، فلست أرى داعيا إلى أن أثقل بها على القارئ ، وكفىنى أن أشير إلى أن إخراج هذا الجزء، على هذه الصورة، قد استغرق جهدا يزيد على السنوات الثلاث.

(١) انظر للمترجم « مفهوم الزمن عند المؤرخين المسلمين : دراسة تطبيقية على المقرئى »، الموسم الثقافى ١٩٧٨ / ١٩٧٩ للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حيث يعرض وجهة نظره فى هذا الموضوع كاملة .

وهنا ينبغي أن أشير إلى أن جزءا من هذه الترجمة قد صدر قبل ذلك بمراجعة
المرحوم الأستاذ الدكتور على الغمراوي أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة عين شمس، الذي
بذل جهدا فائقا في المراجعة، بيد أنى رأيت أن الفصول التي حواها ذلك الجزء لم تكن
كافية، فأضفت أربعة فصول جديدة في هذا القسم بحيث يقف الكتاب عند نهاية العصور
الوسطى الباكرة، لتكون الصورة كاملة عن إحدى فترات العصور الوسطى، كما أن ثمة
إضافات وتنقيحات رأيت إضافتها للجزء الذي سبق صدوره من هذه الترجمة.

وقد حرصت على الأسلوب العربى الخالص قدر طاقتى، كما حرصت فى الوقت
نفسه على حرفية النص الانجليزى، بيد أننى أسقطت عبارات، لاتزيد عن عدد أصابع اليد
الواحدة، رأيتها لاتخدم السياق فى النص العربى.

وأخيرا فأننى ينبغي أن أشير بمزيد من الامتنان والشكر للصديق الدكتور محمد
خليفة حسن أستاذ تاريخ الأديان المقارنة بجامعة القاهرة، لما قدمه من مساعدات أفادتني
كثيرا فى شرح بعض ما غمض فى النص، كما أقدم شكرى وامتنانى للصديقة العزيزة
الفنانة نجلاء مصطفى التى وضعت خرائط النص العربى نقلا عن خرائط النص الأسمى
وهذه الطبعة التى تقدمها دار " عين " للقارئ العربى حرصت فيها على تلافى أخطاء
الطباعات السابقة لكى نقدم نموذجا لرؤية المفكرين الغربيين لتراثهم فى صورة أقرب ما
تكون إلى الكمال ، والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم أغسطس ١٩٩٣

قصة حضارة : البداية والنهاية

حتى المدينة السماوية، وهي في حال حجها تفيد من السلام الأرضي... وتجعل هذا السلام الأرضي اتجاهها صوب سلام السماء.

- القديس أوغسطين

مدينة الله

فاتحة الكتاب

جدوى التاريخ

عند البدء فى دراسة موضوع ما، يحق لنا أن نسأل : ماهى فوائده، ولم يجب علينا أن ننفق الوقت والجهد فى هذا الموضوع، وما جدوى هذه الدراسة فى حياتنا ؟ وفيما يتعلق بدراسة التاريخ يبدو مثل هذا التساؤل النفعى أمراً مستهجناً فى بعض الأحيان. ويقال إن علينا أن نشتغل بالدراسة التاريخية لنفس السبب الذى يدفعنا إلى تسليق جبل ما « لأن مانريده هناك » ، وثمة زعم بأن كل ما فعله الانسان فى الماضى يحمل أهمية مباشرة بالنسبة للانسان، وأن هذا الاهتمام الطبيعى يجعل التاريخ كله جديراً بالدراسة كما أن أى شخص لديه هذا الاهتمام الطبيعى يكمن فى داخله مؤرخ محترف. ومع أن هذا المدخل المبالغ فيه لا يصمد للنقد بطبيعة الحال، فإن أى مدرس تاريخ يعلم أن الاهتمام الطبيعى بالتاريخ لا يبدو أكثر انتشاراً من الإهتمام الطبيعى بالكيمياء أو الرياضيات، فضلاً عن أن هناك عالماً من الاختلافات بين حب الاستطلاع العشوائى بقصد قضاء وقت الفراغ، والذى يقود المرء إلى قراءة ممتعة حول بعض الشخصيات أو الحوادث التاريخية – مثل الملكة ماري ملكة اسكتلندا أو معركة جتسبرج Gettysburg وهما موضوعان شعبيان محبوبان – والتحقيق المنهجى الشاق، والتأمل الذى تنطوى عليه الدراسات التاريخية الحقة.

ومن ثم، يحق لنا أن نسأل، ماهى فوائد التاريخ ؟ بادية ذى بدء فإننا ندرس التاريخ لنفس السبب الذى يدفعنا إلى دراسة أى موضوع إنسانى آخر؛ إلا وهو تحقيق المعرفة بالذات الانسانية. وتحقق دراسة التاريخ الحكمة التى جعلها الأغريق أسمى غايات الحياة الانسانية : أعرف نفسك، ويخبرنا سقراط أن « الحياة التى لا تخضع للفحص غير جديرة بأن نحياها » ، ويزعم أننا لاندخل منطقة الوعى بوجودنا

الانسانى، وتنطلق على طريق الحكمة إلا حين نفتش ونستفسر عن طبيعتنا البشرية، ولكن هل تقتصر دراسة الطبيعة البشرية على دراسة الكائن البشرى المفرد؟ لقد التزم الاغريق فى الجانب الأكبر من بحثهم عن الانسانية بهذه الرؤية الضيقة وركزوا على النموذج التجريدى، مع قدر ضئيل من الاهتمام بالناس فى علاقتهم التاريخية - الاجتماعية الحقيقية. وبعد تطور بطلى، ومعقد للغاية للأفكار التى لم تصل إلى مرحلتها النهائية سوى فى القرن التاسع عشر، اتضح أن هذا المدخل غير كاف لدراسة الطبيعة البشرية، والواقع أن الحضارة الغربية التى تميزت عن مختلف المدينيات الشرقية هى التى أبدت وعياً واضحاً بالانسانية فى تركيبها التاريخى المتغير دائماً وأبداً^(١).

(١) الحقيقة أن هذا القول يجالى الواقع إلى حد كبير، فإن الحضارة العربية الاسلامية والى استندت إلى تعاليم الاسلام وراث الشعوب الاسلامية من غير العرب، أبدت نهماً واحساساً للطبيعة الانسانية المتغيرة، إذ جاء فى قوله تعالى (سورة الملكوت : آية ٢٠) « قل سبوا فى الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، أن الله على كل شيء قدير » وعلى الصعيد الواقعى سار المسلمون فى الأرض، واكتشفوا أن الانسان فى تطور مستمر، فما هو ابن خلدون يقول فى مقدمته (ص ٣٠، طبعة دار الشعب)... ومن اللفظ الخلفى فى التاريخ الدفول من تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومزود الأيام... وذلك أن أحوال العالم ومبادئهم ونظمهم لا تقوم على وثيرة واحدة، منهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. » كما يقول (ص ٢٥ : الطبعة نفسها)... « أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال... وما ينشأ من ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتقله البشر بأعمالهم ومسابيهم من الكسب والمعاش والعلم والصنائع... » كما أن كثيرين من المؤرخين والعلماء المسلمين قد أدركوا بوضوح الحقيقة القائلة بأن البشرية فى حال من التغير والتبدل الدائم، نذكر منهم، على سبيل المثال، المسعودى، والطبرى، والمقريزى، والقلاشندى، وابن أياس... ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن كتابات المؤرخ تقي الدين المقريزى بالذات تكشف عن وعى تاريخى حقيقى، وهو الوعى المزجج بالزمن والحقيقة : بالزمن فى صيرورته وما ينتج من ذلك من التبدل والتغير والحقيقة التى يبحث عنها فى أسباب الظاهرة التاريخية التى يعالجها، وهو ما يتجلى أوضح ما يكون فى كتابه الرائع « المواقظ والاعتبار يذكر الخطط والآثار ». وكتابه الصغير المدهش « إغاثة الأمة بكشف الغمة » (لمزيد من المعلومات عن المقريزى) انظر : دراسات عن المقريزى لمجموعة من الاساتذة. طبعة الهيئة المصرية العامة للثقافة والنشر سنة ١٩٧١) ومن ناحية أخرى ينبغي أن نشير إلى ما تبين به الحضارة الغربية للحضارة الاسلامية فى شتى المجالات، ونحيل القارئ إلى كتابين شاملين فى هذا الموضوع هما :

١ - شمس الله على الغرب « تأليف الدكتور : سنجريد موكدة وترجمة الدكتور فؤاد حستين على (النهضة العربية ١٩٦٤) .

٢ - أثر العرب والاسلام فى النهضة الأردنية « لمجموعة من الاساتذة - بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو

(للتأليف والنشر سنة ١٩٧٠). الهيئة المصرية

(المترجم)

ويمكن إدراك وفهم فائدة التاريخ باعتباره معرفة إنسانية بذاتها - وهو ما فطن إليه مفكرو القرن التاسع عشر والقرن العشرين تماماً - إذا ما بدأنا بالسؤال عن نوع الشخص الذى سيكونه أى إنسان إذا فقد الذاكرة، ونسى كل ما تعلمه فجأة، إنه، طبعاً، لن يكون شيئاً على الإطلاق، سيكون حيواناً لا غير، بمعنى أن الطفل المولود حديثاً إن هو إلا حيوان ذو قدرات كامنة، ولكن هل يمكننا أن نقيّد الذاكرة في إطار الإنسان الفرد وتجاهل الذاكرة الجماعية للجنس البشرى؟ الواقع أننا لانستطيع ذلك إذا ما كان الهدف هو تحقيق المعرفة الكاملة بالذات، « أننى جزء من كل ما قابلت » هذه الفترة المقتبسة من أوليسيس Ulyssess لتنيسون تمدنا بالمفتاح الذى يقودنا إلى أهم فوائد التاريخ، فالحقيقة أننى جزء من كل ما قابلت، لا بصفتى الشخصية فحسب، بل أيضاً بصفتى عضواً في جماعة متميزة من البشر؛ مجتمعاً كانت أم حاضرة، ذلك أننا في تطور شخصياتنا المتميزة لانكون محكومين بعلاقاتنا الشخصية أو الأسرية فحسب، بل أيضاً بالتغيرات المتعددة في الحياة الاجتماعية والتي وقع الكثير منها منذ قرون مضت، وهو ما نسميه التاريخ.

وسواء كنا واعين لهذه الحقيقة أم لا، فإننا لانملك ذاكرة فردية فحسب؛ بل أننا نشارك أيضاً في الذاكرة الجماعية لكل ما مر به النوع الانساني من تغيرات في الماضي ومن ثم فإن كل فرد كائن تاريخي سواء كان يعلم بهذه الحقيقة البالغة الأهمية أم كان غافلاً عنها تماماً، إذ أن حياة كل منا محكومة بما وقع من أحداث في بلاد بعيدة عنا منذ مئات السنين، ونحن نتصرف في حياتنا اليومية وفقاً لفهمنا لهذه الحوادث مهما كان هذا الفهم محدوداً، بيد أننا بالنظر إلى هذه الذاكرة الاجتماعية، وذاكرتنا الفردية أيضاً، قد نقول بحق مع سقراط « إن الحياة التي لم تخضع للفحص غير جديرة بأن نحياها ». ذلك أن ذاكرة الماضي التي لم تفحص مجرد أسطورة وتحيز. وأيا كان تأثير الأسطورة والحكم المسبق على الفعل الاجتماعي فهي خطأ، وليست حقيقة، أما التاريخ،

كعلم ونشاط عقلي، فيخضع ذاكرة الماضي الجامعة للتدقيق الصارم، ومن خلال تطبيق المناهج العلمية التي ابتدعها علماء القرن الماضي، يحاول التاريخ كشف النقاب عما حدث في الماضي، « كما حدث بالضبط »^(٢) لاعلى أساس بعض الأساطير أو الأحكام المسبقة التي تمت وترعرعت لتعلق بعض المجموعات أو الأمم .

وبطبيعة الحال، فإن فهم الماضي كما حدث بالضبط، توصية تبغى الوصول إلى الكمال، وفي الكتابة التاريخية - كما هو الحال في مجالات أخرى في الحياة - غالباً ما لا يتحقق الكمال، إذ أنه حتى مع توفر أحسن إدارة في العالم مع أعظم قدر من الحرص، وأكبر قدر من النضج لمحاولة التحرر من الذاتية، يظل المؤرخ نفسه متأثراً بالأسطورة والهوى الكامنين في أغوار خلفيته الثقافية، وقد أفضت هذه الحقيقة ببعض المؤرخين إلى اليأس، والسقوط في هوة نوع من النسبية المركزة على الذات *egocentric relativism* وإلى الزعم بأن كل رجل مؤرخ نفسه، وأن ليس ثمة حقيقة مطلقة في التاريخ، ويقال إن أي تفسير للحوادث التاريخية يمكن أن يكون مساوياً في جودته لأي تفسير آخر، وأن كل التفسيرات التاريخية، سواء قدمها الرجل العادي أو قدمها الباحث المتعلم، ترتكز على أرضية من الأهداف الاجتماعية المرغوبة. بيد أن هذا اليأس كثيراً ما يتجاوز الحد المعقول، على الرغم من أنه يفسد على الأساتذة غطرستهم - وهو عمل طيب دائماً، فمع التسليم بأن المؤرخين الذين يبحثون عصراً بذاته من عصور الماضي قد يختلفون في تفسيراتهم اختلافاً جسيماً، وقد تختلف رؤية كل منهم عن الآخر للأسباب والنتائج فيما

(٢) صاحب هذه العبارة هو الألماني « ليوبولدفون رانكه » Leopold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦)، الذي يعتبر كتابه الأول المسمى « تاريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية » طرازاً جديدة من الكتابة التاريخية في عصره، إذ اعتمد فيه على المصادر الأصلية إنطلاقاً من رايه في أن التاريخ « هو تصوير ما حدث في الماضي بالضبط » الأمر الذي دفعه إلى الإهتمام بالوثائق والمخططات الأثرية اهتماماً بالغاً لأنه رأى في الوثائق الرسمية، ومكاتبات الدول والأفراد، وسجلات الحكومة والكنائس، والمذكرات الشخصية، أصدق مصادر الكتابة التاريخية، وتعهد بداية ظهور علم الوثائق كعلم منهجى إلى تلك الفترة التي أخذ فيها تلاميذ " رانكه " يجهزون أنحاء أوروبا سعياً وراء الوثائق و" رانكه " هو صاحب الفضل في إنشاء " اللجنة التاريخية في أكاديمية بافاريا للعلوم " التي قامت بنشر جديد العديد من الوثائق والحواليات، كما أنشأ " المجلة التاريخية السياسية " التي تعد من طلائع الدوريات التاريخية. (المترجم) .

بيحثونه من أحداث، فإنهم مع ذلك يظلون متفقيين في عدة أمور وحين تطور التاريخ ليصير علماً في القرن الماضي، توصل المؤرخون إلى عدة استنتاجات عامة فيما يتعلق بتفسير الماضي، على حين أنهم ما يزالون مختلفين حول أمور غيرها. هناك إذن بالفعل وحدة في المناقشة بين المؤرخين، وأساس صلب من الحقائق المتفق عليها بشأن الماضي، كما أن هناك جدلاً مستمراً حول جوانب أخرى من الماضي، وربما يتم الاتفاق حولها في النهاية المطاف.

إن الدارس المبتدئ في ميدان التاريخ سرعان ما سيدرك أن هناك مناقشة جدلية بين المؤرخين، وإذا كان يتمتع بقدر الذكاء فإنه سوف يكتشف أن هذا الخلاف في طريقه إلى الزوال؛ ولكن، ليس لأحد أن يتعمى عن حقيقة أنه بعد قرون من العمل الشاق الذي قام به آلاف العلماء أصبحنا نعرف فعلاً أشياء كثيرة عن الماضي بنفس درجة التأكد واليقين التي يعرف بها عالم الطبيعة أو الكيميائي أو البيولوجي الحقائق الأكيدة عن عالم الطبيعة، ولا ينبغي للدارس المبتدئ أن يضل طريقه بسبب ما ينشأ أحياناً من منازعات مريرة بين المؤرخين، مما يدفعه إلى الظن بأن التاريخ هو مجرد الغضب المحموم والأصوات العالية، فعلى العكس من ذلك، تستحق دراسة التاريخ أن يتناولها المرء في زهو بمغزاها، من حيث أنها تؤدي إلى معرفة الانسانية بذاتها، ومن خلال معرفة الذات تقود الانسانية الى التحرر من الأسطورة، والتحيز والأحلام التي مازالت تحكم تصرفات الشعوب غير الغربية التي لم تبدأ الدراسة العلمية للتاريخ إلا في أضيق الحدود^(٢).

وإن جعلنا المعرفة الصحيحة بالتاريخ « نتنبأ بالمستقبل » على نحو ساذج سخيف، ولكنها سوف تساعدنا على أن نتصرف في المستقبل بحكمة أكثر، ذلك أن الانسان الذي يتمتع بالمعرفة الدقيقة بما حدث في الماضي يكون أكثر اقتراباً من الفهم الكامل للطبيعة البشرية، ومن ثم فهو قادر على أن يتصرف بالحكمة والثقة التابعتين من معرفة الحقيقة.

(٢) هذا هو رأي كانتور المطلق في الشعوب غير العربية، وهو رأي لا ينطبق على الواقع تماماً.

والتاريخ الوسيط عبارة عن لحظة طويلة ومعقدة في تجربة الرجل الغربي، إذ تشمل الفترة ما بين عام ٢٠٠ وعام ١٥٠٠ بعد الميلاد تقريباً. وميراث تجربة العصور الوسطى في الحضارة الغربية شاسع وشامل، فما أن أهل عام ١٥٠٠ حتى بات واضحاً أن العصور الوسطى قد انتهت، ولكنها كانت قد خلفت للعالم الحديث التراث الغني بالكثير من مؤسساته ونظمه السائدة، كالكنيسة المسيحية، والحكومة النموذجية، والنظام الرأسمالي، والجامعة، وبعض أفكاره الأكثر حركة وحيوية؛ بما في ذلك الفكر الرومانسي، والفكر العقلاني، والوطنية، والمنهج العلمي، فضلاً عن الطبيعة المركبة المتناقضة للإنسان نفسه. وإذا كانت فائدة التاريخ هي معرفة الانسانية بذاتها، فإنها لا تستطيع الاستغناء عن الحياد والتفهم الكامل لخطوط التطور الرئيسية في العصور الوسطى. فالكثير جداً من جوانب حضارة القرن العشرين، ليست سوى نتائج تجربة العصور الوسطى. وإذا كان «الطفل هو أبو الانسان في الواقع»، على نحو ما يخبرنا الشعراء وعلماء النفس، فإن التجربة الوسيطة ما تزال تتحكم في أقدارنا بما هو طيب، وبما هو سيء حتى الآن. وهدف هذا الكتاب أن يوضح الجوانب الأساسية في هذه التجربة - أن يبين انجازاتها وأخفاقاتها، وأمجادها ونكساتها، رفعتها وسليبتها.

وأخيراً، ينبغي التأكيد على أن فهم تجربة العصور الوسطى فهماً شاملاً لن يتأتى سوى من خلال فهم وإدراك درجة وعي الناس في العصور الوسطى بالحوادث العظام التي حسمت مصيرهم، إذ يجب أن نرى - بل يجب في الواقع أن نحس - لا بالطبيعة الخارجية للحوادث فحسب، بل بمكنونها وطبيعتها الداخلية أيضاً، وهو ما يعنى، تأثيرها على فكر من عاصروها، إذ لا يكفي أن نحدد مراحل الغزوات الجرمانية وأحداث عصر شارلمان، أو أعمال الصليبيين، وإنما يجب أن نفهم كيف أثرت هذه الأحداث في وجدان الناس الذين عاشوا أثناءها، كما يجب أن نحاول فهم الكيفية التي صارت بها تلك الحوادث جزءاً متدمجاً

ومكماً لتجربة أهل العصور الوسطى ويجدر بنا، من ناحية أخرى، أن نتجنب القيام بمجرد حصر « الأفكار العظيمة » دون بحث العلاقة بين هذه الأفكار وبين سياق الموقف الاجتماعي الذي حدد كيفية ظهور هذه الأفكار، فإن تحديد فكر توماس الاكوينى Thomas Aquinas الدينى، دون بحث علاقته بالمجتمع والحضارة التى أفرزته، يعد عملاً محدوداً ضيق الأفق، تماماً مثل محاولة حصر حوادث عصر شارلمان دون محاولة الفهم الشامل لما قدمته الامبراطورية الكارولنجية من الآمال والتطلعات، ومدى ما أصاب المعاصرين من خيبة الآمال، وسيحاول هذا الكتاب أن يتجنب الوقوع فى فخاخ كل من الايجابية البلهاء، والحدائق الكاذبة (وتمثل الأولى اخفاقاً قديماً للغاية فى الكتابة عن الحضارة الوسيطة، بينما تمثل الأخرى اخفاقاً جديداً إلى حد ما، لاسيما فى أولئك الباحثين الذى يأخذون عبارات القانون الكنسى الوسيط باعتبارها حقائق الحياة الكنسية). والحقيقة أن هدف المؤرخ هو أن يصف « الطريقة التى حدث بها الأمر »، وهو نموذج سوف يبدو بسيطاً للشخص الساذج، بيد أنه صعب التحقق للغاية، هذا ما سوف نحاوله عن طريق تصوير المجريات الرئيسية لتطور حضارة العصور الوسطى، ماذا كانت هذه المجريات الرئيسية تعنى حقاً فى حياة وفكر الناس فى العصور الوسطى، وإن يكون عملنا مرضياً تماماً، ولكننا بالكتابة بتعاطف مع مشاكل أهل العصور الوسطى، وبالتصميم على توضيح إخفاقاتهم وانتصاراتهم، نأمل أن نقرب بقدر أكبر نحو صورة حقيقية للمجتمع الوسيط...

تقديم

مجال التاريخ الوسيط

١ - موجز تاريخي

من الممكن أن نحدد بالضبط اليوم الذي بدأت فيه بالفعل دراسة العصور الوسطى كفرع من فروع الأدب التاريخي، ففي خريف سنة ١٧٦٤ قام رجل إنجليزي دعى إدوارد جيبون Edward Gibbon كان صاحب ضيعة متوسط الثراء من أبناء الريف ومن خريجي أكسفورد^(١)، برحلة إلى إيطاليا بقصد السياحة ومشاهدة اثار العالم الكلاسيكي. وفي ترجمته الذاتية يخبرنا جيبون كيف جذبته التغيرات الواضحة التي طرأت على روما من أيام الأباطرة العظام لأن يقوم بكتابة تاريخ عن الطريقة التي حدث بها هذا التطور التاريخي العظيم : « كان ذلك في روما، في الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٧٦٤ بينما كنت جالساً أتسلى بين أطلال الكابيتول والرهبان الحفاة يرتلون صلوات المساء في معبد جوبيتر، حين خطرت ببالي للمرة الأولى فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة. »

يجب أن تبدأ جميع الكتابات والبحوث التاريخية بإحساس بالدهشة أولاً، ثم بسؤال واضح الصياغة. إذ أن المؤرخ بتمييزه عن مجرد هاوي الآثار القديمة يبدأ، لا من حب الاستطلاع العشوائي، وإنما من سؤال أصيل حول التغيرات التي طرأت على الحضارة، والدول، والشخصية الفردية. ومن هنا كان جيبون مؤرخاً أصيلاً، ذلك أنه جابه مشكلة حقيقية؛ إذ أراد أن يعرف مجرى وأسباب التغيرات العظمى التي أدت إلى بناء الأديرة الكاثوليكية على أطلال المعابد الرومانية الوثنية. ولكن ثمة عيوب كثيرة تشوب جيبون كمؤرخ. فقد كان منهجه في تحليل المصادر أدنى في مستواه كثيراً من منهج العلماء المتخصصين اليوم. وبسبب ترده العقيدي بين الكنيسة الإنجيلية والكنيسة الكاثوليكية

(١) الحقيقة أن إدوارد جيبون التحق بكلية مجدالن Magdalen بجامعة أكسفورد، وبقي بها أربعة عشر شهراً فقط رحل بعدها إلى سويسرا وفرنسا، وفي أبريل عام ١٧٦٤ سافر إلى إيطاليا. (المترجم)

والشك الذى كان ينتابه، وبسبب الموقف المعادى الذى اتخذته حركة التنوير فى القرن الثامن عشر حيال الديانات السماوية بشكل عام، لم يحمل أى تعاطف تجاه المعتقدات الدينية التى تنقسم بالعمق. كما كان يكن كراهية مرضية للنساء، ولاحظ أحد النقاد أن جييون كان على الدوام ووداء، متسامحاً، وشفوقاً إلا فيما يتعلق بالمواقف التى يستشهد فيها المسيحيون أو تغتصب فيها العذارى، ولكن على الرغم من أن « اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » يعتبر من عدة نواح كتاباً مضللاً مليئاً بالأخطاء فإن هذا الكتاب هو أول عمل عظيم فى مجال كتابة تاريخ العصور الوسطى.

اعتمد جييون فى بحثه كثيراً على الكتابات القديمة التى دونها بعض علماء الرهبان الفرنسيين والبلجيك فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وباستخدام المناهج النقدية التى تطورت فى بحث الدراسات الكلاسيكية فى النصف الأول من القرن السابع عشر، توصل أولئك الديريون إلى طريقة لاختبار أصالة وثائق العصور الوسطى، كما نجحوا فى وضع الأسس لتحقيق ونشر المؤلفات الوسيطة، وعلى أية حال، لم يكن إهتمامهم موجهاً للتاريخ، بل أنصب على سير القديسين وأعمالهم hagiography. إذ كان أولئك الديريون يحاولون نشر صورة دقيقة تمثل حياة القديسين. وقد أرسى منهجهم الحذق فى الدراسة أسس البحث العلمى فى التاريخ الوسيط، ولكن عملهم لم يكن فى ذاته مستلهماً من النماذج التاريخية الأصيلة.

كانت رؤية جييون للعصور الوسطى باعتبارها فترة اضمحلال مطرد لعظمة الامبراطورية الرومانية منذ القرن الثانى للميلاد - وهى الفترة التى أسماها « انتصار البربرية والدين » - مستوحاة من موقف الانسانيين الايطاليين فى أواخر القرن الخامس عشر، إذ كان لهؤلاء الانسانيين رد فعل تجاه حضارة أوربا الغربية فى الفترة السابقة على عصرهم مباشرة، يماثل رد فعل كثير من مثقفى أوربا الحديثة وأمريكا تجاه حضارة وأحداث القرن التاسع عشر. وكما نستخدم لفظ فيكتوري Victorian فى بعض الأحيان

كمصطلح يدل على أمر مشين، اخترع أيديولوجيو عصر النهضة اصطلاح العصر الوسيط medium aevum ليدل على العداء والاحتقار لثقافة أوروبا الغربية منذ عصر الامبراطورية الرومانية حتى عصرهم، ولما تبني كتاب القرن التاسع عشر والقرن الثامن عشر مصطلح « العصر الوسيط » بمفاهيم معاكسة أصبح هذا المصطلح مصطلحاً تاريخياً يقصد به الاساءة إلى الكنيسة، والفلسفة المدرسية، والأدب، والفن، على مدى فترة تزيد على ألف سنة من عمر الحضارة الغربية.

بيد أننا يجب أن نلاحظ أنه إذا كان اصطلاح العصر الوسيط قد استخدم في بداية الأمر، وعلى نطاق واسع، في المجادلات الموجهة ضد الكنيسة، فإن فكرة وجود عصر تاريخي وسيط كانت في حد ذاتها مفهوماً صاغه في البداية مفكرو الكنيسة أنفسهم في العصور الوسطى، فقد اعتقدوا في تصوراتهم الأخروية بوجود عصر وسيط بين الخلق ويوم الحساب. أما إطلاق اصطلاح العصر الوسيط على فترة تاريخية معينة، فقد جاء نتيجة لاضفاء معنى زمني على هذا المفهوم بفضل الانسانيين في عصر النهضة والعقلانيين في القرن الثامن عشر.

فقط بمجيء الحركة الرومانسية، في أواخر القرن الثامن عشر، صار اصطلاح « وسيط »، واصطلاح « قوطي » الفنى المواكب له، يعنيان أى شىء عدا البربرية والتدهور ومن سوء الحظ أن النظرة التي نظر بها الشعراء وكتاب المسرح الرومانسيون إلى العصور الوسطى، ربما كانت خيالية كنظرة الانسانيين في عصر النهضة وخلفائهم العقلانيين؛ فأوروبا لم تعد مأهولة بالبرابرة المتوحشين والرهبان المتعصبين، وإنما أصبح يسكنها فرسان من أهل الشهامة، ونساء نوات عفة وعاطفة خيالية. وتعتبر قصيدة كيتس Keats الشهيرة « ليلة الاحتفال بعيد القديسة أجنيس » The eve of St. Agnes مثلاً رائعاً للحماسة التي أولتها الحركة الرومانسية للعصور الوسطى.

كما أن النزعة القومية التي تميز بها القرن التاسع عشر ساهمت مساهمة فعالة في

تطور تدوين التاريخ الوسيط، ومن حسن الحظ أن مساهمة أصحاب النزعة القومية ساعدت على قيام الدراسة العلمية لأوروبا الغربية في الفترة من عام ٢٠٠ حتى عام ١٥٠٠. ووفقاً لما هو معلوم، فإن الهزيمة التي لحقت بالألمان على يد نابليون والجيش الفرنسية أيقظت الشعور القومي في ألمانيا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. ولأن القوميين الألمانين افتقدوا الوحدة والمجد في بلدانهم منذ العصور الوسطى، فإنهم ولوا وجوههم بإعجاب ووجدان متوهج شطر الأيام المجيدة للإمبراطورية الألمانية الوسيطة، ومن أجل دراسة الكتب التي تناولت ألمانيا في العصور الوسطى ونشرها أقامت الحكومة البروسية معهداً للبحث في التاريخ الألماني الوسيط. وكان من الممكن ألا يكون هذا المعهد شيئاً سوى بوق للدعاية القومية النزقة، ولكن من حسن الطالع تولى العمل فيه في منتصف القرن التاسع عشر نخبة من الباحثين الممتازين المتمرسين بمناهج الدراسة في العلوم الكلاسيكية. ومن حسن الحظ أيضاً أن دراسة الإمبراطورية الألمانية في العصور الوسطى استلزمت دراسة البابوية وإيطاليا أيضاً في تلك العصور. وهكذا كرس المعهد الألماني للتاريخ الوسيط نفسه لدراسة قطاع كبير للغاية في مجال الحضارة الوسيطة. وبالرغم من كل التغيرات التي مرت بها ألمانيا خلال السنوات المائة الأخيرة، لا يزال المعهد الألماني العظيم لتاريخ العصور الوسطى - والذي نقل منذ الحرب العالمية الثانية إلى مدينة ميونيخ - يواصل عمله من أجل نشر «مجموعة ألمانيا التاريخية Monumenta Germaniae Historica»، وبنهاية القرن التاسع عشر كانت الدراسة العملية للحضارة الوسيطة - متحررة من الأحكام المسبقة وتعصب الانسانيين في عصر النهضة، والشعراء والرومانسيين، وحتى من الدعاية القومية - تسير على قدم وساق في ألمانيا.

وخلال الشطر الأخير من القرن التاسع عشر شهدت فرنسا أيضاً قيام مدرسة لمؤرخي العصور الوسطى الذين قاموا أيضاً بأبحاثهم في معهد تموله الحكومة. وبالرغم من أن حجم مساهمة الفرنسيين في التاريخ الوسيط كان أقل بكثير من حجم مساهمة

الألمان إلا أن علماء العصور الوسطى الفرنسيين قدموا لنا أروع الآراء في مجال دراسة التاريخ الوسيط. وهناك العديد من أهم تفسيرات التاريخ الوسيط مما أنتجه قرائح الباحثين الفرنسيين والبلجيكي الذين يكتبون باللغة الفرنسية.

ومع بداية القرن العشرين دخلت بلاد أوروبية أخرى حلبة الاهتمام بتراث العصور الوسطى، وقد أولى الانجليز اهتماماً خاصاً لدراسة مؤسساتهم السياسية ونظمهم القانونية المميزة متتبعين أصولها في العصور الوسطى.

أما أول أستاذ أمريكي في التاريخ الوسيط فهو هنري أدامز Henry Adams الذي تولى منصب الأستاذ في هارفارد في السبعينيات من القرن التاسع عشر. لم يكن أدامز، شأنه في ذلك شأن جيبون، معداً لهذه المهمة سواء من حيث الدراسة أو استعداداته الشخصي وسعان ما انصرف عنها إلى مجالات أخرى. ولكنه، مثل جيبون، كانت عبقريته التاريخية عظيمة لدرجة جعلته قادراً على التغلب على عيوبه كباحث، ولاتزال لدراسته عن الأدب والفن الفرنسي في القرن الثاني عشر بعض القيمة حتى اليوم. وما أن أذنت شمس القرن التاسع عشر بالمغيب حتى بدأ الباحثون الأمريكيون يدرسون في أوروبا. وهناك اثنان من بين هؤلاء الرجال جلباً إلى هارفارد المنهج العلمي للعلماء الأوروبيين المتخصصين في العصور الوسطى هما : تشارلز جروس Charles Gross وتشارلز هاسكينز Charles Haskins ويعتبر هاسكينز بالذات صاحب الفضل في إنشاء مدرسة أمريكية للعصور الوسطى في الولايات المتحدة. فلم يقدم هاسكينز اسهامات هامة عديدة في التاريخ الوسيط فحسب وإنما قام أيضاً بتدريب جيل كامل من الباحثين في هارفارد بين سنة ١٩١٠ و١٩٢٠ على المنهج الأوربي الدقيق الصارم في البحث التاريخي. وفي الثلاثينات من هذا القرن انضم إلى مدرسة هاسكينز بعض الألمان المتخصصين في العصور الوسطى ممن يمتازون بالقدرة والكفاية، والذين اضطروا إلى ترك وطنهم بسبب الاضطهاد النازي. وقد يبدو من العجيب أن الولايات المتحدة تستطيع في الوقت الحاضر

أن تفتخر من مؤرخي العصور الوسطى لاتبرزها مجموعة أخرى في العالم، حتى في فرنسا أو ألمانيا. وسيكون من المثير أن نعلم ماذا كان يمكن أن يقوله جيرون في هذا التحول.

وليس من السهولة بمكان أن نقسم المؤرخين إلى فئات، بل ولا يجب أن يحدث هذا، لأن كل مؤرخ يستحق منا أن نقيمه على انفراد، شأن أي عمل فني. ودائماً ما يختلف باحث عن آخر ولو قليلاً في موقفه، ومنهجه وطريقة تعبيره. فتدوين التاريخ - كأي شكل من أشكال النقد الأدبي أو أية معالجة في تاريخ الفكر - دراسة لا يمكن أن تكون دقيقة تماماً. وبالرغم من هذا، فإننا نستطيع؛ مع مراعاة هذه المحاذير، أن نقسم المؤرخين إلى مجموعات حسب فروضهم ومناهجهم. إن أي فرع من فروع المعرفة النظرية يتحسن بالوعي الذاتي عند من يمارسونه، وذلك عن طريق تقييم المعايير التي تستخدم للوصول إلى استنتاجات تفسيرية، وهذا يصدق أيضاً على الاعتبارات المتعلقة بمواقف المؤرخين ومناهجهم، وهو مانسميه بتدوين التاريخ أو التأريخ. hisoriography وفي وسعنا أن نقوم بعرض المداخل المستخدمة لفهم الحضارة الوسيطة في أبحاث السنوات الأربعين الماضية، وأن نتحقق من خمسة مداخل عامة للتغير التاريخي في العصور الوسطى.

وأول هذه المداخل، وهو المدخل الذي يعتبر إلى حد كبير علامة على أبحاث المدرسة الألمانية، والذي يتمثل على خير وجه في مؤلفات « بيرسى أ. شرام Percy E. Schramm وجرّد تليباخ G. Tellenbach وكارل اردمان Karl Erdmann »، فينسحب على وجهة النظر الألمانية النموذجية في التاريخ الروحي Geistesgeschichte ويمكن أن نصده باصطلاح المدخل الجدلي الروحي dialectical - Spiritual approach. وقد دفع اليوس الذي حاق بألمانيا سياسياً واقتصادياً منذ الحرب العالمية الأولى بالمؤرخين الألمان إلى الأقتصار على نطاق الأفكار الذي كانت تبدو فيه الحقائق التعسة في تاريخ بلادهم منذ القرن الثالث عشر أقل إيلاماً، والذي يمكن فيه اكتشاف الحقيقة والجمال. هذا الموقف

حكم كتابة التاريخ الوسيط في ألمانيا بصورة أوقع، فرب تفكير في معالجة التغير التاريخي الوسيط بالمناقشات الطنانة حول طبيعة مجتمع مسيحي - بكل المعاني التي تتضمنها مثله الامبراطورية والصليبية وتفسيراته المتضاربة لمعنى الحرية - أفضل بكثير من الخوض في عيوب النظم الملكية ومثالب الملوك والنبلاء الألمان في العصور الوسطى. ولاشك أن تأثير الفكر الهيجلي، تدعمه جهود فيلهلم دلتى Wilhelm Dilthey يكمن أيضاً خلف هذا الاتجاه نحو الاهتمام المطلق بالتاريخ الروحي بين صفوف العلماء الذين تخصصوا في دراسة العصور الوسطى فيما بين الحربين العالميتين، كما أن المدرسة الألمانية ظلت تتميز بمدخل جدلي مفرق في الجدل : إذ أنها ساقطت مقارنات صريحة بين مختلف الحركات الفكرية في أوروبا في العصور الوسطى، وحاولت بكل تأكيد أن تبين الأثر العميق على التطور اللاحق لبعض العصور الحرجة حين جابهت هذه الأفكار المتعارضة جدلياً كل منها الأخرى. واستطاعت المدرسة الجدلية - الروحية - أن تنجز دراستها عن أفكار العصور الوسطى بالتحكم البالغ في أدوات البحث التي طورها المتخصصون في الدراسات الكلاسيكية. كما كانت الجهود التي بذلتها أقسام تاريخ العصور الوسطى في الجامعات الألمانية في دراسة النصوص وتفسيرها تفسيراً علمياً وافياً نموذجاً للتحليل الدقيق لوثائق تاريخ الفكر الوسيط، وكانت مثل هذه الجهود سبباً من أسباب رواج التاريخ الروحي لدى العلماء الألمان المتخصصين في دراسات العصور الوسطى ، كما كانت سبباً في استمراره ؛ ولكن حماسة أتباعه فترت قليلاً بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن.

ويعتبر أرنست كانتوروفيتز Ernest Kantorowicz واحداً من أشهر أعلام المدرسة الألمانية في التاريخ الوسيط، وقد أمضى الشطر الأعظم من حياته الأكاديمية في الولايات المتحدة بعد أن طرده النازيون. فقد كانت دراسات كانتوروفيتز عن الفكر السياسي الوسيط تكشف دائماً عن الطريقة التي نظر بها الناس في العصور الوسطى إلى الدولة الألمان يصفون التاريخ الذي لم يحدث، وهذا أمر صحيح إلى حد ما؛ إذ أن ناقدى المدرسة الجدلية الروحية الألمانية يشيرون إلى أن هذه المدرسة تعطي للأفكار

إهمية كبيرة فى دراستها، وأنها كثيراً ما توضح الفروق بين هذه الأفكار بينما كان هذا الموضوع الجدلى غائباً عن أذهان المعاصرين. ويمكن الرد على ذلك بالقول بأن فهم التغير التاريخى يشمل ما هو أهم من مجرد ترديد التناقضات العميقة التى تطرأ على سلوك الشخصيات المعاصرة، إذ يجد المؤرخ أن من الأسلم والضرورى أن يوضح الفروق وأن يبرزها، حتى لو لم يكن المعاصرون يرون النموذج الجدلى بهذا القدر من الوضوح.

وقد ظل التاريخ الثقافى يحظى بالاهتمام المنقطع النظير من قبل العلماء الألمان المتخصصين فى دراسات العصور الوسطى منذ سنة ١٩٤٥. غير أن كليفيتز H.K. Kle-vitz وهو بلانزاغ وريث شرام المتحدث باسم المدرسة الجدلية الروحية، قتل فى الحرب، وما نحن علماء الجيل الحالى البارزين من مؤرخى العصور الوسطى الألمان أمثال هيربرت جروندمان Grundmann وتيودور شيفر Theodor Schieffer أكثر اعتدالاً فى رأيهم، وأقل جدلية فى لهجتهم مما كان عليه أسلافهم العظام، بل وأكثر اهتماماً بالشخصيات التاريخية والتغير الاجتماعى.

ومن هذه الناحية فإنهم يقتربون من موقف أبرز مؤرخى العصور الوسطى الانجليز فى العقدين الماضيين والذين يمكن أن نلقبهم بأصحاب المدرسة الدينية الشخصية - Devo-tional - Personal School. وقد تزعم هذه المدرسة نولز M.D. Knowlze فى كمبردج، وسوثرن R.W. Southern فى أكسفورد وأحدثا ما يشبه الثورة فى الدراسات الوسيطة بانجلترا؛ ذلك أنه للمرة الأولى منذ تسعين عاماً نرى ألمع متخصصى العصور الوسطى الانجليز يهتمون بالتاريخ الدينى والثقافى أكثر من اهتمامهم بالتاريخ السياسى والقانونى.

فعلى مدى سبعين سنة ظل التاريخ الوسيط فى إنجلترا مرادفاً لتاريخ النظم السياسية، وكان السؤال الكبير الذى تعين على المجتمع المثقف أن يطرحه على مؤرخى إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر هو : كيف تأتى لنظامنا الوطنى المستنير فى الحكم

والقضاء أن يبرز إلى الوجود؟ واهتم عدد من أقدر المؤرخين أمثال وليم ستابس W. Stubbs وميتلاند W. Meitland وتوت T.F. Tout بالبحث عن أصول النظم السياسية الانجليزية في العصور الوسطى. غير أن اتجاهها جديداً في تدوين التاريخ الانجليزي الوسيط بدأ يظهر في أواخر الثلاثينات من هذا القرن في دراسات بويك F.M. Pow-icke فقط ترك اهتمام هذا الباحث بمظاهر التقوى في العصور الوسطى أثراً لا يستهان به على السيرة المسهبة التي كتبها عن الملك الانجليزي هنري الثالث Henry III الذي عاش في القرن الثالث عشر، ونشرت هذه السيرة في سنة ١٩٤٧. وهي تعتبر تحولاً جذرياً عن تاريخ النظم السياسية. إذ يحاول هذا الكتاب تقييم هنري الثالث ومعاصريه باعتبارهم بشراً حقيقيين لا مجرد ملك، وموظفين وبارونات، ويصور زعماء المجتمع الوسيط على أنهم قادة تجمعهم مثل عليا مسيحية واحدة، وعلى أية حال، فإن المدرسة الدينية الشخصية تمثلت على أفضل وجه في التاريخ الذي كتبه نولز عن الجماعات الدينية الانجليزية في أربعة مجلدات والذي نشر منه المجلد الأول سنة ١٩٤٠. ويعد هذا الكتاب واحداً من أعظم الأعمال التاريخية التي أنتجتها القرائح الانجليزية منذ ماكولي Macaulay^(٢). إلا أن أهميته لا تكمن في غرضه المعلن، وهو إيراد تفاصيل تاريخ الديرية، بقدر ما تكمن في قدرة الكاتب الفائقة على تحديد مواقف وأخلاقيات الزعماء الدينيين في العصور الوسطى. إذ استطاع نولز أن يحقق المقياس النقدي الذي وضعه كولينجود Collingwood^(٣)

(٢) هو "توماس بابنجتون ماكولي Thomas Babington Macaulay" (١٨٠٠ - ١٨٥٩) كان من رايه أن الحقائق ليست سوى نفاية التاريخ، ولذا فإن أهم ما يوجه إليه من نقد أنه لا يلتزم بالحقيقة في معالجة الماضي؛ ومع ذلك حقق كتابه "تاريخ إنجلترا History of England" الذي أصدره في أربعة مجلدات (ولم يكمل الخامس بسبب وفاته) نجاحاً لا يبارى. (المترجم)

(٣) " روبين جورج كولينجود Robin George Collingwood " الذي إهتم بالتقريب بين الفلسفة والتاريخ، وله كتابان في هذا الموضوع أولهما : فكرة التاريخ The idea of history (١٩٥٤)، وهو مترجم إلى العربية في أسلوب رصين ممتع، وهو من ترجمة الأستاذ محمد بكير خليل (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨)، والثاني هو فلسفة التاريخ - Phi-losophy of history الذي يعتبر عادة أقل من الأول في مستواه (المترجم)

فيلسوف ومؤرخ أوكسفورد الذى كان لكتابه « فكرة التاريخ Idea of history » تأثير قليل نسبياً فى انجلترا- فقد كان من رأى كولينجود أن التاريخ يجب النظر إليه من داخله، كما يجب على المؤرخ أن يكون قادراً على استرجاع المثل العليا والمواقف التى ارتبطت بشخصيات العصور الماضية.

أما النموذج الآخر للمدرسة الدينية الشخصية الانجليزية فهو سوثرن الذى خلف أستاذه بوريك كرانر لمؤرخى العصور الوسطى فى أكسفورد.

ويقدم لنا كتاب سوثرن المسمى « تكوين العصور الوسطى » The making of the Middle Ages أهم مناحى التغير الثقافى والدينى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على نحو لم يفعله أى كتاب أخرى بأية لغة. إذ أن الكاتب أضفى على تجربة أهل العصور الوسطى صفة ذاتية حتى أننا نراه يتحدث باقتدار عن رجال الكنيسة فى القرن الثانى عشر كما لو كانوا معاصرين له وأصدقاء. وفى كتاب سوثرن أمست قيارات التقوى العاطفية العميقة التى نقلت إلينا قيم العصور الوسطى حقيقة ملموسة ومقبولة لدى القارئ العصري للمرة الأولى.

وبالنظر إلى جهود بويك، ونولز، سوثرن بصفة عامة يمكن أن نقول إن هؤلاء الباحثين لا يوضحون الفروق الجدلية بقدر ما يرسمون صورة لحضارة تتجمع فيها الظلال المختلفة للأفكار والمشاعر لتكون سوياً ملامح التدين الشامل للأمم المسيحية، ويتمثل هذا الشمول فى تقوى زعماء العصور الوسطى ومثلهم العليا، وتتبدى النتيجة بين يدي مؤرخ قدير مثل سوثرن، فى الصورة البالغة الجاذبية لحضارة تؤكد لها الوحدة الدينية ويتمثل النقد الواضح لأعمال هذه المدرسة فى أن نتاجها يقلل من أهمية الوزن المادى لحياة العصور الوسطى، كما أنها تضيف على عالم الفكر الوسيط وداعة متفائلة مفرطة بحيث تغفل المنازعات العنيفة التى شهدتها العصور، والتى كانت فى

الحقيقة من طبيعة المجتمع المسيحى.

ولم تبدأ الدراسة الأكاديمية لتاريخ العصور فى الولايات المتحدة إلا قبل الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة، وكان من الضرورى أن تتأثر هذه الدراسة تأثراً عميقاً بالاتجاهات المشايعة للمدرسة الانجليزية التى كانت سائدة آنذاك فى أوساط المثقفين وصفوة المجتمع، فقد بدأت المدرسة الأمريكية فى تكوين التاريخ الوسيط كامتداد للمدرسة الانجليزية بدراسة النظم، وذلك بالأعمال التى كتبها تشارلز جروس، وهاسكينز، وماكلوين GH. Ilwoin وإلى حد ما يمكن القول بأن المدرسة الأمريكية فى تكوين التاريخ الوسيط لم تستطع أن تخلص نفسها أبداً من هذا المنطق، أما التاريخ الثقافى وتاريخ العصور الوسطى الباكرة فيتولى الأساتذة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة تدريسهما على نطاق واسع فى الجامعات الأمريكية، وكان أول ما جذب إهتمام العلماء الأمريكيين دراسة النظم السياسية والقانونية فى أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

وتقف مساهمة المدرسة الأمريكية المهتمة بالنظم فى معلوماتنا عن التغيرات التاريخية فى العصور الوسطى على قدم المساواة، من حيث قيمتها، مع مساهمة أية مجموعة أخرى من الباحثين المتخصصين فى العصور الوسطى، إذ أن هؤلاء العلماء لم يتناولوا التاريخ الوسيط بأية اتجاهات مسبقة، بل بقصد الكشف عن الكيفية التى ساهم بها التغير التاريخى فى العصور الوسطى فى خلق بدايات الدولة الحديثة، بيد أن البحث فى أصول الدولة الحديثة يظل مشوباً بالعديد من أوجه القصور إذا ما اعتمدنا فيه على مقياس نسبى نقيم به التغيرات التاريخية التى شهدتها العصور الوسطى، وتتميز أعمال هاسكينز وتلاميذه بمزيج غريب ومحير من الذكاء المتوقد، والاطلاع الواسع، والنقص الخطير فى معالجة الكثير من القضايا التى شغلت رجال العصور الوسطى أنفسهم إلى حد كبير، وقد شاب أعمال هذه المدرسة الأمريكية نوع من اللامبالاة المستترة تجاه الصراعات المضنية فى المجتمع الوسيط...

وتمثل الحتمية الاقتصادية والتكنولوجية المدخل الرابع لمشكلة التغير التاريخي في العصور الوسطى في الأعمال التاريخية التي صدرت في السنوات الأربعين الماضية، إذ أن التغيرات الاقتصادية والتصنيع المطرد للدول النامية جعل كثيراً من مؤرخي العصور الوسطى - ومن أبرزهم هنري بيرين Henri Pirenne روبرت لوبيز Robert S. Lopez وميخائيل بوستان Michael Postan ولين هويت Lynn White - يدركون التغيرات الجذرية المتشابهة على الصعيد المادي في أوروبا العصور الوسطى. وكما أصبح الحال بشكل عام في مجال تدوين التاريخ الأوربي والأمريكي في العقود الأخيرة، ساهم مؤرخو اقتصاديات العصور الوسطى مساهمة أكبر من مساهمة أي كتاب آخرين في نواحي الحضارة الوسيطة. إذ أن نمط التغير في بواثر العمل، وطرق التجارة، وحياة المدن، فضلاً عن ديموجرافية وتكنولوجيا العصر الوسيط، تجرى دراستها الآن على نطاق واسع، بيد أن السؤال مازال مطروحاً؛ فما أهمية التطور الاقتصادي في حضارة لم يكن فيها ملاك الأراضي وعلماء الكليروس على وعى تام بهذه التغيرات؟ وكيف يكون التغير الاقتصادي هاماً في مجتمع لا يتمتع بعقلية اقتصادية؟، إن العلاقة بين التغير الاقتصادي وسائر وجوه الحضارة الوسيطة لا يتمتع بعقلية اقتصادية؟ إن العلاقة بين التغير الاقتصادي وسائر وجوه الحضارة الوسيطة لا تزال في حاجة إلى البحث والنظر، فالتغير الاقتصادي، على الأقل فيما يتعلق بالحضارة الوسيطة، يجب أن يبقى في الخلفية، لأنه قدم إطاراً محدداً استطاع رجال العصور الوسطى من خلاله أن يحسموا إختياراتهم في مجالات الدين، والحكم، والفن، والأدب... وما إلى ذلك؛ بيد أن التطور الاقتصادي في حد ذاته لم يحسم شيئاً في هذا الخصوص.

ويعد مارك بلوك Marc Bloch أهم باحث بين العديد من العلماء البارزين الذين بحثوا في التطور الاقتصادي في العصور الوسطى، لا بسبب مساهماته في التاريخ الزراعي فحسب؛ وإنما بسبب المناهج والمفاهيم التاريخية التي أرسى دعائمها، وبسبب

تأثيره على جيل جديد متمكن من مؤرخى العصور الوسطى الفرنسيين، كان مارك بلوك أستاذاً فى جامعة باريس وقتله النازيون فى سنة ١٩٤٤ بينما كان يقاتل فى صفوف المقاومة الفرنسية، وتتميز أعماله بالإيمان بأن النظم لاكتسب أهميتها التاريخية سوى عند دراستها فى ضوء وظائفها الاجتماعية . وهى رؤية داخلية طبقها بالفعل منذ أواخر القرن التاسع عشر الباحث الانجليزى ميتلاند فى تحليله للقانون الانجليزى فى العصور الوسطى.

وعلى الرغم من أن بلوك كان يجنح أحياناً نحو الحتمية الاقتصادية؛ إلا أنه كان يتمتع برؤية متكاملة شاملة للتاريخ الذى يفرض استخدام كل أنماط البحث التاريخى مجتمعة من أجل فهم نموذج مجتمع بأسره. وفى محاولته إيجاد رؤية شاملة « لمجتمع إقطاعى » وربطه بدراسة مقارنة فى النظم والمؤسسات، وفى اقتناعه بأن المجتمع شئ أكثر من مجرد تجميع شذرات هنا وهناك، كان بلوك يتبع التقاليد التى أرسها اميل دروكهايم Emil Durkheim وعلماء الاجتماع الفرنسيون، ويمكن بشئ من التساهل أن نشير إلى بلوك وتلاميذه على أنهم يمثلون مدرسة اجتماعية فى التاريخ الوسيط، وثمة اقتراحات كثيرة فى كتابات بلوك تحمل قيمة كبيرة فى معالجة وبحث التغير التاريخى فى العصور الوسطى، منها أن الدليل الوثائقى لا يوضح لنا سوى خط سير المجتمع الوسيط، وأن على المؤرخين أن يستخدموا التخيل العقلى لاسترجاع الحضارة التى مازال خط سيرها باقياً، وأن تفانى المؤرخ الذى يهتم بالنظم فى سبيل البحث عن الأصول يعتبر مهمة خطيرة وغير مجدية لأنها تخضع العقل لفكرة واحدة فحسب، وأن أفضل وحدة زمنية فى تقسيم التاريخ التى تجمع رجالاً يميزهم طابع عام؛ أى ينتمون إلى جيل واحد.

ومنذ سنة ١٩٤٥ كانت أكثر مدارس التاريخ خصوصية هى تلك التى تكونت من زملاء بلوك وتلاميذه الفرنسيين روبرت بوتريش Robert Boutruche وروبير لاتوش Robert Latouche وجورج دوبي George Duby وفيليب ولف Philippe Wolff الذين كرسوا

أنفسهم للدراسات الاقليمية المتعمقة، بالاضافة إلى بعض الدراسات المقارنة الشاملة مقتفين بذلك أثر بلوك ، ولم يحن الوقت بعد لتقييم التأثير الطويل المدى لهذه المدرسة على فهمنا للتغير التاريخى فى العصور الوسطى ، بيد أن هناك بعض التعليقات العامة التى يمكن الخروج بها من النظر إلى كتب أصحاب هذه المدرسة؛ ففى المحل الأول يبدو تلاميذ بلوك وأتباعه أكثر اهتماماً بالتاريخ الاجتماعى منهم بتاريخ المجتمع. وهناك اتجاه للابتعاد عن التاريخ الكلى الشامل الذى كان بلوك يعمل فى سبيل الوصول إليه، وذلك من أجل اجتهاد أكثر تحديداً، وأكثر قيمة فى الوقت نفسه، ألا وهو دراسة البناء الطبقي، ولم يخرج من فرنسا فى الأربعينات والخمسينيات من هذا القرن أى كتاب هام عن الملكية الفرنسية فى العصور الوسطى، والباحث اللامع الوحيد فى هذا المجال هو روبير فوتيه Roobert Fawtier الذى ينتمى إلى جيل أكبر، وبات من الواضح أن تلاميذ بلوك وأتباعه هجروا تاريخ التعليم والفلسفة فى فرنسا القرنين الثانى عشر والثالث عشر، تاركين إياه بأيدي الباحثين الكنسيين، وتكشف الدراسات الفرنسية المعارضة عن ميل نحو جمع المعلومات من أجل المعلومات، كما تكشف عن كراهية للتأمل العام المستمد من النظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية. وثمة خاصية مزعجة أخرى تنسب بها المدرسة الفرنسية تتمثل فى تأكيد وإبراز الاتجاه الذى ظهر بالفعل فى كتابات بلوك، إذ لصق بهذه المدرسة العيب الذى شاب علماء الاجتماع والمتمثل فى قلة اهتمامهم بالأفراد، وميلهم التلقائى لرؤية الأفراد باعتبارهم مجرد جزء من مجموعة، الأمر الذى يؤدي إلى إهمال الشخصية الانسانية الحقة.

وقد يستنتج الدارس المبتدئ أثناء المقارنة بين أعمال هذه المدارس الخمس، أنه كانت توجد خمس حضارات فى العصور الوسطى، ويسقط فى هوة النسبية اليائسة؛ ولكن الحيرة هى بداية الطريق إلى الحكمة، فمن خلال هذا التنوع فى المداخل التى تتناول التاريخ الوسيط، قد يكون بوسعنا أن نخرج بتوفيق أكثر عمقاً ووجاهة وحذقاً عما كان

يمكن تخيله منذ نصف قرن مضى.

ويبدو الاتجاه نحو إيجاد توفيق بين المدارس التقليدية فى التفسيرات الحديثة لعالم العصور الوسطى واضحاً فى الدراسات الحديثة، إذ تتميز أعمال روبير لوبيز Robert Lopez التى قدمها حديثاً باهتمامها بالنموذج العام للتغير الاجتماعى، كما تتمتع بخاصية التخيل والحساسية التى كانت تميز أهم دراسات بلوك، أما الباحثان النمساويان هاينريش فيختناو Heinrich Fichtenau وفريدريش هير Friedrich Heer فإنهما يربطان التاريخ الثقافى بالمشاكل السياسية والاجتماعية. أما عالم كمبريدج بولجار R.R. Bolgar فقد مزج فى دراسته عن التراث الكلاسيكى فى العصور الوسطى بين مدخل نولز وسوثرن وبين اتجاه المدرسة الجدلية الألمانية فى التاريخ الثقافى، واهتمام المدرسة الفرنسية بالحقائق الاجتماعية، وعلى أية حال، فقد ظهر فى فرنسا وبلجيكا جماعة من شباب المؤرخين أخذوا فى إعادة تقييم النظم السياسية والقانونية فى العصور الوسطى، ولا يحدد هذا التطور انعطافاً فى اتجاه الدراسات الفرنسية والبلجيكية نحو الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فحسب، بل إنه قد ربط كذلك بين النظم السياسية والقانونية، وحقائق الحياة الاجتماعية والحضارية وذلك فى أعمال فان كينيجم R.C. Van Caenegem وبونت Doohndt وفى أواخر الستينات من هذا القرن كان هناك اتفاق جديد فى رأى حول النموذج المعقد للتغير الذى شهدته العصور الوسطى قد بدأ يتألق فى الأفق.

٢ - فترات التاريخ الوسيط

أظهر العمل المكثف فى ميدان البحث التاريخى على مدى أكثر من قرن من الزمان بما لا يدع مجالاً للشك أن رؤية الانسانيين Humanists للفترة ما بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر كفترة لا تتميز سوى بالبربرية المتخلفة المجذبة رؤية خاطئة ولا يقبلها

العقل، إذ أن هذه الفترة الممتدة في التاريخ الأوربي، والتي تزيد في مداها مرتين عن الفترة الواقعة ما بين عصر النهضة وعصرنا الحالي، كانت في حقيقة الأمر فترة تغير سريع؛ بل فترة تغير ثوري في بعض الأحيان. ولاتتسم فترة العصور الوسطى كلها بالوحدة، إذ يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات متميزة على الأقل. ولذا فإن مؤرخي اليوم لا يتحدثون عن العصر الوسيط، ولكنهم يتحدثون عن «العصور الوسطى»، وبينما يتحدثون عن «الحضارة الوسيطة»، فإنهم يجنحون إلى تقسيم تطور الحضارة الوسيطة إلى ثلاث فترات متميزة، وقد غدا هذا التقسيم مقبولاً اليوم في شتى أنحاء العالم، كما صار تقليدياً لدى المؤرخين.

أولى هذه الفترات عصر طويل جداً يبدأ من اضمحلال الامبراطورية الرومانية، ونقل حوالى عام ٢٠٠ حتى منتصف القرن الحادى عشر، وهو العصر الذى بدأت فيه ملامح حضارة غربية متميزة تظهر في خلفية الصورة. ويستطيع المرء أن يدرك هذه الملامح في تصادم الأفكار والنظم المسيحية واليونانية - الرومانية، والجرمانية. ولنأخذ بالصيغة المفضلة فنقول أن العصور الوسطى الباكرة هي مرحلة الطفولة والشباب، أو ربيع العمر بالنسبة للحضارة الغربية. وهي فترة تنقسم بقدر كبير من الفوضى والاضطراب، حيث ابتليت أوروبا الغربية بالتمزق الداخلى والغزو الخارجى المستمر على أيدي الشعوب المتحالفة التي كانت في الغالب أقل شأناً في مستواها الحضارى، ويرجع الفضل إلى حد كبير لزعامة الكنيسة في تضال هذه الحضارة في سبيل تطوير مثلها العليا، ثم ما تحتم عليها من مواجهة المهمة الأصعب المنوطة بها؛ وهي تطوير النظم والمؤسسات التي كان لها أن تجسد وتنشط هذه المثل العليا في الحياة اليومية.

وبغروب شمس القرن الحادى عشر كانت معظم هذه الأفكار قد تحققت، وتمثلت نتيجة ذلك في انتعاش أوروبا وازدهارها الملحوظين في مجالات الفن والأدب والفلسفة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر اللذين يمثلان سوياً ما يسميه المؤرخون اليوم العصور

الوسطى العالية high middle ages وقد أثبت البحث المتزايد المطرد أن هذه الفترة المثمرة الناضجة المستقرة كانت قصيرة للغاية . ومن المؤكد أنه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ظهر الصراع بين المثل القديمة والممارسات الجديدة، وهو ما يعتبر مؤشراً على تدهور أية حضارة.

وتمثلت نتيجة الفجوة التي تفصل بين المثل العليا والواقع في القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللذين يسميهما المؤرخون العصور الوسطى المتأخرة later middle ages وهي فترة أشبه ما تكون بسن الشيخوخة أو خريف وشتاء الحضارة الوسيط، ففي هذه الفترة تمزقت أوروبا بالقوى، والاتحلال الاقتصادي والسياسي، حتى بدأت مثل العصر الحديث ونظمه تظهر في نهاية القرن الخامس عشر على أساس الدولة الحاكمة ، والقومية، والفردية، ومن ثم فإن دراسة التاريخ الوسيط تقدم لنا حالة ممتازة نتتبع فيها نهوض حضارة من الحضارات ونرقب ازدهارها وأفولها، وفيما يتعلق بأوروبا العصور الوسطى فإن الوثائق اللازمة لدراسة تاريخها أكثر منها في تاريخ أية حضارة أخرى أتمت تطورها، واتضح نموذجها من حيث النمو والنضج ثم التدهور والاضمحلال أمام ناظري من يدرسون المجتمع والحضارة.

ومع عدم اغفال قيمة مثل هذا التقسيم التقليدي لفترة العصور الوسطى، وفعاليتها العامة، فإن هذا الكتاب سوف يستخدم تقسيماً إضافياً أكثر جدوى ودقة من التقسيم التقليدي، إذ أننا نبدأ بمناقشة اضمحلال حضارة البحر المتوسط، وبزوغ الكنيسة المسيحية حتى القرن الرابع. وهذه هي فترة الأسس اللاتينية والمسيحية لحضارة العصور الوسطى (الجزء الأول). ثم مناقشة ظهور مجتمع جديد متميز في العصور الوسطى في الفترة من سنة ٤٠٠ حتى سنة ٧٢٥ . وينبغي هنا أن نركز اهتمامنا على الأسس الجرمانية للحضارة الأوروبية وتأثير التوسع الاسلامي (الجزء الثاني) يلي ذلك من سنة ٧٢٥ حتى سنة ٩٠٠ عصر واعد بالكثير وإن لم يتحقق كل شيء. وهذا هو العصر الذي

تحقق فيه أول توفيق بين المنابع اللاتينية والمسيحية والجرمانية ، ذلك التوفيق الذى خلق أوربا الأولى. ومن الواجب أن نفحص مميزات أوربا الأولى هذه بالمقارنة مع حضارتين منافستين ومعاصرتين هما حضارة بيزنطة وحضارة الاسلام (الجزء الثالث) وفى فترة التوازن والتقدم الناحجة بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ أمكن تلاشى أخطاء أوربا الأولى . وفى خلال هذا العصر بدأت نظم أوربية كثيرة فى الظهور (الجزء الرابع) وعلى كل حال، فقد إنهار التوازن الذى شهدته العصور الوسطى خلال الفترة من سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١١٣٠ نتيجة لازمة للوعى بين الكثيرين من زعماء الكنيسة، ويجدر بنا أن نفهم الصراعات الكبرى فى ذلك العصر الذى تميز بالاصلاح الجريجورى باعتباره نقطة تحول أساسية فى التاريخ الوسيط (الجزء الخامس)، بيد أن المشتركين فى تلك الصراعات سرعان ما أفسحوا الطريق أمام جيل جديد، وتميزت الفترة من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١٢٠٠ بالنمو العظيم فى جميع نواحي الحياة ولاسيما فى الشؤون الدينية، والدراسات الانسانية، والسلطة الزمنية، وينبغى أن نفحص بالتفصيل ما تحقق من إنجازات وأن ندرس الرجال الذين كانوا يقودون هذه التطورات (الجزء السادس)، ولكن ما أن أهل عام ١٢٠٠ حتى كانت نتائج النمو الذى شهده القرن الثانى عشر قد باتت واضحة، وحينذاك بدأت محاولات يائسة من قبل قادة الفكر والسياسة الأوربيين لوضع الاتجاهات والميول المتعارضة المتنافرة فى صيغة متوازنة جديدة، وكانت الفترة من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٢٧٠ فترة تلخيص النتائج وتنظيم الأمور أكثر منها فترة خلق وابتكار (الجزء السابع)، إلا أن هذه الجهود الجبارة أخفقت فى تجنب الصراع الذى تمثلت نتائجه فى المواجهات العنيفة المدمرة فى الفترة ما بين سنة ١٢٧٠ وسنة ١٣٢٥، وحينئذ إنقطع إتصال الأزمنة، وإتضح عمليا الاضمحلال والفشل (الجزء الثامن)، أما الفترة الختامية فى التاريخ الوسيط فتهم بالعصر الذى يمتد من سنة ١٣٢٥ حتى سنة ١٥٠٠، وهى فترة تميزت بالحروب، والأوبئة، والتدهور الاقتصادى، فضلاً عن الخصومات الدينية والفكرية المريرة، وبعض ملامح العصر الحديث (الجزء التاسع) .

وفى هذا التقسيم الجديد للتاريخ الوسيط نجد أن الأجزاء الأربعة الأولى تختص بالعصور الوسطى الباكرة، والأجزاء الأربعة التالية تختص بالعصور الوسطى العالية والجزء التاسع والأخير يختص الفترة الوسيطة المتأخرة.

٣ - موضوعات التاريخ الوسيط الباكر

إذا ما تحولنا الآن صوب العصور الوسطى الباكرة، فإنه سيكون من المفيد أن نؤكد ثلاثة موضوعات سيتم التركيز عليها فى الأجزاء من ١ - ٤ من هذا الكتاب.

وقد تم اقتراح الموضوع الأول بالفعل، إذ كانت فترة العصور الوسطى الباكرة فترة ظهور حضارة غربية متميزة، وتشكلت المثل العليا التى ميزت الحضارة الأوربية الغربية من خلال ميراث العالم القديم فى ظل الظروف الجديدة، وسوف نرى الناس فى العصور الوسطى يناضلون فى سبيل صياغة هذه المثل العليا منذ القرن الثامن، وستتولى الكنيسة زمام هذا العمل لأنها كانت المؤسسة الوحيدة التى تتمتع بالقدر الكافى من القوة بحيث تستطيع القيام بدور القيادة المطلوبة، وبحلول عام ٨٠٠، أثناء حكم شارلمان، تمت صياغة الشطر الأكبر من هذه المثل العليا، التى بدأت تؤثر فى كل مناحى الحياة السياسية والاجتماعية. وعلى أية حال، فإن القرن الحادى عشر لم يكد ينتهى حتى كان لدى أهل العصور الوسطى الوسائل الكافية لوضع مثلهم العليا موضع الممارسة بشكل ثابت وعلى نطاق عالمى فى إطار معقول.

أما الموضوع الثانى الذى نقصد بحثه فهو تأثير الكنيسة المسيحية والملكية الجرمانية المتبادل على كل منهما، وهو مايقودنا إلى بحث المشكلات الناجمة عن علاقات الدولة والكنيسة، تلك المشكلات التى لايزال بعضها قائماً حتى اليوم، ومن ثم يجب علينا فحص عقائد وسلطة كل من الكنيسة والملكية والكيفية التى تؤثر بها كل منهما فى الأخرى.

وفى نهاية المطاف، سنولى اهتمامنا لا لأوربا الغربية فقط، ولكن أيضاً لعالم البحر المتوسط بأسره، وسنتظر إلى الحضارتين اللتين فرضتا وجودهما بجانب الحضارة الأوربية، ونعنى بهما الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية، باعتبارهما خليفتين للامبراطورية الرومانية فى حوض البحر المتوسط وستقتفى أثر النضال الذي خاضته الحضارة الأوربية ضد هاتين الحضارتين من أجل البقاء أولاً، ثم من أجل السيادة والتفوق.

من أين تبدأ دراستنا لقصة حياة وموت حضارة العصور الوسطى؟ لقد تركت الدراسات الحديثة كل من البداية والنهاية مسألة تقديرية غير محددة، ولكى نفهم حضارة العصور الوسطى، وكيف أصبحت على ما هى عليه، ينبغى أن نحدد أصولها فى فترة تدهور العالم القديم بشكل واضح، ومن ثم فإن البداية الصحيحة للعصور الوسطى تبدأ بالامبراطورية الرومانية وضمحلها بعد مرحلة ازدهارها التى شهدها القرن الثانى بعد الميلاد.

الجزء الأول

المصير الرومانى

من القرن الثانى حتى القرن الخامس

إن المصير الامبراطورى يسير باتجاه صعب ولم يعد لدى الحظ من هبة
يقدمها لنا سوى فرقة أعدائنا تاكيتوس

إن العالم الرومانى يسقط، ومع ذلك فإننا نرفع رؤوسنا بدلاً من أن
نحننها. سان جيروم

الفصل الأول

الاضمحلال والسقوط

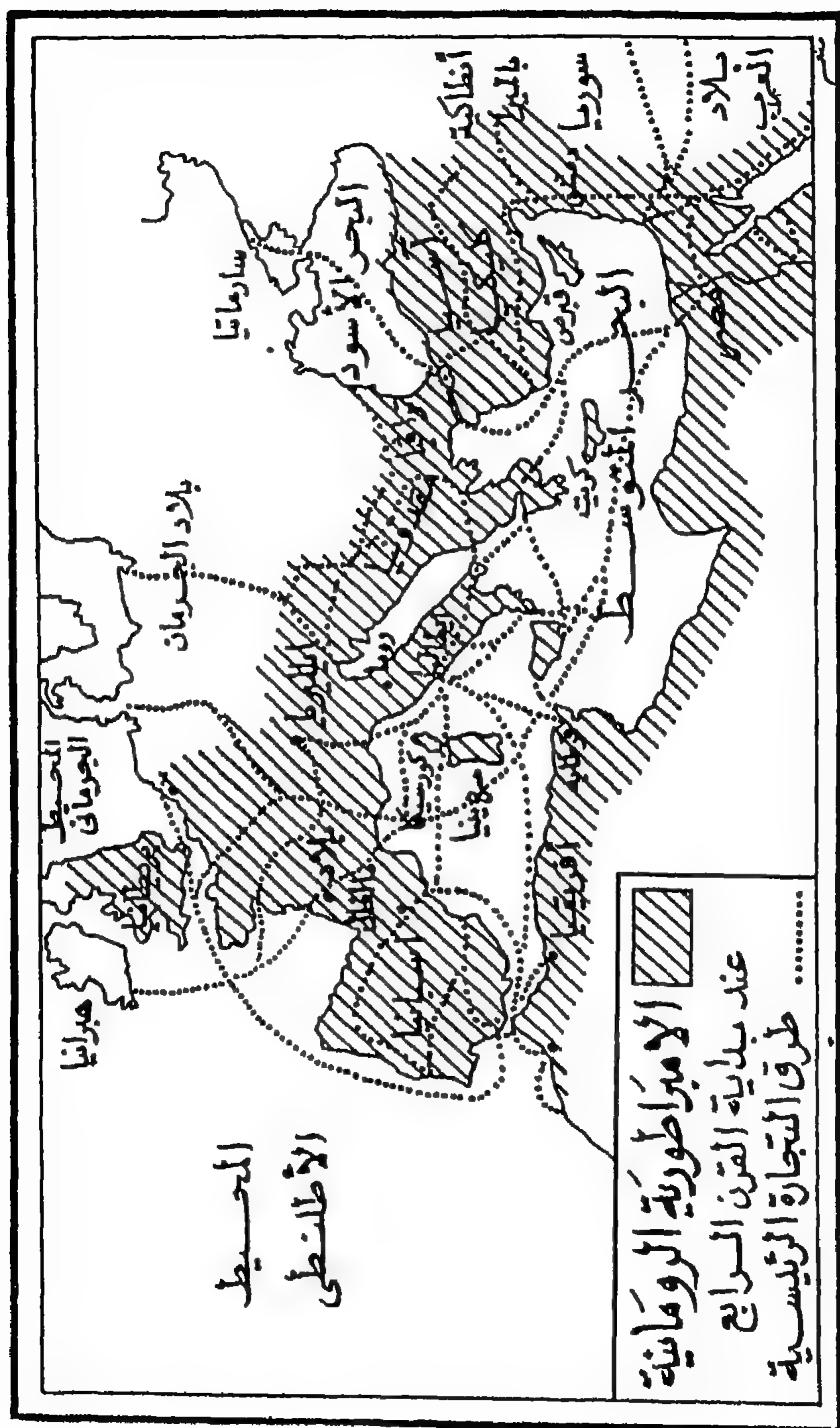
١ - الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد

كان انوارد جييون يعتقد أن الناس عاشوا أسعد أيامهم تحت حكم الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد، وفى وسعنا أن نقوم بمناقشة معقولة للرأى القاتل بأن ذلك العصر كان هو العصر الذهبى للانسان. إذ أن الرومان لم يكونوا على قدر عظيم من الابداع؛ وإنما كانت براعتهم تنحصر فى أنهم تبنا أفضل أفكار عالم البحر المتوسط ونظمه ثم مزجوها فى نظام عضوى مترابط؛ فعن حكام عالم البحر المتوسط السابقين أخذ الرومان الأفكار والنظم ثم صاغوها فى حضارة عالمية جديدة. وساهم المصريون، والأفريق، والامبراطوريات الهلينستية، والفرس، جميعا مساهمة فعالة فى الحضارة الرومانية التى شهدها القرن الثانى. ولاحظ الشاعر فرجيل Vergilius صاحب الاينياة، التى كانت تعبيرا واعيا عن أيديولوجية الحكم الامبراطورى، أن « بناء الدولة الرومانية كان عملا عظيما ». والواقع أن الرومان القدماء كانوا هم وحدهم بين كل شعوب البحر المتوسط الذين يتمتعون بصفات التضحية بالنفس، وجنون العظمة، وانعدام الرحمة، والقسوة بالقدر الذى جعلهم يخلقون إمبراطورية عالمية.

فى مطلع القرن الثانى كان الامبراطور الرومانى يحكم دولة عالمية عظمى تمتد من الفرات حتى استكتلنده، ومن الدانوب حتى الصحراء. وفى هذه المنطقة عاشت مجموعات جنسية ولغوية وحضارية تتباين فيما بينها تباينا كبيرا، ولكن اللغة اليونانية الهلينستية كانت هى اللغة السائدة فى النصف الشرقى من الامبراطورية، بينما كانت اللغة اللاتينية سائدة فى الغرب. وعلى قمة هذا الصرح الضخم تربع الامبراطور الذى كان فى القرن الثانى حاكما مستبدا تحيط به مظاهر تخلع عليه صفات مقدسة. وارتكزت حكومته على

بيروقراطية نشيطة متواضعة في حجمها وجيش كبير. وكان الأباطرة بشكل عام رجالاً نوى كفاءة خلقوا السلام الروماني Pax Romana؛ وهو عبارة عن وحدة اقتصادية وسياسية شاسعة الأبعاد مركزها البحر المتوسط الذي قامت في بلدانه مدن عظمى، وكان الجزء الغربي من الامبراطورية، باستثناء إيطاليا، أقل سكاناً وتحضرًا من النصف الشرقي. ولكي نفهم حوادث السنوات الألف التالية، فإنه يجدر بنا أن نخلص أنفسنا من المفاهيم المسبقة عن تاريخ أوروبا، وهي المفاهيم التي كانت نتاجاً لتطورات العصور الوسطى أما شمال فرنسا وإنجلترا، اللتان قدمتا الكثير من القيادات في مرحلة متأخرة من مراحل الحضارة الغربية، فقد كانتا مجرد مركزى استطلاع خلفيين للعالم الروماني.

وحتى وقت متأخر من القرن الثاني كان الامبراطور يسيطر على الحكومة والقانون؛ ولكنه لم يكن يتدخل في الحياة الاقتصادية والدينية والثقافية سوى بقدر محدود، وأدى هذا التحرر من السيطرة الامبراطورية إلى ازدهار وممارسة كل أنواع التعبير الفكري، وعلى أي حال، يجب الاعتراف بأن الامبراطور كان يفتقر إلى الأداة البيروقراطية الكبيرة التي تمكنه من السيطرة على مقاليد الحياة الاقتصادية والثقافية. ولكن على الجانب الإيجابي كان ازدهار الامبراطورية يتوقف إلى حد ما على انتشار المثل العليا للصالح العالم بين أفراد الطبقة الحاكمة في الامبراطورية. وقد أعلن فرجيل أن واجب الامبراطورية أن « تأخذ بيد المتواضعين وتسحق أبناء الكبرياء ». وتكلم داعية آخر من دعاة الحكم الامبراطوري هو الشاعر هوراس Horasius كلاماً مماثلاً. وليس هناك فصل مجيد في التاريخ الروماني مثل الفصل الذي انتشرت فيه الدمثة الانسانية Humanitas بين أولئك الأجلال الأتانيين الذي قهروا عالم البحر المتوسط. وكان الأغريق على وجه الخصوص من بين كل الشعوب المغلوبة، هم الذين لقنوا سادتهم الجدد المثل العليا الرواقية التي تدعو إلى الأخاء بين شعوب العالم، كما تدعو إلى إثارة الغير ونكران الذات من أجل رفاهية الإنسان والدولة العالمية. وفي القرن الثاني صارت الفلسفة الرواقية فلسفة واسعة الانتشار بين



أفراد الطبقة الارستقراطية وفي أوساط المتعلمين، كما أثرت على تطور القانون الرومان إلى حد كبير. وبحلول عام ٢١٢ أصبح كل الأهالي الأحرار في الامبراطورية مواطنين في روما^(١) (كان لا يزال هناك عدد كبير من العبيد) وتم تنفيذ هذا الإجراء بمقتضى القانون الرومانى. كان الرومان مجتهدين في مجال القانون، إذ أنهم أبدعوا واحدة من أحسن مجموعات القوانين في العالم، وكانوا يعتقدون أن كل المواطنين مهما كانت أعرافهم، يستظلون بحماية قانون موحد.

كانت هناك جوانب كئيبة في حياة العالم الرومانى يفضل علماء الدراسات الكلاسيكية أن يغفلوها على الدوام، فقد كانت هناك جموع غفيرة من العبيد، وأحياء فقيرة شاسعة تكتظ بالسكان، واستشرى هناك الفقر المدقع والشنوذ لجنسى. ومع ذلك تبقى حقيقة لاختلف عليها وهي أن الامبراطورية الرومانية في القرن الثانى قدمت صورة لحضارة مشرقة انتشرت فيها المدن المزدهرة، وعمت فيها الخدمات الصحية، وسيطرت فيها الادارة الحاذقة، والنظام القانونى الذى لا يبارى، فضلا عن النشاط الثقافى المزدهر، وثمة طريق سلمى آمن فعل فعال كان مفتوحا في القرن الثانى أمام أبناء الطبقة الوسطى والارستقراطية في الامبراطورية الرومانية، وبالرغم من ذلك بدأ اضمحلال الامبراطورية منذ نهاية القرن الثانى.

٢ - أزمة العالم الرومانى

عرفت مشكلة سقوط الامبراطورية الرومانية بأنها أكبر مشكلة في التاريخ، لأنها جزء من المشكلة المتعلقة بالأسباب التى تؤدي إلى اخفاق أية حضارة من الحضارات. ولهذا

(١) هذه الإشارة إلى القانون الذى منح به الامبراطور كاركلا (٢١١ - ٢١٧) حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار في الامبراطورية الرومانية.

السبب حاول كثير من المؤرخين اكتشاف عيوب الحضارة الرومانية، وتمثلت نتيجة هذه المحاولة فى عدد كبير من الاستنتاجات.

كانت روما فى قمتها فى القرن الثانى، ولكن عيبا أساسيا كان كامنا فى بنائها السياسى، فلم يكن ثمة مبدأ محدد لطريقة ولاية العرش الامبراطورى، فقد كان اعتلاء العرش فى القرن الثانى يتم بالتعيين من قبل الامبراطور السابق؛ الا أن هذا النظام انهار فى القرن الثالث، وهو ما أدى إلى صراع مرير لعب فيه الجيش دورا كبيرا تسبب فى الاضطراب وعدم الاستقرار، وكانت الفوضى هى النتيجة المتوقعة إذ أخذت كل فرقة من فريق الجيش تحاول إجلال قائدها على عرش الامبراطورية، وفى النصف الأخير من القرن الرابع تقرر مبدأ وراثة العرش، وهو المبدأ الذى ساد فى الامبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى وقد نشبت قبل استقرار هذا النظام، حروب أهلية وثورات متوالية، وكان احتمال تمرد الجيش يهدد الامبراطور على النوام. وبالرغم من أن روما أنجبت الكثيرين من رجال الدولة والسياسيين ورجال القانون، شأن سائر دول العالم القديم، فإنها فشلت فى انجاز ثورة صناعية، ولهذا السبب تفاقمت الازمات الاقتصادية فى أواخر القرن الثانى، فقد بقيت الأساليب الصناعية على حالتها؛ ومعنى ذلك أن الصناعة ظلت معتمدة على العمالة اليدوية، ولم يتم تطوير سوى عدد قليل من الآلات بعد بداية العصر المسيحى، وبالرغم من أن الأغريق عرفوا فكرة الآلة البخارية، فإنها لم تستخدم فى الصناعة على الإطلاق فلماذا كان الفشل فى تطبيق العلم على التكنولوجيا؟ كان هناك خطأ ما فى الفلسفة السائدة بين القادة الارستقراطيين الذين لم يحبذوا مثل تلك الأساليب، ولم يكن هناك دافع قبل نهاية القرن الثانى بحث على اكتشاف مصادر جديدة للطاقة، كما أنه لم تكن هناك حاجة لذلك طالما أن طاقة العبيد المحليين من البلدان المستعمرة كانت كافية للإنتاج، وكان يمكن مضاعفة الإنتاج عن طريق مضاعفة عدد العاملين من العبيد، كما أن سهولة الحصول على الطاقة الانتاجية من أعمال العبيد لم تشجع على اختراع آلات أو

أساليب صناعية جديدة. ولذلك يمكن القول بأن الخطأ الجوهرى فى نظام الاقتصاد الرومانى كان ماثلا فى نظام العمالة.

وفضلا عن عدم تشجيع البحوث الصناعية والتطوير التكنولوجى فإن تشغيل العبيد حدد نوعية السلع المنتجة؛ فقد أدى الانتاج البسيط نسبيا إلى سهولة التقليد، كما وقف عقبة فى تطوير المنتجات، فعلى سبيل المثال كانت الملابس المنتجة سهلة التقليد بسبب بساطة تصميمها. وتقدم صناعة الفخار مثالا آخر على سهولة تقليد السلع البسيطة؛ فالواقع أن صناعة الفخار اليونانية القديمة واجهت منافسة من جنوب بلاد الغال فى القرن الثانى. وأدت هذه الحال إلى عدم انتعاش التجارة الخارجية لعدم وجود المنتجات المحلية الجيدة، وبدلا من التوسع فى تنشيط التجارة الخارجية كان هناك اتجاه متزايد نحو الاكتفاء الذاتى، أى الانتاج من أجل الاستهلاك المحلى والاستغناء عن الاستيراد من الولايات الأخرى، وإذا كان هناك بعض المحاولات الناجحة لحياء التجارة الخارجية فى القرن الرابع، فإن الامبراطورية الرومانية، كوحدة اقتصادية كانت قد بدأت فى التحلل والتفكك باطراد منذ أواخر القرن الثانى بشكل عام.

ومع ذلك فإن الرغبة المستمرة فى الحصول على السلع الترفيهية أبقت على التجارة مع العالم الواقع فى شرق الامبراطورية، ولما لم يكن لدى روما من السلع الجيدة ما تقايس به على السلع الشرقية الفاخرة، فقد كان عليها أن تدفع ثمن هذه السلع الشرقية بالنقد، ومن ثم كان هناك نزيف ملحوظ للذهب فى اتجاه الشرق، مما أحدث صدعا فى نظام الامبراطورية الاقتصادية. وهكذا كان الاقبال على استيراد البضائع الفاخرة من الشرقى مؤشرا لإخفاق الرومان فى تثبيت نظام اقتصادى سليم. لقد كان للرومان فى الماضى نظام نقدى ثابت، ولكن أباطرة القرن الثالث خفضوا قيمة العملة فى محاولة لتدعيم مالية الدولة، ولم يدرك أغلب الأباطرة أن مثل هذا الاجراء لابد أن يؤدى إلى ارتفاع الأسعار، لأنهم لم يفهموا هذه الأمور على أنها تضخم.

وكانت تقابل عيوب الامبراطورية فى مجالات التجارة والصناعة والمالية أزمات فى الحياة الزراعية. قد كانت الزراعة فى زمن الجمهورية تعتمد على صغار المزارعين الذين كانوا يمثلون العماد السكانى، والذين قدموا للجمهورية قيادات فى المجالات السياسية والعسكرية. ومنذ القرن الأول قبل الميلاد بدأت المزارع الصغيرة تتراجع أمام اللاتيفونديا Latifundia، وهى الضياع الكبيرة التى كانت تعتمد على عمالة العبيد، والتى تعد الأساس لإقطاعيات العصور الوسطى والحقيقة أن تشغيل العبيد كان يتم بصورة سيئة للغاية، وكان صغار المزارعين ينزحون إلى المدينة، بينما كان العبيد يواصلون العمل فى الأرض، وكان مالك الضيعة هو الذى يجنى وحده الأرباح والمكاسب وهذا النحو الذى سارت عليه الحياة الزراعية كان له أثر بعيد المدى على الحياة العسكرية، لأن المواطنين الذين يعملون بالزراعة كانوا يشكلون العمود الفقرى للجيش الجمهورى والفرق العسكرية فى عهد الامبراطورية الأولى، ولذلك فما أن حل القرن الثانى بعد الميلاد حتى برزت إلى الوجود مشكلة الحصول على الجنود اللازمين لتكوين جيش يعتمد عليه.

ويبدو أن الامبراطورية فى عهدها الأخيرة عانت من تدهور فى عدد السكان، وهو التدهور الذى كان نتيجة لانتشار الأوبئة على الرغم من أن مشكلة القوة البشرية كانت نتيجة عوامل اجتماعية أكثر من كونها نتيجة عوامل ديموغرافية (سكانية)، لأن الامبراطورية كانت فى عام ٢٠٠ تضم عددا يتراوح بين خمسين وسبعين مليون نسمة، وهو عدد كبير يكفى للاحتفاظ بجيوش قوية، غير أن الأباطرة كانوا يخشون تزويد الفرق العسكرية بأبناء الطبقة الارستقراطية حتى لا يحاولوا الاستيلاء على الحكم. كما أن أبناء الطبقة المتوسطة لم يكونوا يرغبون فى ترك أعمالهم، وكانوا شغوفين بأى شىء سوى الالتحاق بالخدمة العسكرية. وبقي هناك مصدران للقوة البشرية : العبيد وبروليتاريا المدن، والأعداء الرابضون على الحدود الشمالية ونعنى بهم العشائر الجرمانية. لقد كان الجرمان يريدون الأخذ بأسباب الحياة فى عالم البحر المتوسط، وفى أواخر القرن الثانى بدأ

الاباطرة فى توطين القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية حزام أمن ضد القبائل الجرمانية الأخرى، ومنع هؤلاء المتحالفون الأرض والامتيازات فى مقابل هذه الخدمة. أما المتاعب التى نجمت عن هذه السياسة فقد كانت كامنة فى زعماء الجرمان، إذ ارتقى هؤلاء الرجال وتولوا مناصب قيادية عليا فى الجيش الامبراطورى وكانوا يستولون على العرش على حين كانوا يتوانون عن مهاجمة أبناء عشائرتهم من الجرمان؛ فقد كشف تاريخ الغزوات الجرمانية عن خيانة بعضهم للامبراطور.

كانت المشكلة النهائية للامبراطورية تتمثل فيما أصابها فى الصميم، فقد تدهورت روما نفسها كمركز اقتصادى، بينما ظلت مركزا للحكم. وبحلول عام ٢٠٠ كانت روما تفقد بشرانم الفوغاء التواقين إلى التمرد والإخلال بالأمن، واضطر الاباطرة فى بعض الأحيان إلى مقابلة العنف بإجراءات بالغة القسوة، واضطروا فى أحيان أخرى إلى استمالة الرماح بحفلات السيرك وعطايا القمع.

وعند وفاة ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius فى سنة ١٨٠ بدأت فترة عمت فيها الفوضى صفوف الجيش، وسادها تدهور اقتصادى شديد، وعلى مدى خمسين سنة (٢٣٥ - ٢٨٥) تعاقب على ولاية العرش ثمانية عشر امبراطورا كان جل اهتمامهم موجهها إلى اغداق الأموال على الجنود، بل أن واحدا من الاباطرة^(٢) نادى صراحة بهذه السياسة، وأسداها نصيحة إلى خليفته وهو على فراش الموت، واستمرت قيمة العملة فى الهبوط، وأخذت تظهر علامات الفشل على برنامج السلام الرومانى، وسرعان ما اخترق الجرمان مواقع الدفاع على طول الحدود، ونشط القراصنة فى البحار، ولكن بالرغم من ذلك ظل المثل الامبراطورى الأعلى ماثلا فى الأذهان، وأستطاعت الامبراطورية أن تصلح من شأنها من جديد بعد أن عادت إلى سياسة المركزية فى عهد دقلديانوس وقسطنطين من سنة ٢٨٤ حتى سنة ٣٣٧.

(٢) هو الامبراطور سبتيموس ساويرس Septimius Severus ١٩٣ - ٢١١ م.

ورأى دقلديانوس، الذى كان قائدا بلقانيا من أصل ريفى، أن الأوقات العصيبة التى تمر بها الامبراطورية تتطلب القيام بإجراءات حاسمة، فعمل على إصلاح النظام الاقتصادى، وأقام نظاما مركزيا على غرار النظام المصرى القديم، وجاء قسطنطين ليضع اللمسات الأخيرة فى هذا الصرح الضخم. إذ أن دقلديانوس رفع الامبراطور إلى مكانة مقدسة على الطريقة الشرقية؛ من حيث العرش المرتفع، والتيجان، والثياب الأرجوانية. هذا الرفع المادى والمعنوى للمنصب الامبراطورى أعاد للامبراطور كثيرا من هيئته، فقد كان تأثير هذه الإجراءات عظيما على الناس نوى التعليم البسيط والتفكير المتواضع، ودعم دقلديانوس البيروقراطية بجهاز من الشرطة السرية والمخبرين، كما فرض عقوبات تصل إلى حد التعذيب على المخالفين، وعمل على الحد من امتيازات المدن التى كانت تتمتع فى أرجاء الامبراطورية بما يشبه الحكم الذاتى. وفدت جميع المدن بذلك خاضعة للحكم المركزى، وصدر مرسوم إمبراطورى فى محاولة لتثبيت الأسعار، وحتى فيما يتعلق بشئون الكنيسة صارت الكلمة النهائية للامبراطور. وأدى ذلك كله إلى إنعاش اقتصادى محدود قام فى معظمه على أساس الثقة التى أشاعها تداول العملة الجديدة؛ مما جعل معدل التدهور والاضمحلال أكثر بطئا، بيد أنه قضى بذلك على رخاء الطبقة الوسطى بواسطة ما استحدثته من ضرائب لتمويل الجيش والجهاز البيروقراطى. واقتضى النظام الضريبى القاسى أن يضطلع أبرز رجال الأعمال (وهم مستشارو المدن Curials) بمسئولية جمع الضرائب فى مدنهم، وتعين عليهم أن يسدوا أى عجز من ذمتهم. وبفضل هذا النظام البالغ القسوة وغيره من الالتزامات - مثل إجبار الرجل على البقاء فى مهنة أبيه، وعلى دفع ضريبة ثابتة القيمة بعض النظر عن حالته ودرجة ثرائه - أجّل الامبراطوران المصلحان إنهاء الامبراطورية النهائى. ذلك أن اصطلاحات دقلديانوس وقسطنطين حفظت كيان الامبراطورية من السقوط على مدى قرن من الزمان إلى أن صارت الكنيسة قوية بالقدر الذى يمكنها من تولى قيادة المجتمع فى القرن الخامس، وعلى أية حال، فقد كان الدواء، الذى وصف للامبراطورية، أكثر سؤا من الداء.

فى تناولنا لمختلف النظريات التى عالجت تدهور الامبراطورية وسقوطها ينبغى علينا أن نحدد بدقة ماهو المقصود. إذ يجب علينا أن نوضح ما إذا كان المقصود هو تدهور الحضارة، أم المثل الأعلى، للامبراطورية، أم الدولة الرومانية ذاتها. لقد أثار اضمحلال الامبراطورية، باعتبارها حضارة، الجدل الأكبر بين المؤرخين. وفى وسعنا، من غير شك، أن نستبعد الأسباب المناقية للعقل مثل تلك التى ترجع سقوط الامبراطورية الى موجات وباء الملاريا، وأن نتجاوزها إلى نظريات أكثر عمقا حول تدهور الحضارة الرومانية.

يوضح بعض الباحثين أن روح الحضارة القديمة نمت وتقدمت فى المدينة - الدولة City - State ومع التدهور الحضرى المطرد، انهارت الحضارة وتلاشت روحها. ومن الممكن أن يكون هذا التفسير سليما، ولكنه يهتم بالسببية الوسيطة فقط ويهمل الأسباب النهائية. فما الذى أدى إلى تدهور الحضارة ؟ . وثمة نظرية أخرى تقول إن الاستشراق هو سبب الانهيار الرومانى. لقد كان هناك بالفعل استشراق عن طريق التزاوج، ولكن التغير الذى نتج عن ذلك لم يكن ذا بال. وأهم من ذلك بكثير هو الاستشراق الأخلاقى والثقافى ؛ أى تسرب روح جديدة وحضارة جديدة من الشرق إلى كيان العالم الرومانى. وهذه النزعة الصوفية الجديدة جعلت الناس يتخلون عن اهتمامهم بأمور هذا العالم. ومن الواضح أن ثمة تغير فى قيم العالم الرومانى ومثله قد حدث بين عام ١٥٠ وعام ٤٠٠ م، ونتج عن ذلك أن افتقد المجتمع العناصر القيادية الحققة. فالرجال الذين كانوا يتمتعون بمقدرة عظيمة، مثل أمبروز Ambrose وأوغسطين Augustine، كان من الممكن أن يعتركوا الحياة السياسية لو لم يكرسوا أنفسهم لخدمة الكنيسة، وهم الذين كانوا سيوفرون الزعامة التى افتقرت إليها الامبراطورية.

يرى ميخائيل روستوفتسف Michael Rostovstzeff، أعظم مؤرخى الامبراطورية الرومانية، أن تمرد الجماهير هو سبب التدهور. إذ أن أفراد الطبقات الدنيا من الكادحين

والعبيد- أو ذرياتهم على الأقل - أرتقوا إلى أعلى المناصب وتمكنوا من السيطرة على الجيش والحكومة، ولم يكن لهذه الطبقات بطبيعة الحال حظ من التعليم في العصور الكلاسيكية كما كان مفهومهم عن المثل الأعلى الامبراطوري قامضا، ولم يكن لديهم الوعي الكافي لاحترام حرية الفرد والقانون. هؤلاء الرجال نرو الأصل المتواضع والمجهول وصلوا الى مواقع السلطة في القرنين الثالث والرابع، وعجزوا عن فهم تقاليد الصفوة التي عرفها العالم الديم ان تقاوم استقطاب الجماهير لها. ويكمن الضعف في تفسير روستوتزف في أنه يقدم صورة واضحة قاطعة « للجماهير » في مواجهة « الطبقات ». لقد حدث بالفعل أن تولى السلطة في أواخر عصر الامبراطورية رجال من الكادحين والفلاحين، رغم بقاء الكثيرين من أفراد الطبقة الارستقراطية في المناصب الحكومية، الا أن هؤلاء القادة الجدد للطبقة الدنيا لم تكن لديهم أية رؤية طبقية خاصة، ومن المؤكد أنهم لم يعتبروا أنفسهم قائمين بثورة طبقية.

وفي العصر الحديث لاقت آراء أرنولد توينبي قبولا واسعا، ويقدم لنا توينبي تفسيرين أولهما : أن تدهور الحضارة القديمة بدأ منذ الحرب البلوبونيزية؛ وما تاريخ الامبراطورية بأسره إلا خاتمة لإخفاق الحضارة اليونانية، وثانيهما، أن الحضارة الرومانية، شأنها شأن كل الحضارات فشلت في استجابتها للتحدي، وكل ما في الأمر أن استمرار هذا الفشل أدى إلى أن تبوأ الكنيسة المسيحية مكانتها، وأن أصبحت الديانة المسيحية بمثابة الشرنقة التي سوف تخرج منها حضارة أوروبا القادمة. وبينما تبدو النظرية الأولى غير معقولة. فإن الثانية تحصيل حاصل، يرغم أنها نظرية مفيدة وتفسر سبب التدهور إلى حد ما. الا أن مجرد وصف ما حدث في عبارات فضفاضة لا يعتبر شرحا للسبب.

وأخيرا، فإننا قد تأخذ في اعتبارنا نظريات أخرى ثلاث عن أسباب إنهيار الحضارة الرومانية، ولكنها نظريات تحمل في طياتها بنور الحقيقة. تتعلق النظرية الأولى

بوجهة نظر الأخلاقيين في العصر الفيكتوري عن فساد الحياة التي عاشتها الطبقة الحاكمة الرومانية باعتبارها سبب الاضمحلال، الحقيقة أن رجلا من رجال الكنيسة في أواخر القرن الرابع يدعى سالفيان Salvian كان قد سبق الأخلاقيين الفيكتوريين إلى هذه النظرية، فقد أدان سالفيان تلك « الحياة الفاسدة » التي عاشها معاصروه واعتبرها سببا لتدهور الامبراطورية. ويمكن الرد بأنه ليس من المؤكد أن الحياة الشخصية للطبقة الحاكمة أصبحت بالضرورة أكثر حطة في العصور الامبراطورية المتأخرة، إذ كان حكام الامبراطورية المبكرة يتصفون في أحيان كثيرة بالضعف والفساد، وكانت الدعارة واحدة من أكثر المهن الرومانية رواجاً وتنظيماً، كما كان الشنوذ الجنسي متفشياً في أوساط الأرستقراطية الرومانية على سبيل تقليد المجتمع اليوناني، وفي عصر الامبراطور أوغسطس أشار الشاعر هوراس Horace في إحدى قصائده إلى أن يفضل الغلام على المرأة في كل وقت، ولم يقدر المؤرخون النتائج الاجتماعية المترتبة على الفساد الجنسي حق قدرها، وفيما يتعلق بالامبراطورية الرومانية فإن السؤال يمكن أن يطرح عما إذا كان للدعارة والشنوذ الجنسي تأثير سلبي على أداء العائلة الأرستقراطية لوظائفها، فقد ساهمت العائلة الأرستقراطية مساهمة قوية للغاية في أعمال الجمهورية الرومانية القديمة ويمكننا، على الأقل، القول بأن الشنوذ الجنسي إذا لم يكن سبباً للفساد الاجتماعي، فهو من أعراض فساد النظام الاجتماعي والأخلاقي وعجزه عن أداء وظيفته في المجتمع ويجدر بنا أن نلاحظ أن الشنوذ الجنسي تفشى بين الصفوة الحاكمة في مجتمعين آخرين عانيا من التدهور السريع، وهما: العالم العربي في العصور الوسطى وإنجلترا في القرن العشرين.

وفيما يتعلق بالنظريات العامة للتدهور والسقوط، نأتى إلى كتاب عظيم هو كتاب « المسيحية والحضارة الكلاسيكية » لكوشرين C.N. Cochrane وقد نشر سنة ١٩٣٩ ولكنه لم يلق من المؤرخين الاهتمام الذي يستحقه. وانطلاقاً من رؤية كوشرين الأوغسطينية

الجديدة، يرى أن العيوب الأساسية للفكر الكلاسيكي كانت هي العقبة الكؤود في سبيل استمرار الحضارة، فبسبب الإيمان الساذج بقوة العقل الانساني اللامحدودة، خرج القادة السياسيون والثقافيون للحضارة الكلاسيكية عن نطاق قدراتهم وحاولوا أن يخلقوا النموذج والمثل الأعلى في مجالى الساسية والثقافة. وشادوا بالعقل هالما كان يرتكز في حقيقة امره على ما هو غير عقلى في الطبيعة الانسانية؛ مثل الفرائز الحيوانية والايمان بالمقدسات التى استبعدتها نظرتهم الضيقة الى الأمور. ويختتم كوشرين نظريته بتأييد وجهة النظر المسيحية « الأوغسطينية » عن الطبيعة البشرية. وليس من الضروري أن تكون للمرء حماسة أحد أصحاب النظرة الأوغسطينية، مثل كوشرين، لكى يعترف بأنه قد أبرز بحق أن الرؤية الخاطئة للطبيعة الانسانية (والتي افرزتها الحضارة الكلاسيكية) كانت سببا أساسيا في عجز قادة العالم الرومانى عن التعامل الواقعى مع المشكلات السياسية والاجتماعية والثقافية التى فرضت نفسها على عصرهم.

وثمة موضوع جدلى ثالث - إلا أنه يساهم في تفسير تدهور الحضارة الرومانية - ركزت عليه بالبحوث والدراسات الحديثة؛ ومؤداه أن الامبراطورية الرومانية لم تحقق سوى التجميع السطحى لحضارات عالم البحر المتوسط . ففي شرق المتوسط بصفة خاصة، لم تكن هناك غير صفوة قليلة العدد من سكان المدن اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية؛ على حين ظلت جماهير السكان متمسكة بشخصيتها اللغوية والدينية التى ترجع في أصلها الى عدة قرون قبل ذلك. وما أن بدأت الحكومة الامبراطورية تعاني من المشكلات العسكرية والاقتصادية، وحين بات السلام الرومانى Pax Romana أقل جدوى ونفعا عادت هذه القوميات تفرض نفسها في قوة. واستطاعت أن تكتسب - بالتدريج - الى صفوفها حتى تلك الصفوة التى كانت قد اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية. وفي القرنين الرابع والخامس كانت قد اجتذبت جماهير السكان بعيدا عن الولاء للنظام الرومانى. ويقال في هذا الصدد ايضا أنه حتى بعض افراد الارستقراطية الرومانية القديمة لم يتوافقوا أبدا مع السلطة

القيصرية، وعملوا بحذق على تقويض دعائم الولاء للمثل الأعلى الامبراطورى فى قلب العاصمة الامبراطورية نفسها. ونتج عن هذا التخريب الذى قام به السكان الوطنيون والارستقراطيون الرومان أن تحولت السلطة الامبراطورية الى مجرد واجهة لا أكثر. كما تحول الأغنياء والفقراء الى قضايا داخلية بعيدة عن السلام الرومانى. وحين نشهد بأنفسنا فى أيامنا هذه مدى ضخامة التغلغل الحضارى الأوربى فى آسيا وأفريقيا فى ظل حكم الامبراطوريات الحديثة، يمكن لنا أن نقدر أن عملية صبغ العالم بالصبغة الرومانية Roimanization لم تكن أكثر من مجرد تسرب ضحل واجهته مقاومة الحضارة الوطنية القديمة.

أيا كانت فعالية هذه النظريات المتضاربة، فمن الواجب التأكيد على أن اضمحلال الامبراطورية الرومانية كمثل أعلى لم يحدث بشكل كلى على الاطلاق. إذ كاد المثل الأعلى الامبراطورى أن يختفى خلال القرون الخامس والسادس والسابع فى الغرب. ولكنه بقى قويا فى الشرق متمثلا فى الامبراطورية البيزنطية وتم إحيائه فى الغرب فى القرن التاسع فى امبراطورية شارلمان وخلفائه. وبعد استمرار فكرة روما فى العصور الوسطى أحد الموضوعات الأساسية فى التاريخ الوسيط، فإن روما بالنسبة للشعب المسيحى كانت قد صارت مرادفا لوحدة العالم السياسية والحضارية، كما أن البيزنطيين لم يتخلوا عن هذه الفكرة اطلاقا، اذا كان امبراطور القسطنطينية يعتبر نفسه امبراطورا رومانيا يخضع له كل من عداه، وبعد القرن السادس لم يعد هناك أساس واقعى للمفهوم البيزنطى عن الامبراطورية، فقد كان أفضل ما توصل اليه الحاكم البيزنطى هو الاحتفاظ بموقع مزعزع فى جنوب ايطاليا حتى بداية القرن الحادى عشر.

وفى الغرب، إبان فترة الغزوات الجرمانية (٤٥٠ - ٧٥٠) ، كانت فكرة روما واهنة للغاية. وحفظتها الكنيسة المسيحية والبابوية بصفة خاصة. إذ أن البابا، بوصفه أسقف روما، اعتبر نفسه خليفة الامبراطور الرومانى. وبسبب منازعات البابوية مع الامبراطورية

البيزنطية تطلعت البابوية الى ملك غربى يعيد بناء الامبراطورية فى الغرب، ويعيد بناء السلطة والوحدة السياسية الى البلاد الكاثوليكية اللاتينية، وهو الإحياء الذى تم فى عهد شارلمان فى بداية القرن التاسع، وهكذا كانت فكرة الامبراطورية ذات أهمية فائقة فى الغرب الأوربي منذ القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر، كانت هذه فكرة ذات أهمية خاصة لدى ملوك الألمان منذ القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر، كانت هذه فكرة ذات أهمية خاصة لدى ملوك الألمان منذ القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر، إذ أنهم اعتبروا انفسهم خلفاء لشارلمان. ولم يكن بوسعهم أن يمدوا نفوذهم الى انجلترا أو فرنسا، إلا أن حكمهم تخطى جبال الألب مع سيطرة ضعيفة نسبيا على ايطاليا، ولكن انهيار سلطة الامبراطور الرومانى المقدس فى ألمانيا وايطاليا فى القرن الثالث عشر حال دون أن تؤتى فكرة الامبراطورية ثمارها فى شكل وحدة سياسية حقيقية قوية تضم الغرب فى العصور الوسطى.

من السهل أن نفسر تدهور الامبراطورية الرومانية كدولة، إذ كانت الامبراطورية كدولة مترامية الأطراف تشكل عبئا باهظا على سكانها. وبحلول عام ٤٠٠ صارت سلطة ضاغطة مهيمنة، ولم تقدم سوى القليل فى مقابل هذا الظلم، ولم تقم حتى بحماية السكان من غزوات الجرمان. ومع بداية القرن الخامس كان هناك تناقص واضح فى ولاء الناس للامبراطورية والامبراطور، وحين اخترق الجرمان حدود الامبراطورية فى النهاية، لم يهتم بانقاذ الدولة الرومانية سوى نفر قليل من سكانها؛ إذ كانت قد صارت وحشا لا يستحق الانتقاذ.

٣ - المطلب الدينى للعالم الرومانى

كان لاستشراق الامبراطورية - أى استجلاب الأفكار والقيم الشرقية - معزاه من حيث أنه كان يعنى أن الناس فى الامبراطورية بدأوا يتناولون أمور العقيدة بحرية متزايدة

خلال القرون الثاني والثالث والرابع بعد الميلاد، وصارت الديانة واللاهوت عماد الحياة الثقافية والعاطفية بالنسبة للامبراطور وأبناء الطبقة الارستقراطية والطبقات الدنيا على حد سواء. ولم يكن الامبراطور دقلديانوس - الذى كان سيدا على نصف العالم - ليقدّم على عمل ماديون أن يتظر طالعه فى أكباد الدجاج المذبوح، وكانت ديانات قوى ماوراء الطبيعة تلقى إقبالا واسعا من الناس فى القرن الثالث.

فلماذا كانت مثل هذه الديانات تتمتع بهذه الشعبية المتزايدة ؟ كان الناس فى القرن الثالث يعانون من انعدام الأمن، وحين انتقدوا الأمن فى العالم أداروا وجوههم شطر العالم الآخر، إذ كانت غالبية السكان فى العصر الامبراطورى المتأخر يقاسون البؤس وشظف العيش. كان عبء استبداد الامبراطور والحكومة الامبراطورية يرهق كاهل المواطنين، على حين عاش قطاع كبير من الكاسحين فى المدن يحصلون اقواتهم يوما بيوم اعتمادا على الصدقات التى تغدقها الحكومة عليهم، فضلا عن أن أعدادا كبيرة من السكان كانوا عبيدا لاحقوق لهم، يحيون فى ظل أسوأ الظروف، ولم يكن بوسع أولئك الذين يثنون تحت عبء النظام الاجتماعى أن يعتبروا هذا العالم معقولا، بل انه حتى أولئك الذين تمتعوا بمستوى معيشى أفضل كانوا يخشون القوى الطبيعية إلى حد كبير، كما أنهم كانوا جاهلين بأبسط قواعد الاقتصاد، وعاشوا حياة يائسة فى عالم غير معقول. وإذا لم يكن بالإمكان التخلص من الشرور والأذى فقد تطلع سواد الشعب نحو الخلاص Soteria من هذا العالم وألامه وتركزت الآمال على إله منقذ يموت ويبعث من جديد يمكنهم الارتباط به والهروب من قيود الحياة الزائلة، وتغلب افتنانهم بما وراء الحياة على سائر الاهتمامات الأخرى، وبات كل فرد يبحث عن الوسيلة التى ينقذ بها نفسه، بدلا من الاهتمام بإتقاذ الدولة. وبحلول القرن الرابع كان سكان العالم الرومانى قد فقدوا إيمانهم بالنولة والحضارة، وانطلقوا يبحثون عن البديل المتمثل فى الخلاص الفردى. وكانت هناك حلول عديدة مطروحة، وان تأثر كل منها بالآخر، وحتى الحلول التى اجتذبت عددا ضئيلا من الاتباع الدائمين كان لها تأثيرها

الكبير على كل الحلول والديانات الأخرى وقد عرف هذا الخليط من الديانات باسم Syncretium؛ وهو ما يعنى بعبارة أخرى أنه كان هناك توفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة.

كانت للرومان ديانة رسمية state religion منذ بداية العصر الامبراطورى فى عهد أوغسطس، وقامت هذه الديانات على أساس تأليه الامبراطور، وإضفاء الصفات شبه المقدسة والخارقة على الامبراطور بعد مماته. وفى القرن الثالث تطورت عبادة الأباطرة فأصبحت أقل تواضعاً. إذ كان الناس يتقبلون ما يصدق على الامبراطور من صفات خارقة للطبيعة البشرية فى حياته، وقام شعراء معينون بإذكاء الحماسة لهذه الحركة، فقد تحدث كل من هوراس Horace، وفرجيل Virgil عن الامبراطور أوغسطس بعبارات تفيض بالتبجيل فى القرن الأول الميلادى^(٣) وعلى أية حال، فإن غالبية الناس لم يندمجوا عاطفياً فى عبادة الامبراطور، التى كانت فى بداية الأمر مجرد «ديانة رسمية» صيغت بهدف الحفاظ على الوحدة السياسية للعالم الرومانى. أما ما أثار اهتمام الناس فى أواخر عصر الامبراطورية، فهو البحث عن ديانة تضمن لهم الخلاص الفردى.

وكانت الديانة اليهودية فى الاسكندرية قد توصلت منذ زمن الى صياغة قانون أخلاقى صارم ومذهب دينى يؤمن بالوحدانية. وراق الأدب العبرانى للرومان من خلال الترجمة اليونانية للعهد القديم، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية Septuaginta. وعلى الرغم من أن اليهود نادراً ما كانوا يقومون بأى نشاط تبشيري، فإن يهود الاسكندرية كانوا يأملون فى تحويل البعض الى اليهودية، وأحرزوا بعض النجاح فى هذا الصدد

(٣) عبر كانتور عن هذه العبارة بـ messianic terms، ومعناها «بعبارات مسيحانية»، ولم يكن ممكناً أن ندخل هذا المعنى فى النص العربى لأن هوراس وفرجيل كتباً قبل مولد المسيح بنحو أربعين سنة، ويرجع استخدام كانتور لهذه العبارة الى أن فرجيل كتب قصيدة رعوية - هى القصيدة الرابعة التى عرفت لدى نقاد الأدب - بالقصيدة المسيحية - تحدث فيها عن مولد طفل سوف يحكم العالم وسوف يعم الرخاء فى عصره، وقد فهم علماء الكنيسة فى العصر المسيحى أن الطفل هو المسيح وأن فرجيل تنبأ بظهور المسيحية قبل مولد المسيح.

انظر : على الفمراوى، مدخل الى دراسة للتاريخ الأوربي الوسيط (ط. الثانية: القاهرة ١٩٧٧)

(المترجم)

ص ٢١١ - ص ٢١٢.

خلال القرن الميلادي الأول؛ حين كانت الديانة اليهودية تجذب أنظار أبناء الطبقة الاستقرائية الرومانية. وعلى أية حال، فإن عدد الرومان الذين تمسكوا بيهوديتهم على المدى الطويل كان قليلا. إذ كانت الديانة اليهودية ماتزال غير واضحة في مفهومها عن المخلص والخلود في الحياة الأخرى. وكان المخلص متقذا قوميا بالنسبة لليهود وظل كذلك حتى بداية العصر المسيحي^(٤). كما كانت اليهودية ديانة صارمة ذات أخلاقيات سامية، بيد أنها لم تقدم سوى القليل من سبل السعادة في الحياة الدنيا. وبسبب ضغوط الحياة في ظل الامبراطورية الرومانية اتجه اليهود في تردد صوب الحياة الأخرى^(٥). وبالرغم من أن فيلون السكندري حاول في مطلع القرن الأول للميلاد أن يوفق بين التراث الفلسفي اليوناني، والتراث اليهودي المحفوظ في العهد القديم؛ ومن ثم يوجد توافقا بين العلم والدين، ورغم أن كتابات فيلون أثرت على آباء الكنيسة تأثيرا كبيرا، فقد فشلت اليهودية في أن تكون دينا للعالمين.

كان الفلاسفة اليونانية واحدة الى حد بعيد من حيث إشباع المطلب الديني في عالم البحر المتوسط، ولم يكن أرسطوطاليس - الذي يعتبر أكثر فلاسفة اليونان الكبار علمية ووعيا - يحظى بإعجاب كثيرين من مفكرى العصر الروماني لأن كتابات أفلاطون كانت هي التي تلقى القبول في أوساط الفكر في ذلك العصر. والواقع أن فلسفة أفلاطون ظلت تحكم الفكر الغربي بصورة ما حتى القرن الثاني عشر، كأساس للاهوت والفلسفة. وإذا كان فكر

(٤) تأتي فكرة انتظار المخلص (ماشيع بالعبرية) لدى اليهود مرتبطة بفكرة تجديد العهد مع الرب لكي تصبح أمة الله جديدة به، وتصبح اورشليم (بيت المقدس) مدينة لا تبارى حيث يقيم بها الرب على جبل صهيون، وحيث يتجمع المشردون من بني إسرائيل، وتزول الأحقاد، ويموت الموت نفسه. كما أن الحوادث الجسام التي تعرض لها اليهود أثناء السبي البابلي جعلت اليهود يتعلقون بهذه الفكرة واعتقدوا أن النبي إيليا سوف يأتي مبشرا بقدوم المخلص.

(انظر ملاحى ٤ : ٥ « ها أنذا ارسل إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب ... » وبالرغم من هذا فإنه حين ظهر المسيح عيسى بن مريم لم يؤمن به اليهود وتعللوا بأن الشروط التي وردت عند الأنبياء السابقين حول المخلص المنتظر لم تتحقق فيه. (المترجم)

(٥) وهو ما يعنى عدم اقتناعهم التام بهذه المسألة التي اضطرتهم اليها قسوة الحياة في ظل الامبراطورية الرومانية. (المترجم)

افلاطون يبدأ عقلانيا فإنه يبدو في النهاية مفكرا دينيا وصوفيا، إذ يرى أن أسمى فكرة للخير تتحقق في خلاص الروح . أما التعاليم الأخلاقية الأفلاطونية؛ فقد أصبحت تتجسد في الرواقية التي كانت فلسفة أكثر منها ديانة تثير العاطفة. ولهذا السبب نفسه كان ميل الناس الى الفلسفة الرواقية في ذلك العصر محدودة للغاية، كما أن هذه الفلسفة انحصرت الى حد بعيد في اوساط الارستقراطيين، رغم أن المبدأ الرواقي القائل بالأخوة العالمية كان له تأثير واسع النطاق. وكان للجانب الصوفي في الفلسفة اليونانية التأثير الأعظم على الناس في العالم الروماني. وقد أكد افلوطين السكندري - مبتدع الأفلاطونية الجديدة في القرن الثالث - على الجانب الصوفي في فلسفة افلاطون حين قرر أن الحقيقة المطلقة تأتي من خلال التجربة الصوفية والسمو الروحي، كما شبه الاله بنافورة تدفع بالمياه المقدسة، وكلما ابتعدت المياه عن النافورة قل نقاؤها، والناس مثل المياه غير النقية وعليهم أن يمروا بعملية تطهير حتى يتحدوا بالإله. ومن ثم يجب التطهير من جميع الاهتمامات الفكرية والدينيوية، إذ يجب على الانسان أن يخلص نفسه من المادة، ويظهر روحه، إلا أن صعوبة تحقيق هذا التطهير الصوفي جعل منه أمرا لا يقدر عليه سوى افراد قليل، فضلا عن أن الأفلاطونية الجديدة لم تقم إلها مخلصا في الوقت الذي طالبت فيه أتباعها بأن يبحث كل منهم عن إلهه بنفسه، وهو الأمر الذي قلل من جاذبية هذه الفلسفة الى حد كبير. وعلى الصعيد العلمي تركت الأفلاطونية الجديدة بصماتها على اللاهوت بأسره، ولكن الناس العاديين كانوا أكثر اهتماما بالبحث عن إله مخلص منهم بتلك التدريبات الروحية الشاقة التي يتطلبها التطهير الأفلاطوني.

وفي بحثهم عن ديانة تفي بحاجاتهم، انجذبت فئات الكادحين صوب أسرار وطقوس الديانات الغامضة التي كانت قد شاعت في العالمين اليوناني والروماني منذ قرون، وسرعان ما تبسّم في ذلك المتعلمون والأثرياء. وفي القرنين الأول والثاني ازداد نفوذ ديانات الأسرار وشعبيتها وامتدت الى أفاق بعيدة، وذلك حين تغلغلت ديانات وعقائد شرقية

متعددة فى عالم البحر المتوسط. وكان الفضل فيما اتسمت به هذه الديانات الشرقية من جاذبية طاغية راجعا الى أن الجميع رأوا فيها فرص للخلاص. ومن هذه الناحية كانت هذه الديانات أولى الديانات العالمية بحق ؛ لأنها تجاوزت الفوارق القومية والثقافية كديانات لها طقوسها الروحانية الخاصة. لقد حددت جميع الديانات الروحانية لنفسها إلها مخلصا يموت ويبعث من جديد، فضلا عن الطقوس السرية التى تتيج للمؤمن ان ينال الخلود من خلال ربط نفسه بمعاناة الآلهة وانتصاراته. وبالرغم من أن هذه الاحتفالات السرية - مثل التضرج بدم عجل ذبيح - يمكن أن ترد أصولها إلى طقوس الإخصاب البدائية فى كثير من الأحيان، فإن الديانات الروحانية شجعت القيم الأخلاقية السامية كما شجعت وجود صيغة من التوحيد.

وفى أواخر القرن الثالث، ظهرت ديانات روحانية عديدة، فقد كانت عبادة إيزيس عبادة شعبية فى مصر، كما كانت عبادة الأم العظمى ديانة محبوبة فى آسيا الصغرى. ويبدو أن عبادة ميترا Mithra (إله الشمس الذى لا يقهر) كانت أكثر الديانات الروحانية أهمية، فقد ظهرت فى فارس فى القرن الثانى، وأخذت تنتشر فى اطراف صوب الغرب. وقد اعتنقها كثيرون من الجنود والضباط فى الفرق الرومانية فى الشرق والغرب على السواء، بيد أنه لم يكن يسمح للنساء بالمشاركة فى العبادة مما كان سببا فى الفشل الذى حاق بها فى النهاية. وكان الآلهة ميترا يضمن الخلاص لأتباعه، ويلزمهم بالمبادئ التطهيرية السامية. والحقيقة أن صلوات الميترائية التى وصلتتنا تشبه الى حد كبير الابتهالات اليهودية والمسيحية الى الرب.

وفى ظل هذا الجو الذى يميزه الجذب الدينى ظهرت المسيحية، ولم تكن مجرد ديانة توفيقية؛ ولكن كان لها واقع تاريخى افترقت اليه الديانات الروحانية الأخرى. فقد كان المسيح شخصية تاريخية عاشت فى عصر تاريخى. لقد ظهر المخلص المسيحى فى صورة آدمية، ولم يكن مجرد شخصية أسطورية ولم يكن هناك من الدلائل فى القرن الثالث ما يؤكد

انتصار المسيحية على الديانات الروحانية الأخرى. فقد كانت ديانة ميتر، على سبيل المثال تتمتع بشعبية واسعة فضلا عن تأييد الكثير من أباطرة الرومان لها؛ فمنذ عصر الإمبراطورية المتأخرات وازدهار إن إحدى الديانات الروحانية سوف تنتصر على الديانات الأخرى إن عاجلا أو آجلا. ولما كان هناك إمبراطور واحد في العالم الروماني، كان من الضروري أن توجد، أن عاجلا أو آجلا. ديانة عالمية واحدة؛ أي إله واحد في السماء. مثلما كان هناك حاكم واحد على الأرض، بمعنى أن الشمولية السياسية فرضت الوحدة الدينية في النهاية.

لقد واجهت المسيحية منافسة عنيفة، وبالرغم من هذه المنافسة - وربما بسببها - عملت المسيحية على أن تستوعب كل مزايا ديانات العصر جميعا. إذ أنها ورثت عن اليهودية العهد القديم وأضافت إليه العهد الجديد، كما استوعبت قانون الديانة اليهودية الأخلاقي، فضلا عن أن فكرة الأخاء في المسيحية تشبه إلى حد كبير فكرة الأخاء الرواقية. كما اقتبس المفكرون المسيحيون كثيرا من الفكر الصوفي والديني في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة. وعلى أية حال، فقد شعر أولئك المفكرون أن التطهير الذاتي الذي يحقق اتحاد الإنسان بالله كان أمرا مستحيلا نظرا لفساد الجسد، ومن ثم فمن الضروري أن يكون هناك وسيط لتحقيق الاتحاد النهائي بالله. ومنذ القرن الثاني فصاعدا، كان أباء الكنيسة راضين عن الفلسفة الأفلاطونية في صورتها الجديدة هذه. وقد ثار جدل عنيف حول ما إذا كان المسيحيون قد أخذوا الأسرار المقدسة عن الديانات السرية، أم أن الجو الديني العام هو الذي أنتج مظاهر مشابهة في صورة سر مسيحي يساعد على الاتحاد بالمخلص. ومهما يكن من أمر، فإن وجود طقس سرى من طراز نقي بسيط (العشاء الرباني) - إذا ما أضيفت إلى مزايا المسيحية الأخرى - كان سببا في جعلها أكثر الديانات جاذبية في نظر سكان العالم الروماني. إلا أن المسيحية، في القرن الرابع، لم تكن قد أصبحت، بعد، هي الاستجابة الأكيدة الوحيدة للمطلب الديني في العالم الروماني.

فإن نسبة المسيحيين في الجزء الشرقي من الامبراطورية لم تكن تتعدى ثلث مجموع السكان، ولم يتأكد انتصار المسيحية إلا بعد أن كسبت تأييد الدولة الرومانية بعد سنة ٣١٢. لقد أنقذ دقلديانوس وقسطنطين الامبراطورية الرومانية من السقوط، ولم يكن هذا سوى تأجيل للسقوط؛ إلا أنه كان كافياً لأن يمنح المسيحية الفرصة لكي تصبح ديانة عالمية في عالم البحر المتوسط وهكذا كان تاريخ تدهور العالم الروماني وانحلاله يسير في خط مواز لنهوض الكنيسة المسيحية وانتصارها.

(٤) هم جماعات يهودية في أصلها، كانت تتلق على أن المعرفة هي الطريق إلى الله، وهي إدراك علم السموات والأرض، ويمرور الزمن تأثروا بالتراث العلمي والفلسفي لخصبارات بابل والفرس والافريق، ومن ثم أخذوا يبتعدون عن اليهودية مما جلب عليهم ثمة اليهود، والفرسيين (ومنهم الصابئة) دين خاص ونصوص مقدسة خاصة بهم مما جعل اليهود والمسيحيين يعتبرونهم كفاراً، بينما اعتبرهم الاسلام من أهل الذمة، ومن أهم أركان دينهم :

(١) الايمان بموسى وتوراته - (٢) الايمان بالمسيح المنتظر واليوم الآخر (٣) الايمان بالملائكة والجن وتقديس بعض الكواكب، وهو ما جعل البعض يعتقد أنهم من عبدة الكواكب، ويمضي الزمن تفوق الفنوصيون فرقا وأحزاباً منهم الصابئة (انظر القلشندي، صبح الاحش ط: ٤٢٩) والمندائيين الذين لا تزال جماعة منهم تعيش بالعراق. (المترجم)

الفصل الثانى

الإمبراطورية المسيحية والكنيسة المسيحية

١ - تشكيل الكنيسة الكاثوليكية

بدأ التحقيق الجدى لتاريخ الكنيسة المسيحية الباكورة فى القرن السادس عشر، إذ حدث إبان فترة الاصلاح الدينى أن حاول كل من علماء الكاثوليك والبروتستانت أن يقيموا الدليل على أن نظم الكنيسة الباكورة وعقائدها كانت أكثر ارتباطا بعقائد ومذاهب الطائفة التى ينتمون إليها، ولم تخمد جنوة الجدل الذى ثلر حول هذا الموضوع على الاطلاق، لا بسبب الاختلافات الطائفية فحسب، وإنما أيضا لأن مصادر معلوماتنا عن الكنيسة الباكورة تنقسم فى كثير من الأحيان بالجزئية والنقص، فضلا عن الغموض بل والتناقض، وثمة جوانب كثيرة فى تطور الكنيسة قبل القرن الرابع لاتزال محل شك حتى اليوم، وليس هناك ما يضطر دارس التاريخ الوسيط الى محاولة حسم المشاكل الجدلية الناشبة حول تاريخ الكنيسة الباكر، وبالرغم من هذا، فإنه من الضرورى أن تكون لديه رؤية عامة لأفكار ونظم الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح لكى يفهم بوضوح ماكان عليه بناؤها فى القرن الرابع ومايليه، لقد حدد التطور الذى مرت به الكنيسة فى مطلع تاريخها طبيعة كنيسة العصور الوسطى من عدة جوانب.

عند موت القديس بولس، فى منتصف القرن الأول الميلادى، كانت المسيحية قد انتشرت انتشارا واسع النطاق فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية، إذ كانت المسيحية قد ولدت بفلسطين، وأخذت تنتشر باتجاه الغرب على طول طرق التجارة فى شرق البحر المتوسط، وساعد يهود الشتات (الدياسبورا Diaspora) - الذين كانوا يعيشون فى كبريات مدن البحر المتوسط - مساعدة كبيرة فى انتشار المسيحية فى بواكير تاريخها^(١). وعلى ذلك نظر مؤرخو الكنيسة منذ أوائل القرن الرابع الى تشتت

(١) بدأت الدعوة المسيحية بين اليهود أساساً، ولما كانت هناك جماعات يهودية تقيم فى المدن الكبرى فى عالم البحر المتوسط، فقد أدى ذلك إلى انتشار المسيحية فى هذه المدن. (المترجم)

اليهود على أنه تمهيد إلهي لنشر المسيحية. فمنذ البداية كانت المسيحية موجهة إلى سكان المدن وظلت ديانة حضرية إلى حد كبير حتى أواخر القرن الرابع. وكانت الوثنية مرتبطة بحياة الريف وسكان الضياع الزراعية، فإن كلمة Paganus، ^(٢) أى وثنى، تعنى «رجل ريفى»، وبالتالي غير المسيحي. وحين اعتلى قسطنطين العرش الامبراطورى كان هناك عدد يتراوح ما بين عشرين إلى ثلاثين فى المائة من سكان الجزء الشرقى اليونانى اللسان ^(٣) مسيحيين، وما بين خمسة إلى عشرة فى المائة من سكان الغرب اللاتينى، الأقل تحضرا من الشرق، يعتنقون المسيحية وبحلول سنة ٣١٢، ربما كان ثلث سكان مدن الامبراطورية من المسيحيين.

أشاع نيتشه، فيلسوف القرن التاسع عشر، فكرة أن المسيحية كانت ديانة للعبيد وأن أخلاقياتها أخلاقيات عبيد، وصحيح أن المسيحية قد جذبت تماما أبناء الطبقات الدنيا، ولكن من المؤكد أنها استحوذت على إيمان أبناء الطبقات العليا بحلول القرن الثانى، وكان أبطأ معدل انتشار لها بين أفراد الطبقة الارستقراطية الرومانية. فحتى عام ٣٥٠ كانت ماتزال هناك بعض عائلات ارستقراطية تقاوم المسيحية فى روما. وبالرغم من ذلك فإننا يجب أن نؤكد أن الديانة المسيحية لم تكن دينا للعبيد وحدهم، فقد جاءت قياداتها من بين أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمين النشطين ومنهم رجال من أمثال بولس احتلوا أسمى مكانة.

وهناك عدة اسباب وراء انتشار المسيحية، فقد أشبعت الحاجة الدينية لدى الناس كما رأينا؛ إذ وفرت لهم علاقة مشبعة عاطفيا تقوم على أساس رفقة الحب الدينى -aga pa فى المدن المعزولة. فضلا عن أن المسيحية سرعان ما صارت ديانة ذات أدب راق جذب

(٢) لما كان التبشير بالمسيحية يتم أساساً فى المدن - حيث يقيم يهود الشتات - فى بداية الأمر، فقد ظلت المسيحية ديانة تغلب عليها الصفة الحضرية حتى أواخر القرن الرابع.

(٣) كانت اللغة اليونانية هى اللغة المتداولة فى أوساط المثقفين فى بلدان شرق البحر المتوسط، إلا أنها لم تكن هى اللغة المستخدمة فى الحياة اليومية - عدا بلاد اليونان - فقد كانت لشعوب هذه البلدان لغاتها القومية بطبيعة الحال.
(المترجم)

كثيرين من المتعلمين للانخراط في صفوف اتباعها، وبينهم أفضل المفكرين في الامبراطورية الرومانية، فقد استوعبت المسيحية الثقافية الكلاسيكية، وأصبحت لها سمة فلسفية تشبه ماوصل اليه تراث العالم القديم في مجال الفكر.

وقد أطلق المسيحيون على أنفسهم في رفقة الدين اسم اكليزيا ecclesia وهي الكلمة التي استخدمتها الترجمة السبعينية للتوراة، وكلمة اكليزيا تعنى شعب الله المختار من بنى اسرائيل، وعبر المسيحيون الأوائل عن قناعتهم بأنهم بنى اسرائيل الجدد من خلال كلمة اكليزيا التي أطلقوها على أنفسهم، وفسر معنى الكلمة على هذا النحو بأنه يشمل جميع المسيحيين في كل مكان، وبالرغم من وجود كنيسة ecclesia محلية وجودا ماديا متمایزا في أنطاكية وفي الاسكندرية على سبيل المثال؛ فإن المسيحيين اعتقدوا في الوقت نفسه، أن الكنيسة كيان عالمي خالد يمتد منذ الخليقة إلى يوم الحساب، كما كان للفكرة القائلة بأن الكنيسة عروس المسيح تأثير عظيم على الفكر في العصور الوسطى، وسرعان ما أدى هذا المفهوم إلى مبدأ عدم زواج رجال الاكليروس، بل إن الأهم من ذلك هو ما أدى إليه هذا المفهوم من زيادة التوتر بين وجهة النظر القائلة بأن الكنيسة واقع دنيوي مادي، ووجهة النظر القائلة بأن الكنيسة كيان روحي خالد، وإذا كانت الكنيسة هي عروس المسيح فإلى أى مدى يمكن أن يصل اهتمامها بأمور الدنيا؟ وإلى أى مدى يمكن إخضاع عروس المسيح للحكام العلمانيين؟ من المؤكد أن كثيرا من المنازعات والمجادلات قد ثارت في العصور الوسطى في محاولة للإجابة على هذه الأسئلة الأساسية.

وكان على الكنيسة التي وصلت إلى هذا القدر من الوعي بذاتها أن تصر على أن تكون تعاليمها كاثوليكية، أى عالمية تتميز بالاتساق، وأن تكون هي التعاليم نفسها في كل مكان. وقد عبر القديس ايريناوس Irenaeus عن هذا المفهوم الخاص بالكنيسة الكاثوليكية (العالمية) الواحدة بشكل واضح في القرن الثاني، وعلى الرغم من ذلك ينبغي التأكيد على أنه حتى القرن الحادي عشر كانت الكنيسة - في الغرب على الأقل - تميل

إلى التسامح والتساهل بشأن النظم والمذاهب مما أوجد خلافات كبيرة بين المذاهب والأعراف الدينية.

ولسنا نعلم سوى القليل عن تنظيم الكنيسة في أيامها الأولى. ومن الواضح أن كل جماعة كنيسة كانت تتمتع بقدر كبير من الاستقلال الذاتى وعلى قمته زعمائها يديرون شؤونها. ويبدو أن أولئك الموظفين الإداريين قد اضطروا إلى تأكيد السلطة الدينية تحت ضغط الحركة الغنوصية^(١) وكان الغنوصيون يعتقدون أن بإمكانهم القيام بتجربة دينية باطنية ويتلقون المعرفة gnosis عن الله مباشرة. وكرد فعل لهذه الفوضى الذاتية الشاملة طورت الكنيسة سلطة حكومة كهنوتية قوية. وظهر الأساقفة (رعاة شعب المسيح) كرجال يتمتعون بسلطة دينية وإدارية أيضا. فقد حددوا العقيدة الجوهرية dogma ومارسوا سيطرة مطلقة على رعيته. أما القسيس فقد ظهر ليكون مساعدا للأسقف الذى يتولى إدارة كنيسة إحدى المدن الهامة. وتحت الأسقف، كان القساوسة يساعدونه فى أعماق كاتدرانيته، كما وجد القساوسة فى كل كنيسة بمفردها. وكان من المعتقد أن الأساقفة يستمدون سلطتهم من الرسل، على اعتبار أن ثمة تتابع مباشر للقوى الروحية المنبعثة من المسيح نفسه، يمر خلال الحواريين والرسل، ليصل الى جميع الأساقفة. وقد تبدت قوة الكنيسة وسلطانها الرياى الروحى واضحين فى رؤية المعاصرين لها على أنها فيض ينبع من المسيح فى خط مباشر يصل إلى كل من يتولى منصبا أسقفيا.

وساعد على تطور السلطة الكنسية نمو نظام الأسرار المقدسة. فمن خلال الطقوس

(٤) هم جماعات يهودية فى أصلها، كانت تنلق على أن المعرفة هى الطريق إلى الله، وهى إبراز طم السموات والأرض. ويمرور الزمن تكثروا بالقرات الطمى والفلسفى لحضارات بابل والفرس والاعريق، ومن ثم أخروا يبتعدون عن لبيهودية مما جلب عليهم نقمة اليهود. والفرصيين (ومنهم الصابئة) دين خالص وتصوم مقدسة خاصة بهم مما جعل اليهود والمسيحيين يعتبرونهم كفارا. يبتما اعتبرهم الاسلام من أهل النمة، ومن أهم أركان دينهم :

(١) الايمان بموسى وتوراته - (٢) الايمان بالمسيح المنتظر واليوم الآخر (٣) الايمان بالملكوت والجن وتقديس بعض الكواكب، وهو ما جعل البعض يعتقد أنهم من عبدة الكواكب. وبعضى الزمن تفرق الغنوصيون فرقا وأحزابا منهم الصابئة (انظر القلقشنقى، صبح الأعشى ط : ٤٢٩) والحنانيين الذين لا تزال جملة منهم تعيش بالعراق. (المترجم)

الغامضة للأسرار الربانية كان بوسع المؤمن أن يحوز، أو يستعد، للدخول في رحمة الرب المنقذة. والكنيسة حالياً سبعة أسرار مقدسة؛ بيد أن أعدادها لم تكن قد تحددت حتى القرن الثالث عشر. إذ أن أحد أحد رجال اللاهوت البارزين في القرن الحادي عشر يحدد لنا ما لا يقل عن أحد عشر سراً مقدساً، وكان التعميد والعشاء الرباني الأخير (افخارستيا) eucharistia أهم هذه الأسرار في كل العصور. ولا يرتبط التعميد في أصله بظهور المسيحية، ذلك أنه كان أحد طقوس التطهير لدى شعوب الشرق الأوسط كما هو ثابت من خلال شخص يوحنا المعمدان وتقاليده الطائفة الآسية اليهودية^(٥) وفي المسيحية صار التعميد وسيلة للتطهير يستعد المؤمن بواسطتها للدخول في رحمة الرب. ومن وجهة النظر الدنيوية كان التعميد استعداداً للانتساب إلى الكنيسة. أما طقس للعشاء الأخير (وهو الدنيوية كان التعميد استعداداً للانتساب إلى الكنيسة . أما طقس العشاء الأخير (وهو طقس التناول)، فقد كان تمثيلاً رمزياً، وهو عبارة عن تناول كسرة من الخبز (ترمز إلى جسد المسيح) وجرعة من النبيذ (ترمز إلى دمه) وهو الاتصال الضروري للخلاص. كانت المسيحية تؤمن بأن الإنسان فاسد بالفطرة ، وأن العشاء الأخير هو فقط الذي يمكنه من المشاركة في استحقاق افتداء المسيح المخلص حتى يستطيع الإنسان أن يتلقى الرحمة وينعم بالخلاص. فهل كان هذا الاحتفال احتفالاً رمزياً أم أمجالياً ؟ لقد كان الناس في العصور الوسطى يعتقدون، كلهم تقريباً، أنها معجزة، وعن طريق المعجزة يتحول النبيذ والخبز بالفعل إلى جسد المسيح ودمه. وكانت للاحتفال قيمة تجريبية نفعية كبيرة، كما كان ممكناً أن يقوم به الأسقف في كاتدرائيته الكبيرة، أو

(٥) هي فرقة يهودية كانت وقت ظهور المسيح من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطاً واحتراماً، إلا أن المعلومات المتاحة عن هذه الفرقة لاتزال موضع شك حتى الآن. ولعل أهم ما كان يميز هذه الفرقة عزلة أفرادها على نحو يشبه حياة الأديرة المسيحية فيما بعد، ويحاول بعض العلماء الربط بين هذه الفرقة التي اشتهرت بحرس أفرادها على النظافة والطهارة وتمسكهم الشديد بالتعاليم الدينية اليهودية وبين الوثائق المعروفة باسم «لوائح البر الميت» التي تم اكتشافها في الأردن، وبالتالي يعتقدون أن هذه الجماعة هي التي كانت تقيم في قلعة مسعدة «الماسادا» حيث أريد أفرادها على يد الرومان أثناء الثورة اليهودية في القرن الأول للميلاد، بينما ينفي البعض الآخر إمكانية ذلك على أساس أن فرقة الآسيين كانت فرقة مسالمة. (لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع :

Edgell (H.A.R) : Dead Sea discoveries, Oxford, 1970

وكذلك حسن ظنا، الفكر الديني الإسرائيلي، معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٧١ (المترجم)

أن يقوم به القسيس في إحدى الكنائس الصغيرة. ففي جميع الأحوال كان الناس يعتقدون أن الكاهن الذي يقوم بهذا الطقس يرتبط مع المسيح في علاقة خاصة.

وهكذا علا شأن أفراد الكليروس Sacerdatium فوق سائر أعضاء الكنيسة (الشعب المسيحي) بفضل قيامهم بمعجزة العشاء الأخير، وربما كان لفظ sacerdos أى قسيس يطلق على أى عضو فى الجماعة المسيحية فى أيام الكنيسة الباكورة. ذلك أن كل المؤمنين كانوا قساوسة (هكذا يقول الباحثون البروتستانت) ومع وجود سلطة الكهنة صارت صفات القساوسة صفات كامنة غير ظاهرة فى غائمة أعضاء الكنيسة (العلمانيون) الذين تم إخضاعهم آنذاك لسلطة الكنيسة، أى لسلطة القساوسة والأساقفة. وتقول وجهة النظر الكاثوليكية أن وظيفة القسيس، وليست مؤهلاته الفردية هى التى تمنحه الصلاحية التى تؤهله للقيام بالأسرار المقدسة. وفى القرن الرابع ثار جدل كبير حول هذه النقطة، فقد زعم الدوناتيون ^(٦) أنه يجب أن يكون القسيس نفسه فى حالة النعمة - أى ينبغى عليه أن يكون قديسا يحيا حياة طاهرة - لى يقوم بعمل السر المقدس على نحو سليم. والكاثوليكية ترغب، بطبيعة الحال، فى أن يعيش القساوسة الذين يقومون بالأسرار المقدسة حياة لاغبار عليها، ولكن على الرغم من هذا يقول الكاثوليك أنه بغض النظر عن سجاي القسيس الشخصية، تكون الطقوس المقدسة صالحة لأن القسيس يقوم بها بوصفه موظفا فى الكنيسة وممثلا للمسيح وليس بوصفه انسانا عاديا. هذه المشكلة أثارت مرات ومرات خلال تاريخ المسيحية اللاتينية؛ فقد أثارت المجادلات والمناظرات الدينية من حولها فى القرن الرابع، وفى العصور الوسطى العالية والمتأخرة. وفى القرن السادس عشر أيضا.

وقد أثرت التقسيمات الجغرافية والسياسية فى الامبراطورية على تنظيم الكنيسة ؛ إذ صار القسم الادارى المعروف باسم diocese ^(٧) والذي كان تقسيما اداريا استحدثته

(٦) نسبة إلى دوناتوس Donatus أحد زعماء الدوناتيين فى شمال أفريقيا فى القرن الرابع (المترجم)
 (٧) حين قام الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) باصلاحاته الادارية ضمن عملية الترميم التى قام بها لصرح الامبراطورية المتداعى ، قسم الامبراطورية إلى أربعة أقسام كبرى ، ثم قسم هذه بدورها إلى سبع عشرة وحدة إدارية اصغر لى مساحتها عزلت كل منها باسم diocese (المترجم)

دقلديانوس، هو منطقة النفوذ الأسقفى، وعلى نفس المنوال جعل التقسيم الامبراطورى من الولاية منطقة نفوذ لكبار الأساقفة الذين طوروا سلطاتهم العليا عن طريق الحكم فى كبريات المدن فى الامبراطورية. والحقيقة أن كبير الأساقفة كان يسمى أسقف العاصمة وفى النهاية، اعترف المسيحيون الشرقيون بزعامة كبار الأساقفة فى المدن الكبرى فى شرق الامبراطورية، وهى الاسكندرية وانطاكية، والقسطنطينية، وحمل هؤلاء لقب «بطريرك» وعلى نحو مماثل كان أسقف روما، أو البابا، يتمتع بسلطة لا تقبل التحدى، فقد قامت كنيسة روما على أيدي القديس بطرس، والقديس بولس اللذين استشهدا فى المدينة الخالدة، ولم تكن هناك مدينة لاتينية لها ما يضارع هذا التراث. فضلا عن أن مدينة روما كانت بالضرورة، مرادفا للزعامة الدينية مثلما كانت لها الزعامة الدنيوية، كما أن أسقف روما فى القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح كان بالصدفة دائما فى الجانب الرابع فى أى نزاع مذهبى، ولم يكن هناك ما يسيء إلى سمعة البابوية، بما فى ذلك المذاهب الدينية المخالفة التي ظهرت بشكل مؤقت، بيد أنه على الرغم من هذه العوامل التى ساهمت فى صنع سلطان البابوية العظيم سنة ٢١٢، فلم يكن مقبولا على نطاق العالم المسيحى، بل وفى الغرب نفسه، أن يكون البابا هو الزعيم المطلق الأوحى للعالم المسيحى. فقد قاوم البطارقة الشرقيون أية مزاعم بابوية فى هذا الاتجاه. وفى القرن الرابع كان أسقف روما متواريا تماما خلف ظلال الامبراطور الرومانى المسيحى الجديد. ومهما كان من أمر، فقد كسب البابا هبة ضخمة خلال القرون الثلاثة الأولى، كما أرسى التقاليد التى رسمت ما تمتع من به أهمية فائقة فى حياة الكنيسة. وبعد انهيار الامبراطورية فى القرن الخامس أفادت البابوية من هذا الارث كثيرا.

ولم تهتم روما، كدولة اهتماما حقيقيا بالمسيحية حتى القرن الثالث . فقد بالغت الأساطير المتأخرة كثيرا فى أعداد الشهداء المسيحيين، إذ كان اضطهاد المسيحيين محليا وقليل الحدوث. وكانت الدولة الرومانية متسامحة مع المسيحيين رغم أنهم لم يهوزوا

موافقتها، ورغم أنها لم تعترف بالمسيحية ديانة مشروعة. كما كان المسيحيون يضايقون الدولة حين يرفضون أن يقسموا يمين الولاء للامبراطور أو يقيموا الشعائر الامبراطورية وبالرغم من هذا فقد سمحوا للمسيحية أن تتطور لأنهم لم يتدخلوا في شئونها إلا قليلا فعلى سبيل المثال يطالب الامبراطور تراجان ، في مراسلاته مع بلينى الأصغر حاكم آسيا الصغرى بشأن المسيحيين في ولايته، أن يتركهم وشأنهم. وفي النصف الثانى من القرن الثالث طرأ تغير على موقف الامبراطورية؛ إذ أن تدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية فى العالم الرومانى سبب موجات من أعمال العنف ضد المسيحيين، وأصبحت الكنيسة بمثابة كبش الفداء فى الامبراطورية المثقلة بالمشكلات، وحين حاول الامبراطور دقلديانوس اقامة نظام شامل أدرك أن الكنيسة المسيحية بول داخل الدولة الرومانية ، فقد اعتقد أن المؤسسات المسيحية القوية التى تفوق الحصر سوف تقلل من فعالية جهوده لتوحيد الامبراطورية وتقويتها. وعلى مدى عشر سنوات كانت هناك محاولة منظمة بأوامر من الامبراطور للقضاء على الكنيسة المسيحية، واستشهد بعض المسيحيين كما تولى كثيرون عن دينهم، إلا أن العديد من الحكام المحليين لم ينفذوا أوامر دقلديانوس بدقة.

وعلى أية حال، جاء تحول الدولة الرومانية ضد الكنيسة المسيحية متأخرا للغاية، إذ كان من المستحيل اقتلاع المؤسسات المسيحية من جنورها عندما استطاعت أن تستحوذ على ولاء مايقرب من خمس سكان العالم الرومانى على الأقل، ولم تستطع الامبراطورية أن تقضى على الكنيسة، ومن ثم كان عليها أن تتعايش مع هذه القوة العظمى الجديدة التى ظهرت فى العالم. وفى سنة ٣٠٦ اعتزل دقلديانوس منصبه، وبعدها بسبع سنوات أعلن امبراطور الشرق والغرب مبدأ حرية العقيدة فيما عرف باسم « مرسوم ميلانو ». ومضى قنسطنطين، حاكم العالم اللاتينى، خطوات أبعد من ذلك حين أعلن تأييده الفعال للمسيحيين، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أخذت الامبراطورية الرومانية ترتبط أكثر بالكنيسة المسيحية.

٢ - قسطنطين الامبراطور المسيحى

لقد تحدد شكل الامبراطورية الرومانية الشرقية إلى حد كبير بفضل اثنين من الأباطرة هما : قسطنطين فى القرن الرابع، وجستيان الأول فى القرن السادس. وكانت أصولهما الاجتماعية متشابهة لدرجة ملحوظة، فقد كان كلاهما من أصل ريفى بلقانى، وقد خرج والد قسطنطين وخال جستيان من هذا الأصل المتواضع ليصبح كل منهما قائدا بارزا يستولى على السلطة الامبراطورية فيما بعد. وكانت هيلينا أم قسطنطين (وهى القديسة هيلانه فى الكنيسة الشرقية) ساقية فى إحدى حانات البلقان وربما كانت تمتهن الدعارة كما أن جستيان تزوج من راقصة سيرك هى تيودورا التى ربما كانت تمتهن الدعارة أيضا. وقد تشابه قسطنطين وجستيان من حيث الكفاية الإدارية، والدأب والكد العظيم، والاخلاص للكنيسة.

ولقد ولد قسطنطين حوالى سنة ٢٨٠ من أبويه هيلينا وقسطنطين خلوروس Con-stantius Chlours الذى كان قيصرًا أو امبراطورًا مساعدًا فى الامبراطورية الغربية وكان مسئولًا عن بريطانيا وغاليا، وكان قنسطيوس خلوروس يعتنق ديانة تعتقد بآله وثنى واحد (آله الشمس الذى لا يقهر) . أما قسطنطين نفسه، والذى كان قد أرسل إلى بلاط دقلديانوس، وسافر كثيرا فى أرجاء الامبراطورية الشرقية، فقد تعرف على الكثير من المسيحيين فى مطلع حياته. وحين اعتزل دقلديانوس العرش سنة ٣٠٦ فشل النظام المعقد الذى وضعه لولاية العرش الامبراطورى، والذى كان يتكون من اثنين من الأباطرة أحدهما امبراطور أكبر ، والثانى أدنى منه مرتبة، واثنين من القياصرة أو الأباطرة المساعدين، وهكذا اندلعت نيران حرب أهلية مريرة استمرت حتى عام ٣١٠ حين كان هناك ثلاثة من الزعماء يتنازعون السلطة ، كان هناك ليكينيوس Lucinius فى الشرق ومكسنتيوس Max-entius فى إيطاليا ؛ وقسطنطين الذى ارتكزت قوته على غاليا وبريطانيا اللتين كانتا أفقر أجزاء الامبراطورية وأقلها سكانا . وفى سنة ٣١٢ غامر قسطنطين بكل شيء فى زحفه

عبر جبال الألب إلى روما لمقابلة خصمه مكستتيوس الذي كان يتفوق عليه كثيرا في عدد جنوده . وفى معركة القنطرة الملقية Milvian Bridge على مقربة من روما ، دارت واحدة من أهم المعارك فى التاريخ وانتصر قسطنطين على منافسة وقتله شر قتلة ، وجعله هذا النصر حاكما وسيدا على الغرب . وتقاسم قسطنطين حكم الامبراطورية مع ليكينيوس حاكم الشرق فيما بين عامى ٣١٢ و ٣٢٤ . وفى سنة ٣٢٤ هزم قسطنطين خصمه الشرقى وخلعه عن عرشه ليصبح الحاكم الوحيد للعالم الرومانى .

وقد حار المعاصرون فى تفسير انتصار قسطنطين الذى بدا وكأنه معجزة حدثت عند القنطرة الملقية ، وزعم قسطنطين فيما بعد أن الانتصار لم يكن حدثا عارضا ، وربما كان نتيجة لاعتناقه المسيحية قبيل المعركة . وقد صار اعتناق قسطنطين للمسيحية مثار جدل كبير بين المؤرخين ، وتأتى معظم الأدلة التى تبرهن على اعتناق قسطنطين للمسيحية مما أمدنا به كاتب لاتينى فى أسيا الصغرى هو لاكتانتىوس Lactantius الذى ألف حوالى سنة ٣٢٠ كتاب « موت المضطهدين » ، وهو كتاب لاقى راجا كبيرا وشعبية واسعة فى العصور الوسطى ، وهو عبارة عن مجموعة من قصص الرعب حول سقوط أولئك الحكام الذين اضطهروا المسيحيين . وفى ثنايا هذا الكتاب يناقش لاكتانتىوس الأحداث التى أدت إلى معركة القنطرة الملقية ، حيث يروى لنا أن قسطنطين تلقى تعليمات فى الحلم بأن يضع شارة الصليب على دروع رجاله حتى تجلب له النصر . كما أن الأسقف ايوزيبيوس Eusebius اسقف قيصرية ، وأول مؤرخى الكنيسة الكبار ، وأحد أصدقاء قسطنطين وموضع ثقته ، يورد لنا ثلاث روايات عن الأحداث التى أدت إلى الانتصار الكبير الذى أحرزه قسطنطين . وفى سنة ٣١٦ يقرر أن قسطنطين تقبل المسيحية ، ووضع شارة الصليب على دروع فرقة العسكرية ، وفى سنة ٣٢٥ يؤكد ايوزيبيوس فى كتابه « التاريخ الكنسى » أن قسطنطين صلى للرب المسيحى قبيل المعركة ، كما أنه أقام لنفسه تمثالا فيما بعد فى روما يمثله حاملا الشارة المسيحية . ولم يعثر حتى الآن على الدليل الأثرى لهذا التمثال ، وربما كانت رواية ايوزيبيوس فى هذا الشأن غير صحيحة . أما كتاب

ايوزيبيوس عن «حياة قسطنطين» - الذى كتبه بعد موت الامبراطور سنة ٣٣٧ بوقت قصير - فيقدم لنا نموذجا لحياة مثالية لحاكم مسيحي ، وهو النموذج الذى ظل يحتذى فى كتابه سير الملوك المسيحيين حتى القرن الحادى عشر . وفى هذا الكتاب يذكر المؤلف أن قسطنطين وجنوده شاهدوا قبيل عبورهم جبال الألب إلى إيطاليا ، حيث دارت المعركة، صليبا يتلألأ فى السماء وتحت عبارة « بهذه الشارة سوف تقتصر » وهو الأمر الذى أدى إلى إشاعة أن قسطنطين مؤزر بقوة الرب المسيحى الذى حمل جنود قسطنطين شارته منذ ذلك الحين فصاعدا .

وثمة دليل تحمله المسكوكات على اعتناق قسطنطين المسيحية ، بيد أنه غير شامل فقد سكت على احدى العملات صورة إله الشمس التى لا تقهر وسكت معها على نفس القطعة صورة الصليب . بينما أوضحت قطعة أخرى شارة المسيح تدمر إحدى الحيات رمزا إلى تدمير المسيحية الوثنية . وفى قطعة ثالثة يبدو قسطنطين فى زيه الحربى والشارة المسيحية تعلو خوذته . وهناك ميدالية ترجع فى تاريخها إلى سنة ٣٣٠ م ، بمناسبة تأسيس مدينة القسطنطينية ، وهذه الميدالية ذات خصائص رومانية واضحة ، وتوضح الالهة فيكتوريا Victoria^(٨) تتوج الامبراطور بيديها . ولو كان قسطنطين مسيحيا مخلصا ، فلا بد أنه كان واعيا بضرورة التعبير عن قبوله لديانة المسيحية على عملاته^(٩) .

وبمضى الوقت حاول كثير من المؤرخين إقامة الدليل على اعتناق قسطنطين للمسيحية ، وصور المؤرخ السويسرى الناطق بالألمانية ياكوب يوركهارت Jacob Burkhardt فى كتابه « عصر قسطنطين العظيم » (الذى صدر سنة ١٨٥٢) قسطنطين

(٨) ربة النصر عند الرومان .

(٩) كانت طرز العملة الرومانية وما تحمله من أساطير - والتى كانت تتغير سنويا - من أهم وسائل الدعاية الامبراطورية . وكان يوسع قسطنطين أن يستبعد ما يشير إلى الآلهة الوثنية على عملاته . والراجح أن قسطنطين رغم إخلاصه للمسيحية وتعاطفه مع اتباعها . لم يكن مسيحيا بمعنى الكلمة . إذ أنه لم ير بأسا فى أن توجد آلهة وثنية أخرى على عملاته .

انظر مناقشة تفصيلية لهذه المسألة فى :

Jones A.H.M. Constantine and the conversion of Europe, (Penguin, 1972), Pp.48 - 105.

كأمير مكيا فيللى (انتهازى) . فقد كان بوركهارت صديقا لنييتشه، كما كان يؤمن بالنظرية الألمانية عن الارادة والقوة، وأوضح أن الامبراطورية كانت تعاني من الفوضى سنة ٣١٢، وكانت الكنيسة محط الآمال فى إعادة بناء السلطة والاستقرار.

ويصور بوركهارت قسطنطين فى صورة الرجل القوي غير العاطفى الذى أراد أن يفيد من قوة تنظيم الكنيسة المسيحية. وإذا لم يكن باستطاعته أن يقضى على المسيحيين، فإنه انضم إليهم . ومن ثم فإنه استغل المسيحية لتدعيم قوة امبراطوريته. وبالرغم من أن بوركهارت حاول أن يحط من شأن ايوزيبيوس بآتهامه بأنه مجرد بوق دعاية وكذاب كبير؛ فإنه شخصيا لم يقدم لنا أى دليل يفند الاعتقاد بأن قسطنطين كان يتصرف من خلال اقتناع دينى عميق، وربما كان الناس فى القرن الرابع قد ضلوا، ولكنهم لم يعرفوا الهزل فى المسائل الدينية.

أما الباحث الفرنسى المعاصر أندريه بيجانويل A.piganiol فيعتبر أن قسطنطين كان فلاحا مشوش الذهن، نصف متعلم خلط بين الديانات وبعضها، كما اعتبره « رجلا مخبولا » يتملس طريقه كيفما اتفق دون أن يرى ماهو فاعل، إلا أن قسطنطين كان يعنى بالتأكيد مايفعله فى مجال الحكم ومجال الحرب، فلماذا نفترض أنه كان مشوشا على هذا النحو فى شئون العقيدة؟. لقد كان من الشائع فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن أن نفكر فى قسطنطين إما باعتباره رجلا مستهترا هازئا، وإما باعتباره انتهازيا، وفى الأربعينيات والخمسينيات - نتيجة التغير الذى طرأ على فروض علم التنوين التاريخى - كان هناك رد فعل دينى تجاه هذه النظريات. فإن المؤرخ الانجليزى بيترز N.H. Baynes المتخصص فى التاريخ البيزنطى، يصور قسطنطين فى صورة البطل المسيحى المخلص السورع. كما يقدم المؤرخ الفرنسى بالانك J.Z. Palanque نظريته عن المراحل الثلاث التى مر بها اعتناق قسطنطين للمسيحية . أولا، إيمانه بوحداية الشمس التى لا تقهر التى أخذها عن أبيه، ثانيا الاعتقاد فى الوهية روحية حوالى سنة

٣١٠ وأخيرا التقبل الفعلى للديانة المسيحية قبيل معركة القنطرة الملفية وفى رأى بالانك أن اعتناق قسطنطين للمسيحية بحق كان سنة ٣١٢ حين كان قسطنطين قد صار عضوا ثابتا ورعا تقيا فى الكنيسة ؛ رغم بقاء تأثير الخرافات على شخصيته. ويعتبر تفسير بالانك لاعتناق قسطنطين المسيحية أفضل التفسيرات حتى الآن. بالرغم من المبالغة الواضحة تعقيده والحذقة التى لاضرورة لها.

وينبغى أن نتذكر أن قسطنطين لم يثل قسطا طيبا من التعليم. وأثناء حالة القلق التى أنتابته قبيل معركة الجسر الملقى اعتقد أن يوسعه أن يعقد صفقة مع الرب. ومن الواضح أن هذه المراهنة على المسيحية هى التى قادتة إلى نصره. ومن ثم أصبح مؤيدا للكنيسة . وكان قسطنطين يعتقد فى جميع الحالات بقوة إله واحد، كما أن الضغوط التى تعرض لها فى الفترة التى سبقت المعركة قوت إيمانه برب المسيحيين ووطنه. صحيح الامبراطور لم يتلق المعمودية حتى اللحظة التى رقد فيها على فراش الموت؛ ولكن تعميد الأطفال لم يكن شائعا فى تلك الأيام. وكان قسطنطين مسيحيا مخلصا طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من حياته، كما تميز بنشاطه وحيويته المتدفقة ، أكثر من الروحانية والاهتمام بالنشاط العقلى ، كذلك كان قسطنطين أكثر جنوحا نحو الغضب والعنف، وأقل ميلا إلى التفكير الهادئ المتأمل والواضح أنه لم يكن قديسا؛ بيد أنه اعتبر نفسه رجلا أرسلته العناية الإلهية لانقاذ الامبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية. وكان يرى أن كلا من الامبراطورية والكنيسة ترتبط بالأخرى. ومنذ بداية ولايته للعرش الامبراطورى أدرك قسطنطين أن الكنيسة يمكن أن تكون بمثابة العمود الفقرى للامبراطورية، ومن ثم فإنه بذل محاولات مستميتة فى سبيل الحفاظ على وحدة الكنيسة ، انطلاقا من إيمانه بأن الرب قد اختاره لهذه المهمة. وقد حفظت جهوده الدينية والسياسية الامبراطورية من السقوط حوالى مائة سنة ، كما أضعفت من قوة المذاهب المخالفة مثل الأريوسية والدوناتية، وبرهن قسطنطين من خلال هذه الأعمال على أنه رجل ثاقب النظر وله

مثله العليا، كما أكد نشاطه ومهارته الإدارية الفائقة . ولم يكن فهم قسطنطين للمسيحية فهما عقلانيا على الإطلاق إلا أنه كان يعتبر نفسه مسيحيا تقيا . لقد وضع الأساس ومهد الطريق أمام الكنيسة في العصور الوسطى.

ومنذ بداية حكمه حاول قسطنطين مساعدة الكنيسة المسيحية عن طريق منح الامتيازات الخاصة للأساقفة . ومن الواضح أنه قصد أن يتصرف باعتباره ممثل الكنيسة أمام السكان غير المسيحيين في الامبراطورية ، فقد أطلق على نفسه اسم « أسقف الذين خارج الكنيسة »، كما تعمد أن يسمح للأساقفة بإداره شئون الكنيسة الداخلية. بيد أن قسطنطين سرعان ما أدرك أن ذلك أمر غير ممكن، إذ كان الأساقفة يفنون عليه فورا من شتى إنحاء الامبراطورية لكي يحسم المنازعات الدينية التي أخذ تهدد بتمزيق وحدة الكنيسة . فلم تكن الكنيسة قد طورت بعد نظاما من السلطة العليا التي يمكنها تحديد ملامح العقيدة، وترك لكل أسقف أن يقرر مثل هذه المسائل بما يتلاءم مع مصلحة أسقفيته. وأدى هذا إلى ظهور الحاجة إلى مجلس عظيم يضم كل أساقفة الامبراطورية لمناقشة هذه المشكلات ووضع الحلول المناسبة لها. وكان مجمع نيقية الذي انعقد ٣٢٥ هـ أول هذه اللقاءات العامة . وقد رأس قسطنطين هذا المجمع وحاول أن يفرض معادلة مذهبية تخضع لها كل الفرق الدينية ونجح في ذلك مؤقتا.

كان اشتراك الغرب محدودا في مجمع نيقية؛ لأن المشكلة الأريوسية التي كان على مجمع نيقية أن يحلها كانت مشكلة تهم الشرق وحده. فقد كان على الكنيسة في القرون الثلاثة الأولى أن تتبنى ثقافة مختلف المناطق التي كان اتباعها يقطنون بها. وهكذا كان ثمة تمهيد لانفصال ديني ومذهبي بين الشرق والغرب؛ إذ كان المسيحيون في الامبراطورية الرومانية الشرقية، التي شاعت بها اللغة اليونانية راغبين في صياغة العقيدة وتحديد جوهرها في مصطلحات منطقية وفلسفية (١٠).

(١٠) الحقيقة أن هذا الاختلاف في التفسير في شئون الدين بين الشرق والغرب إنما يعود في معظمه إلى الترانين التي م يزت الشرق بمستواه الحضارى وتراثه الفلسفى المستمد من الحضارات القديمة التي قامت على أرضهم بمستوى سكانهم

أما العالم اللاتيني في الغرب، فقد خلا في معظمه من المذاهب التي اختلفت حول طبيعة المسيح والتي أصابت الكنيسة الشرقية، وبدأ الأمر في نظر المسيحيين الغربيين وكأننا يحاولون رفاقهم في الشرق أن يحدوا ما لا يمكن تحديده، أي ثالث الأب والأبن والروح القدس، وبدلاً من المشكلات الفلسفية التي كانت ذات أهمية بالغة بالنسبة للشرقيين أهتم الغربيون بمشكلات عملية تهتم بإدارة الكنيسة، والعلاقة بين الله والإنسان، وظلت مسألة تحديد الثالث المقدس بعيدة عن قدرة العقل الإنساني في نظر الكنيسة الغربية اللاتينية حتى القرن الثاني عشر حين حاول أبيلا Abellard أن يقوم بذلك، أما في الشرق، فقد داوم قادة الكنيسة منذ القرن الرابع حتى القرن السادس دون كلل على المهمة التي حدوها لأنفسهم وهي تحليل طبيعة المسيح، وقد أدى الأصرار الشرقي على التحديد الفلسفي والمنطقي للثالث إلى كثير من المنازعات تركزت في مذهبين كبيرين هما الأريوسية في القرن الرابع، والمونوفيزيتية (مذهب الطبيعة الواحدة) في القرن السادس.

أما الأريوسية، التي اشتقت اسمها من أريوس Arius القس السكندري، فقد أصرت على التمييز الشديد بين الله والمسيح، وقد أدخلت هذه العقيدة فكرة تعدد الآلهة في المفاهيم المسيحية، وهي الفكرة التي أخذ بها العالم اليوناني - الروماني القديم، لقد حاول أريوس، مثلما فعل المفكرون الوثنيون، أن يجعل هناك تمييزات ومستويات للالهية وسرعان ما اتخذت الكنيسة الغربية موقفاً معادياً للأريوسية أدراكاً منها للخطر الكامن في الارتداد إلى مثل هذه الشرك، وأنشقت الكنيسة الشرقية تماماً بسبب المسألة الأريوسية وبالرغم من وجود المشاعر الوطنية، التي جعلت الموقف يتفاقم؛ فقد تولدت المראה عن

= الذين كان عدد كبير منهم من أهل المدن - التي قامت كثير منها في أرجاء الشرق - عن الغرب ومستواه الحضاري المتواضع حيث الطابع الريفي هو السائد، وحيث المستوى الحضاري المتواضع لسكانه الذين تميزوا ببساطة التفكير وسداجته، ومن ثم كان طبيعياً أن ينتشر المذهب الأريوسي بإطاره الفلسفي في الشرق بينما انتشر مذهب أنطاسيوس بإطاره العاطفي في الغرب. على أن ما يهتنا هو النتائج السياسية والاجتماعية البعيدة المدى لهذا النزاع الديني الذي كان في بعض جوانبه تعبيراً عن القوميات الشرقية وسيما مصر والشام (المترجم)

الصراع الطويل الذى نشب بين الاسكندرية وغيرها من كبريات مدن الشرق، فلم تكن الاسكندرية مستاءة وغيورة من أسقف القسطنطينية فحسب، بل أن المصريين أيضا لم يكونوا راضين قط عن الحكم الامبراطورى، وكانت القومية المصرية تمر بموجة إحياء عظيمة فى القرن الرابع، ومن الواضح أن مذهب أريوس قام فى معظمه على أرضية من الاختلافات الوطنية والفكرية، ومما زاد فى حدة الصراع أن أسقف روما والامبراطور قد ساندوا بطريرك القسطنطينية فى موقفه أواخر القرن الرابع مما قوى رغبة المصريين فى الانسلاخ عن الامبراطورية، وعبروا عن مشاعرهم الوطنية من خلال المذهب الأريوسى فى القرن الرابع، والمذهب المونوفيزيتى فى القرن السادس، واستمر الصراع فترة تزيد على قرنين من الزمن اتسمت بالمرارة ثم انتهت بتسليم المصريين البلاد بلا مقاومة إلى الفاتحين المسلمين فى القرن السابع.

أما المذهب الدوناتى فكان أكثر أهمية بالنسبة للمسيحيين، فى الكنيسة الغربية، إذ أدى هذا المذهب إلى إندلاع النزاع بين الدوناتية والكاثوليكية وهو النزاع الذى استمر منذ القرن الرابع حتى القرن السادس عشر وتخللته فترة من الهدوء من سنة ٧٠٠ إلى ١٠٥٠. وهذا هو النزاع الأساسى فى الكنيسة الغربية فى القرن الرابع كان المذهب الدوناتى محدودا بإطار مكان مولده فى شمال أفريقيا (الجزائر وتونس حاليا) حيث كان المجتمع القديم ذو الطابع الحربى ينقسم إلى كنائس تتبع الإيمان القويم وكنائس منشقة. وقد اشتق المذهب الدوناتى اسمه من الأسقف دوناتوس Donatus الذى كان أحد مؤسسيه، وكان هذا المذهب هو إحدى النتائج غير المباشرة لاضطهادات دقلديانوس، فقد كان حاكم ولاية أفريقيا متساهلا تماما، إذ كان يطلب من المسيحيين مجرد الاتصال الرسمى من دينهم بتسليم كتبهم المقدسة له، وركن المسيحيون الأغنياء إلى هذا التصرف، ولكن حينما انحسرت موجة الاضطهادات وجدوا أنفسهم متهمين بالخيانة من قبل جماعة من المتعصبين الذين كان معظمهم من أبناء الطبقات الفقيرة، والذين طلبوا أن تقتصر عضوية الكنيسة على القديسين الأبطال الذين لم يخونوا دينهم على أى وجه.

وزعم المتزمتون أن أولئك الخونة خسروا رحمة الرب، ولم يعولوا مسيحيين، كما طلبوا أن تتم الأسرار المقدسة على أيدي قساوسة طاهري الأرواح، واعتبروا أن الأسرار التي تتم على أيدي قساوسة غير جديرين بذلك تعتبر باطلة. أما الأغلبية الكاثوليكية فقد ظلت على اعتقادها بأن صحة الأسرار المقدسة تتوقف على منصب القسيس وليس على صفاته الشخصية وكان هذا الأمر هو نقطة الخلاف - كنيسة من القديسين في مواجهة كنيسة كاثوليكية لكل العالم - وعند نهاية القرن الرابع سخر القديس أوغسطين St. Augustine، وهو أحد آباء الكنيسة الكبار ومن أبناء شمال أفريقيا - كل علمه وفصاحته ضد الدوناتيين مناصرا الموقف الكاثوليكي. ولكن ، لا مجادلات الكاثوليك، ولا الاضطهادات التي مارسها الامبراطور الأرثوذكسي استطاعت أن تقضى تماما على الدوناتيين، إذ صار هؤلاء يشكلون كنيسة سرية ولكنهم لم يختفوا إلا بعد الفتح الاسلامي في القرن السابع . وقد ظهرت الدوناتية من جديد في الغرب في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وكان اختفاؤها من على المسرح الديني المسيحي لعدة قرون قد ساعد الكنيسة الكاثوليكية على تأكيد زعامتها لأوربا في العصور الوسطى الباكزة، وهي المهمة التي كانت الكنيسة الكاثوليكية لا تستطيع القيام بها لو أنها انسأقت وراء المثل التي يطرحها المذهب الدوناتى ولم تحاول أن تجتذب الناس أجمعين إلى حظيرتها، وتحاول أن تمدينهم.

وفي العصور الوسطى العالية ، طلب الرجال المتعلمون من أصحاب الوعي الأخلاقي بين العلمانيين أن يكون الكليروس في مستوى أخلاقي أكثر سموا، منتهجين بذلك خطى أصحاب المذهب الدوناتى. وإذا لم يكونوا راضين بهذا الشأن، فقد أنكر بعض المتعصبين الغلاة من بينهم التمييز بين العلمانيين ورجال الكليروس. وبرزت إلى الوجود نظريات هرطقية في أنحاء متفرقة من أوربا الغربية ترجع في أصولها إلى المذهب الدوناتى، وقد حاربت الكنيسة الهرطقات بكل الوسائل المتاحة، ذلك أن الهرطقات كانت تضرب الأساس الذي قامت عليه الكاثوليكية، بيد أن الكاثوليكية لم تتمكن أبدا من اقتلاع

الدوناتية من جذورها تماما . وبمجيء القرن السادس عشر شعر كثيرون أن المذهب الدوناتى كان سليما فى موقفه، فقد أظهرت حركة الاصلاح الدينى - وفقا للمفهوم البروتستانتي - تراثها الدوناتى : فلكى تكون عضوا فى الكنيسة بحق ينبغى عليك أن تكون قد مرت بتجربة اعتناق العقيدة، كما يتعين عليك أن تكون على اقتناع تام بقبول نعمة الايمان. وكانت المشكلة التى واجهتها الكنيسة الكاثوليكية تتمثل فى استيعابها للمجتمع ، وفى أنه بقدر ما كان يحتمل أن يتحضر المجتمع ويتطور من خلال ارتباطه بالكنيسة، كان من المحتمل أيضا أن تتدهور الكنيسة بتأثير هذا المجتمع. وكان يمكن التقليل من هذه الأخطار لو أن المسيحية ظلت ديانة الصفة، كما كان يمكن تحقيق المثل الدوناتية عن كنيسة القديسين . إلا أن مجتمعا مسيحيا يقتصر على القديسين لم يكن لىستطيع أن يصبح فى الوقت نفسه كنيسة كاثوليكية (عالمية) تجلب الرحمة والنعمة لبني الانسان جميعا ، ولم يكن ممكنا على الاطلاق التوفيق بين الكاثوليكية والدوناتية. وأحтар قسطنطين بسبب النزاع المذهبى حول المذهب الدوناتى، وكان من الضرورى ومن المحتم ، أن تفشل محاولاته لاقرار السلم بين الطائفتين.

كان قسطنطين يستشير صديقه ومؤرخ قصة حياته أيوزيبىوس أسقف قيصرية بفلسطين فيما يتعلق بتعامله مع الكنيسة، ويعتبر كتاب أيوزيبىوس « حياة قسطنطين » واحدا من أهم الأعمال الأدبية فى العصور الوسطى. فهو يضع نموذجا لحياة مثالية لأحد ملوك العصور الوسطى . كان ملوك العصور الوسطى رجالا برابرة متوحشين حتى أواخر القرن الحادى عشر. وعلى أية حال، فإن قصص حياة أولئك الرجال كتبها الوزراء الذين كانوا من رجال الكنيسة والذين كانوا يرغبون فى تصوير سادتهم فى صورة أصحاب الفضائل النبيلة الذين أختارهم الرب لمناصبهم ، كما صوروهم على أنهم أصدقاء عظماء للكنيسة يتمتعون بالنعمة ويتسمون بالرحمة. فإن جريجورى التورى (القرن السادس) فى كتابه « تاريخ الفرنجة » يقدم لنا حياة كلوفيس Clovis ملك الفرنجة ، على النحو الذى

قدمه أيوزيبوس لحياة قسطنطين، بل أن كلوفيس قد سمي « قنسطنطين الثاني »، وفي أواخر القرن العاشر كتب قس فرنسي اسمه دودو Dudo سلسلة تراجم لدوقات نورمانديا الأوائل، كانت تعكس تأثيرات طريقة أيوزيبوس . وتتجلى الحرفية العظيمة في هذه الأعمال النورماندية؛ فقد ظهرت بعد الأحداث بحوالى ثمانين أو مائة عام، لتسير على نهج التراث الأيوزيبى (نسبة إلى أيوزيبوس) في محاولة خلق ما كان يجب أن يكون ؛ لا تقرير ما حدث بالضبط، فإن الحقائق التاريخية في هذه السير ما تزال موضع تساؤل، لا لأن الذين كتبوها كانوا جاهلين بالحقيقة ، ولكن لأنهم طرحوا ما كانوا يريدونه بمهارة فائقة.

كان الأدب التاريخي أوائل العصور الوسطى، مثل سير القديسين Hagiology، قائما على أساس مفهوم تقديم المثل الأعلى لا تقديم الواقع. وقد تبع هذا النوع من التدوين التاريخي historiography مفهوم الفلسفة الأفلاطونية عما يجب أن يكون عليه الملك أو الامبراطور أو الأسقف، وتحفل الكتابات التاريخية في العصور الوسطى بأخبار القديسين الذين تتم المعجزات على أيديهم، وذلك تحقيقا لمفهوم الكاتب نفسه عن القديس المثالي، كما تمتلئ هذه الكتابات بأخبار الملوك الذين يتوافقون ويتلامسون مع النموذج المثالي للملك، واستمر هذا الالتزام الأدبي بالمثل الأعلى في كتابة التاريخ حتى القرن الحادى عشر على أقل تقدير، ولم يكن هناك مكان في أدب العصور الوسطى المبكرة للشخصية الحقيقية ذات الميزات والخصائص الفردية ؛ فإن احتذاء الاتجاهات التي كانت واضحة بالفعل في الكتابات الرومانية المتأخرة جعل المثل الأعلى والشخصية العامة يطردان الشخصية المتميزة الحقيقية من ميدان الأدب، ومن حين لآخر نجد في الكتابات التاريخية أوائل العصور الوسطى رنة واقعية، فإن جريجورى التورى ، على سبيل المثال ، يزيح النقاب أحيانا عن كلوفيس الهمجى كما هو دون رتوش. وثمة سؤال يطرح نفسه عما إذا كان مثل هذا الخروج المؤقت عن تقاليد الكتابة التاريخية آنذاك راجعا إلى ضعف

مفهوم المثل الأعلى أم أنه كان ببساطة، تقليدا من حدة الصنعة الأدبية.

مكذا حاول ايوزيبوس أن يصور قسطنطين كما يجب أن يكون، لا كما كان بالفعل . كان قسطنطين في نظر ايوزيبوس تحقيقا لخطوط التطور العالمي التي أرسيت حين كانت الامبراطورية الرومانية (تحت حكم أغسطس) والكنيسة تبدأ حياتهما في الوقت نفسه . ووفقا لهذا الموضوع الذي كتبه ايوزيبوس دخل العالم أعظم مرحلة من مراحل تاريخه بالبداية المشتركة لكل من الديانة المسيحية والسلطة الامبراطورية الرومانية اللتين تجسدتا في شخص قسطنطين. أعتقد ايوزيبوس أن الامبراطورية ستضمن استمرار وبقاء المسيحية إلى الأبد ، وأن الرب لا بد وأن يكافئها على ذلك بالسعادة والمجد العظيم. ولم ينحسر هذا النوع من التفاؤل إلا مع فشل الامبراطورية قرب نهاية القرن الرابع . وتخلى التفاؤل القائم على اتحاد الامبراطورية والكنيسة عن مكانه للتشاؤم المصحوب بالتحقق من أن الإمبراطورية بناء زائل في نهاية الأمر، وأن مصير الكنيسة مستقل عن مصير باقي الامبراطورية . وكان هذا هو موضوع كتاب « مدينة الله » لأوغسطين . فقد عاش ايوزيبوس في زمن بدا فيه أن أشياء عظيمة سعيدة على وشك الحدوث، ولم تحدث هذه الأشياء . بيد أننا لا نستطيع أن نلوم ايوزيبوس على تفاؤله، فقد كانت كل مؤشرات عصره تشير إلى عصر هذه السعادة والتقدم الذي لم يسبق له مثيل. ولم يكن ثمة شك في أن الرب سيكافئ الامبراطورية على اعتناق المسيحية. ولم يكن تشاؤم أوغسطين أقل ارتباطا بالظروف الاجتماعية؛ ذلك أنه حين مات سنة ٤٣٠ كان الغزاة الوندال يطرقون أسوار مدينته الأسقفية .

وقد أساء النقاد المحدثون فهم ايوزيبوس ؛ إذ أنهم غالبا ما يزجون به بشكل ما في مقارنة غير عادلة مع أوغسطين. فبينما كان كتاب أوربا العصور الوسطى يدينون بالكثير لأوغسطين، فإنهم لم يروا أن آراء ايوزيبوس التاريخية ضحلة بالقدر الذي رأيناها نحن به . وكلما ظهر ملك يحابي الكنيسة هللوا له واعتبروا أنه قسطنطين آخر، وتسربت إلى

الكتابات المعاصرة عن الحاكم نعمة متفائلة تقول بأن الرب سوف يكافئ الملك المسيحى
التقى بالنصر والمجد، بلا جدال !

كانت آخر جهود قسطنطين لصالح الكنيسة هى تأسيس روما جديدة القسطنطينية
، فبالرغم من كل جهوده على مدى السنوات العشر الأولى من حكمه ظلت الارستقراطية
الرومانية على ولائها للآلهة الوثنية القديمة، وحتى أواخر القرن الرابع لم تكن غالبية الطبقة
الحاكمة القديمة فى المدينة الخالدة قد تحولت إلى المسيحية ، ولم يكن قسطنطين يشعر أنه
قوى بالقدر الذى يكفى لإجبار الارستقراطية القديمة على الدخول فى حظيرة الكنيسة ؛
ولكنه كان يأمل فى التقليل من شأن روما فى العالم وتدمير مكانة الوثنية الارستقراطية
وتأثيرها . واستمرت الارستقراطية الرومانية فى التمتع بالثروة والسلطان فى الغرب وفى
روما على وجه الخصوص ، وبيناء القسطنطينية جسد قسطنطين عاصمة امبراطورية جديدة
حيث تتفوق المسيحية تفوقا لا يقبل التحدى، ويحكى ايوزيبىوس عن الحلم المعجزة الذى
دفع بقسطنطين إلى بناء عاصمة جديدة فى بلدة بيزنطة الاغريقية القديمة على ضفاف
البحر ، حيث تتمتع بموقع حصين يحفظها من الهجوم بفضل مزاياه الاستراتيجية
الفائقة.

وقد صممت القسطنطينية - العاصمة الجديدة - على نمط روما بتوجيه من
قسطنطين ، وملئت بالأعمال الفنية القديمة المجلوبة من مدن البحر المتوسط ، بل أن
قسطنطين جلب من روما جموعا من العامة أسماهم " الشعب الرومانى " لكى يضيف على
المدينة الجديدة رونق وبهاء العاصمة القديمة، وعلى المدى الطويل، ورغم جهوده وخطئه
العظيمة من أجل العاصمة الجديدة، فإن القسطنطينية لم تؤد إلا إلى تصعيد عملية تقسيم
الامبراطورية الرومانية، فان خلق عاصمة شرقية جديدة شجع على تقسيم الامبراطورية
بين حاكم شرقى وآخر غربى، وهو ما كان دقلديانوس قد حاوله بالفعل، وحدث عدة مرات
فى القرن الرابع أن وجد امبراطوران، وبعد عام ٢٩٥ م انفصم الجزآن اليونانى واللاتينى

لعالم البحر المتوسط عن بعضهما انفصاما لم تضمهما من بعده وحدة سياسية أبدا . وبحلول القرن السادس صارت القسطنطينية يونانية تماما فى لغتها وثقافتها ، فقد حولت العاصمة الجديدة شعوب شرق المتوسط بعيدا عن روما وشجعت انفصالهم المتزايد عن الغرب اللاتينى وحضارته ، وكانت مجموعة قوانين جستنيان ، التى نشرت فى القرن السادس ، آخر الأعمال التى كتبت باللغة اللاتينية فى القطاع الشرقى من الامبراطورية .

بيد أن القسطنطينية كانت على الأقل قلعة جديدة عظيمة فى الشرق ، واستطاعت أن تنقذ أوروبا الغربية المسيحية أوائل العصور الوسطى بفضل كفاءتها . فقد كانت القسطنطينية ، بفضل موقعها الاستراتيجى على مفترق الطريق بين الشرق والغرب ، قادرة على التصدى لغزوات الأجناس والديانات الشرقية المختلفة ، وسد الطريق المؤدى إلى روما وأوروبا الغربية أمامها ، وأوضح الأمثلة على ذلك هو وقف الزحف الاسلامى عند أسوار القسطنطينية فى القرن الثامن ، فبسبب الدور الذى لعبته القسطنطينية كقلعة تحمى أوروبا نجت الشعوب الأوروبية فى العصور الوسطى من الخضوع للسيطرة الدينية ، والسيادة العسكرية للجيش الاسلامى .

وعلى المدى القصير ، فإن النتائج التى نجمت عن بناء القسطنطينية لم تحقق آمال قسطنطين ، لأن هيبة روما ومركزها فى العالم اللاتينى لم ينلها أذى بسبب العاصمة الشرقية . فقد كانت القسطنطينية مجرد بديل لروما ، وهنا تظل الأسئلة الحقيقية مطروحة عما إذا كان ممكنا تحويل الارستقراطية الرومانية القديمة إلى المسيحية ، وإذا ما كان تحويل روما النهائى إلى مدينة مسيحية يمكن أن يتحقق وقد تحقق هذا فعلا فى القرن التالى لموت قسطنطين على أيدي خلفائه الأباطرة المسيحيين وأساقفة روما .

٣ - الامبراطورية الرومانية المسيحية

أثيرت مشكلة العلاقة بين الكنيسة والملكية المسيحية للمرة الأولى فى القرن الرابع ،

بعد اعتناق أباطرة الرومان للمسيحية، وظلت هذه المشكلة واحدة من المشكلات المميزة في حضارة العصور الوسطى . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن علاقة الدولة بالكنيسة كانت هي الموضوع السائد والمستمر في الشئون الأوربية الداخلية حتى القرن الثاني عشر .

وتكمن جذور هذه العلاقة في الفترة السابقة على انتصار المسيحية . ففي العالم القديم كان ثمة تقارب شديد بين السلطة الملكية والسلطة الكهنوتية، كانت سلطة الملكية تركز على دعامة وثيقة الصلة بالآلهة، ومن ناحية أخرى كان رجال الكهنوت في الغالب بمثابة قوة اجتماعية وسياسية أيضا . فمن المعلوم جيدا أن حكام بلاد النهرين ومصر كانوا مرتبطين بالآلهة . بل أنه حتى الرومان المحدودى الألق الذين عاشوا في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد ، كانوا متأثرين جزئيا بهذه التقاليد الخاصة بالملكية المقدسة، وقد قطعت الديانات الشرقية التي تعبد الشمس والتي انتشرت في العالم الروماني في القرن الثاني شوطا أبعد في هذا السبيل، وترتب على هذا أن تطورت كثيرا فكرة القداسة التي أضفاها الأباطرة عن السلطة الامبراطورية، وتجسد ذلك في نوع من الوجدانية السياسية؛ إذ كان من المعتقد آنذاك أنه يوجد اله واحد في السماء، وامبراطور واحد على الأرض نائبا للذات المقدسة وشريكا لها.

وقبل قسطنطين ، كان قادة الكنيسة يبدلون ما في وسعهم لمقاومة هذه الوجدانية السياسية لأن الهم لم يكن هو نفسه إله الدعاة الامبراطوريين ، وكان غاية ما يمكنهم قوله عن الملوك والأباطرة أنهم شر لابد منه، كما كان كثيرون من المسيحيين الأوائل يعبرون عن عصيانهم للامبراطور أما سلبا أو ايجابا، ووفقا لعقيدة الكنيسة في الحياة الآخرة، فإن سلطة القوى الأرضية (الحكام ، الملوك، الأباطرة) كانت تعتبر سلطة مؤقتة ومقيدة إلى حد كبير وستزول في يوم الحساب الأخير الذي يتوقعه المسيحيون في المستقبل القريب.

إلا أن ارتقاد أحد المسيحيين للعرش الامبراطوري حتم على الكنيسة أن تعيد النظر في موقفها من الملكية، فطالما كان الامبراطور غير مسيحي، ومعاديا للكنيسة في بعض

الاحيان، لم تكن الأسئلة النظرية حول العلاقات بين الكنيسة والدولة تثار الا فيما ندر. وكان وسع الكنيسة أن تأخذ موقفا سلبيا من الدولة بون أدنى شك أو تردد من قبل قادتها، ولكن تتويج ملك مسيحي، كان يثير زوبعة من المشكلات الجديدة التي لم يكن من اليسير أن يجدوا لها حلا.

كانت إعادة صياغة مفهوم الكنيسة عن الملكية مسألة حتمية بسبب تدخل كل من الامبراطور والأساقفة في شئون الآخر في القرن الرابع. ذلك أن الهرطقات، والانقسامات، وطلب الاساقفة لتدخل الدولة في حياة الكنيسة من ناحية، وما اسماء بيوري J.B. Bury « ميل الأباطرة الاستبدادي للتحكم في جميع القوى الاجتماعية » من ناحية أخرى، قد خلق أتحادا وثيقا بين الكنيسة والدولة.

ومنذ عصر قنسطنطين أخذ الامبراطور المسيحي يلعب دورا هاما ورائدا في حياة الكنيسة . وقد تحدد تاريخ كنيسة القرن الرابع في جزمكبير منه، بسياسة مختلف الأباطرة المسيحيين المتقلبة وأرائهم الدينية . وقد رأينا بالفعل كم كان هذا واضحا في عهد قنسطنطين الذي شهد تدخل الدولة في منازعات الكنيسة، وتضارب الأهداف الكنسية والعلمانية، كما شهد تعاون الامبراطور والأساقفة والعداء الشديد بينهم أيضا، فإن الحوادث الكثيرة، والمثيرة للسخرية أحيانا، في مجرى العلاقات بين الدولة والكنيسة زمن قنسطنطين تكررت مرات ومرات في أيام خلفائه حتى نهاية القرن الرابع. ويجب علينا أن نتذكر أنه لم يمكن القضاء على الأريوسية بمجرد أدانتها في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م. إذ استمر الصراع بين الأساقفة الارثوذكس، والفرقة الأريوسية والمجموعات الهرطقية الأخرى، بشكل مدمر وعنيف غالبا، حتى العقد الأخير من القرن الرابع.

وتسببت الفوضى الناشئة عن الانقسامات العنيفة في الكنيسة حول مسائل العقيدة في تدخل السلطة . كانت الفرق المسيحية المتنافسة في القرن الرابع - وهي الأريوسية والارثوذكسية الشرقية وما شابهها من الفرق - تولى اهتماما كبيرا للحصول على مساعدة

الحكومة لإسكات معارضيها، ومن ثم فانه مع بداية وجود الامبراطورية الرومانية المسيحية كان باستطاعة قسطنطين أن يرسى التقاليد التي جعلت من حق الامبراطور أن يقوم بحل مشكلات العقيدة، وفقا لرأيه الخاص في غالب الأحيان، ولكي يدعو إلى عقد المجامع الكنسية ويرأسها ثم ينفذ قراراتها.

وأدى هذا الموقف إلى تشجيع التحول العام نحو بحث وحدانية القرن الثالث السياسية في صيغة مسيحية، كان قسطنطين يعتبر نفسه مبعوث العناية الالهية لتولى المنصب الامبراطوري، وكان ايوزيبوس يظن أن الامبراطور تفويض الهى على الأرض يعلو في مكانته على الكنيسة بأسرها وطبق ايوزيبوس الأفكار السياسية الخاصة باللاهوت التوحيدى على الامبراطور المسيحي، وفي سياق المديح الذي أعذقه على قسطنطين حجب السلطة الامبراطورية خلف ضبابية مقدمة، وهنا تكمن بداية النموذج البيزنطي الذي ظهر فيما بعد (القرن السادس) عن الملك - الكاهن، وهو النموذج الذي يجمع فيه الامبراطور حقا بين القيصر والبابا، وما أن أهل القرن السادس حتى كان الامبراطور يوجه السياسة الكنسية وفقا لهذه النظرية القيصرية - البابوية القائلة بأن الامبراطور هو نائب الله على الأرض، وأنه يتفوق في سلطته الدينية على بطريرك القسطنطينية وجميع رجال الكنيسة، ولم تواجه هذه النظرية بأى تحد في بيزنطة حتى القرن الثامن، وظلت دائما تعنى الاتجاه السائد في العالم المسيحي الشرقي.

وليس من الصعب أن نحدد الضرر العظيم الذي لحق بكل من الامبراطورية والكنيسة بل والحضارة الغربية، من جراء اعتناق القادة المسيحيين لمذهب الوحدانية السياسية في القرن الرابع، ويرجع السبب الجوهري في فشل الكنيسة الكاثوليكية في الحفاظ على وحدتها في العصور الوسطى إلى أن مختلف وجهات النظر التي وجدت في الشرق والغرب كانت قائمة على أساس فعالية وجدوى المحافظة على مبادئها والممارسات المتعلقة بعلاقة الدولة بالكنيسة. ذلك أن الاساقفة اللاتين الذين لا يدينون بشيء للامبراطور، والذين ساءلوا القيصرية - البابوية بسبب مواقع داخلية بسيطة، بدأوا يطورون أفكارا مغايرة في العقدين

الأخيرين من القرن الرابع. وعند نهاية القرن الخامس كان أسقف روما ينكر حق الامبراطور في التدخل في شئون الكنيسة المذهبية وتنظيمها . وكان النزاع الذي استمر عدة قرون نتيجة لذلك بمثابة السبب الرئيسى فى الانشقاق بين الكنائس الشرقية اليونانية والكنائس الغربية اللاتينية. الا أن الغرب فى القرن الثامن أخذ بشئ يشبه الفكرة الرومانية – البيزنطية عن الملكية المقدسة إلى حد كبير، وسرعان ما أصبح هذا سببا من أسباب الصراع والمنازعات التى شهدتها أوربا العصور الوسطى. هذه المذاهب الضارة القائلة بالسلطة الملكية المطلقة، والتى لم يتم التخلص منها تماما فى العالم الحديث حتى القرن العشرين ، ترجع فى أصولها الأولى إلى الوجدانية السياسية، أى نظرية الحاكم الواحد المقدس، التى عرفها القرن الرابع.

وهتى فى بيزنطة نفسها، فإن المزايم المبالغ فيها والمستمدة من الوجدانية السياسية أتت نتائجها المدمرة؛ ليس فقط لأنها أبعدت أسقف روما الذى لم يكن ممكنا أن تتحقق السيادة الكاملة للامبراطور الشرقى البيزنطى دون موافقته وتأييده، ولكن أيضا لأن المزايم نفسها هى التى أدت مباشرة إلى فقدان أغنى الولايات الشرقية التى فتحها المسلمون فى القرن السابع. وفى القرنين الخامس والسادس جعل الامبراطور من نفسه نائبا عن الرب ورئيسا للكنيسة وبذلك وجد نفسه مضطرا إلى اضطهاد مجموعات كبيرة جدا من الهراطقة فى مصر وسوريا مما جعلهم يتحولون من الخلاف المذهبى إلى المعارضة السياسية ويرحبون بالعرب الفاتحين باعتبارهم منقذهم.

وإذا كانت الآثار الطويلة المدى الناجمة عن استيعاب الفكر المسيحى لفكرة الملكية المقدسة غير ملائمة فى كثير من الأحيان ، فإنه ينبغى أن نلاحظ أن ثمة فوائد كثيرة قد تحققت من جراء قبول المسيحيين للوجدانية السياسية وتطبيقاتها. وذلك أن إعادة الامبراطورية والسلطة فى القرن الرابع لم يكن ممكنا بدون وجود ايدىولوجية تعيد للامبراطور ولاء واخلاص عامة الجماهير فى الامبراطورية ، فمن الصعب أن نرى فى

عصر قسطنطين أى أساس آخر لاستعادة ولاء الناس بغير اخفاء صفة القدسية على المنصب الامبراطورى . كانت الوجدانية ضرورة سياسية ، كما كان ضغط الحاجة السياسية والاجتماعية هو الدافع إلى نمو مذهب الملكية المسيحية المقدسة أواخر عصر الامبراطورية . وبينما استطاعت الايديولوجية الجديدة أن تحتفظ بالولاء الشعبى فى الغرب لمدة قرن من الزمان؛ فإنها فى الشرق، الأكثر سكانا وتحضرا، وضعت أساسا للسلطة المطلقة للامبراطور المقدس التى استمرت إلى ما بعد غزوات الجرمان. وكان للوجدانية السياسية أثرها من حيث النقد المستمر لوسائل أباطرة القرن الرابع فى تركيز كل سلطات الدولة بأيديهم . ويمكن الرد على هذا بالقول بأن هذا النظام الاستبدادى كان نظاما لا يمكن لأى قائد مسيحى أن يتعاطف معه ، بيد أنه بات واضحا خلال الجزء الأكبر من القرن الرابع أن البديل الوحيد للامبراطورية ، هو انطفاء شعلة الحضارة، وبالنسبة لأى زعيم مسيحى كانت الامبراطورية – بكل مزاعمها الدينية المتطرفة – أفضل من الفوضى الشاملة والبربرية.

وبمضى العقدين الأخيرين من القرن الرابع، بدأت تطرق أذهان مفكرى الغرب اللاتينى فكرة أنه من الممكن أن توجد حضارة تستمر بعد إنهيار الامبراطورية . وهو ما أدى إلى امكانية وجود موقف أكثر انتقادا للايديولوجية الامبراطورية، كما مهد الطريق للمقاومة التى شهدها القرن الخامس ضد القيصرية – البابوية. بيد أنه كان يوسع الأساقفة آنذاك أن يتخذوا موقفا أكثر استقلالا لأن الأباطرة الرومان المسيحيين الذين خلفوا قسطنطين كانوا قد قضوا على أكثر أعداء الكنيسة خطورة، أعنى الأريوسية من ناحية والفكر الوثنى فى معقل الارستقراطية الرومانية من ناحية أخرى، فضلا عن أنهم عضدوا الكنيسة وساعدوها فى الوقت نفسه.

كانت إحدى المشكلات الرئيسية التى واجهت الأباطرة الرومان المسيحيين بعد موت قسطنطين هى فض النزاع الأريوسى التى تفاقمته خطورته على الكنيسة . وكان الحزب

الآريوسى قويا منذ البداية بدرجة لا يمكن معها أن تسحقه المجموعة الأرثوذكسية دون مساعدة الامبراطور ، واتجه الاساقفة الارثوذكس إلى الدولة الرومانية طالبين تدخلهما لصالحهم، ولكن اعتماد الكنيسة على الامبراطور فى اقرار المنازعات المذهبية، واستئصال الهرطقات على هذا النحو أدى فى النهاية إلى صعوبات أكثر تعقيدا . فكيف ستكون النتائج لو أن الامبراطور نفسه أصبح متعاطفا مع الآريوسيين ؟

لقد تم تعميد قسطنطين على فراش الموت على يد أسقف آريوسى ^(١١) ومال أبنائه الذين خلفوه ^(١٢) إلى التعاطف مع المذهب الآريوسى . وبمضى العقد الخامس من القرن الرابع أصبح الموقف حرجا بالنسبة للأرثوذكسية فقد أخرست الدولة كل الأصوات التى ارتفعت مؤيدة لقرارات مجمع نيقية (التى أدانت الآريوسية) ومحتجة على تدخل الحاكم العلمانى فى الشئون الكنسية، بينما كانت هناك وظائف أسقفية كبيرة عديدة خالية ، أو يشغلها الآريوسيين أو من يتعاطف معهم على الأقل. ولم يطرأ أى تحسن على حظ الفريق الأرثوذكسى سوى فى العقد السابع من القرن الرابع ، وكان سبب ذلك ببساطة هو أن أباطرة تلك الفترة صاروا متعاطفين مع عقائدهم ومن ثم تزايد عداوتهم تدريجيا للآريوسية.

وفى مطلع العقد الثامن من القرن الرابع أدينى الآريوسية ادانة صريحة من الامبراطور الارثوذكسى تيودوسيوس الاول (الكبير) ولم تقم لها قائمة بعد هذه الادانة . وأخيرا شن هذا الامبراطور حملة عنيفة سنة ٣٨٣ وسنة ٣٨٤ للقضاء على معاقل الآريوسية فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، وهو الجزء الذى كان يحكمه والذى كان بمثابة معقل الآريوسية ، كما أصدر المراسيم التى تحرم اجتماعات هذه الطائفة وكان أن شكل الناجون من الآريوسيين طوائف منعزلة لاحول لها ولا قوة فى شتى أنحاء الامبراطورية.

(١١) أبوزيبوس أسقف نيقوميديا .

(١٢) هم قسطنطين الثانى، وقسطنطىوس، وقسطانز، ثم توحدت الامبراطورية فى عهد قسطنطىوس بعد موت قسطنطين الثانى ومقتل قسطنانز، وذلك فى الفترة من ٣٥٢ - ١٦٢ التى شهدت تفوق المذهب الآريوسى.

وهكذا استطاعت الكنيسة المسحية في القرن الرابع أن تقضى في النهاية على المشكلة التي عكرت صفو الحياة الكنيسية بشكل خطير، بيد أنها لم تحقق ذلك إلا بإخضاع نفسها للامبراطور، وعلاوة على ذلك فإن القضاء على الأريوسية جاء متأخرا للغاية بحيث لم يمنع انتشار المذهب الأريوسي بين الشعوب الجرمانية، فقد كانت الكنيسة الأريوسية أكثر نشاطا من الكاثوليكية في ارسال البعثات التبشيرية إلى ما وراء الدانوب والراين مما أدى إلى تحول الكثيرين من الملوك الجرمان في القرن التالي إلى مؤيدين للأريوسية، وعلى حين كانت الأريوسية تخبؤ وتلاشى داخل الامبراطورية نفسها قرب نهاية القرن الرابع، ظهرت منازعات جديدة حول طبيعة المسيح في الامبراطورية الرومانية الشرقية في القرنين الخامس والسادس، لقد كاد الامبراطور البيزنطي أن يكون على الدوام في صف الارثوذكسية تقليدا للسياسة التي سار عليها ثيودوسيوس من قبل، وكانت النتيجة أن رحبت الكنائس الشرقية المخالفة بالفاحين المسلمين الذين طرّقوا بلادهم في القرن السابع، وبنفس الطريقة شجعت الكنيسة الدوناتية في شمالي أفريقيا الفتح العربي . وهكذا فإن المنازعات المذهبية في القرن الرابع ألحقت ضررا جسيما بالمسيحية في سوريا، ومصر وشمال أفريقيا؛ فمئذ وقت الدولة في جانب الارثوذكسية، على الأقل منذ عهد ثيودوسيوس، تحول خصومها المذهبيين إلى الفاتحين المسلمين طلبا للنجدة، وهكذا لم تستطع ارادة الامبراطور الروماني أن توفر للكنيسة الحماية من كل النتائج المترتبة على المنازعات المذهبية الكبيرة التي اندلعت في القرن الرابع.

وعلى نحو مماثل، كان على قادة الكنيسة أن يعتمدوا على سلطة الامبراطور من أجل دبره الخطر العظيم الآخر الذي هدد أمن وسلامة الكنيسة في القرن الرابع، وهو الخطر الذي تمثل في بقاء الوثنية. وهنا كانت السياسة الامبراطورية أكثر نجاحا منها في محاربة المذاهب الهرطقية.

ومن الممكن أن يساورنا الشك في أن يكون ظهور الأباطرة المسيحيين قد افزع

العديد من مناهضى المسيحية كما أن يكون هذا هو السبب فى تشجيع الوثنيين على إعتناق الدين الجديد، وعلى الرغم من هذا فإنه يجدر بنا أن نتذكر أنه حين أعتنق قسطنطين المسيحية لم يكن هناك أكثر من ١٠٪ من سكان نصف الامبراطورية الغربى يدينون بالمسيحية . وبسبب الارستقراطية الرومانية الوثنية، أرغم قسطنطين على بناء العاصمة المسيحية الجديدة التى عرفت باسم القسطنطينية فى سنة ٣٣٠. وخلال القرن الرابع كان مايزال هناك أتباع غيورون للوثنية ، كما كان هناك مؤيدون نشطون لها ، وحدث أكثر من مرة أن أدت مساوىء التطورات السياسية فى الامبراطورية إلى تعلق الوثنيين بالأمل فى تحول جديد فى الأحوال يكون فى صالحهم ويغير الموقف مرة أخرى.

وقد وجدت الوثنية أخلص المدافعين عنها بين صفوف الارستقراطية الرومانية فى أوساط المثقفين فى ايطاليا واليونان، إذ ظل الوثنيون يحتفظون بقوتهم وثقلهم فى السنااتو (مجلس الشيوخ) الرومانى والوظائف المدنية حتى أواخر القرن الرابع وتزايد احترام وحماسة الطبقات العليا للوثنية التى أصبحت أكثر روحانية خلال هذا القرن . فتحت تأثير الرواقية والأفلاطونية الجديدة طور الكثيرون من أبناء الارستقراطية الوثنية نوعا من العبادات التوحيدية ، وتخلوا عن اخلاقياتهم القديمة المتراخية ليتجهوا نحو قانون جديد أكثر جدية وحماسة، يعيد إلى الأذهان ذكرى الارستقراطية الرومانية فى أفضل أيام الجمهورية . ومن ثم فليس من الممكن أن نعتبر وثنية القرن الرابع، بقايا من الماضى فى طريقها الى الزوال أمام تقدم المسيحية ، فضلا عن أن هذه الوثنية التوحيدية بقوتهم الجديدة قد منحت الديانة القديمة فرصة جديدة للحياة كما شكلت تهديدا خطيرا على أمن الكنيسة المسيحية فى الغرب.

ولم يكن باستطاعة قادة الكنيسة أن يقضوا على هذه الوثنية المجدة القوى بمفردهم فطلبوا إلى الأباطرة الرومان المسيحيين كى يساعدهم فى أعمالهم التبشيرية . ومهما يكن من أمر ، فإن قسطنطين وأبناءه الذين خلفوه العرش كانوا أميل إلى الحذر،

نظرا لقوة الوثنية بين الطبقة الارستقراطية الرومانية. وقد حال اعتلاء جوليان JULIAN ابن اخى قسطنطين العرش الامبراطورية سنة ٣٦١ ، دون استمرار الجهود التى بذلها خلفاء قسطنطين لكبت الوثنية ، اذ أنه سرعان ما عمل على قلب السياسة الدينية التى اتبعها الأباطرة منذ قسطنطين رأسا على عقب.

ويعرف جوليان عموما باسم جوليان المرتد Julian the Apostate وقد تحول عن ديانتته مثل قسطنطين ولكن فى الاتجاه المضاد - اذ أنه تحول من المسيحية إلى الوثنية . فبينما نشأ جوليان على الدين المسيحى! كان يتذوق الأدب الرومانى والفلسفة اليونانية وفى النهاية ارتد عن الديانة المسيحية إلى هذا النوع التوحيدى من الوثنية الذى سبق وصفه، وأخفى جوليان أمر ارتداده عن المسيحية طوال الفترة التى قضاها ابن عمه - ابن قسطنطين - على العرش ، بيد أنه لم يخف اعتناقه للوثنية بعد ارتقاؤه العرش.

وأثار جوليان المرتد اهتمام كثير من الباحثين ودارسى الأدب، لاسيما أولئك الذين يقدرّون الثقافة الكلاسيكية أكثر من تقديرهم للمسيحية ، والحقيقة، أنه رجل تشكلت شخصيته وأفكاره بفضل أحسن ما كان يمكن للثقافة الكلاسيكية أن تقدمه فى القرن الرابع، فقد كان على قدر طيب من التعليم ودرس الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، كما درس النتاج الأدبى للفكر اليونانى - الرومانى. وعاش على الدوام حياة واعية، صارمة، متقشفة، وكان يشغله حلم كبير بإعادة الديانة الوثنية والثقافة الكلاسيكية إلى مستوى عال جديد، ولم يجد الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الفهم الطموح، والواقع أن جوليان لم يحقق سوى قدر ضئيل من النجاح فى سبيل عرقلة انتشار المسيحية وإعادة الوثنية.

فما أن ارتقى العرش حتى بدأ يعيد بناء المعابد الرومانية القديمة ويعيد إليها بهائمها، وكانت غالبية هذه المعابد قد تردت فى هاوية الاضمحلال، وسرعان ما أخذ يضطهد رجال الكنيسة المسيحيين، ثم منعهم فى نهاية الأمر من الاشتغال بالتعليم، ولكن الشعوب غير المسيحية فى الامبراطورية كانت أكثر اهتماما بمختلف الديانات الفاضلة

الحافلة بالأسرار منها بوثنية جوليان التي كانت فرعاً ثقافياً عالى المستوى - من الناحية الفكرية - من الوثنية الرومانية . وعندما كان الامبراطور جوليان يطيل فى دفاعه عن الديانة الوثنية والثقافة الكلاسيكية إلى حد الاملال كانت عامة الجماهير فى سائر مدن البحر المتوسط تقابله إما بالصمت المطبق أو السخرية اللاذعة . وقبل أن يتمكن من إلحاق أى ضرر بالكنيسة المسيحية، قتل سنة ٣٦٣ أثناء قتال الفرس، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كان أباطرة الدولة الرومانية فى الشرق والغرب مسيحيين على الدوام (١٢).

على أن حكم جوليان، بالرغم من عدم تأثره، قد شجع الارستقراطية الرومانية على مقاومة تقدم المسيحية بعناد وترك مشكلة الوثنية الباقية فى الشطر الغربى من الامبراطورية وهى أكثر صعوبة مما كانت عليه قبل ارتداد جوليان، فقد رفض الاباطرة فى العقدين السادس والسابع من القرن الرابع مساعدة الكنيسة فى قمع الوثنية بالرغم من كونهم مسيحيين وانتهجوا سياسة التسامح الدينى. ولم تنجح الكنيسة فى الحصول على تأييد الامبراطور فى قمع بقايا الوثنية مرة أخرى إلا فى العقد الثامن من هذا القرن.

وقد رأينا بالفعل كيف انحاز ثيودوسيوس إلى جانب الأرثوذكسية وقضى على الأريوسيين، كما استطاع زعماء الكنيسة أن يحصلوا على تأييده فى سحق الوثنية، واتخذ جراتيان Gratian (٣٧٥ - ٣٨٣) امبراطور الغرب خطوات هامة على نفس الطريق، إذ فصل الوثنية عن الدولة الرومانية، فقد استبعد أخيراً لقبه الكاهن الأعظم « Pontifex Maximus » الوثنى من قائمة ألقاب الامبراطور، كما أزال جراتيان مذبح النصر الذى ظل قرون عديدة يرمز إلى الرابطة التى تجمع بين الدولة والآلهة من قاعة السيناتو فى روما،

(١٢) قام أحد الكتاب السريان فيما بين عامى ٥٠٢ - ٥٢٢ هـ، بكتابة قصة جوليان المرتد التى تعتبر واحدة من أهم الكتابات التاريخية التى خلفها لنا الأدب السريانى فى القرن السادس. والقصة فى أقسام ثلاثة تتناول على التوالى قصة قسطنطين وأبنائه الثلاثة ، ثم ايرزيببوس وما لقيه من اضطهاد فى مصر جوليان، ويتحدث القسم الثالث من جوليانوس الذى خلف جوليان وحكم فترة لا تزيد عن سبعة شهور عاودت فيها المسيحية انتصارها، وقد كتبت قصة جوليان المرتد على يد هذا الكاتب السريانى بفرض الاشادة بانتصار المسيحية على الوثنية وحث الوثنيين على اعتناق المسيحية . ومن المثير أن التأثير الكبير لهذه القصة لم يقتصر على المؤرخين السريان، مثل ابن العبرى، لحسب ، بل شمل المؤرخين المسلمين الأوائل أيضاً، فقد تناول الطبرى فى الجزء الأول من تاريخه، وربما يكون قد قرأها فى نصر معرب، ونقلها ابن الأثير وأبو الفدا واليعقوبى والمسعودى فى « مروج الذهب » . لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر : دكتور مراد كامل (باخرون)، « تاريخ الأدب السريانى »، القاهرة سنة ١٩٧٤ . (المترجم)

وحرم كهنة الديانة القديمة من الاعانة المالية التي كانوا يتلقونها من الدولة . وبهذه الطريقة تحررت اجتماعات السناتو، والهيبة الامبراطورية من أى اتصال رسمى بالديانة التقليدية القديمة.

كانت إزالة جراتيان لمذبح النصر هى المناسبة التى تمت فيها المناظر الكبيرة بين سيماخوس Symmachus زعيم الارستقراطية الوثنية، وأقدر رجال الكنيسة فى إيطاليا إمبروز Ambrose أسقف ميلانو (القديس إمبروز)^(١٤) وكانت نتائج المناظرة باهرة ومؤسفة فى الوقت نفسه بالنظر إلى ما نتج عنها من مساوئ فى تاريخ حرية الفكر. فقد كان سيماخوس مثالا للفكر الحر بكل محاسنه ومساوئه؛ كان متسامحا كريما، بيد أنه كان ضعيفا سليم الطوية. إذ كان من رأى هذا الرومانى الفاضل أن ثمة طرقا كثيرة تقود إلى الله - فلماذا لا تترك روما القديمة التى فى ظلها ازدهرت الدولة الرومانية لتعيش فى سلام ؟ إلا أن إمبروز كان هو الرجل الصلب الذى يعلم أنه يمتلك الحقيقة، فقد كانت المسيحية هى الديانة الحقيقية الوحيدة فى رأيه، ولذا يجب تدمير كل الديانات الأخرى. وسوف يبنى القارئ اليوم حكمه فى هذا الشأن وفقا لمشاعره الشخصية. وهناك حقيقتان على كل حال هما : أن الرجال الأشداء الذين يمتلكون الحقيقة عادة ما يتفوقون على المفكر الحر المتسامح الذى لا يستطيع أن يصل بفلسفته الخاصة إلى حد القضاء على خصمه فى الوقت الذى يفعل خصمه كل ما فى وسعه للقضاء عليه. ثانيا أننا سوف نلاحظ أن الفكرة الشمولية الحديثة عن الحرية - بمعنى أن الحرية لا توجد سوى لطاعة الدولة -

(١٤) القديس إمبروز (٣٤٠ - ٣٩٧) ولد فى مدينة تريف Treves شمال وسط غالة لأبوين من أسرة نبيلة عريقة فى المسيحية، وكانت تريف التى اتخذها عدد من الأباطرة على التوالى مركزا لاتمامهم بسبب غارات البرابرة، مركزا حضارياً يضارع روما نفسها حيث وجدت بها المدارس والمكتبات، كما قصدوا المشاهير من الدارسين ورجال العلم ورغم أنه بدأ حياته فى المجال السياسى حيث تولى عدة مناصب عامة، إلا أنه اختير أسقفا لميلانو سنة ٣٧٤ بمحض الصدفة، وإذا لم تكن لديه أية اهتمامات لاهوتية حتى ذلك الحين قد كرس نفسه للدراسات الدينية وأحرز نجاحاً كبيراً فى هذا المجال حتى وصف بأنه « خادم جيد للصالح العام » Usus minister publici كما استحوذ على احترام الأباطرة. لمزيد من المعلومات عن هذا الرجل انظر :

L.K. Rand : Founders of the Middle Ages (Rover, New York, 1957), PP. 69 -

101.

وعن مؤلفاته وموقفه الحازم من الامبراطور ثيودوسيوس انظر : عن الغمراوى ، المجلد ١ ، ص ٥٧ وما بعدها .

(المترجم)

هى الصياغة العلمانية لمذهب أمبروز المستمد من رأى القديس بولس القائل بأن الحرية الحقيقية هى طاعة الحقيقة المتمثلة فى يسوع المسيح، فهل هى شطحة بعيدة أن نرى سر جاذبية الفلسفات الشمولية الحديثة كامنا فى حقيقة كونها هرطقات مسيحية ؟ أن هذا القول، لايعنى بأى حال، أن المسيحية مسئولة بأية طريقة عن هذه الهرطقات ؟ وإنما يعنى أن المسيحية لا يمكن أبدا أن تتعايش أو تتواءم مع هذه الهرطقات.

كان الوقت فى صالح أمبروز، ولم يكن فى صالح سيماخوس، وأيا كانت جدوى هذه المناقشات فإنها كانت موجهة لاقناع الامبراطور الرومانى، الذى انحاز تماما - فى شخص ثيودوسيوس الأول - إلى جانب أسقف ميلانو. فقد ذهب ثيودوسيوس - الذى كان قد قضى على أعداء الأرثوذكسية داخل الكنيسة فعلا - إلى مدى أبعد مما ذهب إليه جراتيان فى محاربة الوثنية ، وعمل على تدمير أعداء الارثوذكسية خارج الكنيسة أيضا. ففى عام سنة ٣٩٢ وبعد أن أحكم السيطرة على الامبراطورية بأسرها، أصدر تحريما رسميا للوثنية، يقضى بمنع أى شخص فى أى مكان ، حتى ولو كان خاصا، من ممارسة شعائر الديانة القديمة.

وأدت خطوة هذا التشريع المزعج إلى رد فعل خطير ، إذ أن فلول الارستقراطية الوثنية الرومانية قاتلت قتالا يائسا فى سبيل المحافظة على ديانة الدولة الرومانية القديمة وتجمعت هذه الارستقراطية فى النهاية حول قائد وعد بإعادة الوثنية إلى سابق مكانتها إذا ما نجح فى الاستيلاء على السلطة. ونجح هذا المغتصب ، بطل الوثنية الأخير، فى السيطرة على روما فترة، من الوقت، ولكنه لقى هزيمة ساحقة على يدى ثيودوسيوس سنة ٣٩٤، وفى هذه المعركة هلك معظم المسئولين عن الحركة الوثنية المضادة.

وهكذا فإن انتصار ثيودوسيوس يعتبر مؤشرا على الهزيمة النهائية للوثنية، وبعد موت ثيودوسيوس فى سنة ٣٩٥ بعد انتصاره العسكرى مباشرة، أصدر أبناؤه اللذان خلفاه

فى حكم الشرق والغرب مزيدا من القوانين ضد الوثنية^(١٥) فصدرت أوامر بتدمير كل المعابد والهيكل المقدسة للآلهة اليونانية - الرومانية القديمة. ولم يعد مسموحا بحرية العبادة فى الامبراطورية الرومانية، وصارت هى الديانة الشرعية الوحيدة فى الامبراطورية منذ ذلك الحين.

وهكذا تمتعت الكنيسة وحدها بالامتيازات المادية والمعنوية بعد عام ٢٩٤ م . وهى الامتيازات التى كان قسطنطين قد أسبغها على الكليروس الكاثوليكي، لكى يضعهم على قدم المساواة مع الكهنة الوثنيين. ومن خلال الانعامات الجديدة التى تلقتها الكنيسة من الأباطرة الأرثوذكس أواخر القرن الرابع، تمتعت الكنيسة بعدد كبير من الامتيازات القانونية والمالية التى رفعتها فوق القانون العام فى الامبراطورية وجعلت منها دولة داخل الدولة، فمنذ عهد قسطنطين تمتع أفراد الكليروس المسيحى بالاعفاء من الضرائب المفروضة على سائر المواطنين، وفى العقدين الأخيرين من القرن الرابع ذهب الأباطرة الأرثوذكس خطوات أبعد فى طريق الاعفاءات المالية للكنيسة وسمح الأباطرة للترضى الضرائب فى المدن بترك الخدمة وأعقوبهم من كل الالتزامات الضريبية المفروضة على بورجوازية المدن، لكى يدخلوا فى عداد الكليروس، حيث لا تكون عليهم أية التزامات مالية تجاه الدولة. وبهذا يكون الأباطرة الأرثوذكس فى أواخر القرن الرابع قد ساعدوا على انهيار النظام الضريبى الذى أقامه دقلديانوس وقسطنطين من أجل تقوية صفوف الكليروس.

وأضيفت إلى الامتيازات المالية التى تمتع بها رجال الكنيسة امتيازات قضائية. فقد سمح بأن يكون للكنيسة محاكمها الخاصة وبأن تطور قانونها الخاص وهو القانون الكنسى. واستطاع الاساقفة بطريق غير مباشر أن يخففوا من الأحكام التى أصدرتها

(١٥) مما أركاديوس فى الشرق، وهونوريوس فى الغرب، كما أن أكاديوس (٢٩٥ - ٤٠٨ م) أصدر مرسوما بتعطيل المعابد الوثنية واستخدام أحجارها فى منشآت عامة.
(المترجم)

المحاكم العادية فى الامبراطورية ، لدرجة أن تخلت الدولة الرومانية تماما عن سلطتها القضائية على الكنيسة المسيحية. وهكذا جعل الأباطرة الرومان المسيحيون فى القرن الرابع - وثيودوسيوس الأول على وجه الخصوص - من الكنيسة كيانا مستقلا تمام الاستقلال عن سلطان الدولة الرومانية القضائى.

ومع بداية القرن الخامس كان الأباطرة الرومان المسيحيون فى الغرب قد حرروا الكنيسة من تفككها المذهبى ، وسحقوا أعداء الوثنيين ، ومنحوها الامتيازات الواسعة التى جعلت منها دولة داخل الدولة. ومن الممكن أن نجادل بأنه بتحرير الكنيسة من سلطان الدولة التشريعى قوض ثيودوسيوس والأباطرة المسيحيون الآخرون صرح النظام الاستبدادى الذى شاده دقلديانوس وقسطنطين ، والذى حفظ الامبراطورية فى القرن الرابع. وبالتالى يمكن القول بأن السياسة التى أنتهجها الأباطرة الأرثوذكس تجاه الكنيسة كانت سياسة انتحارية بالنظر إلى تأثيراتها على الدولة الرومانية.

ومهما يكن من أمر فإنه على المدى الطويل كانت سياسة أباطرة القرن الرابع المسيحيين تجاه الكنيسة من عوامل بقاء الحضارة الغربية . لأن الامبراطورية الرومانية فى الغرب قد وهنت وضعفت بالفعل قبل مقدم الشعوب الجرمانية الغازية. وبطلوع شمس العقد الرابع من القرن الخامس لم يكن للامبراطور الرومانى فى الغرب أى نفوذ خارج إيطاليا ، وبدأت الممالك الجرمانية تظهر فى غرب أوروبا. وفى العقد السابع من القرن الخامس، لم يعد يوجد بإيطاليا حاكم يحمل لقب « الامبراطور الرومانى » الضخم الفارغ من أى معنى . ولو لم يتحد أباطرة القرن الرابع المسيحيون مع الكنيسة ويقوموا بحمايتها وموازرتها إلى المدى الذى جعلها دولة داخل الدولة، لما أصبحت الكنيسة قوية بالقدر الكافى للوقوف فى مواجهة الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس . فبفضل الأباطرة الرومان المسيحيين، كانت الكنيسة فى القرن الخامس ما تزال قوية بالقدر الذى يكفى لأن تبدأ فى تنصير الشعوب الجرمانية ، وتلقينهم الحضارة المسيحية اللاتينية. ولو لم تكن هذه القوة قد

بنيت فى القرن الرابع، لكن من المحتمل أن تستسلم أوروبا للبربرية الشاملة ، والظلام الحضارى الذى ساد أوائل العصور الوسطى . فقد أقامت الامبراطورية الرومانية المسيحية سلطة الكنيسة المسيحية فى القرن الرابع، وجاء الآن دور الكنيسة لى تحل محل الدولة الرومانية.

كان الأباطرة الذى خلفوا ثيودوسيوس رجالا تنقصهم الكفاءة . فقد حرص ثيودوسيوس على مسالمة الجرمان ولكن ولديه (أركاديوس وهنريوس) ناصباهم العدا ، وفى سنة ٤٠٦ انهارت حدود الراين واندفعت قبائل عديدة إلى داخل الامبراطورية . ومن الناحية الرسمية كانت هناك امبراطورية غربية حتى سنة ٤٧٦ بيد أن الأباطرة الأواخر لم يكن لهم أى تأثير على مجرى الأحداث ، بل أنهم هجروا روما إلى رافنا Ravenna فى أوائل القرن الخامس، مما ترك المدينة الخالدة مفتوحة أمام الغزاة. وظهر أسقف روما كقائد وزعيم يملأ مكان الامبراطور الغائب.

وبينما كانت الامبراطورية الرومانية تتدهور فى القرن الخامس، بدأ اهتمام الناس يتحول رويدا رويدا تجاه المؤسسة الوحيدة التى كان يمكنها أن توفر قدرا من الوحدة وتتولى الزعامة فى مجالى التعليم والدين ؛ أى أسقفية روما حيث الزعيم المعترف به للكنيسة المسيحية فى الغرب.

كان أول البابوات الذين قاموا بالدور الأعظم فى الحضارة الغربية - هو ليو الأول Leo I (٤٤٠ - ٤٦١) الذى يعرف عادة باسم « القديس ليو العظيم » فقد كان بابوات القرن الرابع وأوائل الخامس رجالا ضعفاء غير طموحين لم يفتيدوا شيئا من هيبة ومكانة المنصب الذى يشغلونه، فعلى سبيل المثال، طلب قسطنطين من أسقف روما أن يحل المشكلة الدوناتية، ولكن البابا فشل فى التصرف وخسر بذلك فرصة هائلة لتأكيد السلطة البابوية. وينبغى علينا ألا نفكر فى البابا (وهو الاسم الذى صار يطلق على أسقف روما) فى أوائل العصور الوسطى على ضوء المكانة التى أحرزتها البابوية خلال العصور

الوسطى العليا. ذلك أن البابوية، لم تصبح قادرة على البدء فى إحراز مكانتها الضخمة سوى فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وهى المكانة التى أمنتها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، وذلك بعد فترة طويلة مؤلة تعرضت فيها للكثير من تقلبات الأحوال وحركات التقهقر والتخلف. وكان ليو الأول هو الذى صاغ فى وضوح المذهب الذى استطاعت البابوية أن تقيم على أساسه مزاعمها فى الصلاحيات وهى المزاعم التى اقتربت من تحقيقها فى العصور الوسطى العليا. ومن ثم يمكن القول بأن القديس ليو هو مبتدع نظرية بابوية العصور الوسطى.

ولد القديس ليو أواخر القرن الرابع، وانتخب أسقفا لروما سنة ٤٤٠ م. وكان ينتمى لعائلة أرسقراطية رومانية عريقة، مما يوضح أن الكنيسة كانت قد بدأت تجتذب عددا من أبناء الطبقة الحاكمة القديمة فى روما لتولى زمام القيادة فيها. وكان نشاط ليو هو أكثر عناصر شخصيته فعالية، وهى ميزة اتسم بها كل بابوات العصور الوسطى العظام إذ عمل بلا كلل على رفع المستوى التعليمى والأخلاقى لرجال الكنيسة فى الغرب، وتحسين خدمة القديس الكنسى، كما لعب دورا رائدا فى المنازعات المذهبية التى نشبت فى عصره. ففي مجمع خلقدونية الذى انعقد سنة ٤٥١ تقبلت الكنيسة اليونانية التفسير الذى قدمه ليو للثالوث المقدس، كما أنه بذل الكثير فى سبيل تحسين القانون الكنسى.

وقد خرج ليو مرتين من روما سنة ٤٥٢ وسنة ٤٥٥ - وهو واعي لانتهيار الامبراطورية الرومانية الوشييك الحدوث - لمفاوضة ملوك الجرمان الذين غزوا إيطاليا وأقنعهم بترك مدينة روما. وفى المرة الأولى، على الأقل، أى أثناء مفاوضاته مع الهون Huns، كللت جهوده بالنجاح. بيد أنه كان أقل نجاحا سنة ٤٤٥ م أثناء تعامله مع الوندال Vandal. ولكن الأمر لا يخلو من دلالة هامة حين يقوم أسقف روما بدور المدافع عن المدينة الخالدة بدلا من الامبراطور الرومانى. ولم يستطع ليو، سليل الارستقراطية الرومانية، أن يقتنع بنهاية الامبراطورية بالرغم من وجود عدة مؤشرات فى أيامه توضح أن السلطة الامبراطورية

كانت تنزلق فى طريق الزوال، إلا أن البابا عمل على جعل الأسقفية الرومانية خليفة
للامبراطورية الرومانية فى الغرب، .

وتمهد السبيل لنقل زعامة الغرب من الدولة الرومانية إلى أساقفة روما، لا بفضل
نشاطات ليو فحسب، ولكن بفضل النجاح الذى زكى به مزاعم الأسقفية الرومانية بشأن
التفوق النظرى داخل الكنيسة المسيحية بوجه عام، وسادت هذه المزاعم فى أوروبا إبان
جميع تقلبات الأحوال التى مرت بالبابوية أوائل العصور الوسطى وشكلت تحديا مباشرا
لمزاعم الامبراطور البيزنطى .

وقد قامت المزاعم التى أوجدها سان ليو حول أسبقية أسقف روما فى الكنيسة على
أساس ما يعرف باسم المذهب البطرسي، ويمكن إرجاع هذا المذهب فى أصوله إلى
القرن الثانى، ويجد الكاثوليك أصوله طبعاً فى العهد الجديد، بيد أن سان ليو كان أول من
عبر عنه تعبيرا كاملا قويا، ويقوم المذهب البطرسي على أساس كلمات المسيح وهو
يخاطب حواريه فى إنجيل متى (١٦ : ١٥ - ١٩) : « وقال لهم، وأنتم من
تقولون أنى أنا ، فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله
الحى، فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا، أن لصا ودما
لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس
وعلى هذه الصخرة ابنى كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها
وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون
مربوطا فى السماء، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى
السماء ».

وتختلف تفسيرات هذا النص المقدس اختلافا كبيرا بقدر ما يمكننا أن نتصور.
فإن وجهة النظر البروتستانتية العامة تقول بأن المسيح كان يخاطب كل الحواريين فى
شخص قائدهم بطرس، ومن ثم فإن كل الأساقفة - أو كل ممثلى المسيح - يتمتعون بهذه

القوة التي منحها لهم الرب في الربط والحل. وكان ليو العظيم هو الذي أرسى أسس وجهة النظر الكاثوليكية التي لقيت القبول بفضل الرواية القائلة بأن بطرس كان هو أول أساقفة روما وأنه استشهد فيها، وتتجه الأبحاث الأثرية الحديثة إلى محاولة البرهنة على هذه الرواية من الناحية التاريخية.

ويزعم المذهب البطرسي الذي نادى به ليو أن المسيح قصد أن يكون بطرس وكل من يخلفه في كرسيه رئيسا للكنيسة بأسرها، فهو الصخرة أو الأساس الذي قامت عليه الكنيسة، ولذا يجب أن يتمتع بسلطان مطلق على العقيدة والأخلاق بوصفه نائب المسيح على الأرض، وهكذا يكون أسقف روما هو الوحيد الذي يمتلك مفاتيح ملكوت السموات وهو وحده نائب المسيح على الأرض، وهو الراعي الأول لشعب المسيح، ولم يلق هذا الرأي أى قبول من جانب الأساقفة الشرقيين، والواقع أن مسيحيي شمال أفريقيا اللاتين قد أنكروه في القرن الثالث، وفي أيام ليو تقبلت الكنيسة اللاتينية النظرية البطرسية وسلمت بها، ولم يثر سؤال حول هذا الموضوع حتى القرن الثاني عشر، ولكن بينما اعترف أساقفة الشطر الغربي من الامبراطورية بمزاعم ليو حول المذهب البطرسي، ظلت السلطة الفعالة للبابا قاصرة على إيطاليا، إذ كانت كل من فرنسا وأسبانيا تهتم بأمر نفسها وحين حاول البابا أن يمد نفوذه على هذه المناطق في القرون التالية لجعل ن نفسه رئيسا حقيقيا للكنيسة الغربية، ثارت مشكلات كثيرة، وكان مقدرًا لمحاولة تحويل المذهب البطرسي إلى حقيقة واقعة أن تكون الموضوع الرئيسي في تاريخ بابوية العصور الوسطى.

وعلى الرغم من هذا فمن الأهمية بمكان، بالنسبة للحضارة الوسيطة، أن اعترفت كنائس الغرب جميعا، في أيام ليو، بالمذهب البطرسي، وخلال جميع المتاعب التي وجدت الكنيسة نفسها في غمارها، كان المذهب البطرسي الذي أرسى قواعده القديس ليو، بمثابة المثل الأعلى الذي يحفز بالبابوية إلى فرض وصايتها وإشرافها الفعلى على الكنيسة الغربية، ووجدت الكنيسة الرومانية في النظرية البطرسية مثلاً أعلى يدعوها لأن تحل محل

الامبراطورية المتداعية في الغرب كمؤسسة تتركز حولها الحضارة الغربية، وبفضل القديس ليو صارت البابوية مؤسسة مستقرة وثابتة بحيث لم تستطع التغييرات العظيمة التي حدثت أوائل العصور الوسطى أن تقلل من فعاليتها أو تنال من مكانتها وتقضى على هيبتها. وبفضل أعمال القديس ليو وجدت الامبراطورية الرومانية خليفة لها في شخص البابا الروماني باعتباره القوة التي تلم شمل الغرب الأوربي.

وفي الختام ، فإننا نستطيع أن نرجع القهقري، عبر الفترة ما بين موت قسطنطين ونهاية بابوية ليو العظيم ، لنرى أن الأباطرة الرومان المسيحيين أرسوا الأسس التي قامت عليها سلطة البابوية في العصور الوسطى، وخلال القرن الرابع كان أساقفة روما سلسلة من الرجال الضعفاء الذي ينقصهم الطموح فلم يفيدوا إلا قليلا من تراثهم الكبير ومن قوة منصبهم العظيمة. ومن حسن الحظ أن الأباطرة هم الذين قاموا بأعمال البابوات نيابة عنهم، فقد سحقوا الوثنية وحولوا روما إلى مدينة مسيحية - وهو ما فشل قسطنطين في تحقيقه - وهو ما كان البابوات سيعجزون عن تحقيقه اعتمادا على جهودهم الذاتية ، لقد قام الأباطرة بالقضاء على الهرطقات وأكثروا الوحدة المذهبية للكنيسة الغربية، كما حققوا للكنيسة مكاسب مادية ضخمة واغدقوا عليها الامتيازات الكثيرة.

ثم سقطت الامبراطورية الرومانية في منتصف القرن الخامس، وكل ما كان ضروريا ومطلوبا هو الشخصية العظيمة للجلوس على عرش بطرس، لقد كان المطلوب رجلا ذا فكر جريء ونشاط جم، وكان القديس ليو هو الرجل المناسب لتولى زعامة الكنيسة الغربية بدلا من الامبراطورية . بفضل أعمال الأباطرة المسيحيين تم إرساء قواعد السلطة البابوية، صحيح أن الأمر استغرق خمسة قرون أخرى حتى يكتمل البناء، ولكن القديس ليو حدد للبابوية مهمتها آنذاك، ومن خلال المكاسب المادية التي حصلت عليها البابوية من الأباطرة المسيحيين ، ومن خلال الايديولوجية البطرسيية التي قدمها سان ليو، كان من الممكن حينذاك أن يبدأ بناء السلطة البابوية في كنيسة العصور الوسطى.

الفصل الثالث

بناء المسيحية اللاتينية

١ - أثينا وأورشليم

إن توافق قادة الكنيسة المسيحية في الامبراطورية الرومانية المتأخرة مع الثقافة الكلاسيكية أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الثقافة الغربية. فقد تمثلت نتيجة ذلك في تبني النظام التعليمي الذي وضعته الكنيسة في أوروبا العصور الوسطى لشطر كبير من الادب الكلاسيكي والفلسفة ، كما صار الشطر الأهم من نتاج الفكر اليوناني - الروماني محورا تتركز حوله الثقافة اللاتينية المسيحية. وقد هال كل الكتاب المحدثين تقريبا لما قامت به المسيحية من تطويع للثقافة الكلاسيكية؛ بل انهم صوروا ذلك على أنه تطور حتمي.

والواضح فعلا، ان قادة الفكر في الكنيسة، منذ القرن الثاني على الأقل- ان لم يكن منذ عهد القديس بولس نفسه - تلقوا تعليما كلاسيكيا رفيعا، ومن ثم يمكن القول بأن أولئك العلماء كانوا محدوين داخل اطار التعليم الذي تلقوه، بحيث جلبوا معهم آداب الثقافة اليونانية - الرومانية وفلسفتها، وبحيث طبعوا المسيحية اللاتينية بطابع الاتجاهات الجوهرية في الفكر الكلاسيكي. بيد أن هذا التحول الثقافي الحاسم كان ضروريا، ولم كانت هناك محاولة لمقاومة هذا الاتجاه، لما كان ذلك في صالح التعليم المسيحي، ومع ذلك فقد انتقد الاتجاه الى تبني الثقافة الكلاسيكية واحد من أعظم المفكرين في عصور الكنيسة المبكرة، وهو المفكر المسيحي تروتوليان Terutllian الذي عاش في شمال أفريقيا على مفترق القرنين الثاني والثالث^(١).

وفي الامبراطورية الرومانية، كانت اكثر أجنحة الكنيسة اللاتينية تمسكا بتقاليد المسيحية الأولى موجودة في المدن الكبيرة الفنية فيما يعرف الآن بالجزائر وتونس، وربما

(١) ولد تروتوليان حوالي سنة ١٦٠ بقرطاجة، أو بالقرب منها، ومات حوالي سنة ٢٤٠. (المترجم)

كان هناك شيء ما في البيئة في شمال افريقيا هو الذي مكن لنزعة التعصب، ذلك أنه كان هناك اتجاه مماثل في شمال افريقيا في وقت لاحق حين تحول هذا الاقليم الى الاسلام^(٢). كان ترتوليان، وهو المتحدث بلسان المسيحيين في شمال أفريقيا في الزمن السابق على عصر القديس أوغسطين، رجل قانون مثقفا اعتنق المسيحية في منتصف عمره، والحقيقة ان ترتوليان على خلاف غيره من المفكرين، لم يحاول أن يفرض ثقافته الكلاسيكية على الفكر المسيحي، وأكد أنه ينبغي على الكنيسة أن تحافظ على رسالتها بتخليص نفسها من الفكر الكلاسيكي. ويبدو أنه كان قد تحقق - أكثر من غيره من آباء الكنيسة - من أن هناك فروقا شاسعة بين التراث اليهودي والتراث اليوناني. وكان الوحيد بين آباء الكنيسة الأوائل الذي عارض اقحام ثنائية الروح والجسد في الفكر اليوناني في المسيحية، وعمل على الحفاظ على فكرة الأنبياء العبرانيين عن النفس (نفس)، أي الانسان ككل^(٣). وحط من شأن الآداب الوثنية باعتبارها أراجيف في نظر الرب، كما أهاب بالمسيحيين أن يرفضوها تماما بدافع من حماسه المتعصبة. وحقر الفلاسفة اليونان والرومان ووصفهم بأنهم « باعة يتجولون بالحكمة والفصاحة » وبأنهم « حيوانات تمجد نواتها » وزعم

(٢) يشير المؤلف هنا الى انتشار مذهب الخوارج - بفرقه المختلفة - في شمال افريقيا أواخر العصر الأموي وينبغي أن تشير هنا الى أن الظروف الاجتماعية والسياسية لبلاد المغرب أواخر القرن الهجري الأول، وأوائل القرن الثاني (أواخر السابع الميلادي وأوائل الثامن) كانت من أهم موامل انتشار مذاهب الخوارج بين البربر فقد نجمت عن سياسة الأمويين الأواخر في جمع الأموال، وسوء معاملة البربر واعتبار بلادهم دار حرب رغم اعتناقهم للإسلام، والنزاع بين القيسية واليمانية الذي ترك آثاره السلبية على شمال افريقيا - التي ثبت ان غالبية من قاموا بفتحها كانوا من اليمانية - موجة من السخط مهدت التربة لانتشار مذاهب الخوارج التي تعزز على الثورة على السلطان الجائر، كما أن ما أظنه الخوارج من أن الامامة حق متاح لكل مسلم جعل هذا المذهب يلقي قبولا لدى اهل شمال افريقيا بما جعلوا عليه من البدانة الصريحة. لمزيد من التفاصيل انظر : محمود اسماعيل، الخوارج في المغرب الاسلامي (دار العودة، بيروت ١٩٧٦) ص ٢٨ - ص ٤٥ .

(٣) نفس Nephesh إحدى الكلمات الدالة على الروح في الكتاب المقدس وهي تعني النفس الحية حيث يحكي سفر التكوين (٧:٢) قصة خلق آدم : « وجعل الرب الاله آدم قراباً من الارض وتفتح في انفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية بمعنى الفكر اليهودي يعتبر الانسان وحدة مركبة من جسد وروح، مما يؤكد الوحدة بين الروح والجسد وأن الانسان الحي ليس روحاً تسكن جسداً زائلاً ولكنه وحدة عضوية، والبحث على هذا النحو استعادة للانسان ككل -

انظر :

S.G.F. Brandon, The Idea of the Soul in Religion in ancient History, Studies in Ideas, Men, and events (Charles Scribner's sons, New York 1939.P. 69.

(المترجم)

أن « جدل ارسطو الباعث على الرثاء » هو أصل لكل تجديد، وخلص ترتوليان من هذا كله الى التساؤل بقوله : « اية وشائج ياترى بين الاكاديمية والكنيسة ؟ نحن لسنا بحاجة الى الفضول بعدما ناء به يسوع المسيح، او لتقصى حقيقة ما جاء به الانجيل ».

والحقيقة أن المفهوم العبرانى عن النفس (نفس) ووجهة النظر اليونانية عن ثنائية الطبيعة البشرية، متناقضان بشكل أساسى. كما أن فكرة الوجود الانسانى التى تطرحها الاناجيل الثلاثة الاولى ؛ وحتى فى كتابات بولس (فى رأى كثير من الباحثين) عبرانية فى أساسها. بيد أن آراء ترتوليان لم تجد لها سوى قلة من الأتباع على مدى الأجيال المتعاقبة من المفكرين الكنسيين، وقد رآيه هذا أن يظل تيارا خفيا فى الكفر المسيحى يثير مشاعر زعماء الكنيسة الذين قبلوا المعارف الدنيوية دون تحفظ، كما قدر لهذا التيار أن يتفجر من أن لآخر فى اتجاهات ثورية متعصبة. ولكن الموضوع الرئيسى فى تاريخ الفكر المسيحى كان هو ذلك التطويع الذى خضعت له الثقافة الكلاسيكية بحيث تتواءم مع الكنيسة، وهو الأمر الذى عارضه ترتوليان أيضا معارضة.

كان التراث الكلاسيكى قد فقد قوته الابداعية فعلا فى عصر ترتوليان وصار يعتمد على التصنيف والاقتباس المتكرر. وليس من قبيل المبالغة أن نقول أن العمل الذى يمكن أن نعتبره عملا يتناول المسائل الدنيوية بحق فى أواخر عصر الامبراطورية، هو كتاب « الحمار الذهبى » الذى ألفه أبوليوس Apuleius. ويعتبر هذا الكتاب النموذج الاول لروايات مغامرات الصعاليك، فقد كتبت جميع الأعمال الهامة فى مجال الآداب اليونانية والرومانية والفلسفة قبل نهاية القرن الثانى، وكتب معظم هذه الأعمال قبل نهاية سنة ١٠٠ ميلادية. ومنذ ذلك الحين فصاعدا انحصرت الثقافة الكلاسيكية فى أوساط الأكاديميين، وغابا ما استخدمت الكتابات الكلاسيكية ككتب مقررة على طلاب المدارس.

كان الشائع حتى نهاية القرن التاسع عشر - ولا يزال شائعا حتى اليوم فى بعض

الأوساط - أن ما وصلنا من أدب التراث الكلاسيكى إنما هو ثقافة حرة، وإذا كان المقصود بالتعليم الحر هو تعليم « الرجل الحر » أى الرجل الذى يتمتع بدخل خاص يغنيه عن العمل لكسب العيش بالمعنى المعتاد للكلمة ، فهذا حقيقى . إذ كانت مدارس النحو (مايقابل التعليم الابتدائى) ومدارس البلاغة (مايقابل المدارس الثانوية ومراحل التعليم العالى) الرومانية مخصصة لاعداد أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء الطبقة الوسطى لتولى مناصب القيادة فى الحكومة والقضاء؛ ولذا لم يكن ثمة داع لأى نوع من أنواع التعليم الفنى، فقد كان المطلوب أن يكون المرء قادرا على أن يقرأ بدقة وأن يكتب ويتحدث وفقا لمستويات الفصاحة المعترف بها فى الامبراطورية والتى كانه تهتم كثيرا بالمحسنات البديعية، وكان الطالب الذى يتلقى هذا التعليم الحر فى ذلك الوقت - كما هو الحال فى عصرنا - يتميز على الآخرين بأن يصبح قادرا على أن يكتب ويتحدث ويقرأ بفهم ووضوح، إلا انه فى الواقع لم يكن فى مقدور هذا الانسان المتعلم أن يضيف شيئا جديدا، اللهم الا أقل القليل، فمهما كانت معلوماته فى العلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد، كان عليه أن يغترف من الكتب الكلاسيكية، وبحلول القرن الثانى، ومع توارى الفكر الأرسطى خلف استار النسيان، لم يعد من الممكن دراسة كتب التراث الكلاسيكى التى كتبت بمنهج تحليلى دراسة متعمقة.

وهكذا كان التراث الكلاسيكى الذى قدر للمسيحية أن تتبناه فى الغرب اللاتينى مضمحلا وكاد أن يكون مجديبا من الأفكار الجديدة، والواقع أن أباء الكنيسة هم الذين أعطوه دفعة جديدة للحياة، إذ كانت كل الأعمال الهامة المكتوبة باللغتين اليونانية واللاتينية فى أواخر عصر الامبراطورية من انتاج رجال الكنيسة، فلماذا أنقذ أباء الكنيسة التراث الكلاسيكى واستوعبوه، وتجاهلوا انتقادات ترتوليان الشديدة لاختفاق الثقافة الكلاسيكية وضلالها ؟ بوسعنا أن نقدم هنا اجابات لهذا السؤال : ففى المقام الأول كان أباء الكنيسة انفسهم من نتاج مدارس النحو والبلاغة الرومانية ولم يكن فى استطاعتهم ان يتصوروا أى

نظام تعليمي آخر، أو أي برنامج دراسي مخالف لذلك الذي كان قد تبناه الرومان ونشروه في شتى أرجاء امبراطوريتهم بطبيعة الحال، ولا يمكن أن نقول بأن آباء الكنيسة قد اخطأوا مجرد انهم لم يصلوا الى المستوى الذي يسمح لهم بالقيام بمحاولات للنهوض بالتعليم نهوضاً كاملاً، فقد كان على العالم أن ينتظر ألف عام حتى يجيء جون ديوي John Dewey (١).

وثمة عامل آخر حسم المسألة التي تبنت الكنيسة التراث الكلاسيكي على أساسها، وهو العامل الذي تمثل في وجود مستويين بين المؤمنين بالعقيدة المسيحية، وتحددت ابعاد المذهب القائل بوجود هذين المستويين بشكل واضح للمرة الأولى على يد اللاهوتي السكندري أوريجين Origen الذي عاش في أوائل القرن الثالث، وقد تقبل هذا غالبية آباء الكنيسة بما فيهم القديس أوغسطين؛ ولو انهم تقبلوه ببعض الشك وبعد أخذ ورد، وينادي هذا المذهب بأن هناك مستوى لعامة الجماهير في فهم الدين دون مناقشة، ومتسوى آخر يتناسب مع زعماء الكنيسة وهو الذي يفهم الدين من وجهة نظر فلسفية وبعد بحث وتمحيص، وبالنظر الى المعارضة العنيفة التي واجهتها الكنيسة من دوائر المتعلمين حتى القرن الرابع، فليس هناك ما يدعو للدهشة في أن المتحدثين باسم الكنيسة كانوا يريدون التظاهر بأن عقيدتهم تناسب العلماء والفلاسفة الذين قرأوا اشعار فرجيل وكتب افلاطون.

وقد مهدت كتابات الفيلسوف اليهودي فيلون Philo، الذي عاش بالاسكندرية في مطلع القرن الأول بعد الميلاد، الطريق أمام التوفيق بين الايمان بالعهد القديم وكتب التراث الكلاسيكي، لقد كان التأثير العظيم الذي تركه فيلون على اللاهوتيين المسيحيين من بعده بمثابة السبب الثالث الذي حدا بالكنيسة الى معارضة آراء ترتوليان المتزمته.

(١) فيلسوف أمريكي ولد سنة ١٨٥٩، وكان له تأثير عميق، لا بين الفلاسفة لحسب بل أيضاً بين دارسي «التعليم وعلم الجمال والنظريات السياسية»، وهو رجل (ليبرالي) النظرة خير ان التعليم كان يحتل مكان السدارة بين اهتماماته وكان تأثير جون ديوي على التعليم في أمريكا شاملاً وعميقاً - لمزيد من المعلومات انظر :

Bertrand Russell : History of Western Philosophy. (10 th ed. 1967) pp. 664 - 82.

(المترجم)

كان اليهود قد نزحوا الى الاسكندرية فور تأسيسها فى زمن الاسكندر الأكبر، وفى أيام قيصر وأوغسطس كان ربع سكان الاسكندرية البالغ عددهم مليون نسمة من اليهود. وسرعان ما اصطبغ اليهود بالصبغة اليونانية فى غمرة الحياة المزدهرة الدائبة فى المدينة أما اليهود الذين كانوا قد هاجروا الى بلاد النهرين، فقد قاوموا الثقافة العلمانية التى اتصلوا بها وطوروا قانونا شرعيا جامعاً وهو التلمود^(٥) (تأسيس طائفة اليهود الريانيين)^(٦) لكى يفصلوا أنفسهم نهائيا عن المجتمع العلمانى والفكر الدنيوى، وحاول اليهود فى الاسكندرية من ناحية اخرى، ان يبرزوا التوافق بين الديانة اليهودية والثقافة الكلاسيكية، وكانت تحركهم الى ذلك رغبتهم فى أن يقبلهم الامميون^(٧)، وهى الرغبة نفسها التى ألهمت التيارات اليهودية المتحررة فى عصرنا الحديث، وحاول فيلون السكندرى فى كتاباته العديدة أن يشيع أن ثمة معنى مجازيا كامنا فى نصوص العهد القديم يتوافق مع الفلسفة الأفلاطونية . كما قال بأن العنصر التاريخى

(٥) « التلمود » : مصدرها الكلمة العبرية « لد » ومنها « تلميد » التى تقابل كلمة « تلميذ » فى اللغة العربية، واسم التلمود مشتق من كونه يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة، وهو عبارة عن جزئين احدهما « المشنا » (وهو كتاب عبرى لقهى بمنزلة التفسير للتوراة ويعتقد الريانيون أنه وحى أوحى به الله الى موسى اثناء الايام الاربعين التى قضاهما فى طور سيناء وامره الا يكتبها، ثم كتب فى عهد « يهوذا الناسى » (وهو ستة اسفار) وثانيهما « الجمارا »، وهو شروح المشناه، ويضم التلمود عدة ابحاث كتبها احنبار اليهود وفقهاءهم وريائهم فى شئون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وما الى ذلك، وتقع فى ثلاثة وستين سफراً، وهناك تلمودان احدهما بابلسى (بسبب السبى البابلى) والثانى اورشليم (نسبة الى مدينة اورشليم) والاورشليمى اقدم، وهناك عدة اختلافات بين التلمودين - انظر :

مراد فرج : القراهن والريانيون، ص ٣٦ - ٤١، حسن ظاظا، الفكر الدينى الاسرائيلى ص ٧٨ - ٩٤

(المترجم)

(٦) الريانون (ويعرفون أيضاً باسم الربيين او الريانيين) اشتهر فرق اليهود واكثرهم عدداً وكلمة «ريانيتم» بالعبرية تعنى الامام أو الفقيه أو الحبر، وقد عربت هذه الكلمة الى « ربانى » وردت بهذا النص فى القرآن الكريم (المائدة : ٤٤)، وقد تسمى ابناء هذه الفرقة « ريانيين » اشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء اليهود ولقنتهم الواردة فى المشنا وفى التلمود وتقبسوا بهذا الاسم حتى صار سمة عامة لهم - انظر :

Universal Jewish Encyclopaedia. art. Rabbis, Rabbanite

وانظر كذلك : حسن ظاظا، الفكر الدينى الاسرائيلى، ص ٢٤٢ - ٢٢٢ (طبعة معهد الدراسات والبحوث العربية).

(المترجم)

(٧) أى غير اليهود.

الواضح فى العهد القديم يكشف عن العناية الالهية، وكان هناك عنصر أخلاقى وراء هذه الآراء، وهو العنصر الذى يحبذ الفضائل التى نادى بها افلاطون، وفى رأى فيلون أن من الممكن أن نكتشف فى أعلى مستويات المعنى المجازى مذهباً فلسفياً لاهوتياً يماثل التعليم الأفلاطونية الى حد كبير.

وتلأم تفسير فيلون للتوراه - من حيث احتوائها على مذاهب تاريخية وأخلاقية وفلسفية - الى درجة كبيرة مع المذهب الذى نادى به آباء الكنيسة فيما يخص مستويات الايمان، ولم يكن هناك ما يدعو الى ارتباك مفكرى الكنيسة من جراء ماورد بالتوراه من وجهات نظر لا تتوافق مع الفكر الأفلاطونى، فمثل هذه الأمور يمكن شرحها بطريقة مجازية؛ ومن ثم كانت مدرسة المدافعين المزدهرة فى القرنين الثانى والثالث تعكف على كتابات فيلون تستقى منها أرائها فى اللاهوت، كما انكبت بنفس الثقل على شرح التوافق بين المسيحية والتراث الكلاسيكى، وبالرغم من أن هناك مدرسة أخرى من مدارس التفسير المسيحى للكاتب المقدس ظهرت بأنطاكية فى مرحلة لاحقة فى القرن الخامس، ونحت نحو التفسير الأدبى والتاريخى، فإن المذهب الإسكندرى فى الشرح المجازى لنصوص العهد القديم توافق بشكل أفضل كثيراً مع مذهب العقيدة ذات المستويين الذى اتبعه آباء الكنيسة، ومن ثم صار هو المنهج الواضح للتفسير المسيحى للكتاب المقدس منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس عشر.

وبينما ساورت الكنيسة اللاتينية، التى اتخذت هيكلتها ضد تعالى ترتوليان على التراث الكلاسيكى، بعض الوسوس حول تقبل الثقافة اليونانية - الرومانية فإن الكنيسة الشرقية، التى تبعت قيادة فيلون، سرعان ما استوعبت التراث الكلاسيكى، والمذهب الأفلاطونى على وجه الخصوص، وفى الاسكندرية بدأ شارح الكتاب المقدس وعالم اللاهوت أوريجين (ت سنة ٢٥٤) - الذى يعد أكثر آباء الكنيسة الشرقية المبكرة فزارة فى علمه ومؤلفاته - تقليداً جديداً لتفسير العقيدة المسيحية فى اصطلاحات أفلاطونية

وقدر لهذا التقليد أن يعمر على مدى زمن طويل. فقد أصل أستاذه كليمنت السكندري الأسطورة التي لقيت شعبية واسعة في العصور الوسطى، والقائلة بأنه يجب ترسم خطى المذهب الأفلاطوني بشكل متعمق لتفسير نصوص الكتاب المقدس. ولم يعتذر أو يتحرج من اطلاعه الواسع في الآداب اليونانية؛ بل انه العكس من ذلك أرسى المبدأ الذي لقي قبولا عالميا تقريبا بين آباء الكنيسة وكتاب العصور الوسطى ؛ ألا وهو المبدأ القائل بأن التعليم الكلاسيكي شرط أساسي وضروري لفهم الكتاب المقدس فهما كاملا.

وقد تركت مسألة تقرير مناقشات الآباء السكندريين المقنعة وحسمها الى من جاء بعدهم في القرن الرابع. وفي كل من الكنيسة الشرقية اليونانية والكنيسة الغربية اللاتينية، كانت المسألة تدور حول مجرد تحديد الكم اللازم من الثقافة الكلاسيكية لخدمة التعليم المسيحي. وكان يخالج قادة الكنيسة الشرقية الكبار في النصف الأخير من القرن الرابع قد ضئيل من الشك حول ضرورة التطويع الحر للميراث الكلاسيكي، وكان القديس باسيل (ت. سنة ٣٧٩)، الذي وضع لمساته على النظام الديرى في الشرق، متحمسا لقيمة الأدب اليونانى - الرومانى فى تلقين الفضائل التى تتوافق مع المفاهيم الأخلاقية للإنجيل ؛ وذلك بالرغم من ادراكه لأن التعليم الكلاسيكى ليس الا وسيلة لفهم الحقيقة فهما شاملا كما كان مدركا للحاجة الى خلق الانسجام بين العلم اليونانى وعقيدة الكتاب المقدس. بل إن هناك آباء آخرين فى الكنيسة اليونانية الشرقية كانوا أكثر حماسة للثقافة الكلاسيكية - فإن القديس جريجورى النازينزى St. Greogory Nasianzen الذى كان بطريرك القسطنطينية لفترة قصيرة (ت. سنة ٣٩٠)، أدان المسيحيين الذين يحطون من شأن الثقافة الوثنية ووصمهم بأنهم أميون اجلاف لايقدرّون مايعود على الكنيسة من مزايا من خلال التعليم. ولم يخطر ببال جريجورى أن باستطاعة المسيحية أن تطور مناهجها التعليمية الخاصة أو مذهبها المتميز، وفى كتابات يوحنا ذهبى الفم (الفصيح) St. John Chrisosom الذى كان بطريركا للقسطنطينية ومات سنة ٤٠٧، وفى خطبه البليغة،

يمكن أن نجد المواقف الدالة على مذهب إنسانى مسيحى بمعنى الكلمة ينظر الى الثقافة الكلاسيكية، لا كمجرد أداة يمكن للكنيسة أن تستخدمها، ولكن كشئ جذاب وله قيمته الخاصة، وتميز التاريخ الثقافى لبيزنطة فى الفترة التالية بموجات إحياء للدراسات الكلاسيكية، من أن لآخر، لاسيما فى القرن العاشر . ولم تحقق محاولة بيزنطة فى مجال الدراسات الكلاسيكية ما كان ينتظر لها أن تحققه فى مجال الأدب؛ إذ كانت الآداب اليونانية فى القسطنطينية فى العصور الوسطى مستمدة من نماذج قديمة، كما كانت تقتصر إلى الأصالة فى مجملها، ومن ناحية أخرى، كان مقدرا للتراث الكلاسيكى الذى أتت به آراء أباء الكنيسة فى القرن الرابع أن يكون له تأثير قوى على طراز الفن البيزنطى مرة أخرى فى القرن العاشر بصفة خاصة.

وبينما كان الأدب الكلاسيكى اليونانى فلسفيا الى درجة كبيرة - أو عالميا فى محتواه على الأقل - كان الأدب اللاتينى لا أخلاقيا، بل وفاضحا . ومن يقرأ أفلاطون، وما نظمه كاتولوس Cattullus هياما فى محبوبته لسبيا Lesbia، وكتاب « فن الحب » الذى كتبه أوفيد Ovid يجد الدليل على ذلك، وادى هذا الموقف الذى سببته الاستجابة المتزايدة لآراء ترتوليان إلى أن اتخذ مفكرو الكنيسة الغربية فى القرن الرابع موقفا أكثر حذرا تجاه التراث الكلاسيكى من موقف رفاقهم اليونانيين، وبالرغم من ذلك؛ فإنهم تخلوا عن موقف ترتوليان الذى جرد الأدب الكلاسيكى من أية قيمة، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة بين رجل وآخر، وحسموا بذلك مصير أوربا التعليمية والفكرى على مدى السنوات الألف التالية، وكانت آراء القديس جيروم والقديس أوغسطين حاسمة بهذا الصدد.

وبالرغم من أن جيروم كان سليل عائلة مسيحية، فإنه تلقى تعليما كلاسيكيا شاملا، ولم يلبث أن تخطى مرحلة دروس النحو والبلاغة العقيمة الى مرحلة التقدير العميق لجمال اللغة والصياغة فى الأدب اليونانى والأدب الرومانى، وهو يحكى لنا كيف أنه سقط مريضا أثناء الرحلة التى قام بها إلى الشرق وهو فى أواسط عمره . وكانت شهرته كعالم

كبير قد رسخت بالفعل - وفى الحلم وجد نفسه متهما أمام العدالة المقدسة بأنه ليس مسيحيا بل شيشرونيا^(٨). ويبدو أنه عانى من انهيار نفسى ومعنوى شديد القسوة، إذ أنه هرب الى برية مصر، كما كان شائعا فى الأوساط التى اشتهرت بشدة تقشفها، وعلى مدى خمس سنوات عاش حياة ناسك مسكين ودرس اللغة العبرية أثناء هذه الفترة، ويبدو أن شفاء جيروم كان سريعا مثل انهياره، فقد هجر الصحراء المصرية الى القسطنطينية حيث استأنف اشباع ميله الى الدراسات الكلاسيكية، ثم ذهب فيما بعد الى مدينة بيت لحم حيث استقر وقد صار رجلا مسنا واكمل ترجمته العظيمة للكتاب المقدس الى اللاتينية وقد صارت ترجمة جيروم التى عرفت بالفولجاتا Vulgata^(٩) هى النص المعتمد فى الكنيسة الرومانية وفى العصور الوسطى والحديثة. وقد اعتمدت ترجمة الملك جيمس على ترجمة جيروم اعتمادا كبيرا. وتعتبر ترجمة جيروم عملا فنيا عظيما وتمتاز بدرجة فائقة من الدقة، ولم يكن ممكنا أن يقوم بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية سوى فقيه لغة Philologist متمكن، يتمتع فى الوقت نفسه بحساسية فائقة بدقائق اللغة اللاتينية.

وأجاب جيروم على زملائه، حين ذكروه بحلمه الذى شاع أمره بين الناس، بأن الحلم فى النهاية ليس الا حلما. وقد بات حلم القديس جيروم الشهير موضوعا شعبيا فى أدب العصور الوسطى وفنونها. وغالبا ما كان غلاة المتعصبين يلجمون به علماء العصور الوسطى وباحثيها، وعلى أية حال، فقد تمثل أهم أثر لأعمال جيروم فى أنه مضى قدما بعملية استيعاب الكنيسة اللاتينية للتراث الكلاسيكى. ولم يقدر معاصروه - ومنهم أوغسطين - مدى عظمة الترجمة اللاتينية التى قام بها للكتاب المقدس حق قدرها. بيد أنه بالنسبة لمن عاشوا فى العصور الوسطى الباكورة كانت حياة جيروم ومؤلفاته خير داعية للفكرة القائلة بأنه ليس من الضرورى أن يؤدى حب المسيحي المؤمن للأدب الكلاسيكى إلى إنحراف عن

(٨) نسبة الى شيشرون الخطيب الرومانى المقهور الذى عاش فى عصر الجمهورية الرومانية، ويقصد المؤلف أن جيروم كان متعلقاً بالتراث الروماني.

(٩) أى النسخة الشعبية وذلك لأنها كانت مكتوبة باللغة اللاتينية الدارجة. (المترجم)

عقيدته. فعلى العكس من ذلك ؛ لم يكشف القديس جيروم عن الفكرة القائلة بأن الجمع بين التراث الكلاسيكي والديانة المسيحية ممكن وغير متناقض فحسب، ولكنه أوضح أيضا أنه يمكن تسخير هذه الفكرة لخدمة الكنيسة فى مجالات التعليم المسيحى والدفاع عن العقيدة.

أما القديس أوغسطين فكان أقل محاباة لقيم الثقافة الكلاسيكية من معاصره العظيم جيروم. إذ كان أوغسطين متمكنا من اللغة اللاتينية، فقد عمل بتدريس البلاغة قبل أن يعتنق المسيحية فى منتصف حياته. ولكنه لأسباب عقلانية من ناحية، ولأنه كان أفريقيا شماليا عنيدا مثل ترتوليان من ناحية أخرى، وجه انتقادات قاسية ضد بعض الجوانب الجوهرية فى التراث الكلاسيكى. ورأى أوغسطين أن يؤخذ من التراث الكلاسيكى ما يبدو ضروريا ومفيدا لتحقيق غايات الكنيسة وأهدافها، وأن تهمل النفايات، وطرح عدة اقتراحات محددة عن كيفية تحقيق هذا البرنامج. فقال انه ينبغى الحفاظ على نظام التعليم الرومانى ومناهجه لكى تبقى الكنيسة متعلمة، كما أنه أوصى بأعداد ملخصات للفنون الحرة، وملخصات دراسية لموضوعات الفلسفة الكلاسيكية والأدب الكلاسيكى التى تتوافق مع العقيدة المسيحية. والحقيقة أن أوغسطين نفسه قد نهل كثيرا من مورد الفلسفة الأفلاطونية فى كتاباته اللاهوتية.

وكان للاقتراحات التى وضعها أوغسطين عن العلاقة الصحيحة بين المسيحية والأدب الكلاسيكى تأثير هائل فى العصور الوسطى الباكورة. وفيما بين القرن الخامس والقرن الثامن سار التعليم المسيحى على الخط الذى حدده أوغسطين : أى الدراسة المستمرة للنحو والبلاغة باعتبارهما قوام البرنامج التعليمى، وتأليف ملخصات الفنون الحرة، ولم يكن هذا راجعا إلى تأثير أوغسطين الفعال على التعليم المسيحى فحسب، ولكنه كان راجعا أيضا إلى الظروف الثقافية العامة التى كانت سائدة فى تلك الفترة. ففى المحل الأول – عندما غدت الثقافة الكلاسيكية فى عصرها الأخير أكثر عمقا وحذقة – كان هناك اتجاه عام، حتى قبل أوغسطين، نحو تلخيص الفكر الكلاسيكى فى موجزات تسهل قراءتها. إلا

أن مثل هذه الموجزات كانت هي بالضبط ما كان أوغسطين يدعو اليه ويحث عليه من أجل التعليم المسيحي، وثانياً، أن العالم الذي كان يطفئ عليه الجهل والفظاظة في الفترة ما بين الغزوات الجرمانية وقيام الملكية الكارولنجية المصلحة في القرن الثامن، لم يكن ليستطيعوا أن يهضم الزاد العقلي الذي تقدمه الثقافة الكلاسيكية، وغاية ما كان يستطيعه هذا العالم أن ينهل من التراث الكلاسيكي من خلال الموجزات والمختصات والموسوعات.

وهكذا، تسبب تأثير القديس أوغسطين من ناحية، وظروف تاريخ الغرب الثقافي بين القرن الرابع والقرن الثامن من ناحية أخرى، في أن يصل التراث الكلاسيكي إلى الكنيسة المسيحية من خلال المختصات والمقالات الموجزة في البلاغة والفنون الحرة والعلوم، وعيوب مثل هذه المقالات تبدو واضحة بدرجة أكبر من مزاياها، فهي متواضعة القيمة إلى أبعد الحدود، فكثيراً ما كانت المعرفة العلمية التي تقدمها مستوحاة من عالم الخيال والخرافات، ومع أن هذه الموسوعات التي ضمت الفكر الوسيط لم تكن تفي بالحاجة المطلوبة، فإنها كانت الجسر ما بين مدارس القرن الرابع والمدارس الكارولنجية التي أخذت في الازدهار منذ أواخر القرن الثامن.

كان أول أولئك الموسوعيين، أو « الناقلين اللاتين »، كما عرفوا آنذاك، هو مارتيانوس كابلا Martianus Capella الذي كان من معاصري أوغسطين ومن أبناء شمال أفريقيا وليس من المؤكد ما إذا كان مارتيانوس مسيحياً - فإن المسيحية لا تظهر إطلاقاً في ثنايا مقالته - ولكن المؤكد أن الناس في العصور الوسطى كانوا يعتقدون أنه مسيحي، وظل مؤلفه يلقي شعبية واسعة ويؤثر في الحياة الفكرية حتى القرن الثاني عشر، وتحمل مقالته عنواناً غريباً هو « زواج الفيلولوجيا ومركوريوس »، ويبدأ موضوع المقالة بقصة مجازية، وتنتهي ككتاب مدرسي عن الفنون الحرة السبعة، والواقع أن رسالة مارتيانوس كابلا هي التي حددت عدد الفنون الحرة بسبعة وثبتت ذلك في أذهان الناس في العصور الوسطى الباكرة، بالرغم من أنه كان في نص الكتاب المقدس - بطبيعة الحال - ما

يؤيد هذا التحديد، وهو النص الوارد في كتاب الأمثال : « الحكمة بنت بيتها، نحتت أعمدتها السبعة » (١٠) بل أن جامعات العصور الوسطى العالية قسمت مجرى الفنون التي تدرسها على نهج تقسيم مارتينانوس تقع الفنون السبعة الحرة (التي تبدو في البداية كوصيفات الشرف للفيلولوجيا) في مجموعتين أحدهما تضم ثلاثة فنون وتضم الثانية أربعة فنون. أما المجموعة الثلاثية (التي أطلق عليها كتاب العصور الوسطى منذ ذلك الحين اسم تريفيوم Trivium) ؛ فكانت تضم الفنون الأدبية : النحو والبلاغة والمنطق وكانت المجموعة الرباعية وهي الكوادريفيوم Quadrivium والتي تسمى كذلك بالمجموعة الرياضية، أو مجموعة الفنون غير الأدبية أو الفنية فهي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، ومن الأمور ذات الدلالة أن مارتينانوس قد حذف الطب والقانون من قائمة الفنون الحرة مما أدى إلى عزلها من كليات الدراسات الانسانية في جامعات العصور الوسطى العالية بل ومن معاهدنا الأكاديمية الحديثة، وكانت حجة مارتينانوس كابلا في ذلك متفقة مع رأى أوغسطين بأن الطب والقانون ليسا من الدراسات « الحرة » لأنهما يهتمان بأمور تطبيقية أو باعتبارهما مخالفين للعلوم النظرية، وقد صارت مقالة مارتينانوس عن الفنون الحرة أساس المنهج الدراسي في مدارس العصور الوسطى الباكرة، فان موقفه المتعالى من القانون والطب - والذي أصبح موقفا يحتذيه العلماء في العصور الوسطى الباكرة - كان سببا أساسيا في تدهور المعرفة الطبية أوائل العصور الوسطى وفي أن الطلاب نادرا ما كانوا يتابعون دراسة القانون الرومانى - خارج ايطاليا على الأقل - حتى القرن الحادى عشر، وازدهرت دراسة الطب والقانون من جديد كدراسة أكاديمية في القرن الحادى عشر كدراسات عليا تؤدي بعد اتمام دراسة الفنون الحرة.

وفضلا عن مقالة مارتينانوس، كان هناك مؤلفان موسوعيان كتبهما اثنان من علماء

ايطاليا في بواكير القرن السادس - كاسيودوروس Cassiodorus وبتيوس Boethi-

us وكان كلاهما من أبناء العائلات الأرستقراطية الرومانية كما ارتقى كل منهما مناصب عليا في حكومة ثيودوريك Theodoric ملك القوط الشرقيين. وكان قصد كاسيودوروس الأول، وهو يعمل في سبيل الحفاظ على الميراث الكلاسيكي في الممالك الجرمانية، أن يؤسس نوعا من الجامعة المسيحية في روما. بيد أن اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية آنذاك حال دون تحقيق ذلك، ولذا فانه عمل على توظيف الحركة الديرية في خدمة هذا الغرض وكان كاسيودوروس أول من أسس ديرا كمركز للدراسة، وهو النمط الذي سارت عليه أديرة عديدة فيما بعد. أما الملخص الذي كتبه كاسيودوروس عن الفنون الحرة فقد كان نتيجة للحاجة إلى صياغة برنامج لتعليم تلاميذه في الدير. ولما كان كاسيودوروس يؤمن طبعا بأن الهدف النهائي من التعليم الديرى هو دراسة اللاهوت والكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة؛ فقد نادى بأنه يجب البدء بدراسة الفنون الحرة لكي يتحقق هذا الهدف على نحو سليم، وهو التقليد الذى سار عليه العلماء المسيحيون فى الدراسات الانسانية فى الوقت الحاضر، ومن ثم أعد كاسيودوروس خطة لدراسة الفنون السبعة الحرة وهى عبارة عن نوع من المقررات المدرسية للمعرفة العامة، وألحق بها قائمة بمصادر الكتابات الكلاسيكية التى توسع من دائرة ما يقوم به الرهبان من دراسات حرة. وكان برنامج كاسيودوروس هو الأساس الذى قام عليه المنهج الدراسى فى المدارس الديرية أوائل العصور الوسطى. وهكذا كانت هذه الخطوة إسهاما فعالا للغاية فى الحفاظ على الميراث الكلاسيكى فى الغرب، ونبه إلى أن الرهبان يحتاجون إلى نسخ عدد من الأعمال الكلاسيكية حتى يتمكنوا من قراءة هذه الأعمال. ومنذ ذلك الحين فصاعدا، بدأ ظهور الأديرة كنوع من مراكز النشر، ظهورا بطيئا. وفى هذه المراكز كانت تنسخ النصوص الكلاسيكية المختارة؛ إما للمكتبات، وإما لهذه الأديرة ذاتها، أو لى ترسل إلى الأديرة التى تفتقر إلى مثل هذه الامكانيات الطيبة ولا تتمتع بمثل هذا المستوى من التقدم العلمى.

وأخذ معاصر كاسيودوروس الفيلسوف بوثيوس، على عاتقه مهمة ترجمة جميع

مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة اللاتينية ولكن المنية وافته قبل أن ينجز مهمته، ولكن ترجمته لمنطق أرسطو كانت هي النص الوحيد المتاح في الغرب من مؤلفات الفيلسوف الكبير في العصور الوسطى الباكرة؛ ومن ثم كانت مساهمة هامة للغاية في الحفاظ على بعض مظاهر الفلسفة اليونانية في العصور الوسطى. وتعد مقالة بونثيوس المعرفة باسم «سلوى الفلسفة» إحدى الأعمال الفلسفية القليلة التي كتبت في الفترة ما بين عصر أوغسطين والقرن الحادي عشر، ولا يزال لديها ما تقوله للقارئ الحديث. وقد كتبت حين كان بونثيوس ينتظر الاعدام لاتهامه بخيانة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين، وهي تعدنا بملخص متناسق للنظريات الأخلاقية الكلاسيكية، رغم غلبة المسحة الصوفية عليها.

أما آخر المساهمين الكبار في الميراث الكلاسيكي في الغرب، منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن، فهو عالم القرن السابع ايسيدور Isidore أسقف أشبيلية والذي كان ينحدر هو الآخر من صلب عائلة رومانية قديمة غير جرمانية، وكانت عائلته قد نزحت من شمال أفريقيا إلى أسبانيا في القرن السادس. وكان لايسيدور تأثير عظيم على التعليم في العصور الوسطى من خلال موسوعة تتألف من عشرين كتاباً اسمها «الاشتقاقات أو الأصول». ويعكس هذا العنوان الغريب اعتقاد ايسيدور - وهو الاعتقاد الذي كان شائعاً في العصور الوسطى الباكرة نتيجة للاهتمام السائد آنذاك بالمجازية والرمزية - بأن الطريق إلى المعرفة يمر من خلال أصول الكلمات. ولم تكن معلومات ايسيدور في فقه اللغة كافية بالمرة لكي يتتبع اشتقاقات الكلمات على نحو صحيح. وعلاوة على ذلك فقد حفلت مؤلفاته بالخيال والخرافة، ولكنها مع ذلك لقيت اقبالا واسعا كما كان لها تأثير عظيم لأن ايسيدور لم يقيد نفسه داخل اطار الفنون الحرة، ولكنه حاول أن يقوم بمسح كلى للمعارف في العالم اليوناني - الروماني، بما في ذلك الطب وعلم الحياة، وعلم النبات والعمارة وبالنسبة للناس في العصور الوسطى الباكرة كانت أعماله تتميز أيضا بالترتيب الدقيق والايجاز. وبالرغم من أخطائه العديدة، فإنه عمل على أن يتقل

إلى عالم العصور الوسطى الباكرة قدرا كبيرا من المعلومات المستقاة من خارج نطاق الفنون الحرة. وربما لا يحق لنا أن نلومه، لأن العلماء فى العصور الوسطى قد درجوا، على مدى قرون عديدة، على أن ينظروا إلى عمله باحترام قد لا يكون فى محله، كما أنهم يرددون آراءه الخيالية دون أدنى نقد. وقد استقى ايسيدور هذه الآراء بدوره من كتاب الامبراطورية الرومانية المتأخرة.

ولم يكن من يلقبون « بالناقلين اللاتين » مفكرين يتمتعون بقدر من الأصالة أو المعرفة الوثيقة باللغة؛ ولكنهم كانوا مجرد مدرسين ومؤلفين للكتب المدرسية، ولا يكاد يكون هناك شىء مما كتبوه يستحق أن يقرأ لذاته. ولكن دورهم فى تاريخ الثقافة كان دورا هاما للغاية، فقد أنيطت بأولئك المفكرين - الذين أوقفوا حياتهم على هذه المهمة التى تفوق قدراتهم - مهمة تحقيق حفظ الكنيسة المسيحية للجزء الأكبر من التراث الكلاسيكى، لقد ظهر هذا البرنامج من خلال الجدل العظيم الذى دار حول قيمة الدراسات الكلاسيكية، وهو الجدل الذى كان بمثابة النغمة الدالة فى فكر آباء الكنيسة، فيما بين القرنين الثانى والخامس. وقد حسم آباء الكنيسة الكبار الأمر لصالح الثقافة المسيحية اللاتينية، وعارضوا النزعة الراديكالية المتزمتة التى عرفت عن ترتوليان. وتركت لخلفائهم الذين كانوا أقل منهم فى هذا المستوى - منذ القرن الخامس حتى القرن الثامن - مهمة وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ بالوسائل المتاحة لديهم. وقد أحسنوا عملهم بالقدر الذى كان كافيا لأن تظل الكنيسة متعلمة ومرتبطة بالميراث الكلاسيكى، وثمة هوة هائلة فى المستوى العلمى والأدراك العقلى تفصل بين أوغسطين وايسيدور الاشبيلي. وبالرغم مما كان يشوب « الناقلين اللاتين » فإنهم مهدوا السبيل أمام الأحياء الثقافى فى القرن الثامن وطوال القرن التاسع فى العالم الكارلونجى الذى شهد - على أقل تقدير - عودة جزئية لعصر ثقافة آباء الكنيسة بما تميز به من ثراء وعطاء.

٢ - حج أوغسطين

فى سنة ٤٣٠ تحقق سكان مدينة هيبو Hippo فى شمال أفريقيا (بالقرب من قرطاجة القديمة، وهى قرطاجة الحديثة فى تونس) أن الحضارة الرومانية كما عرفوها كانت تعيش أيامها الأخيرة، فمنذ سنوات خلت، قام الوندال Vandal، وهم من أكثر الشعوب الجرمانية بدعوة، بغزو شمال أفريقيا، وفى سنة ٤٣٠ نفسها كانوا فى طريقهم الى القضاء على ما تبقى من السلطة الرومانية فى أفريقيا، وفى تلك الأونة الحرجة لم يكن هناك من يقوم بقيادة المجتمع والسهر على راحته سوى الأساقفة، إلا أن أسقف هيبو، الذى كان هو القديس أوغسطين فى ذلك الوقت - وهو أعظم مفكرى عصره - كان يرقد مسجى على فراش الموت، وكان بعض أساقفة شمال أفريقيا يريدون الهرب من البلاد، وكتبوا إلى أوغسطين طالبين النصيحة، فأجاب بأنه اذا تولى الزعماء الروحيون عن رعاياهم، فلن يكون لعامة الناس دليل يقردهم فى مواجهة الموقف العصيب، وفى هذا مساس بسمعة الكنيسة : فعلى الأساقفة أن يبقوا فى مواقعهم حتى النهاية، ومن المعتقد أن أوغسطين مات قبل أن ينتهك الوندال مدينته ويعملوا فيها السلب والنهب، وعلى أية حال، فقد بقيت مؤلفاته الضخمة لتصبح من المصادر الرئيسية التى تلهم المسيحيين وترشدهم كما تثير الخلافات بينهم حتى اليوم.

ومنذ القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين - وهى الفترة التى نشط أثناءها تيار التحرر الدينى - انزوت مؤلفات أوغسطين فى زوايا النسيان، ولكن منذ الحرب العالمية الأولى، حين تعرضت الحضارة الغربية لتغيرات هائلة، تشابهت مع الكوارث التى حدثت أثناء عصر أوغسطين، عاد كثيرون من المفكرين الدينيين والعلمانيين العقلانيين على حد سواء واتجهوا صوب مؤلفات أوغسطين بحثا عن رؤية داخلية للعلاقة بين العالم والروح.

وليس من المحتمل أن يكون هناك أكثر من حفنة من أهالى مدينة هيبو فى القرن الخامس قد تحققوا أن أسقفهم هو أعمق مفكر أنجبته الكنيسة المسيحية حتى ذلك الحين.

وقد أدرك رفاق أوغسطين من الاساقفة أهميته الفكرية وحاولوا التخفيف من أعبائه الرعوية؛ ولكنه لم يهمل شأن رعيته على الإطلاق، وتطورت معظم مذاهب أوغسطين كاجابات على قضايا الساعة التي كانت تواجهه خلال ممارسته لواجبه الرعوي، فهو لم يكن أستاذا متفرغا في فقه الدين (اللاهوت) يمتلك الوقت الذي يمكنه من تطوير نظرية محددة؛ وإنما كان رجلا من رجال الكنيسة يحاول مواجهة ما يعرض له في كل يوم من مشكلات حول العقيدة والأخلاق. وقد تمثل تأثير هذه الطبيعة البراجماتية لكتابات أوغسطين في كونها تفتقر الى الوضوح في أغلب الأحيان من جهة؛ ولكنها، من جهة أخرى، كانت تعبيرا عن فهم وادرك المشاكل الحقيقية في الحياة على نحو يندر أن نجد له مثيلا عند أي مفكر مسيحي آخر منذ عصره حتى الآن، وعندما اقتربت حياة أوغسطين من نهايتها الف كتابا صغيرا بعنوان Retractationes^(١١) (أي المراجعات أو الاستدراكات)، وقام في هذا الكتاب بتقييم مؤلفاته كلها، واعترف بأنه لم يكن في هذه المؤلفات متوافقا مع ذاته تماما. ذلك أنه في الحقيقة ذكر في غمرة احتدام الجدل والنقاش أمورا تبعد كل البعد عن رايه الحقيقي، وكان مقدرا لهذه التناقضات والملاحظات المتطرفة أن تكون مصدر خلاف بين المسيحيين في العصور الوسطى، وفي عصر الاصلاح الديني، وحتى يومنا هذا. ومن ناحية أخرى، فإن هذه التناقضات والملاحظات المتطرفة تجعل أوغسطين يبدو كأكثر علماء اللاهوت المسيحيين انسانية وتعكس أعماله جهوده اليومية في سبيل الوصول إلى تفسير للعالم في ضوء العقيدة المسيحية، أكثر مما تعكس ذلك التوافق والتطابق الذي يتميز به البحث النظري.

وكانت أعظم المشكلات التي جابهت أوغسطين، بوصفه أسقف مدينة هيبو، هي مشكلة أخضاع الوثنيين الذين ظلوا أقوياء كما ظل صوتهم عاليا في شمال أفريقيا؛ بالرغم من تلك القرارات التي صدرت من الكنيسة بحرمانهم والمراسيم التي صدرت عن

(١١) أورد المؤلف عنوان الكتاب بصيغة المفرد هكذا Retractatis.

الامبراطورية بتجريمهم. ومن هذا الصراع استنبط أوغسطين مذهباً عن طبيعة الكنيسة والأسرار المقدسة، وهو المذهب الذى تلقنه الكنيسة لاتباعها حتى اليوم. كما أعلن أوغسطين أن صلاحية الطقوس المقدسة لا تستمد من أخلاق القسيس الذى يقوم بأدائها لأن صلاحيتها تعتمد على المهمة المقدسة التى يضطلع القساوسة بأدائها؛ أى أن الطقوس الربانية تستمد فعاليتها من الرب الذى يمنح النعم كلها، وطالما أن القس تكرسه الكنيسة بصفة رسمية، فإن قيامه بالسر المقدس يعتبر سليماً، وفى مواجهة المثل الأعلى الدوناتي - الذى كان الكاثوليك يرون فيه مثلاً متمزماً، لأنه ينشد كنيسة لاتضم سوى القديسين - ذهب أوغسطين إلى تعريف الكنيسة المسيحية بأنها كنيسة كاثوليكية أى عالمية مسكونية، ولم يستطع أن يرى أى مبرر لمزاعم الدوناتية القائلة بأن قوة الكنيسة وسلطانها سوف يضعفان إذا ما سمحت للأشرار بالانخراط فى صفوفها، إذ أن الرب سوف يحكم بعده بين الناس جميعاً فى النهاية ويقصى الأشرار عن ملكوت السموات، وعلى أية حال، فإن الكنيسة فى الحياة الدنيا إنما هى شكل أولى غير كاملة بالضرورة، وهى تعبير دنيوى عن الروح القدس، ويخلص أوغسطين فى النهاية إلى أن هناك رجالاً صالحين خارج الكنيسة ورجالاً فاسدين بداخلها؛ ولكن واجب الكنيسة أن تحاول ضم الناس جميعاً إلى رحابها، ومن ثم تتقدم نحو تحقيق المدينة السماوية، ونتيجة لذلك كان أوغسطين - استناداً إلى النص العهدى الذى دعا فيه المسيح إلى ضم الناس إلى الجماعة المسيحية - يعتقد أن من الممكن تبرير استخدام القوة فى تحويل الناس إلى المسيحية، وكان يعلم تمام العلم أن القوة لا تكفى، ولكنه من ناحية أخرى كان يعتقد أنه من الأسهل كثيراً أن يكسب الناس إلى صفوف الدين المسيحى طالما أنهم كانوا ينتسبون إلى الكنيسة بصفة رسمية، وفى نضاله اليائس ضد الدوناتيين ناشد الدولة أن تعيد الهراطقة الذين ضلوا سواء السبيل إلى حظيرة الإيمان، وبذلك تسهل مهمته كمعلم دينى وكمبشر.

أما فكرة أوغسطين عن تنصير الناس جبراً فلم تجد نفعا مع الدوناتيين؛ لأن

السلطة الامبراطورية لم تكن من القوة بحيث تستطيع ذلك، ولكن كنيسة العصور الوسطى تقبلت هذه الفكرة في سياق تعاليمه عن طبيعة الكنيسة والأسرار المقدسة، ولسنا ندرى ما إذا كان أوغسطين سيوافق حقا على العنف الذي نال من الهراطقة واليهود في القرون التالية، ويجب أن نتذكر على أية حال أن مذهب أوغسطين عن العضوية الاجبارية في الكنيسة كان انعكاسا لياسه من عجزه عن إعادة اللوثاتيين إلى رحاب الكنيسة الكاثوليكية، كما كان يعكس خلفيته الثقافية الرومانية وهو، مثل كثير من الرجال الذين تأثروا بالفكر الكلاسيكي، كان يولي اهتماما كبيرا للحفاظ على نظام المجتمع، ولم يكن الانسجام الديني في نظره ضرورة دينية فحسب، بل كان ضرورة اجتماعية أيضا.

ومن ثم فإن أفراد رعية أوغسطين لم يعرفوه راعيا يلجأون اليه في الملل والمتاعب فحسب، ولكن أيضا باعتباره عدوا لبدوا، وخصما يضطهد الهراطقة في لحظات الضعف والخذلان، وفوق هذا كله عرفه أفراد رعيته واعظا من أفضل طراز. وقد امتاز في هذا الميدان، وصارت خطبه ومواظمه نموذجا يحتذى وعاظ العصور الوسطى، بل والوعاظ البروتستانت فيما بعد. والحقيقة أن أوغسطين ألف رسالة عن كيفية كتابة الموعظة - وليس هناك جانب من جوانب الحياة الكنسية لم يعره اهتماما في كتاباته - وهنا يمكن أن نرى كيف كانت تجربته الشخصية في هيوتنعكس على القواعد التي حددها للواعظ : أن يلزم دائما بطبيعة الجمهور الذي يتحدث إليه وبطبيعة موضوعه، كما يجب أن تكون اللغة التي يستخدمها لغة بسيطة دائما بالقدر الذي يكفي لأن يفهمه سامعوه، وإذا رأى الواعظ طوال استماعهم إلى الخدمة الكنسية ما يدل على أنهم لم يفهموه بالقدر الكافي، كان عليه حينئذ أن يعيد صياغة فكرته ؛ إذ يجب أن تنصب الموعظة على النقاط الأساسية وألا تتوه في المسائل غير الهامة، فضلا عن أنه يجب على الواعظ أن يوضح عرضه للعقيدة من خلال ربطها بالواقع الذي يعيشه من يستمعون اليه.

وثمة خاصية تميز أوغسطين كمفكر مسيحي هي استعداده للحديث عن مشاكل

الخلاص فى ضوء تجارب رعاياه وتجربته الشخصية. ولم يتوان فى الكشف عن أفكاره الخاصة وعن الأزمات الروحية التى عصفت بكيانه، ولم يشبهه فى صراحته والحديث عن خصوصياته سوى نفر قليل من المفكرين المسيحيين. كان أوغسطين بتصلبه هذا وباعتقاده أنه على حق أشبه ما يكون بواحد من الفريسيين^(١٢) المتصلبين فى آرائهم؛ على أنه من ناحية أخرى كان أبعد ما يكون عن العالم توماس الاكوينى المتجرد من قيود الجسد، فقد انساق لكل ما يمكن أن ينساق اليه الانسان من غواية، كما عرف مرارة اليأس، والحقيقة أنه لم يعتنق المسيحية إلا عندما بلغ الثلاثين. ولم يكن هناك من اللاهوتيين المسيحيين من استطاع مثله أن يسبر أغوار الضعف الانسانى، فلم تكن الخطيئة بالنسبة لأوغسطين (كما كانت بالنسبة لتوماس الاكوينى) مسألة عقلية يمكن تحليلها بالقياس المنطقى، وإنما كانت واقعا حيا فى التجربة الانسانية منذ الخليقة، ومن ثم، ورغم أننا نرى فى أوغسطين رجلا متشائما؛ فإنه كان بالنسبة لرعيته فى ميبويبدو معلما رحيمًا يرشدهم إلى سبيل الأمل. فقد كانوا يعلمون إلى أى درك تردى هو نفسه، لأنه غالبا ما كان يذكرهم بذلك؛ فقد كانوا يعرفون أنه قام برحلة حج ثقافى وروحى تحمل فيها العذاب المضى. أما إذا ارتكب المرء خطيئته ولم يشعر بالندم قط، فإن هذا يعد فى نظر أوغسطين خطيئة فى حق الروح، على نحو ما ذكر فى واحدة من أفضل خطبه الوعظية وجاء بها :

« ليس من الواجب أن نحكم على هذا الكفر وهذا القلب السادر فى غيه طالما » أن الانسان يحيا حياة الجسد لأنه ليس لنا أن نياأس من أى شخص طالما أن الصبر الالهى يقود الملحد إلى التوبة، ولايسرع بالملحد إلى نهاية حياته، فإن الرب لايريد للمخطيء أن يموت، وإنما يريد أن يؤوب من طريق الشر إلى سواء السبيل. فهو وثنى اليوم، ولكن من

(١٢) الفريسيون، واسمهم بالعبرية « فروشيم » أى المفروزين الذين امتازوا من الجمهور، جماعة يهودية كانت تزعم نفسها معرفة بالشريعة الموسوية أتق من أى إنسان آخر، وكانوا يطلقون على أنفسهم أيضاً اسم « حسيديم » أى الاتقياء و« حبرييم » أى الرفاق. وكان أفراد هذه الفرقة من أشد خصوم المسيح خطراً عليه لأنهم كانوا أصحاب الكلمة العليا فى توجيه المجتمع اليهود آنذاك. وقد وصفهم الانجيل بالتزمت الاحمق والتناقض فى الأقوال والأفعال، والتأمر والنفاق .
(المترجم)

يدريك أنه قد لا يصير مسيحيا غدا ؟ ... ماذا لو أن أولئك الذين نراهم اليوم، من الخطاة... تابوا قبل أن يحين أجلهم في هذه الحياة الدنيا واكتشفوا أن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى ؟ ومن هنا أيها الأخوة لانتلقوا بأحكامهم على عوامنها وقبل أن يحين الوقت. »

لقد لخص أوغسطين بهذه الكلمات مجرى حياته على النحو الذى عرفناه.

فقد ولد سنة ٣٥٤ فى بلدة صغيرة بالقرب من قرطاجة فى شمال أفريقيا، وكان أوغسطين أكبر ثلاثة أطفال. وكان أبوه أحد ملتزمى الضرائب Curiale بالمدينة، وكان مثل غيره من أفراد هذه الطبقة المتوسطة ، من أبناء المدن، فقيرا يقلد أبناء الطبقة الراقية ؛ ولم يكن أوغسطين يحب أباه الذى عاش وثنيا طوال حياته؛ على حين أخلص لأمه المسيحية المؤمنة إخلاصا عميقا وكان لأمه أعظم تأثير عليه طوال الشطر الأكبر من حياته، ولم تكن تجرى فى عروق أوغسطين دماء رومانية، فلم يكن أريا وإنما كان من البربر، وهو الجنس الذى اشتهر أيامه، بل وفى العصور الوسطى والحديثة، بتدينه العميق. وقد أرادت أم أوغسطين له أن يكون مسيحيا. والحقيقة أن أباه لم يكن ليعترض على ذلك، بيد أنه كان على استعداد أن يقبل تعميده فى سن مبكرة لو حدث ذلك. بيد أنه كان من الشائع أن يؤجل المرء المعمديته حتى يصير رجلا ناضجا ويطرح خلفه خطايا المراهقة. ومع ذلك كان أوغسطين يهتم كثيرا بتعميد الأطفال فى سن مبكرة. وكان هو فى الواقع المسئول عن إدخال مثل هذا التقليد فى الكنيسة الكاثوليكية.

وقد أفاض فى اعترافاته فى الحديث عن تمرغه فى خطايا الجسد. والحقيقة أن اعترافاته لم تكن سيرة ذاتية بقدر ما كانت تأملات لاهوتية. وفى وصفه لأنانيته كطفل كان أوغسطين فى الحقيقة يشرح مذهب الخطيئة الأصلية، وفى هذه القصة الشهيرة التى روى فيها سرقة للأجاص « الكمثرى » وهو طفل نعرف أن أوغسطين لم يسرق الثمار عن جوع أو عن حاجة إليها، وإنما لكى يشد أنظار أترابه من الأطفال إليه، وغرضه من هذه الحكاية أن يبين طبيعة الخطيئة بوصفها تمردا. وكل ما نعرفه عن أوغسطين فى شبابه يوضح أنه

كان جادا مقبلا على الدراسة ، بل كان فى حقيقة الأمر متزمتا ، ويرسم لنا أوغسطين صورة لنفسه فى شبابه تصوره ضجرا من الرغبة الجنسية التى لم يكن يقوى على كبتها . وهنا مرة أخرى نجد جدلا لاهوتيا لأن الجنس عند أوغسطين يوضح تماما عدم قدرة العقل على السيطرة على الإرادة، وما ينتج عن ذلك من ضعف الطبيعة الانسانية، ومع ذلك، فإذا كان أوغسطين قد أذنب وارتكب الخطيئة بمعنى الكلمة المتداولة، فقد كان ذلك بسبب الرغبة الجنسية، وقد حدث ذلك فى حدود المعقول فقط. وبعد أن أرسل الأبوان الطموحان ابنهما إلى قرطاجة لدراسة البلاغة، التى كانت بمثابة المسوغ للنجاح فى مجال القانون والحياة العامة فى عصر الامبراطورية، اتخذ أوغسطين لنفسه عشيقه عاشت معه خمسة عشر عاما، وأنجب منها ابنا، ثم هجرها حين اعتنق المسيحية فيما بعد.

وفى قرطاجنة مر أوغسطين الذى غمرته نشوة الايمان بالله بأول أزمة دينية كبيرة والحقيقة أنه طالما درس العقيدة المسيحية، وهيا نفسه لتلقى المعمودية، غير أن شغفه بدراسة الأدب الكلاسيكى والفلسفة صرفه عن اعتناق الدين المسيحى، ومن خلال ذلك بدت المسيحية فى نظر أوغسطين الشاب غير مقنعة ومجافية للعقل وبعيدة عن الفكر الكلاسيكى : وسرعان ما تخلص من هذه الأزمة الروحية التى عصفت بكيانه بأن اعتنق المانوية التى أخذت على مر تطورها بعض أفكار المسيحية الواردة فى كتابات بولس الأمر الذى جعلها تبدو فى النهاية كما لو كانت إحدى العقائد الهرطقية. وكانت المانوية بصفة مطلقة تؤمن بفكرة ثنائية الخير والشر، التى تظهر فى الصراع الأبدى بين إله النور وإله الظلام : وفى هذا العالم ينقسم الناس إلى أقسام ثلاثة هى : النخبة الذين هم الزهاد وأبناء النور، والسماعين الذين فى مرحلة التحضير ليكونوا أبناء النور، والملعونين أتباع إله الظلام. وقد رفض المانويون عقيدة أساسية فى المسيحية وهى عقيدة التجسد، إذ كان المسيح فى رأيهم مجرد اسم آخر لاله النور. كما أنهم قصرُوا اهتمامهم على رسائل بولس التى كانت أكثر أسفار الكتاب المقدس تناولا للمسائل الفلسفية، ورفضوا كل ماعدا ذلك باعتباره عبثا

لامعقول وجهلا. وبالنسبة لشاب جاد مثل أوغسطين الذى تعمق فى دراسة الفكر الكلاسيكى كانت المانوية حلا لمشكلة الشر، التى ربما كانت أصعب المشكلات الدينية التى أزعجت أوغسطين طوال حياته : إذ أن المانويين بساطة، أكدوا على أن الشر جوهر قائم بذاته، ومن خلق إله الظلام. وظل أوغسطين يدين بالمانوية على مدى عشر سنوات فى الوقت الذى كان يدرس البلاغة ثم صار يلقى دروسه فيها فى قرطاجة، ومالبث أن أخذ يرتقى على مهل درجات النجاح، ولكنه ارتد عن المانوية فى النهاية. وكان الفضل فى ذلك لامة التى أقنعت به بذلك من ناحية، ولأنه توصل من ناحية أخرى إلى أن الحل الذى تطرحه المانوية لمشكلة الشر ليس حلا مقنعا.

وبالرغم من أن أوغسطين، بوصفه أسقف ميبو، كان خصما مريرا للمانوية فإن بعض العلماء المحدثين يرون أنه ثقل فى كتاباته اللاهوتية بعض الاتجاهات المانوية، كما يبرزون تمييز أوغسطين بين النخبة والملعونين على أنه تقيد يتماثل مع موقف المانوية فى هذا الصدد. وبينما يعترفون أن أوغسطين ارتد عن المانوية بما يميزها من فكره المطلق فى الثنوية فإنهم يزعمون أنه كان يتورط أحيانا فى غمرة الجدل واندماجه فى الكتابة كما لو كان هناك شر مطلق وخير مطلق. ويمكن الرد على ذلك بأن رجلا له مثل طباع أوغسطين الحادة المتحمسة، واهتمامه العميق بمشكلة الشر، لابد وأن يضع فروقا واضحة وفاصلة يمكن أن تفسر بأنها انعكاس لتأثير المانوية. ولكن الحقيقة أن لاهوت أوغسطين ينفى بشدة فكرة وجود الشر كجوهر قائم بذاته.

والحل الذى طرحه أوغسطين لمشكلة الشر لا يرجع فى أصله إلى المانوية بقدر ما يرجع إلى العقائد الأفلاطونية الجديدة التى اعتنقها بعد وصوله إلى إيطاليا سنة ٣٨٣ بوقت قصير، فقد كان يتجهج خطأ ناجحا كمعلم للبلاغة، وكان مقدرا له أن يصل إلى مكانة مرموقة فى الحياة العامة. وصدفته أزمة فكرية زلزلت حياته، فترك عمله وأدار ظهره للعالم، وكرس نفسه للتدريبات الروحية الأفلاطونية الجديدة واكتشف فى النهاية أن الأفلاطونية

الجديدة، وما تتطلبه من تطهر مسألة مستحيلة، فقد كان رجلا يستجيب تماما لغرائزه بحيث لا يمكن أن يصبح روحانيا يستطيع أن يتحد بالذات الالهية اتحادا صوفيا، ولكن الأفلاطونية الجديدة علمته أن جميع مخلوقات الله طيبة، وأن الشر ليس إلا انحرافا عن الخير، أى ابتعادا عما يصل بالله، وفيما بعد ضمن أوغسطين أفكاره اللاهوتية هذا المذهب الأفلاطوني الجديد، وصارت هذه هى التعاليم الشائعة فى كنيسة العصور الوسطى والحديثة فيما يتعلق بطبيعة الشر.

وليس تحول أوغسطين عن الأفلاطونية الجديدة إلى المسيحية بالأمر المدهش إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أنه عجز عن إنجاز تجربة روحية كاملة . وهو يورد فى اعترافاته قصة أخاذة تبين كيف أنه بينما كان يتأمل فى الحديقة، سمع صوت طفل يطلب منه أن يتناول الكتاب المقدس ويقرأه . وليس من المدهش أنه أخذ كتابات بولس التى كان قد درسها أثناء امتناقه الماثوية، وهى لرسائل التى يوصى فيها بولس بأن يتبع المرء طريق المسيح ولا يستجيب لنزوات الجسد، وهو ما كان يعنى بالنسبة لأوغسطين أن الإيمان بالمسيح كمخلص ومنقذ يمكن للناس من أن يهربوا من قيود الجسد ويدخلوا فى اتحاد مع الرب، وهو الأمر الذى كان مستحيلا أيضا من ناحية أخرى، ففى كل إنسان إرادتان : الإرادة الروحية، والإرادة الجديدة، أو الإرادة السماوية والإرادة الأرضية، وهى التعاليم التى أخذ أوغسطين يلقيها فى خطبه فيما بعد، ومن خلال المسيح فقط يمكن للإنسان أن يهرب من قيود الإرادة الجسدية وأن يعيش للإرادة الروحية. وبهذه الطريقة يشرح أوغسطين مذهب بولس فى تبرير الإيمان ويؤكد.

وينطلق أوغسطين فى اعترافاته نحو الدعوة إلى مذهب فى الخلاص وهو المذهب الذى استقاه من تجربته الشخصية، إذ كان يتخبط فى الظلمات طوال الوقت، ليجرب نظاما فكريا تلو الآخر، وكانت العناية الالهية تقوده الى تلك اللحظة التى تحقق فيها، وهو فى حقيقته، من ضرورة الإيمان بالمسيح، وما يعنيه أوغسطين هو أن القضاء والقدر لا يمكن

استيعابه فى كل لحظة من لحظات الحياة الانسانية، والحقيقة أنه يحتمل ألا نلاحظ الجبرية فى التجربة الانسانية إلا فى أحوال نادرة. بيد أننا حين نتأمل تجاربنا بعد مرور سنوات عديدة يمكن أن نلاحظ يد الله الخفية وهى تقودها إلى أسمى لحظات الحقيقة، حين تنبج أمام أعيننا كالنور نعمة الله المنقذة. وهذا هو ما كان أوغسطين يعنيه بقوله لرعاياه « لا تحكموا بشئ قبل النهاية ». وعنده أن نعمة الله المنقذة ليست شيئاً يمكن ملاحظة تأثيره يوماً بيوم؛ ولكننا نستطيع أن نرى أن الطريق الذى مضينا فيه لم يكن طريقاً بلاهدف، ولكنه طريق يتوافق مع الإرادة الالهية. وهو الأمر الذى يمكن الكشف عنه خلال الحياة الانسانية بأسرها ومن خلال موازنة صروف الدهر وتقلباته التى تشكل التجربة الانسانية. هذه هى رسالة الأمل التى يتوجه بها أوغسطين إلى جمهور السامعين. وقد قصد باعترافاته أن يقول ضمناً أن نعمة الرب المنقذة قد حلت به وعلى ذلك فإن من الممكن أن تحل بأى إنسان آخر. والواقع أن أوغسطين فى اعترافاته إنما يرمز إلى كل إنسان فهو يرمز إلى الكائنات البشرية، بضعفها وحمقها، وتخبطها الأعمى وهى تناضل فى حياتها اليائسة التى لا يكون لها أى معنى ولا بما يقضى به الله.

وبعد اعتناق أوغسطين للمسيحية بوقت قصير تمت رسامته قسيساً، ثم اختير أسقفاً لهيبوس سنة ٣٩٥ فى موطنه بشمال أفريقيا. ويعتبر النور الذى قام به أوغسطين فى تاريخ الفكر بمثابة البوابة الواصلة ما بين العصور القديمة والعصور الوسطى على نحو ما أوضح مارو H.I. Marrou. وكان أوغسطين بتكوينه الفكرى لايعتقد فيما هو نفعى على الإطلاق، وكانت معرفته باللغة اليونانية، والرياضة والعلوم محدودة، كما كان يميل إلى سير القديسين. وعرف بتمكنه من اللغة اللاتينية، بحيث لم يتفوق عليه فى مهارته البلاغية سوى قلة من الكتاب اللاتين. وقد أخذ الكثير من أفكاره الفلسفية من التراث الأفلاطونى، ولكن أعماله كانت بمثابة المسمار الأخير فى نعش الفلسفة القديمة. لقد كان رائداً لرؤية عالمية جديدة، إذ كان كل من سقراط وأفلاطون يربط بين المعرفة والفضيلة : بمعنى أنه إذا كان

هناك رجل يعرف الخير فسوف يفعله . والواضح أن الناس غالبا ما يعرفون ما هو الخير ولكنهم لا يقدرّون على السير في طريقه، ويرى أوغسطين أن الانسان ليس كائنًا عقلانيًا، وأن الارادة تتغلب على العقل، كما أن اتجاهات الانسان العاطفية اللاعقلانية تمنعه من إتباع ما يمليه العقل، وهنا يبدو أوغسطين وقد فهم مسبقا الكثير من تعاليم علم النفس الحديث، فالانسان يبدو عديم الحيلة في السيطرة على قدرة في الحياة، إلا أن الحياة يجب أن تمضى في طريقها وأن تواصل نضالها اليومي في سبيل الوصول إلى الطريق السوي. وسوف تأتي لحظة قد تبدو بلا معنى، مثل الوجود الانساني نفسه، بالنسبة لأولئك المحظوظين الذين اختارهم الله على حد تعبير أوغسطين، وعندها تغشى العيون من النور حين تتجلى الرؤية السارة البهيجة .

وربما يمكن أن نميز أى نظام ثقافى، أيا كانت جوانبه الفنية، من خلال نغمة معينة تترد فيه باستمرار، وكانت النغمة الأوغسطينية هي البطولة التراجيدية.

٣ - الموضوعات الرئيسية في فكر آباء الكنيسة اللاتين

كان الفكر الراقى، والثقافة في العصور الوسطى الباكرة، هي ثقافة الكنيسة. بل إنه حتى عندما اهتم ملوك الجرمان بعد القرن الثامن بتطوير جوانب معينة في الحياة الثقافية كالنظرية السياسية مثلا، ظل التعبير الأدبي تحت سيطرة رجال الكنيسة. ففي العصور الوسطى الباكرة، لم يكن هناك في أوروبا بعد القرن السادس من يعرف الكتابة أو القراءة من غير رجال الكنيسة سوى نفر قليل من كبار الملوك مثل شارلمان والفرد، ومن ثم ، فإنه حتى في الوقت الذي كان يثور جدل كبير، في القرن الحادى عشر، حول سلطات كل من البابا والملك، ويزدهر الأدب من خلال الجدل حول هذه المسألة، كان رجال الكنيسة هم الذين يعبرون عن كل من وجهتى النظر. أما الكتابات التى هاجم فيها العلمانيون الكنيسة فقد اختفت تقريبا في العصور الوسطى الباكرة (حتى نهاية القرن الثامن عشر في الحقيقة). بل إنه لم يكن ممكنا لأحد من غير رجال الكنيسة أن يكتب مقالا أو بحثا

يهاجم به الكنيسة؛ وذلك لأن رجال الكنيسة كانوا هم فقط الذين يتمتعون بمستوى التعليم والثقافة اللازمة للقيام بمثل هذا الأمر. وعلى مدى قرون عديدة كانت الوسيلة الشائعة لتقرير ما إذا كان المتهم من الكنسيين أو من العلمانيين أن يطلب منه القراءة في الكتاب المقدس ونادراً ما كان هذا الاختبار يؤدي إلى نتيجة خاطئة.

وتوضح هذه الاعتبارات أن التراث الثقافي الأدبي في العصور الوسطى الباكرة، باستثناء بعض الأعمال الشعرية الشعبية الألمانية مثل ملحمة البيوفولف Beowulf (التي يحتمل أنها كتبت على يد رجال الكنيسة بشكل أو بآخر)^(١٢)، كان محكوماً بتقاليد الكنيسة وما تحتاج إليه. وربما كان السبب الرئيسي في أن أدب العصور الوسطى الباكرة لا تستحوذ على اهتمامنا وعناية معظمنا راجعاً إلى كونها أدباً كنسية. إن قلة اهتمام غالبية الناس بما يكتبه الأساقفة ومقدمو الأديرة في العصر الحاضر مساو في ضآلته لاهتمامهم بما كتبه أسلافهم في العصور الباكرة.

وبسبب الطبيعة الكنسية التي ميزت ثقافة العصور الوسطى الباكرة، ينبغي دراسة مؤلفات أولئك الكتاب الذين عرفوا باسم «آباء الكنيسة» والذين تعرف أعمالهم بالتالي باسم أدب آباء الكنيسة، على اعتبار أن أولئك الكتاب هم المفتاح إلى فهم فكر العصور الوسطى الباكرة. ذلك أنه حتى القرن الثاني عشر كان علماء الكنيسة يعملون دائماً داخل إطار الأفكار الواردة في الكتاب المقدس كما فسرها آباء الكنيسة، ووفقاً للاهوت

(١٢) البيوفولف Beowulf أو البيوفولف ملحمة جرمانية تدور حول بطل اسكندنافي عاش في العصور السحيقة، وقد ظلت هذه الملحمة محلاً للتداول الشفوي على مدى عشرات سنين، وربما عدة قرون، ثم جمعت أشعارها وبنوت في منتصف القرن الثامن تقريباً على يد قيس أنجلو - سكوتى، وهذه الملحمة حافلة بآثار شتى من المصادر الأخرى، وقد تأكدت بعض أحداث الملحمة وشخصياتها بورودها في المصادر التاريخية التي ترجع إلى القرن الخامس. والملحمة تضم في ثناياها كما مدهشاً من أعلام وأحداث العصور الوسطى الباكرة، كما تكشف عن النظرة الجرمانية التلقائية للأشياء وطريقتهم الطبيعية في التعبير. ويرى بعض الباحثين أن ما ذكره تاكيتوس في القرن الأول عن أحوال الجرمان يجد تأكيداً له في أبيات ملحمة بيوفولف التي تعتبر مصدراً محترماً من مصادر معلوماتنا عن النظم الجرمانية التلقائية للأشياء وطريقتهم الطبيعية في التعبير. ويرى بعض الباحثين أن ما ذكره تاكيتوس في القرن الأول عن أحوال الجرمان يجد تأكيداً له في أبيات ملحمة بيوفولف التي تعتبر مصدراً محترماً من مصادر معلوماتنا عن النظم الجرمانية في وقت الفزوات حين كانت السيادة =

والنظريات التعليمية، والمذاهب الأخلاقية والفلسفة السياسية، وفلسفة التاريخ التي تضمنتها كتابات آباء الكنيسة، وقبل أن ندين علماء العصور الوسطى بالباكرة بسبب هذا الموقف الفكري المحافظ، ينبغي أن نتذكر أن هذا الأدب الذي كتبه آباء الكنيسة اللاتين الأربعة الكبار - أوغسطين وجيروم، وأمبروز قرب نهاية القرن الرابع والبابا جريجورى العظيم عند نهاية القرن السادس - قد تركوا لنا قدرا ضخما من المؤلفات التي طرحت مناقشات مثمرة حول معظم المسائل المتعلقة بكنيسة العصور الوسطى. ولم يحدث حتى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن كان هناك أحد يمكنه أن يقاربههم فى المستوى : وحتى القرن الثانى عشر كان علماء الكنيسة يعتبرون أنفسهم مجرد أقزام يجلسون فوق أكتاف آباء الكنيسة المعالقة، وبطبيعة الحال لم يكن رجال الكنيسة فى العصور الوسطى هم وحدهم الذين تناولوا أدب آباء الكنيسة المعالقة، وبطبيعة الحال لم يكن رجال الكنيسة فى العصور الوسطى هم وحدهم الذين تناولوا أدب آباء الكنيسة بالتبجيل والاحترام الكامل؛ فقد ظل تأثير آباء الكنيسة، ولا سيما القديس أوغسطين، قويا حتى يومنا هذا ، فالكل يعرف مقدار ما يدين به لوثر^(١٤) وكالفن^(١٥) لأوغسطين، بيد أن الشيء نفسه يمكن

صعوبة العرب قد صارت محور الحياة الجرمانية على نهر أشد تركيزا مما كانت عليه عند نهاية القرن الأول - انظر، Norman F. Cantor . The Medieval World (Macmillan Co. New York 1968), PP. 61 - 63' Robert Brentono, The Early Middle Ages 500 - 1000 (Macmillan Co. New York 1964), PP. 243 - 53)

والجدير بالذكر أن الكتابين قد أُرِدا مختارات من ترجمة الملحة، كما أن هناك ترجمة كاملة لها - انظر : Beowulf, transl. CB. Tinker (New York : New Dom & Co. 1902).

(١٤) مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٦٤) رائد حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا ، والتي كانت أساساً لطائفة البروتستانت (المحتجون) . وقام مبدؤه على أساس أن الايمان وحده هو سبيل الخلاص ، مما عرضه لغضب البابا ليو العاشر والامبراطور شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، فحرم من حقوقه الدينية والمدنية، ولكنه أصر على موقفه بأن الكتاب المقدس هو وحده المرجع فى شئون العقيدة، ومن ثم فليس ثمة حاجة لوجود طائفة خاصة برجال الدين أن كل مسيحى يمكنه أن يكون رجلا دينيا، وقد انتصر مذهب لوثر فى ألمانيا فى نهاية الأمر، بيد أنه كان يعتمد فى صراعه على النبلاء وأهل شأن عامة الشعب . (المترجم)

(١٥) هنا كالفن John Calvin (١٥٠٩ - ١٥٦٤) فرنسى الأصل من أتباع لوثر ، هرب إلى جنيف فراراً من اضطهاد فرانسوا الأول ملك فرنسا الكاثوليكى المتعصب . وقد امتازت حركة جون كالفن باهتمامها بجميع طبقات الشعب بخلاف اللوثرية التي اتخذت شكلا طبقياً بحيث اقتصررت على النبلاء، ومن ثم فقد لقيت حركة كالفن انتشارا واسعا فاق انتشار مذهب لوثر بكثير . (المترجم)

أن يقال عن علماء اللاهوت عصرنا الحالي من أمثال كارل بارت Karl Barth ورينولد نيبور Reinold Niebuhr ولا يجب أن ننسى أن الذين ترجموا نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس إلى اللغة الانجليزية في القرن السابع عشر اعتمدوا كثيرا على الترجمة اللاتينية المسماة بالفولجاتا Vulgata التي قام بها جيروم. وقد نقول إجمالا أن أدب آباء الكنيسة غنى بالفروض، والمفاهيم والارشادات المتعلقة بكل جوانب الحياة تقريبا، ولم يكن الناس الذين اعتبروا أوغسطين وجيروم وأمبروز وجريجورى علماء ثقافة يرجعون إليهم حمقى أو جهلاء، فقد كان آباء الكنيسة اللاتين مفكرين ذوى إطلاع واسع، وتقوى عميقة، وحكمة، ما تميزوا بعمق التفكير الذى كان يعلن عن نفسه بوضوح بين الآونة والأخرى، ويجدر بنا أن نتذكر أنه فى أوائل العصور الوسطى لم يكن فى الساحة الثقافية ما ينافس أدب آباء الكنيسة فى مجال التأثير الفكرى. ولم تكن هناك ثقافة راقية خارج الكنيسة، وفى الداخل لم تكن ثمة حركة تقلل من شأن أدب الآباء مثل تلك الحركة الاحيائية للفكر الارسطى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

وهكذا، فإذا كنا بصدد البحث عن مصطلح يصف ثقافة أوروبا العصور الوسطى الباكورة بإيجاز فلن نستطيع إلا أن نستخدم عبارة «تراث آباء الكنيسة العهدي - Bibli-cal - patristic tradition». إذ كان نص الكتاب المقدس، بطبيعة الحال، هو نقطة البداية لكل نظرية، فقد كان الكتاب المقدس بمثابة المنبع الوحيد وأساس كل فكر وعقيدة (فى ميادين التاريخ، والفكر السياسى، والعلوم ... وما إلى ذلك)، وكان كل ما يتناقض مع الكتاب المقدس لا يحظى بالاحترام، فعلى سبيل المثال، لم يكن يوسع أحد أن يعتقد بخلود المادة! لأن سفر التكوين يتحدث عن خلق العالم من العدم. وعلى أية حال، كان الكتاب المقدس، كما فسر آباء الكنيسة فى مؤلفاتهم الضخمة هو المرجع الأساسى لكل الأفكار فعن طريق ترجمة الكتاب المقدس دخل حشد كامل من الاتجاهات الفكرية التى طورها آباء الكنيسة فى فكر العصور الوسطى.

فما هي هذه الاتجاهات السائدة في فكر أباء الكنيسة إذا كان اعتمادهم على الكتاب المقدس اعتمادا مطلقا بوصفه أساسا لكل فكر وعقيدة ؟ كان أولها اتجاها لجعل اللاهوت ممكنا وجعل التفسير المجازي للكتاب المقدس ضرورة : وهو ما عرف باسم نظرية العقيدة ذات الوجهين، أى نظرية المستويين في فهم العقيدة، بمعنى أن هناك مستويين لفهم العقيدة : مستوى عامة الناس، ومستوى المثقفين من علماء الكنيسة ، وهذه النظرية التي نشأت أصلا في رحاب الكنيسة الشرقية أصبحت نظرية شائعة في الكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى الباكرة بفضل أباء الكنيسة، ولاسيما أوغسطين، وعلى الرغم من أن هذه النظرية لم ينتج عنها ما يؤثر على الحياة في هذه العصور تأثيرا حقيقيا - إذ كانت تفسر أحيانا على أنها تعنى عدم الحاجة إلى تعليم العلمانيين، حتى لو كانت الظروف الاجتماعية تسمح بذلك - إلا أن هذه النظرية سهلت سبيل الوصول إلى لاهوت متطور على أساس من التفسير المجازي للكتاب المقدس.

وهناك اتجاه ثان يتعلق بفكر أباء الكنيسة يميز بين المسيحية اللاتينية الغربية ووجهة نظر الكنيسة اليونانية الشرقية . ففي أوروبا الغربية ركزت الكنيسة على الجوانب الأخلاقية والقانونية للعقيدة، أى العلاقة بين الله والإنسان، وهو ما يميزها عن الكنيسة اليونانية الشرقية التي اكدت على البحث في طبيعة المسيح وهو ما أدى إلى كثير من الهرطقات والانقسامات، ويبدو هذا الاتجاه واضحا تمام الوضوح في مؤلفات ترتوليان أول اللاهوتيين اللاتين الكبار، فعلى الرغم من عدائه للثقافة الكلاسيكية، لم يستطع أن يغض البصر عن جميع انجازات الفكر الروماني، لقد كان ترتوليان من رجال القانون قبل أن يعتنق المسيحية، وفي كتاباته أخذ الفكر المسيحي يتسم بالطابع القانوني الذي قدر له أن يؤثر بعمق في مفهوم العصور الوسطى عن العلاقة بين الفرد والكنيسة من ناحية، والذات المقدسة من ناحية أخرى، وفي كتابات ترتوليان - كما هو الحال في كثير من المؤلفات اللاهوتية في العصور الوسطى - يبدو المسيح شبيها بالباطرة الرومان وهو يفرض مطالب

محددة على رعاياه، كما يصدر القوانين التي لا يمكن انتهاكها خوفا من قسوة العقاب. وتمثل التراث الذي خلفه ترتوليان من بعده في المفهوم القانوني للخطيئة بأعتبارها دينا لابد من الوفاء به أمام الرب الشبيه بالامبراطور. وقد سار أوغسطين وجريجورى فى هذا الاتجاه، وربطه كل منهما برؤية الكنيسة فى العصور الوسطى، حتى بات هو الرأى الأكثر شيوعا فى التعبير عن الخطيئة فى آداب العصور الوسطى.

هذا المفهوم القانونى يفسر السبب فى أن العهد القديم كان أكثر جاذبية بالنسبة للناس فى أوائل العصور الوسطى من الأناجيل. إذ أن الفن والادب فى العصور الوسطى الباكرة يصوران المسيح كامبراطور يحكم فى القضايا أى كإله للقانون والعقاب. أما الصورة التى يبدو فيها المسيح وقد برح به الألم والوجد، والعذراء بجواره حزينه باكية، فلم تداعب خيال الآباء والفنانين فى العصور الوسطى الا عندما قامت الحركة الرومانسية الكبيرة فى القرن الثانى عشر. وعندها فقط غلبت صورة المسيح ومريم العذراء كما وردت فى العهد الجديد على صورة الاله القاضى (الرومانية العبرانية) التى ظهرت من قبل.

وكان المبدأ الثالث فى فكر آباء الكنيسة متمثلا فى فلسفة تاريخ مسيحية متميزة تقف على طرف النقيض من التدوين التاريخى عند اليونان والرومان. وفى هذا المجال كان كتاب « مدينة الله » لأوغسطين هو العمل صاحب الأثر الأكبر على الرغم من أن جيروم ساهم باضافات فى هذا المجال.

وتمثل المبدأ الرابع فى أدب آباء الكنيسة، فيما قدموه من تفسيرات لكيفية الوصول الى الخلاص عن طريق النعمة الالهية، وهنا تنوعت الآراء؛ فثمة آراء تقول ان أوغسطين لم يكن له الأثر الأكبر وإنما البابا جريجورى العظيم، اذا أن فكرة جريجورى عن الفضائل والخير، حسب هذه الآراء، هى التى صارت محورا فى فكر العصور الوسطى الباكرة، لأن جريجورى يقول بإمكانية الخلاص لكل مسيحي يطيع تعاليم الكنيسة وينال أسرار طقوسها المقدسة.

أما الموضوع الخامس في فكر آباء الكنيسة، فقد تمثل في وجهة النظر الخاصة بمسائل الجنس والزواج، وهي وجهة النظر التي ظل تأثيرها الكبير على الحياة الشخصية حتى عصرنا الحديث، والتي مازالت تحظى بأهميتها في حياة الروم الكاثوليك حتى اليوم. وفي هذا الصدد كانت آراء آباء الكنيسة اجماعية في الواقع.

واخيرا، كان أحد آباء الكنيسة اللاتينية الكبار، وهو القديس أمبروز، أول من رفض بوضوح قبول حق الامبراطور في التدخل في المسائل الكنسية، وأول من حدد المبادئ التي صارت هي النظرية السياسية التقليدية للكنيسة في العصور الوسطى الباكرة.

واذا ما نظرنا الى التراث المستمد من الكتاب المقدس في فكر العصور الوسطى ينبغي علينا أن نعترف بأن القديس جيروم كان أعظم من ساهم من آباء الكنيسة اللاتينية في هذا المجال. فقد كان جيروم حجة لا يبارى في ثقافة العصور الوسطى بوصفه مترجما وناقدا للنصوص، وشارحا. لقد كانت هناك ترجمتان باللغة اللاتينية للكتاب المقدس، غير أن هاتين الترجمتين شابهما كثير من النقص والقصور، وكان من الضروري أن يقوم عالم متمكن من اللغة اليونانية واللغة العبرية بكتابة ترجمة أمينة للكتاب المقدس. وقد أنيطت هذه المهمة بجيروم الذي أخذ على عاتقه انجاز ترجمة العهد القديم مباشرة من النصوص العبرية والآرامية التي تيسر له الحصول عليها، وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من زعماء الكنيسة في زمن جيروم، ومنهم اوغسطين، لم يظهروا أى اهتمام أو تأييد لعمله، فإن ترجمته الفوجاتا Vulgata صارت بمرور الزمن النسخة الثقة في الكنيسة الكاثوليكية في القرن التالي لموته.

أما أعظم وأفضل جزء في عمل جيروم، كشارح للكتاب المقدس، فهو ماكتبه عن أسفار العهد القديم. وكان لهذه الشروح تأثير عظيم على تفسيرات الكتاب المقدس طوال العصور الوسطى. لقد حدد جيروم وظيفة شارح الكتاب المقدس بأنها اقامة صرح روحى ضخم على اساس من الواقع التاريخي. ومع أنه استفاد من التفسير المجازي الذي أرسى

أسسه فيلون وأوريجين، فانه تجنب المبالغة في استخدام هذا النمط من التفسير وغالبا ما قيد نفسه في حدود التفسير التاريخي الأمين للنص؛ وهكذا تقابلت تفسيراته مع اتجاهات اللاهوت في مدرسة الاسكندرية لتفسير الكتاب المقدس، وبقدر ما وافق جيروم على مبدأ التفسير المجازي، صارت طريقته في العرض طريقة مؤثرة في كنيسة العصور الوسطى. وفي الوقت الذي تعودنا على التأكيد بأن آداب العصور الوسطى وفنونها كانت مكرسة للرمزية المجازية الى حد بعيد، فقد يكون من الصالح ان نصف هذه النزعة، في الصورة التي وصلتنا، بأنها نزعة تقليدية. إن عددا كبيرا من الرموز التي تظهر في الفن والأدب حتى في العصور الوسطى العالية ليست سوى استمرار للنزعة التقليدية التي جسدها في الأصل القديس جيروم وغيره من آباء الكنيسة. واذ أرسيت الرموز المجازية مرة أخرى على أيدي آباء الكنيسة، فقد بقيت طوال القرون الوسطى، وكان الفنان أو الكاتب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر يستخدمها كمجرد مواد شائعة تدخل في حرفته، وكانت المسألة بمثابة تكرار تقليدي أكثر من كونها رمزية واعية.

كذلك أسهم القديس جيروم بقسط وافر في الفكر التاريخي في العصور الوسطى. فقد كانت المؤلفات التاريخية الكلاسيكية محدودة من حيث المكان والزمان، وكان موضوع كل المؤرخين اليونان والرومان تقريبا يتمثل في بلد واحد وفي فترة زمنية محدودة. ولم يكن التاريخ العالمي معروفا، ولكن تجسد المسيح - وهو حادث تاريخي على مر العصور من وجهة النظر المسيحية - كان يتطلب كتابة تاريخ عالمي؛ اذ يجب الربط بين الحوادث التاريخية قبل حياة المسيح وبعدها، بهذا الحادث الجليل، ولأن المسيح مات من أجل البشرية، فإن الاقتصار على تاريخ بلد واحد لم يعد وافيا بالحاجة. وقد حاول ايوزيبوس أسقف قيصرية، بالفعل، أن يكتب قائمة زمنية عالمية تبين كيفية ارتباط جميع الحوادث التاريخية المعروفة بتجسيد المسيح. والتقط جيروم قائمة ايوزيبوس وترجمها، ثم نقحها وزاد عليها مؤرخو العصور الوسطى نحو كتابة المدونات التاريخية. وتبدأ معظم المؤلفات

التاريخية التي دونت في العصور الوسطى الباكورة بقائمة زمنية أو جدول زمني يضم الأحداث الهامة في تاريخ العالم قبل المسيح، ومنذ موته حتى زمن تلك المدونات، وحتى نهاية القرن الرابع، كانت هذه المدونات التاريخية تتقل ببساطة من كتاب جيروم. والواقع انه لم تكن هناك مكتبة ديرية تعتبر كاملة مالم تكن تضم نسخة من مدونة ايوزيببوس - جيروم التاريخية العالمية. وسيرا على هذا المدخل في تدوين التاريخ بطريقة التتابع الزمني Chronology كان لابد أن يبدأ المسيحيون في استخدام سنة ميلاد المسيح بداية لحساب التاريخ. صحيح أن إيسيدور الاشبيلي في القرن السابع كان أول من استخدم هذا النظام الزمني المسيحي؛ ولكن مدونة جيروم العالمية هي التي جعلت هذا النوع الجديد من الحساب التاريخي أمرا لاغنى عنه.

وعلى أية حال، فإن فلسفة التاريخ المسيحية تمثلت في كتاب «مدينة الله» لأوغسطين بشكل أساسي. وربما يكون هذا الكتاب هو اكبر عمل مؤثر في تاريخ الفكر المسيحي باستثناء الكتاب المقدس نفسه. ومهما يكن من امر، فأننا لا يجب أن نظن ان اوغسطين كان يريد ان يكتب بحثا اكاديميا عن تدوين التاريخ Historiography. فقد كان هدفه الأساسي ان يقدم تفسيراً مسيحياً لسقوط الامبراطورية الرومانية، ولكن حاسته التاريخية كانت من النضج بحيث يتحقق من أن هذا التفسير لا بد وأن يعتمد بدوره على فلسفة التاريخ. وفي نهاية الأمر وجد نفسه منساقا الى تأمل مسألة التدوين التاريخي عند اليونان والرومان برمتها. كما ظهر أخيراً أن من الضروري القيام بعملية نقد لهذا التدوين التاريخي حتى يتسنى له أن يقدم جواباً عن السؤال الحاسم عن سقوط روما.

كانت نقطة البداية في سلسلة الأحداث التي أدت الى كتابة اهم مؤلفات اوغسطين هي سقوط روما، ثم استباحتها على مدى أيام قليلة على أيدي القوط الغربيين سنة ٤١٠. فالأول مرة على مدى عدة قرون، ترقد روما تحت اقدام قاهر مغرور متكبر، ولو أن ذلك لم يستمر سوى أيام قلائل فقط. وبدأ أنه من غير المستطاع مواصلة إنكار حدوث الانهيار الكامل للحضارة الرومانية.

ولو أن ذلك لم يستمر سوى أيام قلائل فقط. وبدأ أنه من غير المستطاع مواصلة إنكار حدوث الانهيار الكامل للحضارة الرومانية.

لقد كان هذا الحادث صدمة كبيرة لكل من الوثنيين والمسيحيين على السواء. فالوثنيون، الذين كان عددهم ما يزال كبيرا في غرب أوروبا، اتخذوا من انتهاك القوط الغربيين واستباحتهم لروما سببا يستطيعون من خلاله أن يكيلوا التهم والطعون في حق الديانة المسيحية. « لقد سقطت روما زمن المسيحية »، كانت هذه هي الصيحة التي أطلقها أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا من المسيحيين كبش فداء لما حل بروما من تدهور فطالما ظلت روما على ولائها لمجمع الآلهة (البانثيون) القديم كانت المدينة تتقدم من نصر إلى نصر، وحين انصرف الرومان عن أقداس زيوس وأبوللو أخذت روما طريقها نحو التدهور والذبول.

ويقال عادة أن أوغسطين ألف كتاب « مدينة الله » ردا على هذه التهم التي كان يوجهها أعداء الكنيسة، وهذا حقيقى إلى حد ما. إلا أن هذه ليست كل القصة بل إنها لا تشكل أكبر أجزائها. فإن كثيرين من المسيحيين فزعوا، مثل الوثنيين حين طرقت أسماعهم أنباء اضمحلال روما. ولأنهم كانوا مواطنين مخلصين للامبراطورية، وأعضاء في الكنيسة في الوقت نفسه، فإنهم جنحوا إلى الاعتقاد بأن اعتناق الأباطرة الرومان للمسيحية في القرن الرابع لم يكن ليعرقل؛ وإنما على العكس قد ساعد كثيرا على زيادة هيبة الامبراطورية وثروتها. ومن المؤكد أنهم كانوا يجادلون بأن الرب كافا الأباطرة الرومان لقاء اعتناقهم الدين المسيحى في القرن الرابع بأن جعل ثروة الامبراطورية وسلطانها في تقدم مستمر. أو لم يولد المسيح في عهد اول الأباطرة الرومان؟ ان هذا يوضح بالتأكيد ان مصائر العالم المسيحى والامبراطورية الرومانية سوف ترتبط ببعضها حتى نهاية العالم يوم الحساب . ولكى هذه الفكرة المسيحية عن التقدم كانت عرضة للنقد والتفنيد من أساسها بسبب الحقائق المثيرة التي أسفر عنها تدهور الامبراطورية، وذلك بعد أن جعل

الاباطرة من المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية وكان لابد من إعادة النظر في مسألة العلاقة بين مجرى الأمور الدنيوية والعقيدة المسيحية ككل. وتمثلت نتيجة تأملات أوغسطين في هذه المشكلات في كتاب « مدينة الله » الذي استغرقت كتابته خمسة عشر عاما، إذ أنه بدأ كتابته سنة ٤١٣، وانجزه على عدة اجزاء، وهو ما يكشف عن السبب في ان العمل لا يتسم بالاتساق الكامل، فليست ثمة خطة عامة للكتاب يمكن تتبعها إذا تجاهلنا بعض الفقرات غير المتناسقة . إذ أن الكتاب في مجمله يتألف من اثنتين وعشرين كراسة : تهاجم الكراسات الخمس الأولى الوثنية، وتناقش علاقة الانسان بالآلهة في حياته، على حين تشن الكراسات الخمس التالية هجومها على أولئك الذين يتطلعون الى الآلهة الوثنية لكي ينعموا بالحياة في ظلها، وفي الكراسات الاثنتى عشرة الأخيرة يتتبع أصل ومنشأ المدينتين، وتطور كل منهما حتى النهاية. وفي مجموعة الكراسات الأخيرة تكشف الكراسات الأربع الأولى عن أصل المدينتين : بينما تقدم الكراسات الأربع التالية صورا لمراحل تطورها، كما تناقش الكراسات الأربع الأخيرة المصير النهائي لكل من المدينتين.

وكان من الممكن، من وجهة نظر التدوين التاريخي الكلاسيكي، تطبيق النظرية الدورية على مشكلة اضمحلال روما الملحة. كما أن من الممكن مناقشة هذه المشكلة من منطلق أن مرحلة التدهور في الدورة التاريخية قد حدثت بالفعل ، وان العالم سوف يشهد عصرا من التدهور والانهايار، ثم تبدأ عجلة التاريخ حينذاك دورة جديدة تماما. وكان يمكن لهذا التفسير أن يلقي رضا بعض الوثنيين، ولكن هل كان يوسع المسيحيين أن يقبلوا ؟ أو لم يكن المسيح شخصا تاريخيا مات مرة واحدة ؟ وهل يمكن للمرء ان يقتنع أن هناك عددا غير محدود من شخص المسيح يموتون ويقومون خلال دورات الزمن جميعا ؟.

من الواضح أن أوغسطين كان يواجه - أثناء كتابه « مدينة الله » - بالكثير من الأسئلة الهامة من الجانب المسيحي والجانب الوثني على السواء. وعلى أية حال فإن أصدقاءه كانوا يحثونه على أن يرد على الهجوم الوثني أولا، وهكذا كرس أوغسطين

اهتمامه للرد على المزاعم الوثنية القائلة بأن روما سقطت في زمن المسيحية، في الكراسات الثلاث الأولى من كتاب «مدينة الله».

وبدأ أوغسطين مناقشته ضد الانتقادات التي وجهتها الوثنية للمسيحية بالقول بأن انحلال الرومان انفسهم كان كافيا لأن يجلب عليهم المصير الذي لقيته مدينتهم.

وهو يعترف بأن بناء الامبراطورية تم بفضل رجال ضحوا بأنفسهم في سبيل الصالح العام للدولة كما كانوا يتصورونه ؛ ولكن على المدى الطويل كانت فضائل الرومان محدودة للغاية حتى في أفضل أيام روما، بل ان أوغسطين نفسه يؤكد أن الفضائل الرومانية، لم تكن سوى « رذائل باهرة ».

ويجيب أوغسطين على التهمة القائلة بأن روما تعرضت لفترة جديدة حافلة بالكوارث بعد اعتناق الأباطرة للدين المسيحي بالقول بأن روما عانت الكثير من النكسات والمصائب حتى عندما كان الرومان مايزالون على عبادة ألهمتهم الوثنية. وتبدو لنا هذه المناقشة مفتقرة الى الحجة وغير مقنعة. والواقع أن هناك دليلا ملموسا على أن أوغسطين نفسه لم يكن راضيا عنها. فبعد أن انحسرت موجة الصدمة الأولى الناتجة عن نهب روما، وجد أوغسطين فسحة من الوقت لكي يفكر بطريقة متأنية في الأهمية التاريخية لهذا الحادث. وعلى الرغم من أن مجادلته ضد الوثنيين، والتي تتسم بالسطحية والضحالة، تتركز في الكراسات الثلاث الأولى من «مدينة الله» ، فالواضح أنه تخطى عن هذا المنطلق في بقية كتابه وأخذ على عاتقه عبء البحث في المشكلة الأساسية وعن فلسفة تاريخية يمكن من خلالها الوصول الى رؤية سليمة لسقوط روما.

وأوكل الى واحد من مساعديه، هو القس الأسباني أورسيوس Orosius، مهمة كتابة تاريخ مفصل يوضح ماهية المصائب التي حلت بمختلف الأباطرة الوثنيين خصوصا في العالم الروماني قبل انتصار المسيحية. وقد أنجز أورسيوس هذه المهمة بعد عدة سنوات

وتمثلت نتيجة عمله فى كتابه المثير الذى أسماه « الكتب السبعة ضد الوثنيين » وهو يصور بقدر الإمكان، كل جريمة وكل مصيبة عرفها العالم قبل العصر المسيحى، أما أوغسطين الذى كان قد تقدم آنذاك نحو فهم تاريخى أكثر عمقا، فربما هاله ذلك الحصر الذى قام به أوريوس لحوادث الرعب، ولكن مجموعة قصص الرعب التى جمعها أوريوس لاقت شعبية كبيرة فى العصور الوسطى، ولم يكن دفاعه عن المسيحية بهذه الطريقة الفجة أيسر على الفهم من نظريات أوغسطين المتحذقة.

وبعد أن خافه التوفيق فى طرح التفسير التاريخى لسقوط روما، أدرك أوغسطين أن عليه أن يقوم بتحقيق وبحث طبيعة العملية التاريخية فى شكلها النهائى . وكان عليه أن يصوغ فلسفة تاريخ مسيحية يمكن على أساسها فهم الأحداث الزمنية ووضعها فى مكانها الصحيح، وقد بدأ أوغسطين بمقالة نقدية لتكوين التاريخ عند اليونان والرومان، مع أخذ النظرية اليونانية عن التجدد الدورى فى الاعتبار ، وقبل أن يصبح بالامكان صياغة فلسفة تاريخ مسيحية، كان من الضرورى حسم مدى صلاحية التكوين التاريخى الكلاسيكى.

ولم يكن علماء اللاهوت المسيحيون، قبل أوغسطين، قادرين على التحرر من ربة النظرية الدورية اليونانية، ذلك أن أعظم لاهوتى بين أدياء الكنيسة الشرقية، وهو أوريجين السكندرى، قد احرز مكانته الكبيرة بفضل تبنيه للنظرية الدورية وصياغتها فى صورة مسيحية. فقد نادى أوريجين بأنه وجد فى الكتاب المقدس ما يدعم الرؤية اليونانية للتاريخ، وذلك فى القول المأثور الوارد فى سفر الجامعة « فليس تحت الشمس بجديد » (١٦). ولا يبدو هذا أمرا غريبا لأن سفر الجامعة هو ذلك الجزء من العهد القديم الذى يعكس تأثير الفكر الهلينيستى فى أوضح صورة. وذهب أوريجين فى تأكيدهِ الى القول بأن المسيح قد عانى وسوف يعانى الكثير على أساس أن ماكان مفيدا ذات مرة، سيكون مفيدا على الدوام. وكان يؤمن بأن الانسان يموت مرات ومرات، وأن المسيح يقاسى مرات ومرات خلال دورات التاريخ.

كان أوغسطين هو أول من أدرك بوضوح أنه ليس هناك شيء يمكن أن يكون أشد خصومة للمسيحية وإيمانها بالتجسد من هذه النظرية الدورية في التاريخ، فقد حذر أوغسطين من أنه من خلال النظرية الدورية « يسعى الكافر إلى الخط من شأن عقيدتنا البسيطة، وذلك بأن يجربنا بعيدا عن الطريق السوي ويجبرنا على السير معه ». كما قال إن أولئك الذين يؤمنون بمثل هذا التفسير للتاريخ « لا يعرفون كيف كانت أصول الجنس البشري وأحوال الإنسان الأخلاقية، ولا كيف ستنتهي ... » ويخلص أوغسطين إلى القول بأن « الله يمتعنا من ابتلاع مثل هذا اللغو الفارغ والقاتل بأن الثورات التي وقعت في الزمن ، وإن الأمور الزمنية ذاتها تتكرر، ومقدر لها أن تتكرر خلال عصور المستقبل الفائقة الحصر ».

وفي مواجهة النظرية الدورية أبرز أوغسطين أن تجسد المسيح، أي حياته على الأرض، كانت حادثا فريدا غير قابل للتكرار أبدا في التاريخ : أي أن المسيح قد مات مرة وإلى الأبد فداء لخطايا الإنسان، وفي رأى أوغسطين أن العقيدة المسيحية توضح - بغض النظر عن الظواهر كلها - أن التاريخ الإنساني لا يتألف من سلسلة من الأنماط المتكررة وإنما هو تطور يسير صوب الغاية النهائية، وإن كان خط التطور غير ثابت، فللتاريخ بداية محددة هي بداية خلق العالم، كما أن له نهاية محددة هي يوم الحساب، وداخل هذا الزمن المحدد وقع أعظم حادث فردي، ذلكم هو حياة المسيح، وتجسد المسيح هو الذي يبدأ به العصر التاريخي السادس والآخر في حياة العالم (١٧).

« لقد كان تجسد المسيح حدثا فريدا يمضي كل التاريخ السابق باتجاهه » كما يجب أن ينسب إليه مجرى التاريخ بأسره.

(١٧) تخطى المفكرون المسيحيون عن الرؤية الكلاسيكية التي تعتقد أن الزمن يمضي في دورات تتم لك منها « بالسنة الكبيرة » وبالتالي يعيد التاريخ نفسه في هذه الدورات، كما تخلوا عن الرؤية الكلاسيكية القائلة بأن الزمن يمضي من الحاضر صوب مستقبل غير محدود وجعلوا للزمن بداية ونهاية هما يوم الخليفة ويوم الحساب لقد بدأ الزمن بالخلق كما سجل سفر التكوين (تكوين ١ : ١ - ٢١) ثم مضى الزمن خال العهد القديم والعهد الجديد حتى الحاضر، وسوف ينتهي بعودة المسيح ويوم القيامة =

ومن هذا المفهوم الطولى للتاريخ نبعت نتائج هامة تركّز على حياة المخلص (المسيح) التاريخية . لقد مات المسيح فداء لجميع البشر، وليس هناك يهودى أو أممى، بربرى أو يونانى، أمام الرب؛ ومن ثم فإن التاريخ هو البشر أجمعين، منذ آدم، حتى الحساب والتاريخ الوحيد الذى يمكن الأخذ به هو تاريخ الجنس البشرى بأسره، فالتاريخ الذى يتناول حياة شعب روما على سبيل المثال لم يعد كافياً أو حتى صالحاً، وهو ما ينقص من قدر التدوين التاريخى الكلاسيكى الذى اقتصر على هذا الاتجاه، فالمسيحية تستوجب أن يكون التاريخ عالمياً يكشف عن أعمال العناية الالهية وارتباطها ببني الانسان . وكانت مدونة أيوزيبىوس - جيروم التاريخية العالمية قد أخذت هذه الرؤية التاريخية بالفعل.

وقد تمخض مفهوم أوغسطين للتاريخ أيضاً عن الرأى القائل بأن كل حياة انسانية وكل تصرف انسانى يحمل بحد ذاته قيمة بالنسبة للمؤرخ، وهو ما أوضحه تيودور مومسن T.E Mommsen، من حيث أنه يلعب دوراً فى المسار الذى حددته العناية الالهية للتاريخ العالمى. هذا الاتجاه الذى شاع فى القرن العشرين باسم « حركة العلم التاريخى - Historicism »، كان مناقضاً لاعتقاد اليونانيين بصلاحية الأنماط المتكررة الدالة على المواقف

فقد حاول المسيحيون الأوائل تقدير عمر العالم انتظاراً لعودة المسيح ، فافترضوا أن العالم سيمر بستة عصور ، كل منها ألف سنة، قياساً على خلق السموات والأرض فى ستة أيام (تكوين ١ : ٥ : ٦) « ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساءً وكان صباح يوماً سادساً » (واضاف الالفىون سبتاً هو العصر السابع. وحين تقوم القيامة ويعدو المسيح يحل اليوم الثامن الذى يحل فيه الخلود محل الزمن والتاريخ وقد حدد أوغسطين مجرد العصور الستة على النحو التالى : من آدم إلى نوح الطفولة ، ومن نوح إلى ابراهيم الصبا، ومن ابراهيم الى داود الشباب، ومن داود إلى الأسر البابلى الرجولة ، ومن الأسر البابلى إلى يوحنا المعمدان العصر الوسيط الذى يقع بين مجيء المسيح الأول وعودته ، وهو عصر شيخوخة العالم. كما قسم كلا من هذه العصور تقسيماً فرعياً قياساً على الليل والنهار فجعل لكل عصر صبغة وظهره ومساءه.

Beryl Smalley, *Historians in the Middle Ages* (New York, 1971) PP. 27 - 35.

وكذلك . على الغمراوى ، نظرات هيستور يوغرافية فى التاريخ الأوربي فى العصور الوسطى (مجلة الآداب والتربية - جامعة الكويت العددان ٤.٢) ص ٤٣٢ - ٢٣٣.

والأنماط النفسية المتماثلة، وهو اعتقاد لم يسمح بوجود شخصية متفردة، أو بوجود مغزى للحادثة التاريخية الواحدة والشخصية التاريخية الفردية، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن مفهوم أوغسطين عن التاريخ قد كشف عن أهمية وقيمة الشخصية الانسانية المفردة؛ إذ أن الله يحاسبنا كأرواح مفردة، ومن ثم فإننا نحتل مكاننا في العملية التاريخية التي قدرتها العناية الالهية بوصفنا شخصيات فردية غير قابلة للتكرار.

ومن هذا الهجوم على فلسفة التاريخ الكلاسيكية، والاستعاضة عنها بنظرية مسيحية تقوم على أساس عقيدة التجسد، ينتقل أوغسطين إلى الهجوم على الفكرة المسيحية التي تقول بالتقدم، وهي الفكرة التي جعلت من العسير تماما على المسيحيين فهم سقوط روما فيقول أوغسطين، أننا إذا بدأنا بالروح الفردية، سنجد أن هناك صراعا بين الارادة الروحية والارادة الجسدية على السائدة، وأولئك الذين تسمو بداخلهم الارادة الروحية، يحبون الله الى درجة تجعلهم ينكرون نواتهم، ومن ثم فإننا قد نقسم الانسانية الى مجموعتين؛ أي مجتمعين أو مدينتين، احدهما هي مدينة الله وهي مجتمع أولئك الذين انتصرت بداخلهم الارادة الروحية، والمجتمع الآخر هو المدينة الأرضية حيث أولئك الذين تسود بداخلهم الارادة الجسدية، فمنذ سقوط الشيطان؛ أي منذ عصر قابيل وهابيل، وجدت المدينتان في حالة من التناقض الصارخ والدائم. واحدهما هي مدينة المسيح، والآخرى مدينة للشر. ويشير هذا التعميم القضااضي إلى الملائكة كما يشير إلى البشر على السواء. ذلك أن هذا التعميم شامل للجنس البشري بأسره، لأنه يضم في ثناياه جميع شعوب الأرض على اختلافها وتفرقها في أصقاع المعمورة، كما أنه يتضمن للتاريخ الانساني برمته.

وتمتد حياة المدينتين منذ بداية وجود الجنس البشري حتى نهاية العالم، وخلال هذه الفترة من تاريخ العالم يختلط المجتمعان على المستوى المادي؛ ولكنهما يظلان على انفصالهما الروحي والأخلاقي. ذلك أن حياة الانسان الداخلية، وحال كل روح فردية، هي

فقط التي تحدد من ينتمى إلى مدينة الله، ومن ينتمى إلى المدينة الأرضية، وفى يوم الحساب سوف ينفصل مواطنو المدينتين على المستوى المادى أيضا. وسوف يحظى مواطنو مدينة الله بالحياة الخالدة، على حين يعانى أعضاء المدينة الأرضية عذاب اللعنة الأبدية.

على أنه لا يمكن - ونحن نحاول فهم النظرية التي صاغها أوغسطين عن المدينتين - أن نميز مدينة الله أو المدينة الأرضية، أو نطبقهما على أية دولة أو مؤسسة قائمة، فليست الامبراطورية الرومانية الوثنية هي المدينة الأرضية، كما أن الكنيسة المسيحية ليست مدينة الله، على الرغم من وجود علاقة مبهمّة بين كل من الامبراطورية والمدينة الأرضية، وكل من الكنيسة ومدينة الله، وهى علاقة شبيهة بتأثير الأفكار الأفلاطونية على الأمور الدنيوية. والصراع بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية صراع يحدث خارج دائرة التاريخ العادى : فهو يحدث داخل الانسان نفسه، أى داخل النفس الفردية. ونحن نشير إجمالاً إلى النفوس التي انتصر بداخلها الإرادة الروحية باعتبارها مدينة الله، كما نشير بالمثل إلى أولئك الذين انتصرت بداخلهم الإرادة الجسدية على أنهم مدينة الأرض. بيد أن الخلاص يبقى مسألة تتعلق بالنفوس الفردية وليس بالمجموعات ، ويقول أوغسطين « أننا نطلق عليهم، بطريقة محددة، اسم المدينة السماوية والمدينة الأرضية ».

والمذهب الأوغسطينى عن المدينتين يجعل من المستحيل وجود فكرة مسيحية تؤمن بالتقدم الزمنى؛ فالتاريخ، من وجهة النظر المسيحية التي يمثلها أوغسطين ، يجب أن يتم معناه على مستويين، المستوى العادى للأمور الزمنية وهو المستوى الذى يتميز بأهميته الكبيرة؛ ذلك أن الأحداث التي تقع فى التاريخ الانسانى مقدرة سلفاً بإرادة الله، وما هى إلا لحظات فى الخط الذى يمتد منذ الخليقة مروراً بتجسد المسيح إلى يوم الحساب. وبالتجسد بدأ العصر السادس والآخر فى التاريخ الانسانى، ولكن بينما يتعين على المؤرخ أن يقيم كل حادثة مفردة فى التاريخ باعتبارها انعكاساً لأعمال الغناية الالهية، فإنه

لايستطيع أن يستنتج الغرض الذى توخاه الرب فى تقدير الأحداث التى تشكل مصير بنى الانسان. والمورخ المسيحى يهتم بالتدهور والفشل بقدر ما يهتم بالنجاح الاقتصادى والرخاء، فلا بد أن يكون لتدهور الامبراطورية الرومانية مكان فى الخطة التى قررتها العناية الالهية لمسار التاريخ، شأنه فى ذلك شأن العصر الذهبى الذى شهدته الامبراطورية فى قمة مجدها ورقياها. وعلى أية حال، لايتعين على المؤرخ أن يكتشف الغاية التى تغياها الله من هذه التغيرات العنيفة فى مسار البشر والحضارة. وليس لنا أن نعتبر أن فشل دولة ما، أو حضارة ما، عقابا من الرب، كما أنه لاينبغى لنا أن نعتبر أن نجاح ورفاهية احدى الدول، أو احدى الحضارات بمثابة المكافأة التى يمنحها الله لقاء الفضائل التى يتحلى بها البشر.

وما أحداث التاريخ الزمنى جميعا سوى الخلفية التى يقوم عليها التاريخ الداخلى ذو الأهمية الحقيقية لبنى الانسان؛ أى تاريخ المدينتين. بيد أنه لما كان هذا التاريخ قائما على أساس العلاقة بين الله والنفس الفردية، فهو تاريخ لايمكن إلا أن يكتبه كاتب ملهم وليست من عامة البشر، فإن أهم الأحداث التى تقع فى التاريخ بعيدة عن متناول المعرفة التاريخية، ومن ثم فإن أوغسطين يرى أن المسيحى يرى فى نهوض الحضارة وسقوطها عملا من تدبير العناية الالهية دون افتراض الحكم الدقيق على السبب الذى جعل العناية الالهية نقدر هذه التغيرات العنيفة فى تاريخ الانسانية، وكل ما نعرفه أن مثل هذه الأمور ترتبط بتجسد المسيح فى علاقة ما، كما ترتبط بيوم الحساب ومن ثم فهى مسخرة لخلاص بنى الانسان ورفاهيتهم. ويعرف المسيحى أن ما يستحق الأهمية فى نظر الله، هو تاريخ المدينتين كما يرى المسيحى لمحة من هذا التاريخ فى الصراع الدائر بداخله بين الارادة الروحية والارادة الجسدية. إلا أنه فى يوم الحساب فقط - حين ينفصل سكان المدينة الأرضية عن سكان المدينة السماوية - سيكون من المتاح أن نفهم تاريخ المدينتين على نحو أكثر شمولاً وكمالاً.

وعلى الرغم من أن أوغسطين قدم اجابات كاملة على الشكوك والأسئلة المسيحية التي أثارت حول سقوط روما، بأن أوضح أن وجهة النظر الدورية في التاريخ لا تتوافق مع العقيدة المسيحية. كما أنه استبعد فكرة التقدم المسيحية، فإنه لم يقدم جوابا شافيا على الانتقادات التي وجهها الوثنيون، ذلك أنه حول أرضية المناقشة بأن كشف النقاب عن منظور مناسب للرؤية المسيحية لسقوط روما، وهي طريقة في المجادلة لم يكن الوثنيون ليقبلوها بطبيعة الحال، ولكن أوغسطين كان من الحذق بحيث أدرك أنه لا يمكن أن يكون هناك نزاع على شيء سوى الفرض الأساسي، فهو يقول للوثني : ان مجادلتك لاتعنى شيئا بالنسبة لي طالما أن فروضى مختلفة تماما، ومن ذا الذي يمكن أن يلومه على هذا الموقف الناضج ؟ ويقول أيضا : باعتناق المسيحية تكون فلسفة التاريخ الوحيدة التي يمكن قبولها هي تلك التي طرحها في كتاب « مدينة الله »، وتنبغى رؤية كتاب أوغسطين « مدينة الله » باعتباره نقطة تحول هامة في المفهوم التاريخي، كان أوغسطين هو الذي أوضح نظرية التاريخ التي تضمنها الكتاب المقدس، وهي رؤية تاريخية تستحق النظر المتأنى حتى في الوقت الحاضر، بيد أن عدد المفكرين الذين ترسموا خطاها في أي عصر كان ضئيلا للغاية، وذلك لأن الفلسفة الأوغسطينية للتاريخ، إنما تهدف إلى البحث فيما وراء التاريخ meta - historical.

وغالبا ما يقال أن كتاب « مدينة الله » لأوغسطين كان يسيطر على الفكر التاريخي في العصور الوسطى، والواقع أن هذا غير صحيح، فد حظى أوغسطين بالتبجيل إلا أن رؤيته للتاريخ كانت من الغموض والأبهام بالنسبة لكل كتاب العصور الوسطى، بحيث لم يقدر أغلبهم على استيعابها، إذ كان المؤرخ في العصور الوسطى يميل تماما إلى أن يجعل من الكنيسة مرادفا لمدينة الله، وهو ما لم يقصده أوغسطين، وحين كان الكاتب في العصور الوسطى يصف أحوال ملك أزر للكنيسة وعمل لصالحها، فإنه سرعان ما كان يسقط في حبال اعتقاد ايزيبيوس المتفائل في التقدم الانساني من خلال الاتحاد بين

الدولة والكنيسة، وهو الاعتقاد الذى كان أوغسطين يعارضه بشدة، وأخيرا، فإن مؤرخ العصور الوسطى كان يحاول باستمرار أن يعثر على يد العناية الالهية فيما يصف من أحداث، وهو مطلب كان أوغسطين يجده مطلبا أخرقا وخطيرا . فإن نظرية أوغسطين فى التاريخ تتطلب ضبط النفس والتدين العميق، الأمر الذى كان فوق طاقة جميع كتاب العصور الوسطى تقريبا، كما أنه بعيد أيضا عن متناول الكتاب المحدثين، فإننا لانزال نميل إلى ربط مصالح دولتنا بإرادة الله، ولانزال نعتقد أن تشجيع مصالحنا الوطنية يحظى بتأييد العناية الالهية، وضد هذه الاتجاهات كتب أوغسطين مؤلفه الأكبر، ولكن أفراد قلائل هم الذين اهتموا بأن يستمعوا إلى رأيه، واستطاعوا فهم رأيه.

وبالمثل، ففى مسائل القضاء والقدر وحرية الإرادة، أبتعدت كنيسة العصور الوسطى بالفعل عن الموقف الأوغسطينى المحدد بشكل دقيق، فإن مشكلة التوفيق بين القدرة الالهية الشاملة، والحرية الانسانية لم تكن من ابتكار أوغسطين، ولا حتى من ابتكار القديس بولس الذى تأثر أوغسطين بأرائه تأثيرا كبيرا فى هذا الصدد. فقد أثرت المشكلة بالفعل فى العهد القديم، وربما ثارت فى أية ديانة توحيدية أخرى، وأوضح أوغسطين أن الناس مسئولون عن خطاياهم، ولكنهم ليسوا مسئولين عن الخلاص، كما فسر اللعنة فى ضوء خطيئة آدم، وليس باعتبارها نتيجة لتصرف فردى ، فالطبيعة الانسانية فاسدة، والناس جميعا مدانون بسبب هذه الطبيعة . وبدون العون الالهى لن يستطيع أى انسان أن يهرب من قيود الطبيعة البشرية. وليست هذه حرية مطلقة، ولكنها حرية أن تعيش وفقا لمشيئة الله، وما هذه الحرية إلا نتيجة لما ينعم الله به من هبات. وبعبارة أخرى، فالرجال الأحرار هم فقط أولئك الذين يحيون وفقا للإرادة الالهية، أى الذين يهربون من قيود الإرادة البشرية لأن الله اختارهم للخلاص. وقد تطور هذا المذهب الصارم على يد أوغسطين من خلال خلفه مع الراهب واللاهوتى البريطانى بيلاجيوس Pelagius الذى زعم أن الانسان يستحق الخلاص عن جدارة لأنه اختار أن يعيش عيشة شريرة، ولم يكن بوسع أوغسطين

أن يقبل رأى بيلاجيوس عن الارادة الحرة لأنه ظن أن بيلاجيوس أنكر العقيدة المسيحية عن الانسان الخاطئ وخط من شأن الجلالة الالهية.

بيد أن الكنيسة وهي تعمل لرعاية الشعب المسيحي، وجدت أنه من الصعب أن تأخذ برأى أوغسطين. فقد كان مذهبه متحذلقا صارما بحيث لا يمكن استخدامه لتتصير جماهير الأميين . وبدأ أن المذهب الأوغسطيني لايجعل الخلاص ميسورا لكل أعضاء الكنيسة. وفعلا، قام بعض الأساقفة الفرنسيين بالدعوة إلى موقف شبیه بموقف بيلاجيوس في القرن التالي لموت أوغسطين، وتمسكوا بأن الخلاص يعتمد على نعمة الرب، ولكنهم قالوا أيضا أن أعضاء الكنيسة يمكن أن يكونوا جديرين بتلك النعمة؛ فقد أرادوا أن يكونوا قادرين على الوعد بثواب حال لقاء السلوك الأخلاقي لرعاياهم. وبينما كانت الكنيسة قد أخذت بالمذهب الأوغسطيني رسميا في مجمع أورانج Orange سنة ٥٢٩، فإنها أهملت تعاليم أوغسطين وأهدرتها على أرضية الواقع. وكثيرا ماكان القادة المسيحيون في العصور الوسطى يناقشون الخلاص في عبارات أمكن لرعاياهم أن يفسروها على أنها تتضمن قدرا كبيرا من حرية الارادة الانسانية . لقد تم ارساء دعائم المذهب الكاثوليكي في العصور الوسطى على يد البابا جريجورى العظيم قرب نهاية القرن السادس، إذ أن مدخله كان معقولا ، لأنه يقول أنه بينما كان الخلاص نتيجة للنعمة الالهية، فإن الفرد المسيحي – الذى يقوم بأداء الأعمال الطيبة التى تدعو اليها الكنيسة – إنما يكشف عن نعمة الرب التى حلت به . وكان هذا يعنى فى الواقع أنه إذا كان عضو الكنيسة قد تلقى الأسرار الربانية المقدسة، وسار على نهج التعاليم الأخلاقية التى تدعو الكنيسة إليها فليس له أن يقلق بشأن الخلاص . ولم يكن هذا تحولا كبيرا عن موقف أوغسطين ، ولكنه من ناحية أخرى لم يكن متوافقا تماما مع تعاليم أوغسطين؛ إذ أن أوغسطين لم يكن ليقبل أبدا أن يكون القيام بالأعمال الطيبة علامة على تقبل النعمة الالهية . إلا أن جريجورى كان أكثر اهتماما بالعمل الرعوى للكنيسة منه بالتعريفات اللاهوتية الدقيقة، فقد كان يريد أن

يؤكد لجمهوره أن كل من يصبح مسيحيا في خلقه وفعاله جدير بالخلاص، وكان من الصعب تماما حمل الناس على أن يعملوا هذا، أى أن تدعو الكنيسة إلى تنفيذ تعاليمها، وتظل غير قادرة على ضمان الخلاص للناس، وهو الأمر الذى كان سيضع الكنيسة فى أكثر مواقعها حرجا، وهى تناضل من أجل تحويل المجتمع الأوربي إلى المسيحية. وفى سبيل ضمان أكبر للخلاص قدمت الكنيسة فى زمن جريجورى العظيم خطة للتكفير عن الانحراف عن تعاليم الكنيسة يمكن من خلالها نيل الغفران. فقد كان يفترض أن هناك مرحلة وسيطة بين النعيم والجحيم تسمى المطهر، ولا يدخل الجنة مباشرة أحد سوى القديسين، بينما يتعين على الآخرين جميعا أن يمروا بعملية تطهر، وكان المطهر هو المرحلة والمكان حيث يمكن القيام بهذا التطهر للنفوس، وهذا هو العقاب الذى يناله الناس الطيبون، تمهيدا لدخولهم الجنة فى النهاية، إلا أنه كان من الممكن - وفقا لتعاليم الكنيسة منذ زمن جريجورى - أن تتم هذه الكفارة التطهيرية فى الحياة الدنيا، ومن ثم تسهل على المؤمن عناء مرحلة المطهر وتقصيرها، وإذا سلمنا بحقيقة أن الكنيسة أرادت أن تؤكد لرعاياها أنها تمتلك كافة الوسائل التى تمكنهم من نيل الخلاص، وإذا سلمنا بالمفهوم القانونى للالوهية، يكون من السهل علينا أن نرى كيف تم استنباط فكرة المطهر هذه، وكيف استنبط مذهب التوبة.

وتجسدت تعاليم جريجورى عن الكفارة التى تقوم بها الكنيسة، كما أصبحت هذه التعاليم جزءا هاما للغاية فى حياة كنيسة العصور الوسطى ولا تزال لها هذه الأهمية حتى العصر الحاضر، والتوبة مراحل أربع، أولا، أدرك الخطيئة والخوف من عقاب الله ثانيا، الاعتذار عن ارتكاب الخطيئة أو الندم عليها، وهذه المرحلة ذات أهمية قصوى، وثالثا : الاعتراف أمام قسيس مكرس من الكنيسة، وهو خزي واتضاع إرادى للتائب، وأخيرا : يأتى العمل الفعلى للكفارة وهو ما يسبق عليه شعورا بالرضا لتكفيره عن الخطيئة.

وكان التكفير يتم بصور متعددة، فقد كان من الممكن أن يقوم التائب بكفارته أمام

الكنيسة فى صورة عمل بدنى شاق يسديه للكنيسة أو الحج إلى احدى المزارات المقدسة، أو حتى أى عمل فنى من الأعمال التى لها غرض دينى. ومن المعلوم تماما أنه حدث فى أواخر العصور الوسطى أن أسىء استخدام التوبة، مثلما حدث فى صكوك الغفران الشهيرة التى هاجمها مارتن لوثر بشدة. إلا أنه ينبغى ملاحظة أنه كان للتوبة غرض دينى ونفسى سليم إلى حد كبير، إذا كانت التوبة تتيح للمسيحى أن ينال الغفران عن خطايا كثيرة، ومن ثم تؤكد له من جديد خلاص روحه كما تسمح له أن يتطلع إلى الحياة الآخرة بقدر أقل من الخوف والهلع. وعن طريق مذهب جريجورى فى التوبة ضيقت الكنيسة من التشاؤمية التى طلع بها أوغسطين فيما يخص مصير غالبية البشر والواقع أن مذهب جريجورى هذا لعب دورا كبيرا فى ادخال نظرة التفاؤل فى الفكر الدينى الغربى، وهو ماكان يروق لمجتمع العصور الوسطى الباكرة على نحو أفضل.

كانت أهمية أباء الكنيسة اللاتينية ودورهم فى إرساء النظرية السياسية لكنيسة العصور الوسطى مساوية لأهميتهم من حيث تحديد الأسئلة التى أثرت فى قضية القضاء والقدر، فمنذ عصر أوغسطين كان الأباطرة هم حكام الكنيسة المسيحية حقا، بل أنهم لعبوا الدور الأول فى تحديد عقيدتها، وهيمنة الأباطرة هذه على الكنيسة هى التى تمت صياغتها فى مصطلح « القيصرية – البابوية Caesaro - Papism لقد أرتأى الأباطرة المسيحيون على مدى القرنين الرابع والخامس أن يضعوا نظرية يمكن أن يستند إليها مبدأ السيطرة الفعلية على مقدرات الكنيسة،

وتبدو الخطوط الرئيسية لهذه النظرية واضحة بالفعل فى خطبة ايوزيبىوس التى ألقاها فى مدح قسطنطين سنة ٣٢٦. فقد خرجت كل من الامبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية الى الوجود فى الوقت نفسه تقريبا؛ ولذا فإن العناية الالهية هى التى خلقت الامبراطورية من أجل تقدم الدين المسيحى ومن أجل خير الكنيسة. كما أن اعتناق قسطنطين للمسيحية جعل الأهمية الدينية للامبراطورية تبدو جلية واضحة . وكان لا بد وأن

تتداخل مصائر وأقدار كل من الامبراطورية والكنيسة، بل وتصبح كل منهما مرادفة للأخرى حقا. وفي ختام خطبته، يقوم أيوزيببوس باحياء المفاهيم السياسية في الديانات التي تعبد الشمس، والتي شاعت في القرن الثالث في صيغة مسيحية : ذلك أن المنصب الامبراطوري قد خلق بنعمة الرب ورحمته ، والامبراطور هو نائب الله على الأرض في سبيل دعم رفاهية الكنيسة المسيحية والامبراطورية .

إلا أنه لايتضح من خطبة أيوزيببوس التي أطرى فيها قسطنطين، ما إذا كان الامبراطور هو نائب الله الأول على الأرض، أم أن الأساقفة كانوا له أندادا. وبحلول النصف الثاني من القرن الخامس أخذت دعاوى الامبراطور بشأن علو مكانته على الأساقفة - بسبب طبيعة منصبه - تتخذ شكلا أكثر وضوحا وصراحة، وخلال النصف الأخير من القرن الخامس كانت نظرية القيصرية - البابوية هذه قد نضجت وتمت صياغتها تماما.

وحوالى هذا الوقت كانت الامبراطورية قد تدهورت في الغرب، ولكن الأباطرة الرومان الشرقيين، أو الأباطرة البيزنطيين، استمروا في انتهاج سياسة القيصرية - البابوية التي لم يثر حولها أى سؤال حتى القرن الثامن. لقد كانت الكنيسة البيزنطية في العصور الوسطى قسما من الدولة البيزنطية . وكان الامبراطور هو الرئيس النظرى والفعلى للكنيسة الشرقية اليونانية. كما صار بطريرك القسطنطينية مجرد مساعد الامبراطور فى الشئون الدينية . وكان باستطاعة الامبراطور أن يطرد البطريرك إذا خالف المراسيم الامبراطورية ، وقد حدث ذلك بالفعل فى بعض الأحيان.

وهكذا، التقط الأباطرة البيزنطيون نظرية تدعم سلطتهم على الكنيسة وطوروا هذه النظرية التي كانت قد ظهرت بالفعل منذ زمن قسطنطين . وعلى أية حال، فإنه على الرغم من تقرّظ أيوزيببوس لقسطنطين، فإنه يبدو واضحا أن قسطنطين كان يظن أن الله قد اختاره ممثلا عنه بصفته الشخصية فقط، وأن نيابته لم تكن نابعة من منصبه الامبراطوري

، وفي غضون قرنين من الزمان بعد قسطنطين صارت هذه النيابة الشخصية نيابة رسمية عن الله : فمن دواعى منصب الامبراطور أن يكون حاكما على كل من الدولة العالمية والكنيسة العالمية.

وشينا فشيئا اتخذت القيصرية – البابوية شكل مذهب الملكية الثيوقراطية، أى فكرة أن الامبراطور ، بحكم منصبه، تباركه سجايا وخصال مقدسة، وكان الامبراطور البيزنطى يعتبر بمثابة ملك وكاهن rex et sacerdos فى آن واحد، ولم يكن مجرد رجل علمانى، فهو مثل الأسقف يتمتع بصفات مقدسة تابعة من طبيعة منصبه، ولم يكن هذا الرأى مجرد دعاية للامبراطور والبلاط الامبراطورى كما أن الكنيسة لم تثر أية تساؤلات حول صلاحيته، واستمر زعماء الكنيسة يفكرون بشكل يتسق مع الخطوط الرئيسية التى تبدو واضحة فى خطبة ايوزيبىوس التى مدح بها قسطنطين، وفضلا عن ذلك كله كانت الامبراطورية ما تزال موجودة بالنسبة لهم، فهل كان هناك ما يدعو إلى التساؤل حول الحقيقة القائلة بأن مصائر الكنيسة هى مصائر الامبراطورية المسيحية نفسها على نحو متطابق؟.

وفى الوقت الذى أخذت حضارة القسطنطينية فى العصور الوسطى تزداد تأثرا بحضارة الجزء الشرقى من الامبراطورية مع كل قرن يعضى، كانت نظرية الملكية الثيوقراطية تزداد تأثرا بمفاهيم الملكية المقدسة التى سادت الحياة السياسية فى الشرق الأوسط على مدى قرون عديدة، كان الملوك الشرقيون، من أمثال الحكام الفرس، يعتبرون نوات مقدسة وشبه إلهية بصفة دائمة، فقد وضحت مظاهر البلاط الفارسى بالفعل الرومانية أيام دقلديانوس، وظلت مظاهر واحتفالات بلاط الملكية البيزنطية فى العصور الوسطى تأخذ عن مظاهر واحتفالات البلاط الفارسى التى تجعل من شخص الملك شخصا شبه إلهى يسمو فوق جميع رعاياه بما فيهم الاساقفة.

على أية حال، كان من الممكن تعضيد فكرة الملكية الثيوقراطية بالرجوع الى

صفحات العهد القديم. فالأمثلة والنصوص الواردة في الكتاب المقدس، والتي تدعم وتؤيد مزاعم الامبراطور، قد استخدمت على نطاق واسع من قبل أبواق الدعاية الامبراطورية، كما أن الكنيسة الشرقية لم تجد في سوابق الكتاب المقدس شيئاً غير صالح، بل على العكس من ذلك، كان رجال الكنيسة اليونانية مأخوذين ومتأثرين بما جاء في الكتاب المقدس من أصول تدعم سلطة الامبراطور. وكان في مقدور الأباطرة البيزنطيين، أن يستشهدوا، مثلاً، بمثال شاول الذي مسح صموئيل ملكاً باختيار الرب^(١٨) ولم يكن لداود أن يرفع يده أمامه، والراجع - كانت المناقشة تدور على هذا النحو - أن مسح شاول ملكاً باختيار الرب أعطاه سلطة مقدسة. كذلك كان المدافعون عن مذهب الملكية الثيوقراطية يشيرون إلى المثال السوارى في العهد القديم عن ملكى صادق الذى جاء عنه فى سفر التكوين أنه كان ملكاً وكاهناً فى الوقت ذاته^(١٩). ويعتبر ملكى صادق بمثابة التجسيم السابق لنمط الملك - الكاهن. كما أن المسيح ذاته، كان سليل بيت داود ملك الملوك، والكاهن الأكبر، فى الوقت نفسه.

وفى القرنين الخامس والسادس مضت نظرية الملكية الثيوقراطية هذه شوطاً أبعد فى الامبراطورية البيزنطية، إذ نمت حول شخص الامبراطور عاطفة دينية روحانية شرقية السمات. فقد كان الناس يرون أن الامبراطور يماثل المسيح ذاته، فكما أن فى السموات الله واحد يجمع فى ذاته كل السلطة والقوة، كان على الأرض ملك واحد أيضاً. وقد حظيت هذه الفكرة بالتركيز الشديد القوى حين صارت موضوعاً رئيسياً من موضوعات الفن البيزنطى.

وفى مقابل نظرية الملكية الثيوقراطية ومزاعم الأباطرة البيزنطيين حول القيصرية-البابوية، طرحت البابوية، فى العقد الأخير من القرن الخامس، مفهوماً عن علاقات

(١٨) صموئيل ١٠: ١، «لأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبله وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً».

(١٩) جاء فى سفر التكوين ١٤: ١٨ - ١٩ «... وملكى صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً. وكان هنا الله العلى وباركه». (المترجم).

الكنيسة والدولة يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الملكية الثيوقراطية. وقد عرفت هذه النظرية التي تطرح مفهوم العلاقات الصحيحة بين الكنيسة والدولة باسم النظرية الجيلازية Gelasian theory نسبة إلى البابا جيلازيوس الأول Gelasius الذي قدم الصياغة الكلاسيكية لهذه النظرية، وكانت تلك هي النظرية التي أولاهما المنظرون السياسيون اهتمامهم الأساسي في العصور الوسطى المبكرة، وسوف نقتفى أثر الصراع بينهما، ولكي نتعرف على أصل النظرية الجيلازية ينبغي أن نرجع القهقري إلى القرن الرابع، بل وإلى وقت مبكر عن ذلك.

كان السبب الأول في تقبل زعماء كنيسة القرن الرابع لسيطرة الأباطرة الرومان، عن طواعية ورضا، راجعا إلى تعاليم القديس بولس لهم باحترام سلطة الدولة. وبوسعنا أن نقول أن النظرية السياسية في العصور الوسطى بدأت بالاصحاح الثالث عشر من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية، وهو الاصحاح الذي أخذ عنه كتاب العصور الوسطى السياسيون مرات ومرات :

« لتخضع كل نفس للسلطين القائمة، أنه ليس سلطاناً إلا من الله والسلطين القائمة هي مرتبة من الله، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل الشريرة. أفتريد أن لاتخاف السلطان. أفعل الصلاح فيكون لك مدح منه لأنه خادم الله الصلاح، ولكن إذا فعلت الشر فخف، لأنه لا يحمل السيف عبثاً، إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذي يفعل الشر لذلك يلزم أن تخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً بسبب الضمير . فانكم لأجل هذا تولون الجزية أيضاً. الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف والاكرام لمن له الاكرام. »

كان هذا البيان - بما له من أهمية كبرى فى جميع مراحل مجرى الفكر السياسى فى العصور الوسطى - محلا للاقتباس بشكل مستمر منذ القرن الثانى فصاعدا. فقد أوضح بولس أما السلطات التى رتبها الله (وهى سلطات الدولة والسلطات الدينية على حد سواء) تخدم الغايات الالهية، ومن ثم فهى سلطات صالحة. ويجب أن يبقى الناس على خضوعهم لأن حكام العالم يمثلون الرب وينوبون عنه، وزعم بولس أن نظام الحكومة المدنية ترتيب الهى. كما أن رفض الخضوع للدولة يعنى رفض الخضوع لله. والغرض الحقيقى للدولة أن تكبت فى نفوس الناس الشر الذى تولد عن خطيئة آدم. وفى رأى بعض العلماء أن بولس هنا كان يطرح حلا مؤقتا فحسب، لأنه كان يظن أن العالم سينتهى بحكامه من قريب على نحو ما. كما أنه اهتم بشكل خاص بأن يلزم المسيحيون فى روما الهدوء وإلا يكتسبوا أية سمعة بأنهم يقومون بنشاط هدام مما يجب لهم المتاعب. وأيا كان قصد بولس، فإن تعاليمه جعلت مجتمع العصور الوسطى عاجزا عن مقاومة السلطة الملكية، ولكن المقاومة بدأت فعلا بالقديس أمبروز.

كان القديس أمبروز زعيم الكنيسة اللاتينية خلال العقدين الأخيرين من القرن الرابع حتى موته سنة ٣٩٧ وهو سليل أسرة مسيحية رومانية عريقة كانت لها مكانة سامية فى الإدارة الامبراطورية وأرسل إلى ميلانو كحاكم امبراطورى، واختير رئيسا لأساقفة ميلانو سنة ٣٩٤ باجماع شعبى أدهشه كثيرا. وكرس نفسه على مدى العقدين التاليين لإدارة شئون أسقفيته والكتابة فى اللاهوت والعبادات، كما كرس نفسه لبناء سلطة الكنيسة فى مواجهة سيطرة الأباطرة المسيحيين.

وقد جرد أمبروز مرتين على التصدى للامبراطور الارثوذكسى العظيم ثيودوسيوس، فقد أدانته على فعاله وألجأ الامبراطور إلى التسليم والتوبة. وفى كلتى الحالتين ذكر الامبراطور بأنه فى النهاية مجرد انسان وأن عليه أن ينصت الى ممثل المسيح لأن المسيح نفسه يحمى امبراطوريته. وقال أمبروز أنه سيكون من المستحيل

عليه أن يقدم القربان المقدس لخاطى غير تائب، وكان ثيودوسيوس، من حسن طالع أمبروز، رجلا عميق التدين، وفي كلتي المناسبتين التي أثار فيهما حنق كبير أساقفة ميلانو استسلم في وداعة.

وكان لانتصار أمبروز على امبراطور العالم الرومانى بأسره رد فعل عميق فى ذلك الوقت. كما أن المثل الذى ضربه أمبروز فى مقاومة السلطة الزمنية ترك أثره العظيم على الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى الباكرة، فغالبا ما كان يحدث فى العصور الوسطى الباكرة، إذا ما تصدى أحد زعماء الكنيسة لمعارضة ملك ما ، أن يستشهد بالمثل الذى ضربه القديس أمبروز فى مقاومة الامبراطور ثيودوسيوس، ويمكن القول بأن استسلام ثيودوسيوس لمطالب رئيس أساقفة ميلانو يبدو كنقطة تحول فى تاريخ العلاقات بين الكنيسة والدولة فى أوروبا الغربية.

بل أن نظرية أمبروز عن علاقات الكنيسة - الدولة، والتي وجد الفرصة للتعبير الدقيق عنها فى خطابهات إلى ثيودوسيوس، وفى عظاته التى ألقاها أثناء نزاعه مع الامبراطور، كانت أبلغ تأثيرا على التطورات اللاحقة من المثل الذى ضربه بشخصه. إذ قال أمبروز أن الدولة ينبغى أن تساعد الكنيسة وأن تحميها، ولكن فى المسائل الدينية ليست للحاكم الزمنى أية سلطة على الكنيسة، « فالمسائل الإلهية ليست خاضعة لأحكام السلطة الامبراطورية الرومانية » وعلى الرغم من هذا، دعسا إلى الاستقلال الذاتى للكنيسة خارج اختصاصات الدولة، لأنهما فى التحليل النهائى مؤسستان منفصلتان « فالقصور تختص بالامبراطور ، على حين تختص الكنائس بالأسقف » . وفى الكنائس يكون الحكم للأسقف وليس للامبراطور ، وهكذا شن القديس أمبروز هجومه على نظرية الحكم الشيوقراطى التى صارت أساسا لمذهب القيصرية - البابوية.

فالامبراطور هو الحاكم الزمنى الأعلى بيد أنه ليس شخصا مقدسا، ويخلص

أمبروز في النهاية إلى أنه : حين يكون هناك صراع بين القانون الالهي والقانون الامبراطوري يجب أن يكون للقانون الالهي فضل السبق والصدارة على القانون الامبراطوري. وقد صاغ أمبروز المبدأ القائل بأن الكنيسة والدولة مؤسستان منفصلتان صياغة واضحة . ويتضمن مذهبه من المغزى ما هو أعمق من ذلك؛ إذ يقول بأن الكنيسة هي السلطة الأعلى في آخر الأمر لأنها تعمل على خلاص البشر، بما في ذلك الامبراطور نفسه. كما أوضح القديس أمبروز بصفة قاطعة أن تعاليم المسيح التي تقتضى بأن « أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله » تنطبق أيضا على الامبراطور أيضا على الامبراطور (قيصر) حين يكون من رعايا الكنيسة المسيحية.

وأكثر ما يلفت النظر في جسارة أمبروز في هجومه على السلطة وهيمنتها على الكنيسة أنه كان يخاطب آخر الأباطرة العظام قبل انحلال الامبراطورية، وهو الامبراطور ثيودوسيوس العظيم الذي عادت سياسته بالنفع الكثير على الكنيسة، وربما لم يكن ليجرؤ على تحدى سلطة الامبراطور، على نحو ما فعل أمبروز، سوى أسقف ينحدر من سلالة أعلى مراتب الارستقراطية الرومانية. وكانت خطابات أمبروز إلى ثيودوسيوس هي التي حددت الخطوط العريضة للنظرية المثلى للكنيسة الغربية في العصور الوسطى تماما مثلما قدم ايوزيببيوس، في مديحه لقسطنطين، الأسس التي قامت عليها النظرية السياسية القيصرية - البابوية في بيزنطة.

وقد جعل أنهار الامبراطورية الغربية - الذي بات أمرا واضحا بالفعل بعد عقدين من موت أمبروز سنة ٣٩٧ - من هذه النظرية محورا جوهريا للغاية في حياة الكنيسة الغربية . ذلك أن السلطة الامبراطورية الوحيدة الباقية تمثلت في امبراطور القسطنطينية الذي رفض أن يعترف بالوضع الجديد للممالك الجرمانية التي قامت على انقاض الامبراطورية الغربية القديمة، وأدعى لنفسه الهيمنة على الامبراطورية بأسرها باعتبار أن السلطة الامبراطورية عادت كلها إليه (هكذا كانت صياغة النظرية) وكان هذا يعنى أنه

سيحاول أن يمارس على البابا السلطة نفسها التي كان يمارسها على البطارقة الشرقيين. وحتى إذا ما كان الامبراطور سينجح في استعادة الامبراطورية الغربية، وهو الهدف الذي وضعه نصب عينيه ليقوم بتنفيذه حالما تتوافر له القوة الكافية، فسيكون على الكنيسة الغربية أن تقبل ما يفرضه الامبراطور من قرارات في شئون العقيدة . وفي مواجهة هذه التهديدات من جانب القسطنطينية كانت نظرية أمبروز تمثل الدعوى المضادة الأفضل. وقد أخذ البابا جيلازيوس الأول في أواخر القرن الخامس، وجهات نظر أمبروز فيما يخص علاقات الكنيسة بالدولة وطورها، وصاغها في تصريحاته التي رد بها على أمبراطور القسطنطينية.

ومهما يكن من أمر، فإن أمبروز لم يكن هو الوحيد بين آباء الكنيسة الذي ساعد على تشكيل النظرية السياسية للكنيسة. ففي النظرية السياسية ، كما في معظم مناحي الفكر الأخرى، كان للأوغسطينية تأثيرها الكبير على كنيسة العصور الوسطى الباكرة، وهو تأثير يصعب تحديد مداه بشكل دقيق، وعلى الرغم من هذا فإن هذا التأثير كان عاما. لقد كانت كارثة سنة ٤١٠ في روما تعنى أن الربط الذي قام به ايوزيبوس بين مصائر كل من الدولة والكنيسة قد أصبح غير ذي موضوع بالنسبة للكنيسة اللاتينية. وكان الكتاب التاسع عشر من « مدينة الله » محكوما بهذا الوضع السياسى المتغير على نحو قوي. فقد طيب أوغسطين خاطري أخوته المسيحيين في الكنيسة اللاتينية بأن أصر على أنه ليست للدولة أية وظيفة إيجابية في الحياة الدينية، وأن الخلاص مسألة قاصرة على العلاقات بين الله والنفس المفردة. ولا تقدم الدولة لحياة المدينة السماوية هذه الا القانون والنظام اللازمين فقط، أى السلام الأرضي، ليكونا بمثابة الخلفية التي تقوم عليها هذه المدينة وهكذا تكون الدولة، في رأى أوغسطين، مجرد مؤسسة تابعة ذات غرض وظيفي قصد بها أن تهيب الظروف الاجتماعية والسياسية التي تلائم الممارسة السلمية للحياة الدينية. ولكن الدولة في طبيعتها الجهورية، لاتسهم في الحياة الدينية، وأن الخلاص مسألة قاصرة على العلاقات

بين الله والنفس المفردة، ولا تقدم الدولة لحياة المدينة ومن ثم ليست لها أية صلاحيات معنوية فى حد ذاتها، وينتهى أوغسطين إلى أن الدولة فى حد ذاتها ليست سوى « مصابة من القراصنة » . ومن ثم فإن أوغسطين لايجعل للدولة تلك المقاصد الدينية والأخلاقية التى تصورها أيوزيببوس، بل أنه لايعطيها الصلاحيات المقدسة التى يعطيها بولس للدولة فى رسالته إلى أهل روما (وهو الأمر الذى قد يدهشنا قليلا فى ضوء قبول أوغسطين لفكر بولس الدينى بشكل عام) . لقد تركت الأوغسطينية السياسية تركتين لأيدىولوجية الكنيسة ؛ فمن ناحية دعت الكنيسة الى التدخل فى شئون ونشاطات الحكام بشرط ألا يتدخلوا فى حياة الكنيسة، وأن يهيئوا السلام والنظام اللازمين حتى لا تقف الفوضى الاجتماعية والسياسية حجر عثرة فى طريق الحياة الدينية. ومن ناحية أخرى لاتجد الأوغسطينية السياسية، بطبيعة الحال، أية سجايا مقدسة فى طبيعة الملك، فالحقيقة أن الدولة ليست سوى مؤسسة تتلائم مع الظروف، ولا تتمتع بأية صلاحيات أخلاقية بصرف النظر عن فائدتها للمدينة السماوية التى تعتبر الكنيسة صورتها المنعكسة. كما أن الأوغسطينية تستنكر سلطة الدولة وتستعجنها.

وقد أثرت التركتان، أو تعثلتا على الأقل، فى الموقف الذى اتخذته الكنيسة تجاه مختلف حكام العصور الوسطى الباكرة. ويمكن القول بأن الكنيسة اقتفت أثر التركة الأولى وهى تتعامل مع الملوك الجرمان الضعاف فى القرون الثلاثة التى أعقبت الغزوات الجرمانية، فقد كانت الكنيسة تحت أولئك الملوك على حفظ القانون والنظام ، دون أن تجشم نفسها عناء البحث عن أوجه القصور الكثيرة - شخصية كانت أم تنظيمية - التى شابته الممالك الجرمانية المسيحية فى تاريخها الباكر، بيد أنه عندما كان أحد الحكام الجرمان يمتلك من القوة ما يمكنه من فرض سلطته على الكنيسة، والبابوية على وجه الخصوص، كانت الكنيسة تبادر الى الدفاع عن نفسها بمهاجمة الأسس النظرية التى تستند إليها الملكية، موضحة أنه ليست للدولة أية صلاحيات معنوية غير تلك التى تستمدتها من الكنيسة.

وكان البابا جيلازيوس الأول هو أول من استخدم هذا المبدأ ضد الامبراطور البيزنطى.

وفى العقد الأخير من القرن الخامس حاول البابا جيلازيوس - الذى ألف من أراء كل من أمبروز وأوغسطين - أن يصوغ للكنيسة نظرية سياسية. فقد تولى جيلازيوس البابوية من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٦، وفى ذلك الوقت، كان واضحاً أن الشقاق سيحدث بين البابا والامبراطور. إذ كانت الكنيسة البيزنطية والامبراطور يدينان بمذهب مخالف للمذهب الكنيسة الكاثوليكية عن طبيعة المسيح. وأراد الامبراطور من جيلازيوس أن يعلن قبوله لهذا المبدأ. فأصدر البابا قرار الحرمان ضد بطريك القسطنطينية كما هاجم سلطة الامبراطور من أسسها. وواصل سيره على هذا الدرب فحدد العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية. وقال بأن من الممكن أن يوجد فى الكتاب المقدس أشخاص مثل ملكى صادق والمسيح ملوك وكهنة، ولكن الحاصل الآن أن سلطة المسيح مقسمة بين الكنيسة والدولة. فإن هناك نظامين للسلطة فى العالم : كبار الكهنة أصحاب السلطة المقدسة ، والملوك والباطرة الذين يعسكون بزمام السلطة الملكية. وسلطة الكنيسة سلطة تشريعية Auctoritas؛ على حين أن سلطة الحكام العلمانيين سلطة تنفيذية. Potestas وفى القانون الرومانى كانت السلطة التشريعية أسمى من السلطة التنفيذية. وهكذا فصل جيلازيوس بين الكنيسة والدولة من ناحية؛ إلا أنه أوضح أن الكنيسة تحتل المكانة الأسمى من ناحية أخرى. لقد كان يريد أن يصل بين الكنيسة والدولة بسبب الرغبة فى إبعاد الامبراطور عن شئون الكنيسة، ولكن جيلازيوس ترك لنفسه خط الرجعة حين أوضح أن المؤسسة التشريعية (الكنيسة) هى التى تمنح السلطة للمؤسسة التنفيذية (الكنيسة) التنفيذية (الامبراطور). وكان أمبروز قد قال أن الراعى مسئول أمام الرب عن أرواح رعيته، ويجب عليه أن يتدخل فى سلطة الحاكم إذا انتهكت الدولة المبادئ الأخلاقية للكنيسة، وهو ما عبر عنه جيلازيوس بقوله أن للكنيسة السلطة التشريعية Acutoritas فى نهاية الأمر.

ويمكن، أن تستخدم النظرية الجيلازية للرد على نظام القيصرية البابوية بالقول بأن

السلطة الروحية والسلطة الزمنية قد أوكلتا إلى مؤسستين مختلفتين، تستمد كل منهما سلطتها من الرب، كما أن كلا منهما لها مكانتها المستقلة عن الأخرى، في حدود مجالها الخالص، ولكن النظرية الجيلازية كانت تنطوي على مغزى أكثر عمقا جعل من الممكن تطويرها إلى مذهب يقول بتفوق البابا على الامبراطور، كما أن هذه النظرية لم تكن قاصرة في مدلولاتها على مجرد الفصل بين مجالات الكنيسة ومجالات الدولة. وقد هيات النظرية الجيلازية للبابوية مبدأ كان من الممكن أن يكون معتدلا ومتمشيا في الوقت نفسه مع أصول الفكرة في تطبيقاتها حسبما تسمح به الظروف. وحتى القرن الثامن كانت البابوية قانعة بأن تخرج من النظرية الجيلازية بأكثر الاستنتاجات اعتدالا. وتحت ضغط الامبراطور البيزنطي الشديد ظلت البابوية قانعة بمبدأ استقلال الشئون الكنسية عن السيطرة الملكية. وكانت المعركة التي خاضتها لفرض هذا المبدأ معركة طويلة ومريرة، ولم تحرز سوى نجاح محدود في النهاية، إلا أن البابوية بدأت في القرنين الثامن والتاسع تستخدم الجانب الراديكالي في النظرية الجيلازية. وفي القرن الحادي عشر استخرج البابا جريجوري السابع كل المضامين الراديكالية في النظرية الجيلازية، ولم يكتف بطلب الفصل بين الكنيسة والدولة، وإنما طالب بمبدأ سمو الكنيسة فوق جميع الحكام.

أليس بوسعنا أن نرى في هذا الجانب المزدوج من النظرية الجيلازية التركتين اللتين خلفتهما الأوغسطينية السياسية؟ لقد كان أوغسطين يعنى ضمنا أن مجالات المدينة السماوية (المنعكسة في الكنيسة) منفصلة تماما عن مجالات الدولة. وهذه هي أيضا وجهة نظر جيلازيوس في أكثر الجوانب اعتدالا في نظريته. ولكن أوغسطين يقول أيضا أن الصلاحية الأخلاقية للدولة ليست من سماتها الجوهرية، ولكنها مستمدة فقط من المدينة السماوية (المنعكسة في الكنيسة). وهكذا يقرر جيلازيوس أن السلطة التنفيذية الامبراطورية Potestas مستمدة من السلطة التشريعية البابوية Auctoritas في الصيغة الأصلية لنظريته. والنظرية الجيلازية في حقيقتها هي النظرية الأوغسطينية السياسية في

صورة أكثر بساطة، وأكثر واقعية وقدرة على طرح نقاط الجدل والمساجلة.

لقد أرسيت أسس الفكر السياسى فى القرون الستة التى تلت كتابات آباء الكنيسة . وسيكون علينا ، فيما بعد ، أن ندرس بالتفصيل أطوار الصراع الطويل بين فكرة الحكم الثيوقراطى والنظرية الجيلازية، كما ندرس الخلاف بين وجهات النظر الراديكالية فى المذهب الجيلازى، وحتى قيام حركة إحياء الفكر الأرسطى فى القرن الثانى عشر كانت المساجلات حول علاقات الكنيسة والدولة تدور وفقا للخطوط العريضة لهذه النظرية السياسية.

والتساؤل عما إذا كانت النظرية الجيلازية لاتزال تشكل النظرية السياسية للكنيسة الكاثوليكية مسألة محل أخذ ورد، وفى ضوء التغير الهائل الذى طرأ على الفكر الكاثوليكي فى الستينات من هذا القرن، يثور بعض الشك أيضا عما إذا كانت الآراء التى عبرت عنها كتابات آباء الكنيسة عن الزواج والعلاقة بين الزوجين لاتزال هى تعاليم كنيسة اليوم، بيد أنه يمكن القول بأن هذه الآراء قد شاعت فى الكنيسة الرومانية على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان، ومن ثم فإن تعاليم آباء الكنيسة عن الزواج والعلاقة بين الزوجين كان مقدرا لها أن تؤثر فى حياة الملايين من البشر، ومن المؤكد أن لهذه المسألة أهميتها من حيث مغزاها التاريخى، وهى أهمية تماثل تصريحات آباء الكنيسة وأراهم عن التاريخ الطولى والتاريخ الدورى، وعلاقات الكنيسة بالدولة.

أن من يقرأ أدب آباء الكنيسة بتوسع لابد أن يتأثر بالنعمة التى نوقشت بها مشاكل الأسرة والعلاقة بين الزوجين، وبالنظر إلى حقيقة أن الآباء اللاتين قد صاغوا مذهبهم فى معظم الأحيان بدافع الحاجة إلى إرشاد رعاياهم، فليس من المدهش أن نجد الموضوع وقد احتل حيزا كبيرا للغاية فى كتاباتهم. ويتفق جميع آباء الكنيسة على أن للاتصال الجنسى غرض واحد فقط، هو إنجاب الأطفال، وهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأن إشباع الرغبة الجنسية بحد ذاتها خطيئة، كما أنها نتيجة الانحلال الخلقى لدى الانسان ومثال

عليه، ويعبر القديس جريجورى عن هذا المبدأ بقوله : « فى حين لا يكون حب انجاب الذرية، بل حب المتعة، هو الذى يحكم عملية الاتصال الجنسي، فإن الأزواج يرتكبون أمراً يجعلهم يكون ويحزنون بسببه » ويستمر جريجورى فيقول أن « الدين المسيحى أباح لهم ذلك، ولكنه حذرهم من أن يكون الاتصال الجنسي بقصد المتعة ». وتتمسك الأفكار العبرانية، والبروتستانتية، والعلمانية الحديثة ! بل وبعض الأفكار الكاثوليكية الراديكالية فى العصر الحديث، بأن البشر بحكم طبيعتهم يجدون المتعة فى الحب الجنسي؛ ولكن أباء الكنيسة كانوا يرون أن الطبيعة البشرية تصل إلى ذروة سموها بالتركيز على الناحية الروحية، وإنكار الرغبات الجسدية ، أى بالإحجام عن الحب الجنسي.

ونتيجة لهذا، تمسك أباء الكنيسة بأن الطهر والنقاء هما الحالة المثلى للرجال والنساء، ودعموا دعواهم هذه المناقشة اللاهوتية والنفسية - الأخلاقية على السواء، وبالنسبة للقارئ اليوم ، تبدو كتابات جيروم المطولة، والتي لاتكاد تنتهى حول هذا الموضوع، ضرباً من المبالغة وربما تدل على أن كاتبها قد خرج عن حدود العقل، ولكننا يجب أن نتذكر أن أوغسطين وأمبروز، وجريجورى، كانوا رجالاً مكتملين، يتدفقون حيوية، كما كانوا متمرسين بالخبرة فى دروب الحياة . لقد قالوا بأن السيدة مريم أم المسيح كانت عذراء وأن الكنيسة هى عروس المسيح العذراء، ومن هنا فإن الحالة المثلى هى الإحجام عن الاتصال الجنسي، بل وحتى عن الزواج، ويخبرنا القديس أمبروز بأن أولئك الذين لايتزوجون « كالملائكة فى السماء ». ولكن ثمة تحولا آخر، لايرقى إلى مستوى النظرية فى مسألة العذرية، نجده عند أمبروز الذى يقيم قضية مقنعة فى إحدى مواعظه ضد الزواج فى ضوء ما يسببه من آلام ومتاعب لاسيما بالنسبة للمرأة، وهو يسهب فى الكلام عن عناء تربية الأطفال وتنشئتهم النشأة السليمة، كما يشير إلى « الخدمات والمساعدة الواجبة على الزوجات تجاه أزواجهن » بما تتسم به من مهانة

وعبودية، ويختتم كلامه بتقرير بياني عن كيفية إفساد الزوجات لأرواحهن بواسطة مستحضرات التجميل، والعطور والملابس والمجوهرات حتى يحتفظن بجاذبيتهن في عيون الأزواج، ويسأل أمبروز أسقف ميلانو الدقيق الملاحظة « ما الذي يتبقى لها إذا كان قد تغير هذا القدر الكبير ؟ » ولكن أمبروز، من ناحية أخرى، شغوف بأن يبين النعمة التي تحل « بالعذاري السعيدات » اللاتي « تملكن حقاً جمالاً لكن الخاص المستمد من حسن الفضيلة، ولتنشذن الله وحده قاضياً للمحبة، فهو الذي يحب، حتى في الأجساد الأقل جمالاً أرواحاً أكثر جمالاً ». ومن الغريب أن آباء الكنيسة، وهم يناقشون مسألة العذرية، كانوا يبدون وكأنهم يقصرون حديثهم عن هذه الحال المثلى على النساء فقط على الرغم من أنهم كانوا يقصرون العذرية كحال مثلى للذكور أيضاً، وقد شاع استخدام هذا المعيار بالنسبة للمرأة والرجل لدرجة أن آباء الكنيسة أنفسهم، لم يتمكنوا من التحرر من تأثيره حين كان يتعين عليهم أن يدلوا بأرائهم في المسائل الجنسية.

ولاتزال آراء آباء الكنيسة عن الجنس محل جدل كبير حتى اليوم، ومهمة المؤرخ أن يتسائل عن كيفية وصولهم إلى المناداة بهذه الآراء، فمن المؤكد أنها ليست مستقاة من العهد القديم، لأن الفكر العبراني يقبل الجنس كجزء طبيعي في الحياة، ويحث على الزواج بشدة، وفي رأى كثير من العلماء البروتستانت أننا لا يمكن أن نجد في الانجيل تحقيقاً للحب الجنسي والزواج الذي نادى به آباء الكنيسة، ومن الواضح أن هذه الآراء مستمدة من تعاليم القديس بولس الذي حث الشعب المسيحي على أن يتشبه به في عزوبيته، والذي أكد أن الزواج يكون أحسن « من أن تكون متوقداً » (بالرغبة أو بالخطيئة لسنا متاكدين على الرغم من أنه يبدو أن القديس بولس لم ير فرقاً كبيراً بين الخطيئة والرغبة الجنسية الجامحة).

وليس ثمة اتفاق بين العلماء عن السبب الذي دفع بولس إلى هذا القول، ويمكن

القول بأن آراءه عن الجنس، كانت مثل مذهبه السياسى، مجرد قواعد أخلاقية أخروية، أى أنها كانت انطلاقاً من الاعتقاد فى نهاية العالم الوشيكة. ويمكن القول أيضاً : بأن القديس بولس كان شديد التأثر بالثنوية اليونانية عن الروح والجسد، أو أنه ببساطة كان عصابياً فى مسألة الجنس. على أية حال، فإن آباء الكنيسة ترسموا خطأ فى المسائل الجنسية، على نحو أدق مما فعلوا بمذهبه السياسى. ومع التسليم بميلهم إلى النظر إلى المسيحية من منطق الفلسفة الأفلاطونية الجديدة - أى اقتناعهم بأنه إذا كان الله روحاً، فعلى الإنسان أن يصير روحانياً بقدر الإمكان - يبدو استمرارهم فى اعتناق نظرة بولس العدائية للزواج وتضخيمهم لهذه العداوة أمراً لا يدعو إلى الدهشة.

ولكى نفهم سبب تحقير آباء الكنيسة للجنس ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ذلك الفارق بين بيئتهم الاجتماعية والفكرية، وبيئتنا الاجتماعية والفكرية، وعلى الرغم من تركيزنا الشديد على أمور الجنس فى الأدب الحديث، وفى الأحاديث التى يلوكها الناس بقصد التسلية ؛ فإن المسائل الجنسية فى العالم الرومانى كانت أكثر فسقا وأباحية منها فى عالمنا وفى مقابل الأباحية التى اتصف بها الرومان، ارتبط مفهوم الجرماني عن العلاقات الجنسية بفكرة الانتهاك والعنف، وكان لابد أن يثور آباء الكنيسة ، باعتبارهم رجالاً متعلمين ومؤمنين ، على فهم المجتمع للأمور الجنسية. وكان من الطبيعى تماماً أن يتطرفوا فى الاتجاه المضاد، وألا يستطيعوا اكتشاف شىء جميل فى عملية الجماع اللهم باعتبارها وسيلة ضرورية لإنجاب الأطفال. ومن الممكن طبعاً أن ندلل بشكل مقنع على أن تعاليم آباء الكنيسة لم تكن متطرفة وخاطئة بل كانت تتسم بالحكمة كما كانت لها قيمتها الاجتماعية، إذ أنهم كانوا يعرفون - وهو الأمر الذى ننسأه غالباً فى الوقت الحاضر - أن الدافع الجنىسى أضعف كثيراً من دوافع إنسانية أخرى مثل الجوع والعطش، والخوف ، كما أنه أسهل فى كبحته والتسامى به من أى دافع إنسانى آخر. وإذا كان الناس فى العصور الوسطى لا يفرطون فى طعامهم وشرابهم الا نادراً، كما أنهم لم يتحرروا من

الخوف الا فى اوقات نادرة طوال عدة قرون ؛ فلا شك أن أمورا أكثر أهمية من الجنس كانت تشغل تفكيرهم. لقد كانت تعاليم آباء الكنيسة تتناسب تماما مع ظروف مجتمع العصور الوسطى الباكره، وليس معنى هذا أن غالبية رجال ونساء العصور الوسطى كانوا أطهارا؛ ولكنه يعنى بالتاكيد أن الرجال والنساء الذين قطعوا على أنفسهم عهد العفة والطهارة لم يواجهوا سوى القليل من المعاناة فى سبيل كبت رغباتهم لانتهاك مثل هذه العهود، فقد كان رهبان العصور الوسطى الباكرة يعانون فى سبيل الحصول على كفايتهم من الطعام، بقدر أكبر كثيرا مما كانوا يعانون فى سبيل الحفاظ على عفتهم. بل أنه حتى بين رهبان العصور الوسطى العالية والمتأخرة الذين كانوا أيسر حالا، كان الشره فى الاكل، وليس الإفراط فى مضاجعة النساء، هو الذى يعتبر خطيئة كبرى، وفضلا عن ذلك، فإننا يمكن أن ندلل على أن آباء الكنيسة كانوا رجالا يفهمون النفس الانسانية فهما جيدا. إذ يبدو أنهم عرفوا أن الكبت والتسامى بالفريضة الجنسية يزيدان من اهتمام الفرد وقدراته فى نواحى أخرى من الحياة، مثل النواحى الفكرية والدينية. بل أنه حتى فى مجتمعنا الحالى الذى يتمتع بوعى جنسى عال، ثمة حقيقة معروفة تماما مؤداها أن الكثيرين من الرجال ممن يتميزون البراعة الفكرية، والكفاءة الادارية لا يجدون الوقت الكافى لممارسة الحياة الأسرية.

وفى استعراضنا لفكر آباء الكنيسة قد يثور سؤال أخير عما إذا كان هؤلاء قد التقطوا أيا من جوانب تعاليم يسوع المسيح التى تشكل فى مضمونها انجيلا اجتماعيا. فمن أقوال المسيح عن الفقير الذى يرث الأرض وعن الصعوبة التى تجابه الغنى فى محاولته الدخول إلى ملكوت السماء، كان من الممكن صياغة فكر ثورى ظل ساريا على مدى ألف عام، وهو الفكر الذى قدر له أن يشكل تيارا رئيسيا فى الفكر المسيحى من القرن الحادى عشر حتى القرن السابع عشر، ثم ظهر مرة أخرى فى العصر الحديث. الا أن ما يمكن أن نجده من تأثيره هذا الفكر فى كتابات آباء الكنيسة لا يشكل سوى تأثيرات قليلة

للاغاية. لقد كان آباء الكنيسة واقعين تحت تأثير المفهوم الرومانى عن النظام والمبادئ الهيراركية (أى تدرج المراتب فى النظام الكنسى) بحيث أنهم لم يتمكنوا من صياغة الانجيل الاجتماعى.

ومهما يكن من أمر ، فمن الممكن أن نجد فى مواعد القديس أمبروز قدرا محدودا من النقد الاجتماعى ، والموقف العدائى تجاه الأغنياء. وحتى الآن لم يقم المؤرخون بالكشف عن الأصول الأولى للانجيل الاجتماعى فى العصور الوسطى، وهو الانجيل الذى ظهر بين عمال الصناعة فى المدن الإيطالية فى القرن الحادى عشر. وعندما يحدث هذا، فقد يتحول نقد أمبروز الاجتماعى - على الرغم من أنه لا يظهر بوضوح فى مؤلفاته - إلى مصدر هام من مصادر هذا الفكر الاجتماعى الثورى المسيحى الذى شهدته العصور الوسطى المتأخرة.

وأدب آباء الكنيسة عبارة عن خضم واسع من الآراء والمعلومات التى لم تبرز منها سوى تيارات رئيسية معينة ، ونظرا لأن مثقفى العصور الوسطى الباكرة كانوا من رجال الكنيسة، ولأنه لم يظهر فى أوروبا قبل القرن الثانى عشر كتاب يقتربون من حيث اطلاعهم الواسع وسلطانهم الفكرى، من مستوى آباء الكنيسة اللاتين ، فاننا يجب أن نستنتج أن تاريخ الفكر الوسيط حتى سنة ١١٠٠ ، فى جزء كبير منه، عبارة عن بحث المدلولات الضمنية فى آراء أوغسطين وأمبروز، وجيروم، وجريجورى، واستخراجها ثم بوضعها موضع التنفيذ العملى. بل أن تأثير آباء الكنيسة كان كبيرا جدا حتى فى أثناء العصور الوسطى العالية والعصور الوسطى المتأخرة، ففي منتصف القرن الثانى عشر يشير حنا السالزبورى John Of Salisbury إلى علماء ومفكرى عصره باعتبارهم أقزاما يجلسون على أكتاف آباء الكنيسة العمالقة. ومن الممكن أن نقدم الدليل المقنع الذى يدعم هذا التفسير للتطورات التى مر بها الفكر فى العصور الوسطى.

ويبدو آباء الكنيسة بعيدين تمام البعد عن مشاكلنا وعن عالمنا الفكرى. وهو ما يجعل

الناشرين يحجمون عن نشر خطب آباء الكنيسة الدينية، الا أننا إذا نظرنا نظرة متأمة فاحصة إلى هذا القدر الهائل من تراث آباء الكنيسة، أمكننا أن نعثر في ثناياه على أفكار لاتزال وثيقة الصلة بعالم اليوم، سواء في مجال الدين أو الفلسفة أو الأخلاق أو التاريخ أو السياسة أو الجنس. وسواء وافقنا على آراء الكنيسة أم لم نوافق عليها ، فإنه ينبغي علينا أن نصل في النهاية إلى أن آباء الكنيسة اللاتين – نظرا إلى مسعة اطلاعهم وسلطانهم الفكرى ، وشجاعتهم في تناول المشاكل التي كان يعاني منها المجتمع المتدهور، والمشاكل المرتبطة بالحضارة الصاعدة الجديدة – يقفون على قدم المساواة مع عمالقة الفكر في العالم الغربى.

الجزء الثانى

تحول الحكومة والمجتمع فى أوروبا من القرن الخامس حتى القرن الثامن

« إن قلبى لينغمس بالحزن والأسى وأنا أروى قصة الحروب الأهلية التى
مزقت جنس الفرنجة وممتلكاتهم شر ممزق ».

جريجورى التورى

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله
ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا
الجزية عن يد وهم صاغرون ».

القرآن الكريم

الفصل الرابع

عصر الغزوات الجرمانية (١)

١ - الجرمان

يغطي التقسيم الكبير الثاني لتاريخ العصور الوسطى الفترة ما بين القرن الخامس حتى أوائل القرن الثامن، وهي فترة تتميز بالغزو الذي تعرضت له أوروبا الغربية، وعالم البحر المتوسط، من قبل مختلف الأقوام الرحل والشعوب البدائية؛ وهي شعوب المغول، والجرمان (٢). وتمثل تأثير ذلك في قرون ثلاثة تردت فيها الأوضاع، وسادت الفوضى الشاملة، وهو ما ظهرت نتيجته في تحول الحكومة الأوروبية والمجتمع الأوروبي. وكانت أخطر الغزوات هي غزوات الشعوب الجرمانية وتوغلها في داخل العالم الروماني - فيما عرف باسم الغزوات البربرية - ذلك أن الجرمان قد استقروا في أوروبا الغربية وحددوا مصيرها، وهو ما لم يفعله الغزاة المغول والعرب في معظم الأحيان.

أخذ الرومان كلمة بربري barbarian عن اليونانيين الذين استخدموها للدلالة على الأجنبي؛ أي بالتحديد، للدلالة على من هو أدنى في مستواه الحضاري من الرجل

(١) جعل كانتور هذا الفصل بعنوان The age of the Barbarian invasions أي عصر الغزوات البربرية، وهو يقصد بذلك عصر غزوات الجرمان وغيرهم من شعوب الهون واللان، ونظراً إلى أن غزوات الجرمان كانت هي الغزوات الرئيسية التي أدت إلى سقوط الامبراطورية في الغرب فقد رأينا أن نترجم هذا العنوان إلى اللغة العربية بعصر الغزوات الجرمانية (٢) ضم المؤلف العرب إلى هذه الشعوب التي أسماها بالشعوب البدائية، والواقع أن إلحاق العرب بالجرمان والمغول في هذا المجال يعتبر مجازاً للحقيقة وتعسفاً غير محمود من كانتور، فالحقيقة أن حركة الفتح الإسلامية تختلف اختلافاً جذرياً عن الغزوات التي قام بها الجرمان، أو الهون أو اللان، سواء من حيث نواحيها أو من حيث نتائجها الحضارية فقد خرج العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية تحت راية الجهاد الإسلامي لييسموا سلطانهم السياسي على مساحة شاسعة من العالم المعروف آنذاك، بيد أن المسلمين لم يتعرضوا لأرواح أهل الأمصار أو حرياتهم أو معتقداتهم، وسرعان ما تفاعلت هذه الحضارة العربية مع المفاهيم التي جاء بها الإسلام لتخرج لنا الحضارة الإسلامية التي كانت ثمرة رائعة لحركة الفتح الإسلامية. أما الشعوب الرومية الآسيوية مثل الهون واللان والشعوب الجرمانية، فقد قامت بغزواتها بحثاً عن موطن أفضل يسر لها سبل الحياة والحصول على الغذاء وبينما لم يخلف الهون مثلاً سوى لكريات الدمار والفظائع التي ارتكبوها، لم يبق من الممالك الجرمانية التي قامت في غرب أوروبا وشمال أفريقيا سوى مملكة الفرنجة وكان على أوروبا أن تنتظر طويلاً حتى يبدأ أولئك في الأخذ بأسباب الحضرة والرفق، وهنا كان الفضل للمؤثرات العربية الإسلامية التي دخلت إلى الكيان الأوروبي عبر أسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا، ومن خلال الحروب الصليبية. (المترجم)

اليوناني. أما الرومان فقد استخدموا كلمة « بربرى » بـمدلول الازدراء والتحقير للدلالة على الشعوب التى وفدت لتعيش على حدود الراين والدانوب، كما أطلق الرومان على هذه الشعوب هذه جميعا اسم الجرمان Germani وهو الاسم الذى كانت تعرف به فى الواقع قبيلة واحدة فقط من القبائل القاطنة فيما وراء الحدود الرومانية ؛ إذ كانت تعرف به فى الواقع قبيلة أخرى تسمى الألمانى Allemani، وهى الكلمة التى صارت فيما بعد أساسا للمصطلحات الفرنسية والأسبانية الدالة على الألمان. أما الجرمان فكانوا يطلقون على أنفسهم الكلمة التى صارت أساسا لكلمتى دويتش Deutsch وتيوتون Teuton الحديثتين، وهى كلمة Theut (تيوت ومعناها « الشعب »).

فمن هم الجرمان ؟ من أين وفدوا ولماذا؟ وماهى نظمهم الاجتماعية والسياسية ؟ هذه الأسئلة شغلت عقول الكثيرين من المؤرخين، كما كانت مراحا لنشاطهم وخيالهم، لاسيما فى ألمانيا حيث كانت من الطبيعى أن يشجعهم الشعور القومى على دراسة هجرات الشعوب Voelkerwanderungen وأيا كان الأمر فإن المصادر الأدبية ضئيلة القيمة إلى حد بعيد، وكل معلوماتنا عن الجرمان قبل القرن الأول قبل ميلاد المسيح مستمدة من البحوث الأثرية / فقد كشفت هذه الدراسات الأثرية من أن الغزاة الجرمان الذين اقتحموا الامبراطورية الرومانية قد وفدوا فى الأصل من سكنديناوة، ومن ثم فإن الفايكنج Vikings الذى ظهروا فى فترة لاحقة، وهاجروا من مواطنهم فى القرن التاسع إلى أوربا وغزوها، كانوا من الشعوب نفسها التى عرفها الرومان باسم الجرمان من حيث أصلهم العرقى . وحوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بدأ الجرمان يتحركون من مواطنهم الأصلية فى الدانمرك وجنوب النرويج والسويد الحالية صوب الجنوب. وحوالى سنة ١٠٠ قبل الميلاد وصلوا فى انتشارهم صوب الجنوب إلى نهر الراين. وفى وقت لاحق - ربما فى القرن الأول الميلادى - هاجروا إلى حوض نهر الدانوب.

وإذ بدأ الجرمان يضغطون عبر نهر الراين، كان من اليسير عليهم أن يدفعوا أمامهم بالشعوب الكلتية Celts. فقد كان الكلت شعباً مسالماً يشتغل الزراعة وكان لهم ولع شديد بالشعر والغناء. ولولاً ظهور يوليوس قيصر والفرق الرومانية على مسرح الأحداث في منتصف القرن الأول قبل الميلاد لتمكن الجرمان من هزيمة الغال Gaul، مثلما فعلوا فيما بعد حين فتحوا بريطانيا ودفعوا بالكلت إلى جبال ويلز. وقد تمكن يوليوس قيصر، بعد قتال مرير أن يدفع بالجرمان إلى ما وراء نهر الراين مرة أخرى واستعمر الرومان النصف الجنوبي في بلاد الغال استعماراً كلياً. وفي منتصف القرن الثالث عبر الجرمان نهر الراين لفترة مؤقتة، وهي الفترة التي سبقت انهيار الامبراطورية مباشرة. إلا أن استحکامات الحدود على جبهة الراين سرعان ما بنيت من جديد. وحتى حدوث الانهيار النهائي لتحصينات حدود الراين سنة ٣٠٦، لم يعبر النهر الكبير إلى جوف الامبراطورية سوى القبائل الجرمانية التي أصبحت معاهدة في الجيش الامبراطوري.

وما أن حل القرن الثاني بعد الميلاد حتى كان الجرمان قد استقروا في حوض الدانوب بأعداد كبيرة، وأخذ هؤلاء يضغطون على الحدود الامبراطورية في هذا الاقليم، وكان الجرمان على طول امتداد نهر الدانوب خاضعين لقسمين كبيرين للأمة القوطية: الفيزيقوط (الحكماء) Visigoth الأوستروقوط Ostrogoth (الساطعون)، وقد عاش القوط الغربيون بالقرب من الحدود الرومانية. وفي القرن الثالث الميلادي اخترق الجرمان جبهة الدانوب لفترة مؤقتة أيضاً، ولكن القوط اضطروا للتراجع إلى ما وراء النهر مرة أخرى قبل أن ينتهي القرن. ولم يسمح الرومان لأي من قسمي القوط بعبور الدانوب مرة أخرى قبل سنة ٣٧٦.

وليس هناك دليل إيجابي عن أسباب هجرات الشعوب Voelkerwanderungen، وكل ما نستطيعه هو أن نخمن الأسباب مسبقاً. لقد ترك الجرمان سكنديناوة بسبب نقص الأقوات الناتج عن تزايد عدد السكان من ناحية، وبسبب الحروب المستمرة بين القبائل

والتي كان المهزومون فيها يطردون من مواطنهم لكي يبحثوا لأنفسهم عن موطن جديد في الجنوب من ناحية أخرى. وحين أقترب الجرمان من حدود الامبراطورية، اتصلوا بعالم الثروة، والتقدم التكنولوجي، ومناخ البحر المتوسط البديع. لقد كان هدفهم أن يدخلوا إلحراحاب الامبراطورية لا أن يدمروها، وذلك لكي يشاطروا سكانها مستواهم المعيشي المرتفع .

وقد أثارت طبيعة النظم السياسية والقانونية والاجتماعية الباكرة لدى الجرمان اهتماماً كبيراً بين المؤرخين، ونشرت حول هذا الموضوع مجلدات عديدة . وهذا الاهتمام الكبير بالموضوع لا يعود إلى الدافع الوطني فحسب، ولكنه راجع أيضاً إلى أن كثيراً من النظم التي ظهرت في أوروبا في فترة لاحقة، تبدو وكأنها قد تطورت من خلال الأساليب الجرمانية الباكرة، أو ترتبط بها على نحو ما. وفي القرن التاسع عشر بالذات كرس العلماء جهداً ضخماً لدراسة النظم الجرمانية الباكرة؛ إذ أنهم كانوا متفقين على الرأي القائل بعضوية التطور السياسي والقانوني، وهو ما يعني أن النظام السياسي أو النظام القانوني الذي بلغ قمة تطوره، كانت بذرتة هي الشكل البدائي المتمثل في نظام الجرمان.

والواقع أن مصادر الفترة الباكرة من تاريخ الجرمان ضئيلة . ويعتبر تاكيتوس Tacitus المسمى Germania، الذي كتب سنة ٩٨ ميلادية، أفضل وأقيم وصف كتبه مؤرخ قديم لأنماط الحياة عند الجرمان، وهو يقع في حوالي خمسين صفحة بالطباعة الحديثة. ولم يزر تاكيتوس مناطق الحدود الجرمانية على الإطلاق، إلا أنه كان يستطيع أن يجمع معلوماته من أحاديث الجنود الرومان العائدين من الجبهة، كما كان يوسعه أن يطلع على الوثائق الحكومية وأن يطرح أسئلته على موظفي الحكومة، باعتباره رجلاً أرسقراطياً ذا نفوذ. ولأسوء الحظ أن غرضه من كتابة مؤلفه Germania. لم يكن يقصد النشر المحايد للمعلومات. بل أنه أراد أن يصور لقرائه مدى التناقض بين الجرمان البسطاء الذين لم تفسدهم المدنية، بنشاطهم وفضائلهم، والرومان المراوغين المختئين بانحلالهم الأخلاقي.

وقد يؤخذ تصويره المثالي لسيدة البيت hausfrau الجرمانية الفاضلة بتحفظ، بيد أن هناك من المعلومات والتفاصيل الكثيرة عن ظروف وأحوال النظم السياسية والقانونية الجرمانية فى كتاب Germania، ما يجعل كتاب تاكيتوس هذا ذا أهمية فائقة بالنسبة للمؤرخ.

وتتألف المجموعة الثانية من مصادر تاريخ الجرمان من الشعر الشعبى الجرمانى، ومن سوء الحظ أن القصيدة الوحيدة الباقية من هذه المجموعة هى قصيدة بيوفولف Be-owulf الأنجلو - سكسونية التى وصلتنا فى شكل قريب من القصيدة الأصلية، بحيث يمكن أن تستخدم كمصدر تاريخى. كما أن ملحمة نيبيلونج Nibelungenlied الكبيرة، التى كانت مصدر إلهام الأوبرات التى ألفها فاجنر Wagner لم تصلنا سوى فى نص يرجع إلى القرن الثالث عشر، وهو نص مثقل بأفكار الفروسية التى لا تتوافق مع المفاهيم التى كانت سائدة فى الوقت الذى ظهرت فيه أنشودة نيبيلونج. أما ملحمة البيوفولف فقد دونها أحد رجال الدين فى أواخر القرن الثامن، ويبدو التأثير المسيحى فيها سطحياً؛ إذ أن القصيدة تكشف تماماً عن مثل وأخلاقيات الفئة العليا فى المجتمع الجرمانى. ومن الممكن تدعيم الصورة التى ترسمها ملحمة البيوفولف للمجتمع الجرمانى من خلال مقارنة هذه الصورة بالصورة التى ترسمها الحكايات النثرية Sagas والشعرية Sagas الأيسلندية للمثل والأخلاقيات السائدة فى المجتمع الاسكندناوى. فبينما تصور هذه الحكايات المجتمع الأيسلندى فى العصور فى العصور الوسطى العالية، فإنها تكشف أيضاً عن مجتمع يمر بمرحلة مشابهة من مراحل تطوره، وهى المرحلة نفسها التى يمكن أن نضع أيدينا عليها أيضاً فى الشعر الهرمى (٢). وهذه المرحلة أقرب ما تكون إلى مايسميه العالم الانجليزى شادويك H.C. Chadwick « بالعصر البطولى » heroic age وباستثناء كتاب شادويك الرائد الذى ظهر منذ نصف قرن مضى، فإن العلماء لم يبدلوا حتى الآن سوى القليل من الجهد فى سبيل القيام بالضوء على الحياة الجرمانية الباكرة، من خلال استخدام هذا المنهج المقارن فى دراسة النظم الاجتماعية.

(٢) نسبة إلى هرميرس صاحب الإلياذة والأوديسا

أما المجموعة الثالثة من مصادر تاريخ الجرمان الباكر، فتتمثل في المجموعة التي تعرف باسم مجموعة القوانين الجرمانية : والواقع أنها ليست مجموعات قانونية على الإطلاق، وإنما هي هي تقارير مكتوبة قصد بها توضيح الشطر الأكبر من القانون الجرمانى الذى ظل شفويا وعرفيا، وعلى الرغم من تحديدها الصارم، فإن هذه القوانين الجرمانية ، مثل قوانين البرجنديين والفرنجة (القانون السالى) وقوانين الأنجلوسكسون (الأحكام the dooms) تحمل قيمة فائقة بسبب ماتحويه من معلومات عن الحياة السياسية والقانونية.

وأخيراً ، فإن الدليل الأثرى قد ساهم فى محاولة المؤرخين لاعادة تصوير الحياة الجرمانية الباكرة، إذ أن علم الآثار يمكنه أن يقتفى أثر هجرة أى شعب من الشعوب الجرمانية، كما يستطيع أن يزيح النقاب تماماً عن المستوى التكنولوجى والحضارى لهذا الشعب، ويجب، من ناحية أخرى، أن نعترف بأن نتائج الأبحاث الأثرية التى تهتم بتاريخ العصور الوسطى تستعصى على التفسير فى أغلب الأحوال، ويرجع السبب فى هذا إلى أن عالم الآثار المتخصص فى العصور الوسطى - على عكس من ينقب بحفائره فى أطلال الحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد النهرين - مقيد فى بحوثه الأثرية بحقيقة أن مواقع الضياع والمدن والطرق التى كانت مستخدمة فى العصور الوسطى لاتزال مستخدمة حالياً فى معظم الأحوال ، ولذا فإنه لا يستطيع القيام بحفائر منتظمة فى هذه البقاع،

وفى السنوات الأربعين الأخيرة، تغير صورة الجرمان الأوائل عدة مرات : إذا كان من الشائع فى عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن التأكيد على أوجه التشابه بين الحياة الجرمانية والحياة الرومانية، وعلى استمرارية النظم الجرمانية خلال القرنين الخامس والسادس مما يؤدى إلى اعتبار أن الغزوات الجرمانية لم تكن ذات تأثير يذكر على الحكومة والمجتمع الأوربيين . وكان العالم النمساوى الفونس دوبش Alfons Dopsch

يتزعم هذا الرأي هو المؤرخ البلجيكي هنرى بيرين Henri Pierenne. وقد توصل دويش في كتابه الضخم « الأسس الاقتصادية والاجتماعية للحضارية الغربية » إلى أنه كان هناك فرق ضئيل للغاية في المستوى الحضارى والاقتصادى عند كل من الجرمان وسكان العالم الرومانى، وقد بنى دويش استنتاجه هذا اعتمادا على دليل أثري مبهم وقراءات خاطئة تماماً لنصوص المصادر، فضلاً عن تفسيره الخاص لهذه المصادر، وعلى نفس المنوال يجادل بيرين بأن الغزوات الجرمانية لم تحدث أى صدع خطير فى التطور الاقتصادى والاجتماعى لأوروبا الغربية، فهو ينسب هذه النوازل إلى التوسع الاسلامى الذى حدث فى القرن الثامن وليس إلى الغزوات الجرمانية.

ومنذ الحرب العالمية الثانية، فقد التفسير الذى قال به دويش وبيرين لحياة الجرمان الأوائل فعاليتيه، وأصبح غير ذى موضوع بفضل جهود العلماء الفرنسيين، وعدنا مرة أخرى إلى الأخذ بوجهة النظر القديمة القائلة بأنه كانت للغزوات الجرمانية آثارها المدمرة، وقدم لنا سالن E.Salin دليلاً أثرياً يتعارض مع المادة التى رتبها دويش واعتمد عليها فى بحوثه. كما ناقش كورسيل Corcelle فى كتابه الغذ « التاريخ الأدبى للغزوات الجرمانية » مسألة ضرورة الأخذ بأراء المعاصرين حول مغزى الغزوات والتصرفات الجرمانية، كما أنه كتب أحسن مؤلف تاريخى عام عن هجرات الجرمان، ومواطن استقرارهم.

ومن خلال الأدلة الأثرية، والكتابات المحدودة التى توفرت لدينا عن تطور المجتمع الجرمانى فى الفترة التى تبدأ باستقرار الجرمان على طول حدود جبهة الراين والدانوب، وتنتهى بتأسيس الممالك الجرمانية فى أوروبا الغربية - ولنقل أنها الفترة ما بين سنة ١٠٠ قبل الميلاد وسنة ٥٠٠ بعد الميلاد - تبرز حقيقتان أساسيتان يجب أن نتحقق منهما إذا كنا نريد أن نفهم المجتمع الجرمانى فى عصر الغزوات على نحو سليم، وأولى هاتين الحقيقتين هى أن درجة تأثر الشعوب الجرمانية عبر نهر الدانوب بالحضارة إلى مرحلة حضارية تقترب من مستوى سكان العالم الرومانى فى مناطق الحدود، وقد كرسست هذه

القبائل نفسها للزراعة، كما تبادلت التجارة على نطاق واسع مع التجار الرومان. واعتنقت هذه القبائل الجرمانية الدين المسيحي على المذهب الآريوسى على أيدي البعثات التبشيرية الآريوسية فى القرن الرابع. ولم يكن مثل أولئك الجرمان يرغبون فى شىء سوى الدخول فى رحاب الامبراطورية كمعاهدين لكى يشاركوا عالم البحر المتوسط حياته. وقد كانوا يحترمون السلطة الرومانية إلى حد كبير، ولم تكن لديهم أية نوايا لإلحاق الأذى بها. وقد وصل القوط الذى عاشوا فى حوض الدانوب إلى هذا المستوى الحضارى لأنهم كانوا على اتصال بأغنى أجزاء الامبراطورية، وأكثرها ازدهاراً بالسكان.

ومن ناحية أخرى، فإنه يبدو واضحاً أن الشعوب الجرمانية الأخرى قد تأثرت قليلاً بنمط الحياة الرومانية، وظلت على بداوتها وجهلها كما كان أبناء هذه الشعوب برابرة بكل معانى الكلمة. والسبب فى هذا غير واضح. وعلى أية حال فإنه يبدو أن الجرمان فى هذه الحالة ظلوا على اتصال وثيق بـمواطنيهم الاسكندناوى الذى كان أقرب إليهم من الامبراطورية الرومانية بطبيعة الحال، وهنا أيضاً كانت النسبة الكبرى من الشعوب الجرمانية أكثر ابتعاداً عن الامبراطورية وبالتالي أقل تأثراً بالاحتكاك الحضارى بها. وهكذا كان الفرنجة Franks أكثر عنفاً وأقل تحضراً من بعض الغزاة الأوائل من أمثال البرجنديين Burgundians، كما أن الأنجلو - سكسون Anglo - sax ons الذين وفدوا مباشرة من منطقة بحر الشمال لم يتأثروا بالنمط الحضارى الرومانى.

وهكذا، فإن التعميم فيما يتعلق بالشعوب الجرمانية ليس أمراً سهلاً. إذ كانت بعض هذه الشعوب تتمتع بمستوى ثقافى واجتماعى يضارع مستوى فلاحى الامبراطورية، على حين كان البعض الآخر على بدايتهم بالفعل، على الرغم من محاولة بعض المؤرخين الألمان المحدثين لتصويرهم كقوم متحضرين.

أما الحقيقة الأساسية الثانية، التى تساعدنا على فهم المجتمع الجرمانى على نحو سليم، والتى يجب أن تستقر فى الأذهان حول الجرمان الذين عاشوا أثناء فترة الغزوات

الكبيرة، فهي أن نظمهم السياسية والاجتماعية لم تبق على جمودها وثباتها طوال الفترة ما بين سنة ١٠٠ قبل الميلاد حتى سنة ٥٠٠ ميلادية، ولكنها تعرضت لتغيرات عميقة، فقد كان المجتمع الجرمانى - شأن الكثير من الشعوب البدائية - يقوم فى تنظيمة فى البداية على أساس روابط الدم والعائلة والنسب . وبينما ظلت هذه الروابط مصونة إلى حد كبير حتى فترة الغزوات وأثناءها (كما يتضح من خلال طلب الثأر فى القضايا الجنائية)، كان هناك شكل آخر من أشكال التنظيم الاجتماعى يفرض نفسه رويداً رويداً، إلى أن صار هو الصيغة الاجتماعية المركزية إبان مرحلة الغزوات (٤٠٠ - ٦٠٠) ، وفى هذه الفترة ضعفت روابط الدم والنسب، وتجلّى ذلك واضحاً فى تلك المنازعات التى كانت تنشب بين الأقارب، وتحولت علاقة القربى السابقة على علاقة بين السيد والرجل Lord and man اللذين لم تكن هناك أية ضرورة لوجود أية رابطة قربى بينهما . فقد كانت الرابطة الضرورية هى رابطة الولاء فقط، وهكذا شهدت هذه الفترة تدهوراً فى قيمة وأهمية روابط الدم والنسب ، وتزايداً كبيراً فى الاعتماد على رابطة الولاء والطاعة.

وقد واكب هذا التغير فى التنظيم الاجتماعى تغير آخر فى التنظيم السياسى، بل إنه ساعد على حدوثه، وهو التغير الذى تمثل فى ظهور نمط من الملكية غير المسئولة لاتعتمد على الشعب، وإنما تعتمد على الهيبة العسكرية وكان الجند يبذلون طاعتهم للقائد العسكرى الذى يمكنهم من الحصول على الغنائم والأسلاب، إلا أن هؤلاء الأتباع لم تكن تجمعهم مع « مليكهم » رابطة الدم نفسها، كما لم يكونوا ينتمون إلى الشعب الذى ينتمى إليه مليكهم.

وهكذا كان هناك تحول سياسى واجتماعى كبير يجرى داخل المجتمع الجرمانى نفسه إبان فترة الغزوات الجرمانية. وهو الأمر الذى كان فى جانب منه من نتائج ظروف الشعب المتحرك فى سبيل الغزو. وقد تحرر كثيرون من المقاتلين الأشداء من الالتزامات القبلية التى تتحكم عادة فى مجتمعات الشعوب البدائية ، فضلاً عن أن الأمراء الذين

ظهروا بين الجرمان خلال تلك الفترة كانوا يتحررون إلى حد كبير من الالتزام بأية سلطة عامة لصالح قبيلتهم أو عشيرتهم. وطالما كان بوسعهم أن يوفرُوا لجنودهم الطعام والمال، كان أولئك المحاربون يبذلون لهم الطاعة والاخلاص. ولم يكن للملك، أو لعصبة المحاربين، أية التزامات اجتماعية أو سياسية تجاه الشعب ككل. وسوف نرى هذا الموقف يتكرر عدة مرات بين الجرمان خلال مرحلة الغزوات الجرمانية. ومن هذا السياق الاجتماعى والسياسى انبثقت المملكة الفرنجية فى القرن السادس.

ويمكن القول بأن النظام السياسى الأساسى لدى الجرمان، كان هو نظام الاتباع أو الكوميتاتوس *comitatus* باللاتينية، أو الجيفولجى *Gefolge* بالألمانية. وهذا النظام الذى كان سائداً عند الجرمان قرب نهاية القرن الرابع كان يتألف من الرئيس أو الملك، ومجلس الحرب الذى يدين له بالولاء ويقدم له الخدمات لقاء الحماية والعطايا التى يقدمها الملك أو الرئيس، وكان باستطاعة الرئيس الذى يحكم مدة طويلة، أو يتمكن من إحراز نصر عسكرى كبير، أن يؤسس أسرة ملكية حاكمة، وتزعم الأسرة أنها تنحدر من صلب فودين *Woden*^(٤) ويتخذ أفرادها مظهراً مقدساً، ويعتبرون العرش الملكى من أملاكهم الخاصة. بيد أن تولى عرش المملكة لم يتم بالوراثة المنحصرة فى الذرية لأن هذه الفكرة لم يعرفها الجرمان فى تاريخهم الباكر، ولكن ولاية العرش كانت تتوقف على إعلان مجلس الحرب الولاء أو رفضه لذلك. فعند موت الملك كان زعماء الشعب الجرمانى يجتمعون لى يختاروا أحق أفراد العائلة الملكية بالعرش، وهو أحسن المحاربين بينهم. وبينما ظهر نظام وراثى محدود للغاية فى ولاية العرش فى الممالك الجرمانية الجديدة التى ظهرت فى القرنين الخامس والسادس، ظل حق الشعب فى انتخاب الملك من التقاليد الراسخة فى الحياة

(٤) الإله فودين *Woden* أو فودان *Wodan* هو كبير آلهة الجرمان، وهو الذى أشار إليه تاكيتوس فى كتابه عن الجرمان تحت اسم ميركورى *Mercury* وقد حفظ اسم الإله فودان فى اسم يوم الأربعاء *Wednesdays* فى اللغة الانجليزية انظر :

Tacitus, Germania (translated By H. Mattingly, Penguin 1979), PP. 108 - 109, P.155.
(المترجم)

السياسية في العصور الوسطى على مدى عدة قرون ، لاسيما في المناطق التي بقيت فيها النظم الجرمانية الأصلية على فعاليتها. وكان مبدأ انتخاب زعماء الجماعة للملك ساريا في انجلترا لقاء ارتقاء الملك ألفرد Afred الشهير للعرش الانجليزي، كما أن الملك حنا John الذي ارتقى العرش سنة ١١٩٩ يدين بعرشه للمبدأ الانتخابي. وقد كان المبدأ الانتخابي الجرمانى من عوامل الاضطراب الذى أعاق استمرار الأسرات الحاكمة فى الامبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى . والواقع أن هذا المبدأ الانتخابي الجرمانى ظل باقياً حتى القرن التاسع عشر. ويرجع الفضل - جزئياً على الأقل - فى دوام هذا الشكل من النظم الجرمانية الباكرة إلى تأييد الكنيسة له، لأنها اتخذت من مبدأ الجدارة بالعرش ذريعة للاعتراض على من يتولى العرش ممن لا ترضى عنهم.

لقد كان الكوميتاتوس Comitatus بمثابة نواة ضعيفة للدولة فى العصور الوسطى. والحقيقة أنه يمكن القول بأنه لم يكن لدى الجرمان أى مفهوم عن الدولة، أو أية فكرة عن السلطة العامة، أو أى مفهوم للولاء والطاعة غير مفهوم ولاء الفرد لرئيسه أو قائده. ويمكن القول، بشيء من المبالغة ، أن النظرية السياسية الجرمانية لم تكن ترتفع فى مستواها عن مفاهيم عصابات البلطجية فى الشوارع فى العصر الحديث. ذلك أن المسافة ما بين الفكرة الرومانية العقلانية عن السلطة العامة والمنصب العام وعن الولاء للامبراطور الذى يمثل الدولة، بغض النظر عن شخصه، وبين هذه الفكرة الجرمانية، كانت مسافة شاسعة ، كما أن مستوى التفكير السياسى كان ضحلاً للغاية. ولكى نفهم تاريخ العصور الوسطى الباكرة المحافل بالكوارث ينبغى علينا أن نتذكر أنه قد تعين على الدولة فى العصور الوسطى أن تتطور انطلاقاً من هذا المستوى الفج، فقد كان البنيان السياسى فى العصور الوسطى الباكرة يتعرض باستمرار للتحديات بسبب عدم قدرة الجرمان على الاقتناع بمبدأ الولاء العام وفصله عن الولاء الشخصى. ومن ثم لا يثير دهشتنا أن الدولة فى العصور الوسطى لم تبدأ فى التكوين والتبلور حتى القرنين الثامن والتاسع. كما أنها لم تدخل أول عصور

عظمتها سوى فى منتصف القرن السابع عشر. بل إن ذلك النجاح الجزئى، والمتأخر زمنيا، الذى أحرزته الدولة، لم يكن ممكنا إلا بإضافة المفاهيم الكنسية عن السلطة والولاء إلى التراث السياسى البدائى عند الجرمان.

أما المفاهيم القانونية الجرمانية الأصلية، فكانت متقدمة قليلا عن رؤيتهم السياسية، فلم يكن الغرض من ساحات القضاء الجرمانية، ومن شكل الاجراءات التى تتم فى رحابها، إقامة العدالة التى لم يكن لدى الجرمان أية وسيلة لتحديد أو مجرد تعريفها. ولكن الغرض ببساطة كان وقف الاقتتال، فقد كان هدف الاجراءات القانونية الجرمانية أن تمنع الثأر، وإيجاد البديل عنه للعائلة التى تطلب ثأرها، أو للأقرباء المفجوعين فى مصابهم. وكانت هناك عدة سبل متنوعة لتحقيق ذلك، فقد كان الغرض من ساحات المحاكم أن تضع بدائل الثأر هذه موضع التنفيذ، وكانت الدية التى عرفوها باسم فيرجيلد Wergeld هى أول هذه البدائل، وهى دية نقدية تدفع لأسرة القتيل، أو مبلغ أقل يدفع للشخص الذى أصيب بعاهة، وتتكون المجموعة المسماة « مجموعة القوانين الجرمانية » فى معظمها من قوائم الدية التى توضح ما يجب دفعه تعويضا عن مقتل أحد النبلاء، ومقدار دية الرجل الحر، أو القن، كما تبين مقدار التعويض الذى يدفع فى مقابل الذراع أو العين أو غيرهما من أعضاء الجسد، وكانت الدية التى يطلبها المدعى باهضة للغاية، بل إنه فى حالة دفعها لم يكن هناك ما يجبر أقارب القتيل، أو الشخص المصاب على قبولها، وربما يفضلون أن يشفوا غليلهم بالانتقام. وكان من واجب المحكمة أن تقنع المدعى بأخذ الدية، وبالتالي تستبعد احتمال عمليات الثأر. وعلى الرغم من هذا، فإن حوادث الثأر كثيرا ماكانت تقع فى المجتمع الجرمانى الأول. ولدينا معلومات عن حالة ثأر حدثت فى انجلترا سنة ١٠٦٠ قضت على عائلات بأسرها. وأن نظرة على السجلات القانونية التى ترجع إلى أوائل العصور الوسطى للتكشف عن أن الحياة آنذاك كانت كريمة وحشية وقصيرة. فقد كان المجتمع عنيفا يعج بمشاجرات السكارى التى تنتهى بالقتل، وما ينتج عن ذلك

بالضرورة من احتمال نشوب علميات الثأر المتواصلة.

وفى العصور الوسطى الباكورة لم يكن الناس يعتبرون أن المشاجرة التى تفضى إلى الموت تمثل جريمة قتل. ذلك أن مقتل رجل ما فى شجار عادل كان يحتم أداء ديته إلى نوى قرياه، بيد أن ذلك لم يكن يعد جريمة قتل . فقد كانت جريمة القتل تعنى أن يقتل الرجل غدرا ، فالجريمة فى رأيهم عملية لايعرف الجانى فيها على وجه التحديد. وكان مثل هذا الموقف يسبب ضغطا شديدا على محاكم الجرمان؛ وذلك أنه إذا لم تكن المحكمة تستطيع أن تحدد هوية القاتل، فإن أقارب القتيل كانوا يبادرون إلى أخذ العدالة بين أيديهم وينتقمون ممن تحوم حوله شكوكهم. ومن ثم كان من الضرورى أن تعقد محاكمة لكى تثبت براءة المتهم أو إدانته، ولكن المحاكم الجرمانية لم تكن تعرف وسائل التحقيق التى حدها القانون الرومانى، وهى الوسائل التى كانت تأخذ شكل التحقيق والاستجواب الشامل بواسطة هيئة من القضاة، كما أنها كانت تجهل نظام المحلفين فى القانون العام الذى عرف فيما بعد. ولم يكن رؤساء المحاكم الجرمانية يعرفون كيف يقيمون الدليل حتى إذا قدم إليهم، وهكذا لم يكن أمامهم سوى وسيلتين للإثبات هما : المحاكمة بواسطة وسائل قاسية تختارها القبيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أو مذنبا وهى المحنة ، وهى التى يعتبر الحكم فيها حكما إلهيا ، أما الوسيلة الثانية للإثبات فكانت التبرئة بالايمان التى يقسم بها المتهم على براءته.

وفى الاثبات عن طريق المحنة كان الخصوم يلقون بثقلهم على المدعى عليه. وفى المحاكمة بوسيلة الحديد المحمى كان يفرض على المتهم أن يمسك بقطعة من المعدن الملتهب ثم تضمد يده فإذا شفيت الحروق بعد أيام ثلاثة ثبتت براءته وإلا كان مذنبا. وفى محاكمة قبلية أخرى كان يفرض على المتهم أن يضع يده فى وعاء يغلّى، ويرفع حجرا من قاع الوعاء، ثم تضمد ذراعه وتفحص بعد ثلاثة أيام لتقرر ما إذا كان مذنبا أو بريئا وكانت المحاكمة عن طريق المياة الباردة هى الوسيلة المفضلة فى انجلترا حيث يوجد عدد كبير من

الأنهار والبحيرات فكان يلقي بالمتهم فى الماء وهو مقيد اليدين والقدمين، فإذا غاص كان بريئا، وإذا طفا على سطح الماء يكون مذنباً على أساس أنهم يعتبرون الماء عنصراً مقدساً يرفض قبول الشخص المذنب. وفى الفترة الإقطاعية استحدثت محاكمة أخرى جديدة، هى المحاكمة عن طريق النزال بين المدعى والمدعى عليه أو من ينوب عنهما، ولأن البراءة أو الإدانة كانت تتقرر وفقاً لقوة الخصم، فإن المحاكمة عن طريق النزال لم تقدم الحل الكافى لمسألة العدل المقدس. فقد كان بوسع الرجل الثرى أن يستأجر أضخم الرجال فى البلاد، وبذلك يستطع أن يتخلص من أعدائه بتلفيق التهم لهم. وهكذا خضعت المحاكمة عن طريق النزال للقيود الشديدة التى فرضتها الملكيات القوية فى القرن الثانى عشر، وذلك على الرغم من أن وسيلة الاثبات هذه ظل معمولاً بها فى إنجلترا حتى سنة ١٨٦٩. وإذا كانت المحاكمات القبلية الثلاث التى سبق ذكرها قاسية وشديدة الوطأة على المتهم، فإننا ينبغى أن نؤكد أنه قصد بها أن تكون كذلك، لأن المتهم الذى كان يمر بهذا الاختبار يكون عادة ممن عرف بين جيرانه بالاجرام، أو من أصل اجتماعى متواضع، ونادراً ما كان يمر بهذه المحاكمة القبلية رجل ثرى أو من أسرة طيبة ويتمتع بسمع حسنة فى مجتمعه. ومن ثم كانت المحاكمة طريقة يمكن بها اضمفاء صفة القدسية على هذه الوسيلة المعتادة فى الحكم دون أدلة، وعن طريق المحاكمة البدائية كان يمكن لكل محكمة من محاكم الشعب الجرماني أن تظهر المجتمع من نوى السمعة السيئة بآتهامهم بارتكاب جريمة ما واخضاعهم للمحاكمة

وفى بداية الأمر، كانت الكنيسة تتخذ موقفاً معادياً من هذه المحاكمة الجرمانية، ولكنها كانت تريد أن يكون لها تأثير على العملية القانونية فى العصور الوسطى، وهو ما دفعها إلى قبول هذه الطريقة العامة فى الاثبات. وبعد تحول الجرماني إلى المسيحية فرضت الكنيسة قانوناً دينياً على المحاكمة القبلية، فكان على المتهم أن يمر بالكنيسة قبل ذهابه إلى المحاكمة، وهناك يقسم على الكتاب المقدس أو غيره من المقدسات أنه برىء، فى الوقت الذى ينذره القسيس بأن يعترف بذنبه حتى لا تتعرض روحه للعنة وبذلك يخسر

الحياة الخالدة كما خسر الحياة الدنيا، وفي ظننا أنه كثيرا ما كان المتهم يعترف بجريمته نتيجة لعملية غسيل المخ هذه، وهو ما يعنى إضفاء السمة العقلانية على هذه العملية القانونية. وكان المتهم الذى تدينه المحاكمة يشنق فى المكان نفسه ، والجدير بالذكر أن الجرمان هم الذين أدخلوا أسلوب الشنق إلى أوروبا، وفى بعض الأحيان كانت كنيسة العصور الوسطى الباكورة تنجح فى جعل الملوك يوقفون عمليات قطع الأعضاء التى تؤدى إلى الموت، وذلك لأن الطب فى العصور الوسطى كان على حالة المعروف من التأخر وهو ما كان يعنى فى الغالب أن يؤدى بتر أى عضو من أعضاء الجسد إلى الموت البطيء، وثمة شك فيما إذا كانت محاكم الجرمان قد سمحت بمثل هذه الاعفاءات الانسانية.

أما التبرئة بالإيمان، فكانت امتيازاً للمتهم الذى يتمتع برأى شعبى إلى جانبه؛ أى أن يكون المتهم فى العادة من الأغنياء أو سليل عائلة كبيرة ، والتبرئة تخدم المتهم إلى حد بعيد، إذ كان المتهم ينكر التهمة ببساطة بأن يقسم على ذلك، ويقدم عددا معينا من الشهود الذين يؤيدون اليمين، وكان من المفضل أن يكون الشهود من نوبي المكانة الاجتماعية الراقية، ويقسم الشهود على أن اليمين الذى حلفه المتهم كان قسما حقيقيا صادقا، وبينما كانت الكنيسة تحذر من مغية الحكم دون دليل؛ فإن المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد أن هذه كانت وسيلة شائعة فى الإثبات، ذلك أن المتهم الذى كانت تجمعه صلة القربى بأصحاب النفوذ، أو بأحد السادة الأقوياء، لم يكن يتعرض للادانة أبدا، لأن أقاربه كانوا على استعداد لأن يكذبوا من أجله، ويتضح من شروط التبرئة أن القانون الجنائى الجرماني كان طبقيا فى اتجاهاته، فالرجل الفقير، والرجل غير الحر، أو من لا سند له من السادة الأقوياء ، لا ينقذه من حبل المشنقة سوى حسن الحظ، وعلى العكس من ذلك، كان الشخص الثرى، الذى تربطه بأصحاب النفوذ صلات قوية، يستطيع أن ينجو من العقوبة فى أكثر الجرائم افتضاحا وتكرارا، حتى لو كان ضحايا جرائمه من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع.

ومن الواضح أنه ليس هناك سوى القليل جدا مما يمكن أن نحسبه من مزايا

القضاء الجرمانى فى عصره الباكر، ومع هذا فإن القانون الجرمانى ساهم مساهمة كبيرة فى الثقافة الغربية . وكان دون مستوى القانون الرومانى بكثير فيما عدا ما يتعلق بمضامينه السياسية : لقد وجد القانون الرومانى أصوله فى إرادة الامبراطور المستبد، كما كان هذا القانون يحبذ السلطة السياسية المطلقة؛ على حين أنه لم تكن للملك الجرمانى أية سيطرة على القانون وكانت وظيفته القانونية الوحيدة أن يتابع محاكم الجماعة وهى تنظر القضايا وتفصل فيها . وحتى فى هذه الناحية لم تكن مشاركته هامة فى غالب الأحوال. فقد قام القانون الجرمانى على أساس أن القانون يعيش بين الشعب، وأن القانون هو عادات المجتمع ولايستطيع الملك أن يغير هذا القانون دون موافقة الجماعة. وبسبب هذا الاختلاف بين القانون الجرمانى والقانون الرومانى، ولأن انجلترا لم تتأثر بالقانون الرومانى حتى فى العصور الوسطى العالية، فقد اكتشف مؤرخو العصر الفيكتورى أن أصول النظم البرلمانية الانجليزية وفكرة حكم القانون إنما تعود فى جذورها إلى غابات ألمانيا وأحراشها حيث تعيش القبائل الجرمانية، وعلى الرغم من أنه من الشائع أن ينظر كتاب القرن العشرين نظرة إزدراء إلى هذا التفسير، فإنه يحمل جانباً من الحقيقة. لقد أخطأ الفيكتوريون فى مفهومهم العضوى عن التطور الدستورى؛ بمعنى ظنهم أن شجرة الليبرالية الانجليزية الباسقة لابد وأن تكون قد نمت من بذرة القانون الجرمانى، ولكن هذا التطور فى تاريخ انجلترا تسير فى اتجاه الحكم المطلق، واستغرق الأمر عدة قرون من التجربة والنضال السياسى قبل أن تنتصر سيادة الشرعية البرلمانية، ولكن الحقيقة أن انجلترا أخذت عن القانون الجرمانى تقاليد سيادة الجماعة القانونية عل يالملك، وكان من الممكن أن ترسى كل بلدان أوروبا الغربية التقاليد القانونية نفسها، إلا أن ماحدث هو أن مبدأ الحكم المطلق الذى عرفه القانون الرومانى قد ساد أنحاء أوروبا بعد سنة ١١٠٠ ، على حين كانت انجلترا وحدها هى التى حافظت على الفكرة الجرمانية الباكرة عن أن القانون يوجد بين أفراد الشعب وليس مرهونا بإرادة الملك.

٢ - القرن الأول للغزوات الجرمانية

من خلال مقارنة بسيطة بين سكان الامبراطورية الرومانية وأعداد الجرمان، سيكون من الصعب أن نفسر السبب الذي أدى إلى نجاح القبائل الجرمانية في الإقامة على التراب الروماني في السنوات المائة التي أعقبت عبور القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ . فقد كان عدد سكان الامبراطورية آنذاك يتراوح ما بين خمسين مليوناً وسبعين مليوناً . وبالمقارنة كان عدد الجرمان ضئيلاً. ذلك أن أكبر القبائل الجرمانية، مثل القوط الغربيين، كان تعدادها مائة ألف نسمة فقط، بما في ذلك النساء والأطفال ، ولم يكن باستطاعة هذه القبيلة أن تدفع إلى ميدان القتال بأكثر من عشرين ألف مقاتل. وقد بلغ العدد الكلى للجرمان الذين دخلوا الامبراطورية في القرن الأول بعد الميلاد نسبة لاتزيد عن خمس عدد سكان حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى، وربما يكون من الأصح أن نسبتهم كانت حوالى عشرة بالمائة من السكان.

ويجدر بنا، بطبيعة الحال، أن نتذكر أن الحكومة الرومانية جابهت عددا كبيرا ومتنوعا من المشكلات السياسية والاقتصادية والعسكرية؛ فقد كان الجيش الروماني يتألف في غالبيته من المعدمين والجرمان. وفي أحيان كثيرة ، كانت تصرفات القادة الجرمان العاملين في خدمة امبراطور الغرب تجعل الاعتماد عليهم أمرا مستحيلا. فضلا عن أن حدود الامبراطورية كانت من الطول والامتداد بحيث بات الدفاع عنها أمرا صعبا، ونتيجة لامتداد الحدود بهذا الشكل ؛ فإن الجيوش الجرمانية في أى مكان (غرب القسطنطينية على الأقل) كانت أكثر عددا من المدافعين الرومان. وكان لابد من الاحتفاظ بجيش كبير جدا في الشرق لصد الفرس الذين كانوا يشكلون تهديدا مستمرا للدفاعات الشرقية منذ القرن الثالث حتى القرن السابع. ويجب أن نتذكر أن أقاليم الامبراطورية الغربية البعيدة عن حوض البحر المتوسط كانت قليلة السكان، ومن ثم كان للاستقرار الجرمانى في كثير من أقاليم العالم اللاتينى تأثيره القوي على الوضع الديموجرافى.

وقد نشأ الدافع الى الغزوات الجرمانية فى سبعينيات القرن الرابع بسبب غزو القبائل المغولية المعروفة باسم الهون (وهى القبائل المعروفة بلسم هسيونج - هو Hsi-Hu - oung فى موطنها الآسيوى) للغرب، وحتى القرن السابع كان الغزاة الآسيويون الرحل يهددون غرب أوربا بشكل دورى ، وكان الأتراك آخر أولئك الغزاة الذين كان الهون أول طلائعهم. ومن المعتقد أن الهون كانوا يعيشون خلال القرن الثانى أو القرن الثالث فيما يعرف الآن باسم الصين الشمالية أو منغوليا. وقد حدثت تغيرات داخلية معينة فى المجال السياسى فى الصين أجبرت الهون على التحرك صوب الغرب وحاولوا غزو الهند ولكنهم طردوا منها فتحركوا بسرعة عظيمة باتجاه الغرب؛ فمروا شمالى بحر قزوين والبحر الأسود ثم مروا خلال منطقة جنوب روسيا نحو البلقان. وحوالى منتصف القرن الرابع اخترقوا حوض نهر الدانوب وقهروا القوط الشرقيين فى سهولة واستعبدوهم، وزرعوا الرعب فى قلوب الجرمان الذين لم يكونوا يعتمدون على الفرسان سوى فى حدود ضيقة، ولم يتمكنوا من الصمود فى وجه الجيوش الهونية التى كان أفرادها يحاربون من فوق ظهور الخيل^(٥). وقد وصف مؤرخ رومانى معاصر الهون بأنهم شياطين لا تقهر، لا يحاربون فقط من فوق ظهور الخيل وإنما يعيشون فوقها أيضا. وزعم - ولا شك أنه بنى روايته على أساس القصص التى سمعها من الجرمان - أن الهون لا ينزلون عن خيولهم لكى ياكلوا، ولكنهم يدفنون اللحم المقدد تحت سروجهم ثم يواصلون المسير.

وتوسل القوط الغربيون الى امبراطور الشرق حتى يسمح لهم بعبور نهر الدانوب بحثا عن ملجأ يقيهم شر الهون. وكان القوط الغربيون ممثلين رعبا لأنهم كانوا أقرب ما يمكن من حدود الدانوب وكانوا يتلمسون فى يأس أى سبيل يجنبهم مصير بنى جلدتهم

(٥) يقول تاكيتوس عن القوة العسكرية للجرمان فى القرن الأول للميلاد : « وتعتمد قوتهم على المشاة أكثر من الفرسان، ولذا فإن جنود المشاة يصاحبون الفرسان فى القتال ، وكانت سرحتهم فى الجرى على أقدامهم تكفى لأن يتمكنوا من أن يظلوا بقرب الفرسان، وكان أفضل الرجال يختارون من بين صفوف الجيش كله من شباب المقاتلين، ليكونوا مع الفرسان فى خط القتال. » انظر :

Tacitus, Germania (translated By H. Mattingly) Penguin 1970, p. 100.

(المترجم)

من القوط الشرقيين. وقد أجابهم الإمبراطور إلى ما يطلبون، وبذلك حدثت أول هجرة واسعة النطاق لشعب جرمانى إلى داخل الأراضى الامبراطورية بطريقتة سليمة سنة ٢٧٦. وسرعان ما أثارت جميع المشكلات الى يمكن أن يسببها استقرار شعب نازح على أرض شعب آخر، وهى مشاكل مألوفة لدينا فى القرن العشرين . فقد زعم القوط الغربيون أن الحكام والموظفين الرومان يخدعونهم، ولم يكن السكان فى شمال بلاد اليونان راضين عن دخول المهاجرين البرابرة إلى بلادهم. وبعد عامين من الشجار والمنازعات بدأ القوط الغربيون اليائسون يثورون ويحاربون الامبراطور. وبدخل الامبراطور المعركة بثقة مفرطة فى قوته، ولذا فإنه لم يعد لها الاعداد الكافى، كما أنه لم يكلف نفسه عناء احضار الفرسان. وكانت النتيجة هزيمة ساحقة لجيشه فى المعركة التى قتل هو فيها، وهى معركة أدربنه Adrianople سنة ٣٧٨^(٦)، ويمكن القول بأن هذه المعركة هى البداية الحقيقية للغزوات الجرمانية. حقيقة أن الامبراطور ثيودوسيوس الأول قد هادن القوط الغربيين عقب ذلك مباشرة^(٧)، وحقيقة أن الضرر المباشر الناتج عن المعركة كان ضعيفا، إلا أن هذه المعركة أظهرت أن بمقدور أية قبيلة جرمانية أن تهزم جيشا رومانيا. وكانت هذه الحقيقة المشنومة بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية.

وبعد موت ثيودوسيوس الأول ٣٩٥، عاود الغربيون عدم الاستقرار مرة أخرى. فأنهم لم يقنعوا بأراضى بلاد اليونان التى كان ثيودوسيوس قد منحها لهم، كما أنهم كانوا يشكون فى نوايا ولديه وخليفته تجاههم. فقد تولى عرش الامبراطورية بعد الامبراطور الكبير ولداه اللذان اقتسما حكم الشرق والغرب، وكانا غير ناضجين، كما

(٦) الامبراطور هرنالز Valenz حاكم القسم الشرقى من الامبراطورية (٣٦٤ - ٣٧٨)، وكان هذا الامبراطور يهدف من وراء اسكان القوط الغربيين فى المنطقة التى تشكل شمال دولة بلغاريا الحالية أن يقيم سياجا بشريا كثيفا يقف فى وجه موجة الغزو الهونى إذا ما فكر الهون فى عبور نهر الدانوب. (المترجم)

(٧) عقد الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٨ - ٣٩٥) معاهدة مع القوط الغربيين أصبحوا بمقتضاها معاهدين Foederati للامبراطورية كما صاروا بمثابة قوة احتياطية للجيش الرومانى. ومن ناحية أخرى منح ثيودوسيوس للقوط الغربيين موطناً فى إقليم تراقيا الحالى فى بلاد اليونان، وبذلك هدأ روعهم وسكنوا حتى سنة ٣٩٥. عندما تولى الحكم أبناء أركادىوس فى الشرق وهونوريوس فى الغرب فالتفت كل منهما سياسة غير حكيمية تجاه الجرمان. (المترجم)

اتصفوا بالحماسة والطيش. وأحاطت بكل منهما مجموعة من رجال البلاط المرتشين العاجزين عن معالجة الموقف الوشيك التفجروا في الوقت نفسه كان القوط الغربيون قد اختاروا الأريك الجسور Alaric the Bold وهو واحد من أكثر زعماء الجرمان عدوانية وطموحا. ولم تكن لدى الأريك أية نية لتدمير الامبراطورية أو حتى لاضعاف السلطة الامبراطورية ؛ بل كان كل ما يبتغيه هو الحصول على أرض جيدة لشعبه. ويمكن القول بأن القوط الغربيين لم يكونوا يريدون تحطيم الامبراطورية، وإنما كان كل هدفهم أن يستقروا في موطن ثابت. وكل ما قدر لهم أن يسببوه من متاعب للامبراطورية في ربع القرن التالي، مما ترك أثره على السلطة الامبراطورية المحطمة في الغرب، كان يمكن تجنبه لو أن الامبراطور قد أجابهم إلى مطلبهم المتواضع في هدوء. ولكن الامبراطور الساذج أخذ بمشورة حاشيته السيئة ورفض تقديم أية تنازلات، فلم يبق أمام الأريك سوى أن يشن الحرب ضد السلطة الامبراطورية التي كان يحترمها كثيرا في حقيقة الأمر.

وكان الغزو الذي قام به القوط الغربيون ليطاليا في مطلع القرن الخامس، أقرب في طبيعته إلى المناوشات منه إلى الحرب. فقد كان القوط الغربيون غير ميالين إلى تدمير القوة الرومانية ، ومن ناحية أخرى، كان قائد الجيش الامبراطوري ستيلكو Stilicho منحازا عاطفيا إلى القوط الغربيين. فقد منعهم من دخول إيطاليا ، بيد أنه لم يبذل أي جهد لدفعهم خارج الحدود الامبراطورية، أو حتى خارج الحدود الشمالية لولاية إيطاليا. وهرب الامبراطور المذعور إلى قلعة رافنا Ravenna المنيعه، والتي كانت تبعد عن الطريق الرئيسي المؤدى إلى داخل إيطاليا، ومن ثم فانه لعب دورا ضئيلا للغاية في الأحداث المدمرة التي جرت فيما بعد وهكذا تعتبر سنة ٤٠٦ واحدة من أهم نقاط التحول في القرن الأول من الغزوات الجرمانية.

وليس من السهل أن نحدد ما كان يدور بخلد ستيلكو، ولكنه أعتيل سنة ٤٠٦ على أيدي الأرستقراطيين الحانقين وبموافقة الامبراطور الأحمق. ومنذ ذلك الحين بات الطريق

إلى إيطاليا مفتوحا أمام القوط الغربيين. وفي ٤١٠ استولى جيش الاريك على روما واحتفظ بها لعدة أيام في محاولة لإجبار الامبراطور على قبول مطالب القوط الغربيين بخصوص موطن يستقرون فيه. وقد أشتهر هذا الحادث - الذي أثر على خيال المعاصرين، ومنهم القديس أوغسطين، تأثيرا كبيرا - بحادث « نهب روما ». والحقيقة، كما أشار أوغسطين، أن القوط الغربيين لم يلحقوا بالمدينة سوى قليل من الأذى وربما يكونوا لم ينالوها بأى أذى على الإطلاق. لقد كان غرض الاريك أن يسير بشعبه إلى القدم الايطالى ثم يعبر البحر المتوسط ليستقر في ولاية شمال أفريقيا الغنية، ولكنه مات أثناء مسيرة شعبه بعد الخروج من روما. وخلفه على العرش صهره أتولف Atulf الذي أعلن أن سياسته هي إعادة بناء الامبراطورية تحت قيادة القوط، وهي السياسة التي نفذها فيما بعد ثيودوريك Theodoric ملك القوط الشرقيين. وكى يجسد أتولف سياسته في رمز، خطف ابنة الامبراطور ثيودوسيوس وتزوجها، وهي امرأة ذكية عرفت كيف تستمتع بكونها ملكة جرمانية، كما لعبت دورا بارزا في الشئون الدبلوماسية والسياسية المضطربة خلال السنوات الثلاثين اللاحقة. وعاد أتولف بشعبه إلى شمال إيطاليا ثانية ثم عبر جبال الألب إلى غالة، وأخيرا وفي سنة ٤١٨ منح الامبراطور القوط الغربيين ما يطلبون، وسمح لهم أن يستقروا كحلفاء معاهدين للامبراطورية في غرب بلاد الغال، ومن هناك تدفقوا عبر جبال البرانس إلى أسبانيا. وفي القرن السادس هزم الفرنجة مملكة القوط الغربيين وانتزعوا منها أملاكها في غالة. وقد استمر حكم القوط الغربيين قائما في أسبانيا حتى الفتح الاسلامي سنة ٧١١. وفي قصة غزو القوط الغربيين للامبراطورية يمتزج الهزل بالمأساة. فقد كان من اليسير تقادى الآثار المدمرة التي نتجت عن هذا الغزو، لأن القوط الغربيين لم يكونوا يريدون في أي وقت أن يمسوا السلطة الامبراطورية بأذى. وإذا كانت هجرات القوط الغربيين قد فتحت الباب أمام غزاة آخرين، فإن هذه كانت غلطة الحكومة ومن أهم القبائل التي أندفعت عبر حدود الراين سنة ٤٠٦ كان البرجنديون Burgundians والوندال Vandals. فقد استقر البرجنديون في وادي نهر الرون

وساهموا بأسمهم فى الجغرافية الفرنسية . وكان البرجنديون شعبا مسالما شغوفًا بالشعر بشكل واضح. وقد استمدت الملحمة الشعرية المعروفة باسم نيبولنج Nibelungenlied التى ترجع إلى القرن الثالث عشر - من القصص التى تعود فى أصلها إلى برجنديا فى القرن الخامس أو القرن السادس. وفى مطلع القرن السادس ذاب البرجنديون فى مملكة الفرنجة.

— أما الوندال الذين كانوا شعبا أكثر وحشية وبدائية ، فقد ساروا تحت قيادة ملكهم جايزريك الأعرج Gaiseric the Lamé عبر فرنسا وإسبانيا إلى شمال أفريقيا. وسيظل عالقا بالأذهان أن الوندال قد حاصروا مدينة القديس أوغسطين التى مات بها. وبحلول العقد الخامس من القرن الرابع كانت ولاية شمال أفريقيا الغنية قد أصبحت مملكة الوندال ، وأساء الوندال معاملة رجال الكنيسة الكاثوليك وفشلوا تماما فى الحصول على تأييد سكان شمال أفريقيا. ونتيجة لذلك كان من السهل إعادة فتح شمال أفريقيا على يد الامبراطور البيزنطى فى خمسينيات القرن السادس. وكان تأثير الوندال على تطور شمالى أفريقيا تافها لا يستحق الذكر. وعلى الرغم من هذا كان غزوهم لشمال أفريقية نقطة تحول هامة فى مجرى تدهور الامبراطورية فى الغرب. فقد تحول الوندال إلى بحارة ممتازين. وبمجرد فتحهم لشمال أفريقيا كونوا أساطيل للقرصنة وقطعوا طريق المواصلات البحرية بين إيطاليا وبقية غرب أوروبا؛ مما حال دون قيام الحكومة الامبراطورية بتدعيم جيوشها فى غالة وإسبانيا، كما ساعد على سرعة قيام ممالك جرمانية جديدة فوق الأرض الرومانية وفى سنة ٤٢٠ كانت الفرق الرومانية قد انسحبت من بريطانيا بالفعل تاركة السكان المسيحيين من الكلت الوطنيين عرضة للغزو الذى قامت به قبائل الجرمان المتوحشة الهمجية الوافدة عبر بحر الشمال.

وكان آخر انتصار يحرزه جيش يحمل شارة الامبراطورية فى أوروبا الغربية هو الذى حدث فى شالون Chalons فى غالة سنة ٤٥١. وفى هذه المعركة تم صد الغزو

الهنونى الذى قاده ملك الهون العظيم أتتلا Attila، وسرعان ما تفككت امبراطورية الهون بعد ذلك. إلا أن هذا النصر الأخير للجيش الرومانى لا يحسب للرومان، ذلك أنه فى الوقت الذى كان قائد الجيش الذى هزم أتتلا رومانيا، كان أغلب جنوده من القوط الغربيين. وبعد سنة ٤٥١ أخذت الامبراطورية فى الغرب تتدهور بأطراد. وفى سنة ٤٥٥ مات آخر امبراطور من سلالة ثيودوسيوس، ولم يكن الأباطرة الغربيون طوال السنوات العشرين التالية سوى ألعوبة فى أيدي القادة الجرمان الذين تصارعوا فى سبيل السيطرة على إيطاليا وكان النصر فى هذا الصراع من نصيب قائد جرمانى هو أدوفاكر Odovacar. وفى سنة ٤٧٦ خلع الامبراطور الحاكم، ولم يختر من يحل محله (٨). وحين أدرك أدوفاكر أنه لا يستطيع أن يتخذ لنفسه اللقب الامبراطورى، حكم الشعب الايطالى بوصفه نائبا عن الامبراطور الشرقى، ولكنه أطلق على نفسه لقب « ملك الجرمان فى إيطاليا »، وقد أفاد أدوفاكر من القانون الرومانى القديم الخاص بإيواء الجند لكى يرغب أصحاب الاراضى الايطاليين على قبول استقرار جيشه على الارض الايطالية.

فماذا كان موقف الشعب الرومانى تجاه هذه الطفرات الكبيرة التى حدثت فى ميادين الحكم وفى المجتمع خلال هذه السنوات المائة الأولى من تاريخ الغزوات الجرمانية؟ الحقيقة أن كثيرين من الناس الذين كانوا قد سئموا الاستبداد وضجروا من ثقل وطأة الضرائب فى العصر الامبراطورى المتأخر كانوا أما غير مباليين بالغزوات وأما مرحبين بالغزاة. فقد كان هناك أمل ألا يتمكن الجرمان من الحفاظ على النظام السياسى والنظام المزيبى اللذين عرفهما الرومان. وقد تحققت هذه الآمال مع بعض الاستثناءات. ولدينا خطابات كثيرة كتبها الارستقراطيون الرومان فى غالة أوائل القرن الخامس تكشف أنهم حاولوا دون جدوى أن يتجاهلوا التغيرات التى كانت تجرى خارج أسوار ضياعهم، ولكن،

(٨) كان آخر سلسلة الأباطرة الضعاف فى الغرب هو الامبراطور الصبى الذى عرف لذلك برومولوس الامبراطور الصغير (أوغسطولوس) Romulu Augustulus الذى كان فى الثانية عشرة من عمره حين خلعه أدوفاكر .
(المترجم)

من ناحية أخرى ، كانت للغزوات جوانب سرعان ما زرعت الخوف فى نفوس أبناء الطبقة الحاكمة فى الامبراطورية. وثمة تقارير معاصرة عن الفظائع التى ارتكبت فى حق السكان الرومان، لاسيما على أيدي الوندال الأريوسيين فى شمال أفريقيا. وعلاوة على ذلك، فإنه حين تحققت التوقعات بانتهاء الامبراطورية مرت بالأرستقراطيين بعض المواقف التى أحييت مشاعرهم الوطنية. فقد كانت طبقة النبلاء الغاليين الرومان (الغالورومان) تنتظر إلى المرحلة الأولى من الغزوات دون مبالاة، وفجأة وفى حوالى منتصف القرن الخامس كونوا جيوشا خاصة لمقاومة الغزو وحافظوا على بعض جيوب المقاومة حتى سحقهم الفرنجة أخيرا قرب نهاية القرن الخامس.

وكان لاعتناق القوط والوندال المسيحية الأريوسية أثره فى جعل الغزوات مشكلة صعبة فى مواجهة الكنيسة . فبينما فسر أوغسطين وأوروسىوس الغزوات على أنها نتيجة لخطة العناية الالهية تمهيدا لتحويل الجرمان الوثنيك الى الكنيسة الكاثوليكية، نظر القديس امبروز والقديس جيروم إلى الغزوات بعين ملؤها الرعب، على حين وصف أسقف كاثوليكي آخر الجرمان بالديدان التى يجب القضاء عليها.

وما أن حل النصف الثانى من القرن الخامس، حتى كانت وجهة نظر أوغسطين قد بدأت فى الانتشار . وأخذت النظرة المتشائمة، والنواح على الكارثة التى حلت بالعالم من جراء الغزوات الجرمانية تتحسر أمام تيار الأمل المتزايد بين زعماء الكنيسة . وأظهر الموقف الذى وقفه البابا ليو الكبير الفرصة التى باتت سانحة أمام الكنيسة لزعامة العالم الغربى، كنتيجة من نتائج تفكك الامبراطورية ، وبات واضحا أن نهاية الامبراطورية لاتعنى نهاية العالم ولاحتى الكنيسة اللاتينية.

ومكذا بات السكان الرومان فى الممالك الجرمانية سنة ٤٨٠ على حال من الترقب والانتظار . ترى ماهو الموقف الذى سيتخذه ملوك الجرمان تجاه الكنيسة فى النهاية ؟ هل يمكن تحويلهم إلى المسيحية الكاثوليكية ؟ لقد كان هناك احتمال بأن يقوم الامبراطور

الشرقى بغزو الغرب لاستردادده، وكان امبراطور الشرق مايزال منتظرا وأعلن أن مسألة استعادة الغرب مسألة وقت فحسب . وقد تدارس رجال الكنيسة اللاتين هذا الاحتمال بمشاعر مختلفة، إذ أن الامبراطور سيكون أفضل من الاضطهاد الأريوسى الجرمانى؛ بيد أنهم كانوا يعرفون أن الامبراطور سيجاول اخضاع البابا لسلطته ويملى رأيه على الكنيسة الغربية فى المسائل الدينية كما كان يفعل فى الامبراطورية الشرقية، ألا يمكن أن يكون أى ملك جرمانى عنيف وفظولكنه يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية، حاكما أفضل من الامبراطور للمدينة العلمانية ؟ ومن هنا كانت صياغة النظرية الجيلازية كما رأيناها من قبل، كانت هذه هى الأسئلة الحيوية الى طرحت نفسها عند نهاية المرحلة الأولى من الغزوات الجرمانية حوالى سنة ٤٨٠، ولم تظهر إجابات هذه الأسئلة إلا فى القرن التالى إبان المرحلة الثانية من الغزوات الجرمانية ، وكان لها أن تحسم مصير غرب أوروبا .

٣ - المرحلة الثانية من الغزوات

مملكة القوط الشرقيين - مملكة الفرنجة

بحلول عام ٤٨٠ كانت ثلاث ممالك جرمانية قد قامت فى غرب القارة الأوربية على أنقاض الامبراطورية الرومانية، إلا أنه لم يقدر لأى من هذه الممالك الثلاث أن تعمر إلى ما بعد أوائل القرن الثامن أو أن يكون لها أى تأثير هام على الحضارات الوسيطة، فقد كانت مملكة أودواكر فى إيطاليا بناء هزىلا تهاوى تحت وطأة غزو القوط الشرقيين سنة ٤٨٩م، وفى وادى الرون ذابت مملكة البرجنديين فى مملكة القوط الغربيين تمتد خلال غرب فرنسا فى عشرينيات القرن السادس، وكانت مملكة القوط الغربيين تمتد خلال غرب فرنسا وإسبانيا كلها، ثم طرد الفرنجة القوط الغربيين أيضا من فرنسا فى أوائل القرن السادس،

وكان تأثير مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا فى تاريخ وحضارة أيبيريا ضئيلا؛ فد كان القوط الغربيون أريوسيين أصلا، ولكنهم تحولوا إلى الكاثوليكية فى أواخر القرن

السادس، وحاول أساقفة القرن السابع الكاثوليك تقوية وتدعيم الملكية القوطية الغربية في أسبانيا عن طريق ما للدين من سلطان، وهى السياسة التى تبنتها الكنيسة مع الفرنجة فى القرن الثامن وأتت نتائج بالغة الأثر، ولكن ملوك القوط الغربيين كانوا ضعافا وغير طموحين بدرجة لم يجد معها تأييد الكنيسة فى إنقاذهم. وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها الكنيسة ؛ أستسلم القوط الغربيون بسرعة أمام الفاتحين المسلمين سنة ٧١١ م، وحتى القرن الحادى عشر كان الأمراء الأسبان يعيشون فى جبال البرانس فقط . أما التراث الثقافى الوحيد الذى تركه القوط الغربيون فيمكن أن نجده فى مؤلفات إسيذور Isidore أسقف أشبيلية الذى لم يكن من القوط الغربيين بل كان من طبقة الارستقراطية فى أسبانيا .

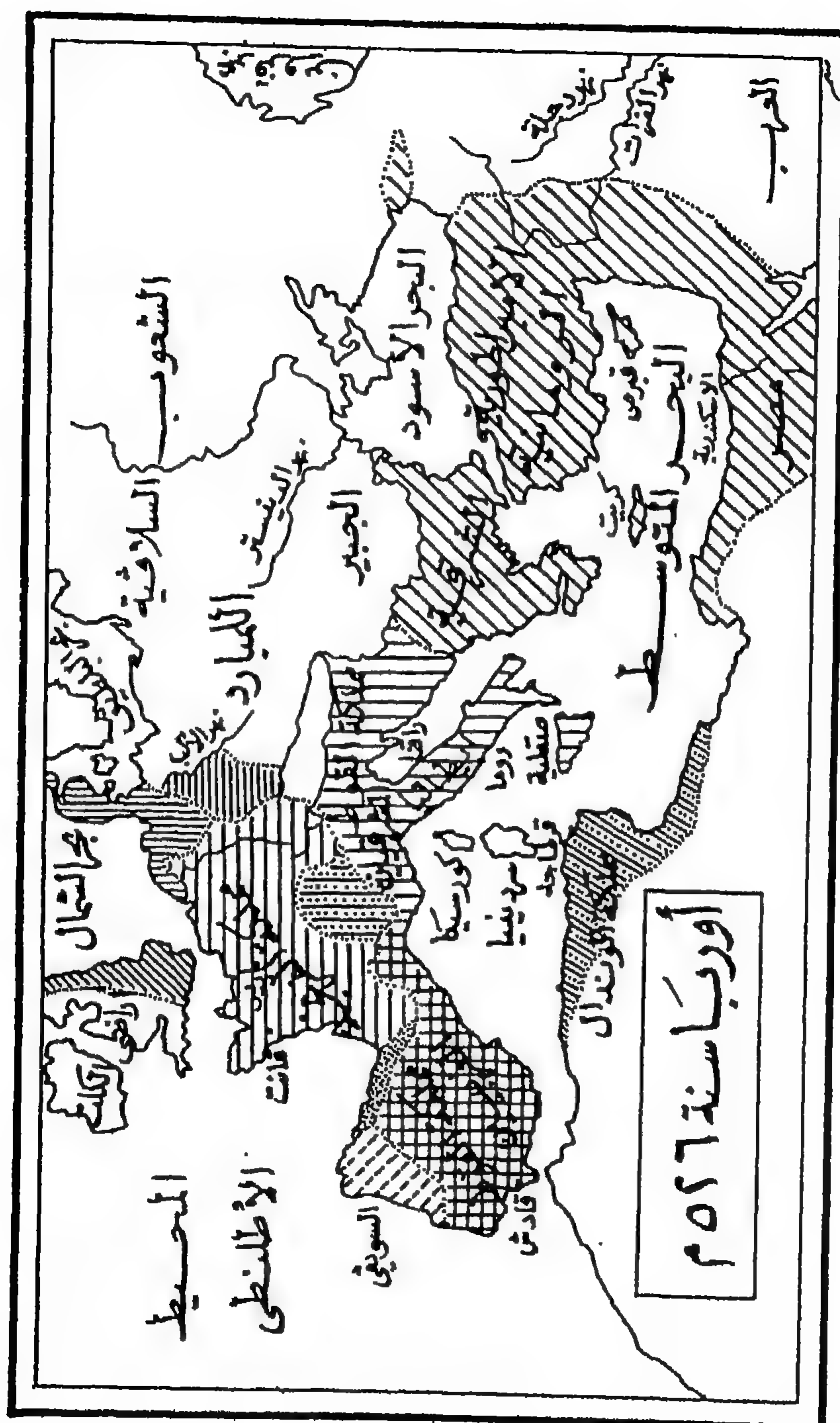
وبعد الاخفاقات المتوالية لجميع الممالك الجرمانية الأولى ثار السؤال عما إذا كان من الممكن تأسيس مملكة جرمانية دائمة فى أوروبا الغربية، وفى السنوات العشرين الأخيرة من القرن الخامس برزت إلى الوجود مملكتان جديدتان، وبدا واضحا أن مصير أوروبا السياسى سوف يتحدد من خلال شكل ومصير هاتين المملكتين الجديدتين، فقد أقام القوط الشرقيون مملكتهم فى إيطاليا، كما أصبح الفرنجة الساليون سادة غاليا، وبات من المؤكد أمام الناس فى أوروبا سنة ٥٠٠ م أن المستقبل مع القوط الشرقيين. فقد أراد ثيودوريك ملك القوط الشرقيين إحياء الحضارة والإدارة الرومانية تحت صولجانه، وبدا فى أوائل القرن السادس أن ثيودوريك سوف يحقق سياسته القوطية التقليدية فى التوفيق بين النظم القوطية والنظم الرومانية، ولم يكن واضحا أن لدى مملكة الفرنجة فرصة مماثلة للنجاح، إذ ظهر حاكمها كلوفيس الأول Clovis I فى صورة البربرى الذى لا يكتفى أى تقدير للثقافة اللاتينية أو الحكومة الرومانية. ومع ذلك عمرت مملكة الفرنجة بينما انهارت مملكة القوط الشرقيين بسرعة بعد موت ثيودوريك سنة ٥٢٦ م، فبذهاب ثيودوريك استرد الامبراطور البيزنطى جستنيان إيطاليا، واختفت مملكة القوط الشرقيين من التاريخ، وهكذا

انحصرت زعامة أوروبا الغربية فى الفرنجة ؛ ومن ثم فإن فشل القوط الشرقيين ونجاح الفرنجة كان له أثره الحاسم فى تطور أوروبا فى أوائل العصور الوسطى . وتستحق أسباب هذه الحوادث الحاسمة أن نتوقف أمامها مليا .

وقد القوط الشرقيون إلى داخل الامبراطورية من حوض نهر الدانوب وقهرهم الهون واستعبدهم فى سبعينيات القرن الرابع، ولكن بعد موت أتيل زعيم الهون سنة ٤٥٣ استعاد القوط الشرقيون حريتهم وكان زعيمهم هو ثيودوريك الذى عنى اسمه « قائد الشعب » والذى كان فردا فى الأسرة الملكية، وقد أرسل فى صغره ليكون رهينة فى القسطنطينية ؛ حيث تعلم أن يقدر الثقافة ، والقانون، وأساليب الحكم الرومانية، فى ثمانينات القرن الخامس انتخب القوط الشرقيون ثيودوريك ملكا عليهم. فلم يكن من تقاليد الجرمان أن يتولى ملكهم العرش عن طريق الوراثة، فقد كان العرش بمثابة أملاك العائلة الملكية بأسرها ؛ ولكن الشعب كان يختار الملك من بين أفراد هذه العائلة على أساس مدى جدارته واستحقاقه للعرش.

وبنهاية العقد الثامن من القرن الخامس وجدت سياسة ثيودوريك فى توحيد المصالح القوطية والرومانية تشجيعا من جانب امبراطور القسطنطينية، فقد كان القوط الشرقيون قد بدأوا يهددون بغزو الامبراطورية البيزنطية، ولكن الامبراطور اقنع ثيودوريك أن يقود شعبه إلى داخل إيطاليا حيث كان أودواكر قد بدأ يوطد استقلاله عن الامبراطورية الشرقية. وهكذا تمكن الامبراطور من أنقاذ بيزنطة من خطر القوط الشرقيين، واستطاع فى الوقت نفسه أن يؤكد سلطة الامبراطورية الرسمية على إيطاليا أكثر مما كان عليه الأمر تحت حكم اودواكر؛ وذلك لأن ثيودوريك ذهب إلى إيطاليا وفى ذهنه أن حقوق الامبراطور فى إيطاليا يجب الحفاظ عليها، واعتبر الامبراطور ملك القوط الشرقيين بمثابة مساعد له، وكان يتوقع ألا تنتقص الغزوات الجرمانية من السيادة الامبراطورية.

وفى غضون أربع سنوات، ما بين سنة ٤٨٩، حطم ثيودوريك والقوط الشرقيون



مملكة أودوفاكر وقهرها إيطاليا . واتخذ ثيودوريك رافنا فى شمال شرق إيطاليا - حيث كان عدد من أباطرة القرن الخامس قد أقاموا مقر حكمهم فيها فعلا - عاصمة له . فمأذا كان وضع ثيودوريك القانونى فى إيطاليا ؟ لقد كان ذلك استمرار لنفس النظام الذى كان أودوفاكر يحكم تحت مظلتة . فقد كانت سلطة ثيودوريك بتفويض من امبراطور الشرق لكى يقوم بتوجيه شئون الحكم العامة ، وفى الوقت نفسه حمل ثيودوريك لقب ملكيا لكى يحتفظ له بهيبته وسلطته على شعبه . وكان من المعتاد أن يقوم القادة البرابرة بقيادة الجيش الامبراطورى فى الغرب على مدى قرنين من الزمان . وإذ لم يعد هناك امبراطور فى الغرب آنذاك ، انتقلت سلطات الحكومة المدنية أيضا إلى يدى قائد الجيش . وكان السكان الرومان معتادين على أن يحكمهم حاكم ينوب عن الامبراطور القابع بعيدا فى القسطنطينية ، يكون فى الوقت ذاته زعيم الشعب الجرمانى الذى حل بأرضهم . وهكذا كانوا مستعدين لتقبل فكرة قيام مملكة بربرية تعارس سلطات الحكم العامة .

ظل ثيودوريك مدة تزيد على عشر سنوات قائما بدوره كممثل للامبراطور ، وكقائد للجرمان المعاهدين ، ثم بدأ ينتهج سياسة جديدة أزعجت الامبراطور البيزنطى . فقد بدأ يفكر فى تأسيس مملكة جرمانية تحت قيادة القوط تشمل كلا من إيطاليا وغاليا وربما أسبانيا . واتبع سياسة المصاهرة الدبلوماسية التى كان من الممكن أن تؤدى إلى قيام مثل هذه المملكة العظيمة ! فقد تزوج سنة ٤٩٢ ، من أخت كلوفيس ، ثم زوج ابنته إلى ملك البرجنديين ، كما أصبح وصيا على ملك القوط الغربيين الذى كان قاصرا . وبات واضحا أن ثيودوريك قد أخذ ينسلخ رويدا رويدا عن الامبراطور البعيد فى الشرق .

ولم يكن البيزنطيون ليتخلون عن إيطاليا أبدا ، لأن الامبراطورية الرومانية بدون روما كانت أمرا لا يصدق . وإذ أدرك الامبراطور أن ثيودوريك قد يصبح على درجة كبيرة من القوة ، فإنه عمل على موازنة قوة ثيودوريك بقوة مضادة ، فاعترف بسيادة كلوفيس على غالة ، وتحالف مع مملكة الفرنجة . وكان هذا واحدا من أفدح أخطاء ثيودوريك ؛ على الرغم

من أنه كان من الصعب على أى فرد أن يتنبأ بالنتائج فى ذلك الوقت، فقد جلبت محاولته لجعل القوط الشرقيين قوة بحر متوسطية، تتمتع بالنفوذ فى فرنسا وأسبانيا وبالسيدة فى إيطاليا ، عداً الامبراطورية البيزنطية، وسببت اعترافها بسيادة الفرنجة الشرعية على غالة، وقد أدى الموقف إلى وقوع كارثة حلت بالقوط الشرقيين وذلك حين استطاعت الامبراطورية البيزنطية تحت حكم جستنيان استعادة قواها العسكرية لمهاجمة إيطاليا.

وإذا تساءلنا عن السبب فى إقدام ثيودوريك على انتهاج مثل هذه السياسة الخارجية العدائية، التى وحدت الفرنجة والنوبة البيزنطية ضد مملكة القوط الشرقيين وتسببت فى تدميرها، لظهر لنا سبب هذه المخاطرة الجسيمة واضحا جليا، إذ كان ثيودوريك يعتقد فى عشرينيات القرن السادس، نتيجة لسياسته الداخلية، أنه استحوذ على ولاء الشعب الايطالى، أو ضمن حياده على الأقل، وربما استحوذ على تأييد البابا زعيم الكنيسة الكاثوليكية.

لقد أعلن ثيودوريك منذ بداية حكمه أن قصده أن يعيد بناء سلطة الحكومة الرومانية، وأن يجلب الخير للشعب الايطالى ولم تكن مثل هذه السياسة جديدة على القوط، إذ أن أتواف ثانى ملوك القوط الغربيين كان قد أعلن عن مثل هذه الأهداف. أما الجديد فى الأمر، فهو أن ثيودوريك كانت لديه الفرصة لأن يحقق هذا الهدف وبذل كل ماوسعه فى هذا السبيل، وتمثلت أذكى تحركاته فى احتفاظه بالجهاز البيروقراطى للامبراطورية المتأخرة، وهو الذى استمر موجودا، شكلا على الأقل، أثناء معظم القرن الخامس حين كان آخر الأباطرة الرومان التافهين قابعين فى رافنا. واتخذ ثيودوريك رافنا عاصمة له آنذاك، وأعاد بناء الحكومة البيروقراطية من جديد، كما اختار الموظفين من بين صفوف الارستقراطية الرومانية. وبحلول عام ٥٠٠ وجد ثيودوريك الرجل الذى رسم له سياسته الداخلية - وهو كاسيودوروس Cassiodorus الذى كان سليل عائلة ارستقراطية رومانية قديمة، وكان بليغ اللسان، واداريا قديرا، كما كان «منديبا صحفيا» عظيما لمملكة القوط الشرقيين، وقد أشار

كاسيودوروس على ثيودوريك بالوسيلة التي تمكنه من كسب الشعب الايطالى، وانكب على كتابة عدد من المؤلفات الدعائية كان من بينها الكتاب الرسمى « تاريخ القوط » الذى أظهر ثيودوريك أمام الشعب الايطالى فى أفضل الصور تألقا.

كان كاسيودوروس هو الذى صاغ شعار النظام الجديد وهو نظام المؤاخاة -Civili tas الذى صك على العملة الملكية ، وأذيع فى خطابات ملكية عديدة كتبها كاسيودوروس، فقد زعم أن القوط ليسوا أعداء للحضارة والثقافة بل على العكس؛ قال إن هدف الحكومة الجديدة هو الحفاظ على الثقافة الرومانية وتدعيمها. كما أن كاسيودوروس لم يشر فى كتاباته إلى القوط بالاسكيثيين Scythians، وهم شعب جاء ذكره فى الأساطير اليونانية القديمة. ويرسم لنا كتاب «تاريخ القوط»، الذى وصلنا من خلال مختصر وضعه جوردان Jordanes، صورة للقوط يبدون فيها وقد تساوا مع اليونانيين فى مستواهم الحضارى. ولم يكن هذا التفسير التاريخى المضلل ناتجا عن جهل كاسيودوروس، وإنما كان نابعا من أيديولوجية خاصة. كذلك كان الأسلوب البلاغى لخطاباته نتيجة لمحاولة واعية من جانبه للدعوة بأن الحاكم القوطى الشرقى كان حاميا التراث الكلاسيكى.

واكتسب برنامج المؤاخاة مسحة لا بأس بها من الحقيقة بفضل سياسة ثيودوريك الداخلية. فقد تم تنفيذ برنامج واسع للأعمال العامة، كما فرضت عقوبات صارمة على اللصوصية وقطع الطرق. وشجع الأمن الناتج عن ذلك على عودة الرخاء إلى إيطاليا، ربما إلى المستوى الذى كان عليه أواخر القرن الرابع، (أو هذا هو ما أخبرنا به المعاصرون على الأقل)، وواصل السكان الرومان حياتهم فى ظل القانون الرومانى، على حين استخدم القوط الشرقيون القانون الجرمانى. واستدعى ثيودريك إلى بلاطه أبرز علماء عصره وشملهم برعايته - ليس كاسيودوروس فقط، ولكن أيضا بوثيوس Boethius، الذى كان أرسقراطيا رومانيا آخر ثم صار موظفا حكوميا عظيم القدر، وبدأ فى ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة اللاتينية. بل أن مؤرخا من مؤرخى البلاط البيزنطى

اعترف بأن ثيودوريك كان يعامل السكان الرومان بتسامح وكرم محمود. 

وأيا كان الأمر، فقد كان هناك جانبان فى سياسة ثيودوريك لم يكن من الممكن أن يرضى عنها الايطاليون، وقد اضطر للإبقاء عليهما بحكم منصبه كقائد للجيش القوطى الشرقى : وهما انتزاع الأرض الايطالية من أجل الجيش القوطى الشرقى من ناحية والأريوسية من ناحية أخرى، فمن الناحية القانونية كان القوط الشرقيون معاهدين Feod-orati وكان لهم حق الايواء على أرض السكان الايطاليين المحليين وفقاً لقانون الضيافة الرومانى ، وهكذا نجد أودواكر يأمر أصحاب الأراضى الايطاليين بتسليم ثلث مساحة أراضيهم إلى جنوده، وهينفس السياسة التى سار عليها ثيودوريك، فما الذى كان يمكنه أن يقدمه لجنوده غير ذلك ؟ والمعلومات المتوفرة لدينا قليلة جداً بحيث لا تسمح لنا بتحديد الكيفية التى نظر بها أصحاب الأرض الايطاليون إلى هذه السياسة، وفى رأى بعض المؤرخين أنه كانت توجد ضياع كثيرة خالية فى ذلك الحين نتيجة الفوضى التى سادت القرن السابق، وقد بلغت هذه الضياع الخالية جداً من الكثرة جعل الأراضى التى انتزع ثيودوريك ملكيتها قليلة للغاية. بيد أن الحقيقة القائلة بأن كاسيودوروس بذل الكثير لتبرير هذا التصرف على أساس أن القوط هم الجيش الرومانى، توضح أنه كان هناك بالضرورة بعض الاستياء من جانب أصحاب الأراضى التى انتزعت ملكيتها.

أما فيما يتعلق بمسألة استمرار ثيودوريك على ولائه للأريوسية فإن المؤرخ يرتبك بسبب تهاة المصادر فما الذى كانت الأريوسية تعنيه حقاً بالنسبة لثيودوريك ؟ لقد بنى الكنائس الأريوسية، ولكن من كان هؤلاء الأساقفة الأريوسيين ؟ المفروض أنهم كانوا من القوط الشرقيين، ونحن لانعلم شيئاً عن الموضوع. كل ما نستطيع قوله أن الأريوسية صارت عقيدة الشعب القوطى ولم يكن بمقدورهم أن يتخلوا عن عقيدتهم كما لم يتخلوا عن قانونهم الذى ألفوه، وبذل ثيودوريك أفضل ما فى سعه، فإذا كان قد بقى على أريوسيته؛ فإنه بذل ما فى طاقته ليهدىء من روح الكنيسة الكاثوليكية بشأن عقيدته، إذ اطلق حرية

العقيدة، كما شارك في احتفال يوضح اعترافه بسلطة البابا، لا على الكنيسة الكاثوليكية فقط، بل على مدينة روما أيضا. وفي سنة ٥٢٠ م كان واضحا أن البابا هدا وأن الكنيسة سوف تستمر في تأييد سلطة ملك الشرقيين حتى بعد موت ثيودوريك، ومن ثم كان من الممكن لسياسته الخارجية المحفوفة بالمخاطر أن تتجح بفضل سياسته الداخلية الماهرة.

ولكن السنوات الأخيرة من حكم ثيودوريك شهدت اختلال توازن القوى الدقيق الذي أقامه في غير صالحه، وكان من الواضح تماما قبل موته سنة ٦٢٦ م أن انهيار مملكة القوط الشرقيين لا يمكن أن يتأخر كثيرا. ول سوء الحظ، فإن مصادرنا هنا هزيلة جدا، إلا أننا نستطيع أن نميز الخطوط العريضة المعتمدة لما حدث من تغيرات، ويبدو أن مفتاح الموقف كان هو سياسة الامبراطور. فخلال معظم عهد ثيودوريك كان الامبراطور في نزاع مع البابا، وهو ما انتقص من السلطة الامبراطورية بفضل النظرية التي صاغها جلاسيوس الأول Gelasius I في العقد الأخير من القرن الخامس، وأحس البابا أن الامبراطور قد وقع في شباك الهرطقة وأنه يحاول فرض أخطائه على الكنيسة. ومن ثم فإن البابوية والكنيسة تريان أن حاكما أريوسيا يبيع حرية العقيدة سيكون حاكما أفضل من الامبراطور البيزنطي. وفي سنة ٥١٨ م تغيرت الأسرة البيزنطية الحاكمة بالقسطنطينية. وكان الهدف العظيم للبيت الحاكم الجديد الطموح هو إعادة فتح الغرب. (٩) وفي سبيل هذه الغاية يجب التضحية بكل شئ. وأعلن الامبراطور جستين الأول قبوله للفكرة اللاهوتية التي يعتنقها البابا (رغم أنه كان ينفر بذلك الكثيرين من رعاياه). وبدأ واضحا أن الامبراطور والبابا قد توصلا إلى تفاهم سرى في الوقت الذي كان البابا يقوم بدور سفير ثيودوريك لدى القسطنطينية. وألقى كثيرون من أبناء الارستقراطية الرومانية بثقلهم في جانب البابا والامبراطورية البيزنطية ومنهم بونثيوس. ويحتمل أنهم كانوا قلقين من أن القوط الغربيين أقارب ثيودوريك والذين كانوا مايزالون على عدواتهم الشديدة

(٩) هي الأسرة التي أسسها جستين الأول قائد الحرس الامبراطوري، والتي برز من اعضائها الامبراطور جستينيان ابن أخست جستين الذي قام بأخر محاولات فرض السيادة الرومانية من جديد على الغرب (المرجع)

للكاثوليكية قد أصبحوا رجالا بارزين فى بلاط رافنا عاصمة مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا.

وحين اكتشف ثيودوريك هذه المؤامرة كان رد فعله عنيفا. فقد كان قلقا بشأن من ميخلفه على العرش، ذلك أن الموت المفاجئ لم يبق من عائلته سوى امرأة وطفل لخلافته، إذا لم يكن هناك من يتطلع إلى العرش من زعماء القوط الشرقيين البارزين. وفى العامين الأخيرين من حكمه تخلى ثيودوريك عن سياسة التعايش وسجن البابا، وأعدم بوثيوس وعددا من أبناء الارستقراطية الرومانية البارزين. ولكن نجم مملكته كان قد أفل. وبدأ البيزنطيون فى استرداد إيطاليا فى السنوات العشر التى أعقبت موته.

كان ثيودوريك، من حيث سجاياء الشخصية، أفضل ملوك الجرمان قبل شارلمان. فقد كانت سياسته فى التعايش متعائلة مع أهداف الملكية الفرنجية سنة ٨٠٠ م من عدة جوانب. ومن ثم كان لفشل ثيودوريك فى تأسيس مملكة دائمة أعظم النتائج والآثار على أوروبا فى العصور الوسطى. فقد كان بوسع ثيودوريك أن يقيم فى عهدة سلطنة عليا فى إيطاليا، بيد أنه، فى حقيقة الأمر، لم تكن لديه النية لفعل ذلك، فقد كان هو نفسه يكن أعظم احترام لمجد روما، وكان يريد أن يعيد بناء الامبراطورية فى الغرب ولكن تحت حكم ملك قوطي.

لقد انخرفت سياسة ثيودوريك نحو طريق الخطأ، فآثار خوف الأباطرة البيزنطيين من أن تصبح مملكة القوط الشرقيين قوة عظمى بدرجة قد يستحيل معها أن تثبت بيزنطة سلطاتها فى إيطاليا، وخوفا من أن تنهض مملكة القوط الشرقيين كقوة بحر متوسطية تنافس بيزنطة ذاتها على سيادة عالم البحر المتوسط. وفى الوقت نفسه، ونظرا لاحترام ثيودوريك للنظم والأفكار الرومانية فى إيطاليا، فقد جعل القوط الشرقيين جماعة محايدة من الجنود الجرمان الذين لايتدخلون فى حياة البلاد الدينية والسياسية. ولأن الملكية ظهرت على هذا القدر من القوة فى أيامه، فقد ترك خلفاءه فى وضع مستحيل. إذ تركهم عرضة

للهجوم المضاد الذى شنته عليهم القوة العسكرية البيزنطية فى عهد جستنيان، إلا أن ثيودوريك لم يكن قد اكتسب ولاء الشعب الايطالى بالدرجة التى تكفى لأن يتصدوا لحرب الاسترداد التى قام بها البيزنطيون.

وتظهر فى الصفحات الأولى من تاريخ الفرنجة مواقف كثيرة مناقضة لتطور القوط الشرقيين؛ إذ كان الفرنجة أقل تأثراً بالثقافة الرومانية - وكان من الواضح أن ملوكهم أقل من أن يضارعوا ثيودوريك - ومع ذلك خرجت مملكة الفرنجة سالمة من غمار الفوضى والاضطراب اللذين سادوا طوال القرنين الخامس والسادس، وأصبحت أكبر وأهم مملكة قامت على التراب اللاتينى، ومن ثم ارتبط تطور أوربا الغربية السياسى وتاريخها الثقافى والكنسى بمصير الملكية الفرنجية .

كان هناك فرعان على الأقل للشعب الفرنجى، وقدر لأحدهما أن يلعب دورا هاما فى التاريخ، وهم الفرنجة الساليون Salian Franks الذين كان موطنهم الأصلي غرب وسط ألمانيا الحالية. وكانوا يعيشون فى منطقة بعيدة وراء حدود الراين كما كان اتصالهم بالرومان قليلا، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الثقافية. وبعبارة أخرى، لم يعتنق الفرنجة المسيحية على أيدي المبشرين الأريوسيين، وحين دخلوا الامبراطورية كانوا أجلافا وثنيين يتسمون بالعنف، وفى المجتمع الفرنجى كانت الغالبية من المزارعين الأحرار، وإذا كانت ثمة طبقة من النبلاء قد وجدت فى نسيجة هذا المجتمع، فإنها لم تكن قوية. وحتى فى أوائل القرن السادس كان جيش الفرنجة يتألف أساسا من الجنود الفلاحين المشاة، وعدد محدود جدا من الخيالة، وكان المظهر الحضارى الوحيد فى المجتمع الفرنجى الباكر متمثلا فى اهتمامهم بالزراعة. وبسبب هذا الاهتمام بالزراعة، ولأنهم - شأن كل الجرمان - كانوا يريدون الاقتراب من ثروة الامبراطورية، حصل الفرنجة من الامبراطور جوليان المرتد فى منتصف القرن الرابع على حق الاستقرار على طول الحدود الشمالية فى إقليم الفلاندر Flanders. وهنا تصبح المميزات الفريدة لحركة

الهجرة الفرنجية واضحة تمام الموضوع. فسرعان ما عمر الفرنجة موطنهم الجديد بعكس غيرهم من الغزاة الجرمان، وكرسوا أنفسهم للزراعة وتركوا بصمات ديموجرافية واقتصادية ولغوية قوية على المنطقة.

ومصدرنا الأدبي الوحيد الهام عن تاريخ الفرنجة الباكر هو الكتاب الشامل الذي كتبه جريجورى أسقف تور (جريجورى التورى Gregory of Tours) أواخر القرن السادس وبطبيعة الحال كانت المعلومات التى كتبها جريجورى أكمل ما تكون فى الفترة القريبة من عصره، إلا أنه استطاع أن يمدنا ببعض المعلومات المتناثرة عن تاريخ الفرنجة فى القرن الخامس اعتماداً على التراث الشفوى الفرنجى. ويعتبر كتاب جريجورى المسمى « تاريخ الفرنجة » - برغم ما فيه من بعض مظاهر الضعف التى تشوب أسلوبه، وأحكام المؤلف المسبقة القاسية - أكمل تقرير لدينا عن أى من الشعوب الجرمانية، كما أن من مزايا هذا الكتاب أنه يمدنا بدليل لأسماء الأماكن فى إقليم الفلاندر وشمال فرنسا أن نتخيل خلال دراسة الجذور اللغوية لأسماء الأماكن فى إقليم الفلاندر وشمال فرنسا أن نتخيل كيف تمت الهجرة الفرنجية صوب الجنوب من إقليم الفلاندر إلى داخل غالة.

وبينما كانت القوة الرومانية أخذة فى التحلل والإنهيار فى القرن الخامس، بدأ الفرنجة يتحركون فى ببطء باتجاه الجنوب إلى داخل الامبراطورية. وهناك لم يشكل استقرارهم احتلالاً عسكرياً فحسب، كما كان حال الشعوب الجرمانية الأخرى، ولكنه كان استعماراً حقيقياً شاملاً. ومن المحتمل أن تكون إحدى العائلات فى ذلك الوقت قد تولت زمام قيادة الشعب الفرنجى ثم ارتفعت إلى مكانة الأسرة الملكية الحاكمة. وحتى منتصف القرن الثامن كان العرش الملكى الفرنجى بمثابة الأملاك الخاصة لهذه الأسرة، دون أدنى اعتبار لعدم الكفاية الشخصية التى اتصف بها كثيرون من سلالتها. وزعمت الأسرة الملكية الفرنجية أنها تنحدر من صلب الآلهة، وهو ما كان مألوفاً بين الجرمان، ونسبوا تأسيس الأسرة الملكية إلى بطل أسطورى يدعى ميروفيش Merovech. وقد اختلف الميروفنجيون

فيما بينهم في القرن الخامس من حيث صفاتهم، وظهر أن بعضهم يفتقر إلى الكفاية الحربية وصفات الزعامة. بيد أن الشيء الذي ميز جميع الحكام الفرنجة الأوائل حتى سنة ٥٠٠ هو عداؤهم الشديد للثقافة الرومانية. وربما يكون الفرنجة قد خضعوا لسيادة القادة الرومان الأواخر في غالة لمدة عشر سنوات أو نحو ذلك في منتصف القرن الخامس. ويفسر لنا « هذا النير الروماني الشديد الوطأة »، على حد تعبير الوصف الذي جاء في مقدمة القانون السالي، حين نربطه بوحشية الفرنجة وبربريتهم الوطنية، سبب كراهية الفرنجة للرومان. وليس هناك مثيل لهذا الموقف السلبي من جانب أي من الغزاة الجرمان السابقين.

وبحلول العقد الثامن من القرن الخامس كان الفرنجة قد استقروا بأعداد كثيفة في الأجزاء الشمالية من غالة، وانسابوا نحو شمال من مدينة باريس الرومانية القديمة. وبينما كانوا يتحركون في الأقاليم الوسطى والجنوبية جوبهوا بكثافة سكانية نسبية من الغالورمان؛ وبالتالي كان تأثير الفرنجة على اللغة والنظم في هذا الجزء من البلاد قليلا، ولأن السكان الغالورمان فاقوا الغزاة الفرنجة كثيرا في عددهم فقد ظلت العامية اللاتينية لغة البلاد بأسرها، بل إن الفرنجة أنفسهم مالبتوا أن تكلموا باللسان اللاتيني.

وفي ظل ظروف الفوضى وعدم التنظيم التي تفشت في غالة في القرن الخامس لم ينقص الفرنجة سوى قائد قوى يتقدم بهم من معقلهم الشمالي لفتح البلاد كلها. وقد وجدوا ضالتهم في كلوفيس الأول Clovis (٤٧١ - ٥١١) أفضل الملوك الميروفنجيين، والذي وُطد حكمه الطويل دعائم السيطرة الفرنجية غرب الراين.

وتبدو صفات كلوفيس الهمجية والوحشية واضحة تماما في صفحات كتاب جريجوري التوري، كما يظهر كلوفيس في الوقت نفسه في صورة القائد الحربي الشديد المراس والداهية في الشئون الاستراتيجية. وبعد سحق الجيوش الغالورمانية نهائيا أخضع كلوفيس شعوبا جرمانية أخرى كانت تعيش على طول الضفة الغربية لنهر الراين.

ثم مهد كلوفيس لخطوته التالية بتعميده وجيشه كله على يد كبير أساقفة رينس Rheims. وعلى الرغم من الهالة الأسطورية التي أحيطت بها قصة إعتناق كلوفيس للمسيحية فيما بعد ، فإن سبب اعتناقه للمسيحية سنة ٤٩٦ كان بسيطاً. ذلك أنه رأى أن اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكي سيجعل منه الملك الجرمانى الوحيد الذى يتمتع بإيمان صحيح فى غالة - بل فى الغرب بأكمله، ومن ثم فسيكون من الأسهل بالنسبة له، وبوصفه البطل الكاثوليكي، أن يستحوذ على ولاء السكان الغالو - رومان كلما مضى فى توسعاته. وعلاوة على ذلك، فإن اعتناقه للمسيحية الكاثوليكية سوف يكسبه تأييد رجال الكنيسة الذين كانوا بمثابة القوة السياسية والاقتصادية والمعنوية الوحيدة الموجودة فى جميع أنحاء غاله. ولاتيين لنا حماسة جريجورى التورى، المتحدث باسم الكنيسة الفرنجية فى القرن السادس، أن اعتقاد كلوفيس كان فى محله فحسب بل تبين أيضاً أنه نجح فى أن يحيط نفسه بهالة مقدسة. وفى رواية جريجورى التورى نجد الزعيم البدائى المتوحش الذى يقود عصبة الحرب الفرنجية يتحول بعد اعتناقه المسيحية الى قسطنطين جديد.

وإذ توطلدت سلطة كلوفيس بفضل تأييد الكنيسة، واصل فتوحاته، فتحرك أولاً نحو الشمال الغربى، أى فى الأراضى الواقعة ما بين نهر السين، ونهر اللوار، ونجح فى إخضاعها، رغم أن هذه المنطقة ظلت منفصلة خلال الشطر الأعظم من التاريخ الفرنسى الوسيط. وأخيراً ، أصبح كلوفيس مستعداً لتنفيذ مشروعه العظيم، وهو فتح المنطقة الواقعة تحت حكم القوط الغربيين من بلاد الغال، أى إقليم أقطانيا Aquitaine، وتمكن فى بداية الأمر من تحييد البرجنديين سنة ٥٠٠ م بأن عقد معهم معاهدة تحالف، وترك لأبنائه مهمة إخضاع البرجنديين، وتم له ذلك فى العقد الثالث من القرن السادس. وعلى الرغم من أن القوط الغربيين كانوا قد شادوا مملكة شاسعة تمتد من أسبانيا حتى إقليم بريتانى Brittany كانت عاصمتها تولوز Toulouse؛ فقد تعرضت مملكتهم لكثير من العوامل التى أدت إلى سقوط مملكة القوط الشرقيين. إذ أنهم كانوا مجرد محتلين عسكريين ولم يكونوا

مستعمرين، كما أنهم كانوا أريوسيين. وكان انتصار كلوفيس على القوط الغربيين سريعا وحاسما. وقد منحته الكنيسة تأييدها التام فى هذا الغزو. وفى رواية جريجورى التورى يبدو الفتح الفرنجى لتواوز فى صورة الحرب المقدسة. وفى الوقت نفسه، تقريبا، عقد كلوفيس معاهدة تحالف مع الامبراطور البيزنطى ضد القوط الشرقيين. وفى سنة ٥٠٧ م أعلن الامبراطور مباركته للغزو الفرنجى لغالة، وذلك بأن خلع على كلوفيس لقبى قنصل Consul وأغسطس augustus كلقبين شرقيين، وقصد بهما إضفاء صفة القدسية فى صيغة رزينة على تحالف الامبراطور وملك الفرنجة ضد القوط الشرقيين، والاعتراف بسيادة كلوفيس فى غالة. وهكذا استطاع كلوفيس رغم عدم احترامه للنظم والأفكار الرومانية، أن يحوز موافقة الامبراطورية على فتوحاته.

وبقيت خطوة واحدة فى طريق تأسيس مملكة الفرنجة، وهى اتخاذ باريس عاصمة لهذه المملكة. فقد كانت باريس تقع داخل المنطقة التى كان الاستعمار السالى فيها كثيفا. ولكن الكنيسة الفرنجية - الغالورمانية الجديدة كانت قادرة على أن تجد فى باريس مجدا كبيرا فالحقيقة أن الرواية التى شاعت عن القديس دونى St. Denis تلميذ القديس بولس، بأنه كان أول أساقفة باريس واستشهد فى هذه المدينة. هذه الرواية أكتسبت أهمية كبيرة فى مطلع القرن السادس من جديد. وشجع كلوفيس والكنيسة هذه الأسطورة، وصارت باريس إحدى المدن المقدسة فى العالم المسيحى، كما صارت مونمارتر Mont-martre موضعا لأحدى المزارات الشعبية. وعن طريق ربط باريس بالقديس دونى، أكد كلوفيس مكانته كبطل جرمانى للمسيحية الكاثوليكية. فقد كان يعلم تمام العلم أن هذا الدور الذى قام به هو الذى سهل الغزو الفرنجى لغالة تماما.

وكان قهر غالة شيئا، وكان حكمها شيئا آخر. فقد كان تأثير الميروفنجيين كحكام أقل كثيرا من تأثيرهم كقيادة لعصبة الحرب الفرنجية. وفى كل الظروف كانت الأسرة

الميروفنجية غارقة فى الصعاب والمتاعب الناتجة عن المفاهيم السياسية القاصرة للشعب الجرمانى . وفوق ذلك لم تكن المملكة الفرنجية تقتصر فقط على ما يعرف اليوم باسم فرنسا بل شملت أيضا شطرا كبيرا من النصف الجنوبى من ألمانيا الغربية. وامتدت هذه المملكة لتغطى مساحة شاسعة من الأراضى؛ بحيث عجزت عن إدارتها نظم ومؤسسات القرن السادس المحدودة . ولكن أخطاء كلوفيس وخلفائه، عدم الكفاية السياسية التى اتصف بها معظم الحكام الميروفنجيين، جعلت الموقف يزداد سوءا . وكانت النتيجة أن صارت السلطة السياسية فى فرنسا فى مطلع القرن السابع بأيدى الطبقة الارستقراطية المحلية فى المقاطعات، بينما تبقى للأسرة الملكية التاج الملكى ولاشئ سواه.

ومن المؤكد أن الحاكم الميروفينجى فى عهد كلوفيس كان يحكم من مركز ظاهر القوة بل من موقع الحكم المطلق - مع موارد مالية ضخمة. واعتبر كلوفيس وخلفاؤه أن البلاد أملاك خاصة بهم، ومن ثم، فإنه حين يكون لأحد الملوك أكثر من ابن كان يأمر بتقسيم الأملاك الملكية بين ورثته كما كان يقسم التاج أيضا فيما بينهم، ولأن الحكام الميروفنجيين قبضوا على التاج وموارده على أساس أنها ممتلكاتهم الخاص، فقط مارسوا الحكم بون استشارة أحد : وتمثلت النتيجة فى خليط مذهل فى غرابته من الفوضى والأتوقراطية البدائية . ولم يقدم الحكام الميروفنجيون للشعب شيئا سوى قيامهم بالحملات العسكرية بين الحين والحين. كما كانوا يقضون أوقاتهم فى أرضاء نزواتهم وإثراء أقاربهم ومواليهم.

وحين يكون هناك أكثر من ملك - وهو ما كان شائعا أثناء القرن التالى لموت كلوفيس - كان اهتمامهم الرئيسى يتركز فى محاربة كل منهم للآخر وقتله؛ ولذا فإن تاريخ الأسرة الميروفنجية فى القرن السادس وأوائل السابع عبارة عن رواية غاصة بالخianات والمذابح.

ولم يبذل هؤلاء الرؤساء البدائيون أية محاولة للحفاظ على النظام الإدارى الرومانى، ولم يتبق لنا من وثائق فرنسا الميروفنجية سوى بعض المواثيق السيئة الصياغة.

ومن الواضح أن أعمال الملكية كانت تتم دون أية إمكانيات. وكان المظهر الوحيد من مظاهر الحكومة الرومانية الذي حاول الميروفنجيون أن يحافظوا عليه هو النظام الضريبي. بيد أنهم في هذا الصدد كانوا يفتقرون إلى الموظفين الأكفاء المخلصين، كما لم يكن ثمة شعور عام بأن هناك ما تدفع الضرائب من أجله. وبحلول عام ٦٠٠ أندثرت كل آثار النظام الضريبي الروماني. فقد كان الملك الميروفنجي الذي يريد التخلص من أحد موظفيه يرسله لجباية الضرائب؛ حيث لا يسمع عنه أبدا بعد ذلك. وكان النبلاء الفرنجة الغالورمان الذين تجمعوا وتألفوا بسرعة متفقين في عدائهم لهذه الملكية التي لم تساهم بشيء لصالحهم؛ بل جلبت عليهم نظاما بائسا يتسم بالطمع والعجز.

وحاول الميروفنجيون أن يكسبوا في خدمتهم بعض النبلاء عن طريق منحهم الوظائف المصحوبة بالإقطاعات، أي الأملاك المرتبطة بالوظيفة لكي تضمن إخلاص صاحب الوظيفة في خدمته للمالك. وفي النهاية حول النبلاء المقربون هذه الوظائف والإقطاعات إلى ممتلكات خاصة، وكونوا من أنفسهم أسرات حاكمة في المقاطعات، وهكذا تحولت ألقاب مثل دوق Duke الذي كان في الأصل لقباً دالاً على الممثل العسكري المحلي للمالك، ولقب كونت count الذي كان يطلق في الأصل على المندوب القانوني الملكي، إلى ألقاب أرستقراطية يتوارثها جيل مع ما يلحق بها من إقطاعات في العائلات الأرستقراطية الكبيرة.

ومع بواكير القرن السابع كانت الملكية قد جردت تقريبا من كل سلطتها على أبدي أرستقراطية الولايات، فلم يترك للملوك الميروفنجيين سوى ظل من سلطانهم الأصلي، وجزءا ضئيلا جدا من الممتلكات الملكية لمملكة تسودها الفوضى التامة من الناحية السياسية. إذ كان الولاء كله مكرسا للحاكم المحلي، بينما لم يكن للملك نصيب في هذا الولاء. وقد مكن ملوك القرن السادس - الذين كرسوا جهودهم للإقتتال ضد بعضهم البعض - للارستقراطية من عملية اغتصاب النفوذ الحكومي، والاستيلاء على ثروة الأسرة

الميروفنجية. وكان كل الحكام الميروفنجيين فى القرن السابع أما نساء أو أطفالا تقريبا. هؤلاء الحكام الذين لا يستحقون عروشهم هم الذين كانوا يحددون دائما علامة البداية فى طريق نهاية السلطة الملكية طوال العصور الوسطى المبكرة.

أما الكنيسة ، أو بالأحرى أساقفة غالة الذين قدموا للكنيسة كل قياداتها، فقد خاب أملهم إلى حد بعيد فى الأسرة الميروفنجية بسبب ما أصابها من تدهور. إذ بنى رجال الكنيسة تحالفهم مع كلوفيس الأول، وعقدت الآمال العظيمة على الفوائد المتبادلة التى كان يمكن جنيها من وراء هذا الاتحاد بين الأسرة الملكية والأساقفة الكاثوليك، ولكن خلفاء كلوفيس بلغوا درجة من العجز والبدائية جعلت الأساقفة ينحازون إلى النبلاء ضد الملكية فى أواخر القرن السادس، ويكشف لنا أحد الأساقفة فى زمن لاحق، وهو جريجورى التورى، عن نظرة رجال الكنيسة فى أواخر القرن السادس، فبالرغم من أن جريجورى التورى كان أفضل تعليما من أى من زملائه القساوسة فإن رؤيته كانت محدودة وذاتية، فقد انصرف عن خلفاء كلوفيس بسبب ضجره من جرائمهم وحماقتهم، وأخذ يندب انهيار التحالف الذى كان قائما فى بداية القرن السادس بين الملكية والكنيسة. وإذا كان هناك من يتباهى بقسطنطين الثانى الفرنجى؛ فهم أحفاد كلوفيس فقط ولكن جريجورى (مبتدع هذا اللقب) أخذ منذ فقد الأمل فى إعادة بناء التحالف القديم بين الأسرة الملكية والكنيسة يكرس نفسه بصفة أساسية لتشييد ثروة ومكانة كنيسة تور، على نحو ما كان أى لوق كونت يكرس نفسه لخدمة مصالح أسرته.

وهكذا، دفع الوضع السياسى لمملكة الفرنجة – بما كان له من تأثير على النزعات المحلية والإقليمية – برجال الكنيسة إلى أن يرموا بثقلهم فى جانب الأرستقراطية. كما أن الكنيسة يتخليها وانفصالها عن الملكية الفرنجية فى القرنين السادس والسابع سببت ضعفا متزايدا باستمرار فى كيان الأسرة الميروفنجية . وكانت الكنيسة هى فقط القادرة على تقديم القيادة الكفء والموظفين المطلوبين لبناء حكومة قادرة على فى فرنسا، ولكن

الأساقفة باتباعهم سياسة الانفصال عن الملكية، أضروا الكنيسة في ذاتها بهذه الخطوة أيا كان المبرر الذي يمكن أن يوضح موقفهم في ضوء انعدام الكفاية الشخصية لأفراد الأسرة الميروفنجية . لقد كانت الكنيسة الغالية الرومانية القديمة، التي تألفت سنة ٤٠٠ بسبب جهلها وافتقارها إلى النشاط، وكان السبب الرئيس في هذا كامنا في اتجاه جريجورى التورى وزملائه إلى ربط مصالحهم بمصالح النبلاء الذين صارت أنانيتهم ونزعتهم الاقليمية من خصائص رجال الكنيسة في فرنسا في القرن السابع، ولو كان قد ظهر من بين الميروفنجيين عدد قليل من الحكام من طراز ثيودوريك ملك القوط الشرقيين، لكان من الممكن بالتأكيد تجنب تدهور الكنيسة الفرنسية والملكية الفرنسية معا في أواخر القرن السادس والقرن السابع.

وقد لعبت الملكية الميروفنجية دورا صغيرا في التأثير على مجرى التغييرات الاجتماعية العظيمة التي طرأت على فرنسا في القرنين السادس والسابع، وبينما لم تبذل القيادات الملكية والكنيسة فيما بين سنة ٥٠٠ وسنة ٧٠٠ سوى القليل من أجل إقامة نظم دائمة، تم اندماج العناصر الفرنجية بالعناصر الغالورمانية على النحو الذي خلق البناء الاجتماعي الذي كان على الزعامة أن تتجه نحوه وأن تناضل من أجله فيما بعد. إذ كان المجتمع الفرنجي أوائل القرن الخامس منظما على أسس بسيطة نوعا ما؛ فلم تكن الأسرة الملكية والنبلاء يشكلون أكثر من عُشر الشعب الفرنجي . وفي أسفل السلم الاجتماعي في مجتمع الفرنجة الساليين كانت تقبع جماعة تكون حوالي ٧٠ ٪ من الشعب وتتألف من الفلاحين الأحرار والجنود. وقد استقطبت هذه المجموعة الكبيرة تحت ضغط الغزوات والحروب التي شهدتها، القرن الخامس، إذ برز من صفوفها عدد قليل في مجال القيادة العسكرية ولحقوا بطبقة النبلاء، بينما فقد الكثير حريتهم وهبطوا في السلم الاجتماعي درجة أدنى أو أكثر.

وزاد اندماج السكان الوطنيين من الغالورومان بالمجتمع الفرنجي من سرعة

التدهور، وذلك لأن كثيرين من الفرنجة الأحرار فقدوا حريتهم، ولما كان النبلاء الفرنجة قد ربطوا أنفسهم بالارستقراطية، فإنهم حاولوا بطبيعة الحال إجبار الجندي الفلاح الفرنجي على حال من العبودية معادلة لما كانت عليه أحوال الطبقة الدنيا في المجتمع الغالورمانى. فقد كان ما يقرب من نصف سكان غالة سنة ٤٠٠ أناسا غير أحرار، وكان ٣٠٪ منهم على الأقل عبيدا لاحقوق لهم، أما الباقون فكانوا مزارعين شبه معدمين -colono. وعلى قمة السلم الاجتماعى فى غالة تربع ملاك الأراضى الأثرياء الذين كان منهم دائما الأساقفة وغيرهم من زعماء الكنيسة، وشكلت طبقة الملاك هذه حوالى ١٥٪ من مجموع السكان، بينما تألفت نسبة الخمسة عشر بالمائة الباقية من الفلاحين الأحرار وصغار الكنسيين، وأخيرا سنة ٤٠٠، لاسيما فى جنوب فرنسا حيث كان السكان أكثر كثافة، عاش الكثيرون من سكان المدن الذين لا ينتمون إلى ملاك الأراضى أو إلى طبقات الفلاحين المختلفة، وهؤلاء هم البورجوازيون الذين عملوا بالتجارة والصناعة وكانوا يشكلون حوالى ٢٠٪ من مجموع سكان غالة.

وما أن بزغت سنة ٦٠٠ م حتى كان المجتمعان الغالورمانى والفرنجى قد امتزجا تماما، وظهر بناء اجتماعى فرنسى جديد، فقد كان التزاوج بين العائلات الفرنجية والعائلات الغالو - رومانية سريعا وشاملا، ويعتبر جريجورى التورى آخر أساقفة غالة الذين يمكنهم أن يزعموا أنهم انحدروا من صلب الارستقراطية الغالورومانية تماما، وقد تميز المجتمع الفرنسى الجديد بمجموعة كبيرة من الأقتان الذين كانوا يمثلون أدنى فئة فى المجتمع، وربما تكون نسبتهم قد بلغت نحو ٦٠٪ من مجموع السكان، وتكونت طبقة الأقتان من غير الأحرار فى المجتمع الغالو - رومانى والمجتمع الفرنجى المبكر، بالإضافة الى العديد من الرجال الأحرار من الفلاحين الفرنجة المطحونين، ولم يكن القن عبدا شخصيا لسيد، بل كان مرتبطا بالأرض وكانت له حقوق قانونية واقتصادية معينة. وكان المفروض أن يقوم السيد بحمايته وأن يعده بوسائل العون الاقتصادى رغم أنه كان من

المألوف أن يتجاهل السيد كلا الأمرين معا، إذ كان كل ما ينبغي من القن هو العمل في أرضه وضياعه أو جزءا من محصوله، وربما كان يطلب الأمرين معا. وكان ثمة تدرج كبير داخل طبقة الأقتان، فقد كان بعض الأقتان ميسورى الحال تماما، على حين كان البعض الآخر على حافة الموت جوعا. ومع ذلك، فإذا كان هناك اختلاف فى منشأ هذه الطبقة المستعبدة من الناحية الاقتصادية فإنه كان هناك وضع قانونى واحد يجمع أفرادها، إذ لم يكن باستطاعة القن أو أحد أفراد أسرته أن يترك ضيعة السيد - أو الدائرة Manor كما عرفت فيما بعد، وكان القن ملتزما بأن يقدم جهده وواجبات التبعية لسيدته، كما كان واقعا تحت طائلة اختصاص المحكمة الواقعة فى دائرة السيد والتابعة له.

وربما كان القن أسعد حالا من عبيد الضيعة الرومانية Latifundia وربما كانت كمية طعامه أقل، ولكنه تمتع بقدر أكبر من الحرية الشخصية. وهو ما دعا بعض المؤرخين إلى الكلام عن « الإصلاح الاجتماعى » فى فرنسا القرن السادس حين أدخل نظام العبودية الرومانى مكانه لنظام القنية الذى عرفته العصور الوسطى. ومن الممكن تبرير هذا الحكم بالقول بأن البؤس الكلى قد استبدل ببؤس جزئى. بيد أن التحول فى وضعية الفلاحين الاقتصادية والقانونية لم يستطع أن يرتفع بأكبر طبقات المجتمع وأدناه مرتبة عن مستوى الوجود الحيوانى. وحتى القرن الثانى عشر على الأقل لم تكن حياة فلاح العصور الوسطى تختلف عن حياة حيوانات الحقل كانوا يكونون، ويربون، ثم يموتون، كما كانوا يفتقرون فى القرن السادس حتى إلى ما يمكن أن يقدمه لهم القسيس المحلى من الراحة والطمأنينة. إذ لم تكن هناك أبرشيات حتى ذلك الحين وكان الذى يقوم بتلبية مطالب الفلاحين الدينية هو القسيس الذين كان يزورهم بين الحين والآخر ترسله كاتدرائية أقرب مركز أسقفى. وإذا كان فلاح القرن السادس أو القرن السابع يرى القسيس ويتلقى الأسرار المقدسة مرة فى العام فإنه كان يعد محظوظا للغاية. وفى مثل هذه الظروف لن يدهشنا أن نعرف أن مسيحية طبقة الأقتان كانت مسيحية إسمية تماما. فسواء تم تعميد

الفلاح أم لم يتم، فإنه كان يستمر في عبادة قوى الطبيعة كما كان يفعل من قبل وحتى عندما كان يفكر في كونه مسيحياً، كانت رؤيته الدينية محكومة بعبادات الاخصاب والخرافات، لقد كان عالم المسيحية بالنسبة لفلاح العصور الوسطى الباكراً خليطاً من القديسين، والآثار المقدسة، والعفاريت.

وفي سنة ٦٠٠ كانت أعداد الطبقة الوسطى في كل من المجتمع الفرنجى المبكر والمجتمع الغالو - رومانى قد تناقصت إلى حد بعيد، ومن المحتمل أنه لم يكن هناك أكثر من ١٠ ٪ من جمهرة الفلاحين يحتفظون بحريتهم، وقد تضمن هذا العدد صغار رجال الكنيسة، ومع تدهور فرنسا الاقتصادية، والتناقص السريع في عدد المدن الذي حدث في أعقاب الغزوات الفرنجية اختفت الطبقة البورجوازية تماماً، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك أكثر من ٣ ٪ بين الفرنسيين سنة ٦٠٠ يسكنون المدن.

وعلى قمة الهرم الاجتماعى تربعت أقلية من الناس تمتلك ثروات خاصة طائلة، كما تتمتع بالنفوذ والسلطان، وتكونت هذه الفئة من العائلة المالكة وأرستقراطية الولايات الكبار - أى البوقات والكونتات بضياعهم الشاسعة وسلطانهم الاقليمى ولم تكن هذه الطبقة المكونة من كبار الملاك - والتي يحتل أنها ضمت الأساقفة وبعض القساوسة الهامين - تشكل أكثر من ٢ ٪ من مجموع السكان، وبالإضافة إلى هذه الطبقة الأرستقراطية الكبيرة، وجدت مجموعة كبيرة للغاية من الملاك المتواضعين والجنود الأحرار العاديين، وكان بعض هؤلاء من ملاك الأراضي الأثرياء ولكن البعض الآخر لم يكونوا أكثر من جنود مأجورين وهم الذين كانوا يشكلون جيوش الملك والأرستقراطيين وربما كانت نسبة طبقة الملاك العاديين والجنود هذه قد بلغت حوالى ٢٥ ٪ من سكان فرنسا سنة ٦٠٠.

أما البناء الاجتماعى في فرنسا التى كانت أهم مملكة قامت على أنقاض الامبراطورية الرومانية الغربية فقد كان محكوماً بالسادة والأقنان، لقد اختفت الحياة الحضرية تماماً، وانحصرت الزعامات كلها في طائفة صغيرة من الأمراء الملكيين وكبار

الأرستقراطيين. وكان اهتمام أولئك الرجال الأساسى منصبا على تكوين ثروات عائلاتهم ونفوذها. وكانوا ينفقون معظم سننى حياتهم فى الحرب، كما أنهم جهلوا فنون الحكم وعميت أبصارهم عن رؤية مثل العدالة والسلام. ولم يكن لديهم أى فهم للمشكلات الاقتصادية. وكانت المسيحية بالنسبة لهم عالما من السحر، والمعجزات، وسير القديسين. ومن المحتم أن تؤدى بنا المقارنة بين هؤلاء القادة وبين رجال من أمثال ثيودوسيوس الأول وأوغسطين وسيماخوس، إلى استنتاج أن انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية كان كارثة سياسية واقتصادية وثقافية من أفدح ما يمكن.

الفصل الخامس

بيزنطة والاسلام^(١)

١ - لعنة السلطة البيزنطية

خضعت نظم الحكم، والمجتمع والاقتصاد فى الغرب لعوامل التغير والتحول بفعل الغزوات الجرمانية. بيد أن أوربا لم تترك لكى تتمتع وحدها بثمار هذه التغيرات الكبيرة فى القرنين السادس والسابع. فقد تعرض عالم البحر المتوسط للغزو مرة أخرى من جانب البيزنطيين والمسلمين. ولم يكن تأثير بيزنطة والإسلام على نفس درجة التأثير الجرمانى على أوربا الغربية. إلا أن أهداف جستيان الأول، ومحمد صلى الله عليه وسلم لعبت دورا هاما فى تشكيل الحضارة الأوربية الحديثة.

ولقد كانت حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية على الدانوب، والتي كانت حمايتها من مسئولية حاكم القسطنطينية، هى أول ما أخترق الجرمان من حدود العالم الرومانى. كما كانت أول هزيمة كبرى لحقت بالجيش الرومانى على أيدي الجرمان هى تلك التى لحقت بالامبرطور الشرقى فى معركة أدنة (أدريانوبل Adrianople)، وعلى الرغم من ذلك، فإن الإمبراطورية الغربية هى التى أنهارت فى القرن الخامس. فلماذا إذن نجت الامبراطورية البيزنطية من الغزوات الجرمانية وعاشت بعدها؟ من الممكن أن نقدم بعض الإجابات على السؤال. فأولا : كان سكان الامبراطورية الشرقية يتفوقون كثيرا من حيث العدد على سكان الجزء الغربى اللاتينى من حوض البحر المتوسط، كما كانوا يتفوقون عليهم فى مستواهم الحضارى. ولم يكن الجرمان على درجة من الجهل بحيث لا يدركون أنهم سوف يواجهون مهمة أكثر صعوبة إذا ما اتجهوا صوب الشرق بعد عبورهم لنهر

(المترجم)

(١) عنوان الفصل كما كتبه المؤلف هو « جستيان ومحمد » Justinian and Mohammed.

الدانوب، ثانيا : أن الامبراطورية الرومانية الشرقية وجدت في القسطنطينية المنية بؤرة ومركزا للحكم والثقافة والاقتصاد . ولقد احتاج الأمر من المسلمين الذين كانوا يتفوقون على الجرمان عسكريا ، إلى سبعة قرون من الزمان حتى تجحوا في الاستيلاء على القسطنطينية . ومن الواضح أن الجرمان كانوا سيواجهون بالفشل أمام القسطنطينية ؛ وهو الأمر الذي أدركه الجرمان تماما . ومع ذلك فانه لم يكن هناك طريق آخر يمكن أن يدخل منه الجرمان إلى الشطر الغنى من الامبراطورية البيزنطية ، سوى طريق القسطنطينية ذاتها . وقد كان لأباطرة الغرب في القرن الخامس قلعة حصينة أيضا هي رافنا ، ولكن الجرمان كانوا يمرون في بجوارها في يسر دون أن يتعرضوا لأية مخاطرة ثم ينسابون إلى داخل ايطاليا .

أما السبب الثالث في بقاء الامبراطورية الشرقية فهو قدرة الحكام البيزنطيين وكفائتهم أثناء القرن الخامس ، فقد قاموا بالإصلاحات الحكومية مثل تخفيض الضرائب الباهظة التي كان أباطرة القرن الرابع قد فرضوها لكي يضمنوا تأييد الشعب لهم . وقد شجعوا التعليم كما وضعوا مجموعة قانونية شاملة . فقد وضع المشرعون البيزنطيون أول مجموعة قوانين شاملة حوالي سنة ٤٢٥ ، اقتداء بمشرعي القرن الثالث ، وسميت هذه المجموعة باسم الامبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II . وكان الحكام البيزنطيون على درجة من الحكمة جعلتهم لا يتركون زمام السلطة العسكرية إلى القادة الجرمان على نحو ما فعل حكام الغرب . وأخيرا ينبغي علينا أن ندرك أنه كان للغزوات الجرمانية تأثير متراكم على قوة الامبراطورية وثروتها في الغرب ، وهو الأمر الذي أمكن للشرق أن يتجنبه . فبسبب ضياع أراضى الامبراطورية الغربية ضاعت منها أيضا موارد الضرائب ؛ وهو الأمر الذي أدى إلى تزايد الصعوبات التي واجهتها الحكومة في سبيل الاحتفاظ بجيش قوى . كما أن نضوب مصادر القوة العسكرية من ناحية أخرى ، تسبب في ضياع المزيد من أقاليم الامبراطورية مما زاد في تدهور دخل الامبراطورية . أما الامبراطورية البيزنطية ،

فقد استطاعت أن تتجنب مثل هذا الانهيار، ومن ثم أمكنها أن تحافظ على منابع ضريبية ثابتة طوال القرن الخامس، فضلا عن أن موقع القسطنطينية كمركز تجارى عظيم بين الشرق والغرب ساهم فى زيادة موارد الامبراطورية.

وقد بذل الامبراطور جستنيان الكثير من الجهد لتدبير الموارد، لأنه كان مستعدا لاسترداد الغرب، وإذ لم يكن هناك امبراطور فى الغرب بعد سنة ٤٧٦ فقد ادعى الامبراطور الشرقى أن له السيادة على بلاد الغرب اللاتينى، كما التزم بالمبدأ القائل بأن السلطة الإمبراطورية Imperium سلطة لاتقبل التحول وكان يتطلع إلى الوقت الذى سوف يتمكن فيه من إعادة بناء سلطته فى روما على نحو فعال، وفى مطلع القرن السادس بدا واضحا أن محاولات القوط الشرقيين لخلق امبراطورية جرمانية فى حوض البحر المتوسط تشكل خطرا يحول دون تحقيق أهداف بيزنطة، ونتيجة لذلك نفذ الامبراطور جستنيان فى سنة ٥٣٠ مشروعه لاسترداد الغرب، وهو المشروع الذى كان أسلافه يعدون له على مدى قرن من الزمان.

لقد كان جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥) صاحب أثر على تطور بيزنطة يفوق تأثير أى امبراطور آخر منذ زمن قسطنطين حتى القرن العاشر. وكان خال جستنيان قائدا مقبونيا وتمكن من الاستيلاء على عرش الامبراطورية، ذلك الرجل هو الامبراطور جستين الأول Justin I (٥١٨ - ٥٢٧) الذى درب أبن شقيقته على مهام الحكم لكى يخلفه على عرش الامبراطورية، ولاشك أن جستنيان كان أفضل حكام العصور الوسطى من حيث درجة تعليمه وما حباه الله به من ذكاء فائق ولو لم يكن القدر قد أتاح له فرصة الجلوس على عرش بيزنطة لكان من المحتم أن يصبح محاميا كبيرا، أو عالما فى اللاهوت، وقد كان رجلا صارما متزمتا، كما كان من أكثر الرجال كدا فى العلم من أجل الامبراطورية التى كرس لها نفسه. أما زوجته ثيودورا Theodora التى كانت فيما مضى راقصة فى سيرك، فقد تحولت إلى امرأة نابهة مرموقة ساعدت زوجها كثيرا. فقد كانت الجماهير التى

تحتشد في المضمار البيزنطى قد نظمت نفسها في فئات غريبة تشكل منتديات رياضية متعصبة وجمعيات سياسية، وفي أوائل حكم جستنيان - وأثناء حوادث الشغب التي ثارت بين هذه الفئات المتصارعة، والتي لم يكن باستطاعة الامبراطور أن يسيطر عليها - أحس جستنيان أنه مرغم على التنازل عن العرش، ولكن ثيودورا التي تحولت من مجرد عاهرة إلى امبراطورة لم تكن لتترك زوجها يتخلى عن عظمتة الامبراطورية، وبالفعل استطاع جستنيان أن يستعيد السيطرة على الموقف^(٢)، وما لبث أن تحول حكمه الذي كان على وشك السقوط إلى حكم ظل خالدا في ذاكرة الأجيال لأسباب عديدة.

ولا يزال هناك أثران باقيان من عهد جستنيان هما كاتدرائية أيا صوفيا St. Sophia (الحكمة المقدسة) في القسطنطينية، ومجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis المعروفة بمجموعة جستنيان، وتعتبر كنيسة أيا صوفيا أعظم منجزات فن العمارة البيزنطى لأن طرازها يخلد الطراز المعماري للكنائس التي صممت في أواخر العصر الامبراطورى على طراز البازيليكا Basilica الرومانية ولكن حجم كاتدرائية أيا صوفيا وخصائصها الكلية جعلت منها واحدة من أبرز إنجازات الفن والهندسة المعمارية في

(٢) كانت أحزاب الملعب مما ورثته الامبراطورية البيزنطية من الامبراطورية الرومانية القديمة، وكانت في البداية أربعة ثم اقتصرت في نهاية الامر على حزبين فقط هما: الخضر والزرقي، وكانت أحزاب الملعب (السيرك) تتمتع بقوة سياسية ضخمة مما حدا بالدولة إلى تعيين عدد كبير من الموظفين على رأس كل حزب يتولى انتخابهم عدد من الأثرياء الذين ينفقون على مؤسسات التدريب والسياسة، فضلاً عن ألعاب الديبة والكلاب والألعاب البهلوانية التي كانت تجرى أثناء الاستراحة. وكان الحزبان يمثلان خليطاً عجيباً من الانتماءات السياسية والاجتماعية والدينية فضلاً عن الرياضة، وقد أثار النزاع بينهما كثيراً من الاضطرابات، وفي بداية عهد جستنيان حاول أن يسيطر على زمام الأمور بإخماد الاضطرابات التي يسببها الزرق والخضر، وحين حاول وإلى بيزنطة أعدام سبعة من الحزبين لاشتراكهم في بعض الحوادث ثارت ثورة الحزبين فاتحداً سوياً وتحدياً الامبراطور، وسرعان ما اشتعلت نيران الثورة التي اتخذ المشاركون فيها كلمة Nika اليونانية (ومعناه أنتصر) لتكون كلمة السر، وقد عرفت هذه الحركة باسم ثورة نيقا نتيجة لذلك.

وكان الأمر يفلت من جستنيان وحاول الهرب ولكن شجاعة ثيودورا التي رفضت الهرب جعلت زوجها يتدارك الموقف فأمر جنوده بالقضاء على الفتنة، كما قدمت رشوة للزرقي لكي يتخلوا عن الخضر، وانتهت المذبحة التي استمرت حتى منتصف الليل بمقتل حوالي ثلاثين ألفاً من الحزبين وكانت ضربة لم يلق منها الزرق والخضر أبداً.

لمزيد من التفصيل أنظر موس: ميلاد العصور الوسطى (ترجمة عبد العزيز جابري، الألف كتاب ٦٢٢) ص ١٤٩ - ١٥٢، أومان، الامبراطورية البيزنطية (ترجمة د. مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٢) ص ٥٩ وما بعدها.

(المترجم)

العصور الوسطى . إذ أن داخل هذا البناء الفخم مزين بقسيفساء يصور الإمبراطور فى صورة ممثل الرب على الأرض، بشكل يجعل منها ذعاية لعقيدة الحكم الامبراطورى . وفى السنوات الأخيرة فقط أزيلت الطبقة التى كانت تغطى القسيفساء والتى كان الأتراك قد وضعوها؛ وهو الأمر الذى أدى إلى تسهيل تقدير المهارة والموارد التى سخرت لبناء الكنيسة الكبيرة التى افتتحها جستنيان. كذلك شيد جستنيان كنيسة سان فيتالى St. Vitale فى رافنا، وهى أيضا كنيسة لافتة للنظر بسبب قسيفسائها الفخم.

ومن بين جميع أعمال الأباطرة، تعتبر مجموعة القانون المدنى أفضل وأهم الأعمال المعروفة من حيث تأثيرها على الحضارة. وربما تكون مجموعة جستنيان هذه هى الإنجاز الرائد فى تاريخ التشريع، وهى ليست أكثر من عملية لصياغة التاريخ القانونى لامبراطورية كبرى على مدى قرون عديدة فى مجلدات قليلة. ولم يكن من المستطاع أن يتم إنجازها سوى برعاية إمبراطور يؤمن إيمانا راسخا بأنه « ليس هناك ما هو أجدر بالاهتمام من سيادة القانون ». ويرحب بتكريس كل الموارد المتاحة فى نواته من أجل بدء هذا العمل الضخم وإنجازه. وكلف جستنيان أعظم مشرعى الامبراطورية لعمل مجموعته، ووضع أمامهم برنامجا لإعداد مجموعة تضم جميع القوانين الرومانية على أساس من المنطق والترابط ومبادئ العدل وكل ما يدعم السلطة الامبراطورية. ومجموعة جستنيان تحبذ الحكم المطلق إلى حد بعيد فالامبراطور يعتبر بمثابة القانون الحى ، كما أن لإرادته قوة القانون التى لا تقبل التحدى « فالامبراطور وحده هو الذى يستطيع أن يضع القوانين ولا يجب أن يفسرها سواه » . وتتناقض مجموعة جستنيان القانونية تناقضا جذريا مع قانون الشعب الجرمانى من حيث أن هذه المجموعة تركز السلطة الاوتوقراطية، ومن حيث ما تنقسم به من عقلانية وتنظيم، ومن حيث مبادئها السامية عن العدالة والمساواة، ومن حيث التزامها بنظام الاجراءات القانونية التى تبرز سلطة القاضى فى المحكمة باعتباره ممثلا للامبراطور.

ولم تكن مجموعة جستنيان تدرس فى الغرب فى العصور الوسطى الباكرة ولكنها صارت أساسا لجميع النظم التشريعية فى البلاد الأوربية، باستثناء إنجلترا، بعد منتصف القرن الحادى عشر ، حقيقة أن قبول الغرب للقانون الرومانى على هذا النحو قد جلب نتائج سياسية سيئة - لأنه وضع الأساس القانونى للحكم المطلق الذى عرفتة العصور الوسطى المتأخرة، وأوائل العصر الحديث - إلا أن خصائص مجموعة جستنيان الأخرى تتفق كثيرا مع الاتجاهات التحررية والعقلانية. وهو ما جعل من هذه المجموعة نظاما قانونيا لا يبارى. فضلا عن أنه ينبغى علينا أن نتذكر أنه إذا كانت مجموعة جستنيان قد روجت لمبادئ الحكم الوتوقراطى الامبراطورى الرومانى - البيزنطى، فمن غير المحتمل أن يكون هناك أحد غير الحاكم المطلق يمكن أن تتوفر لديه الموارد والسلطة الكافية لانجاز مثل هذا العمل القانونى الهام. ومن خلال النظام القانونى العظيم الآخر فى تاريخ الثقافة الغربية، وهو القانون الانجليزى العام، تتجلى الحقيقة التى تؤيد هذا القول، بل إننا فى العصر الحاضر لانعتد بدرجة جميع القانون العام إذا ما قارناها بما بذله جستنيان فى سبيل انجاز هذه المجموعة القانونية ، واضفاء الصفة العقلانية عليها منذ ثلاثة عشر قرنا مضت.

ومن الممكن أن تكون كنيسة أيا صوفيا ، ومجموعة القانون المدنى أثارا كافية لأغلب الحكام؛ ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لجستنيان، ذلك أن جستنيان لم يهدأ حتى صار حاكما على المدينة الخالدة (روما) لعدة زسباب؛ أولا : تقاليد الحكم الاتوقراطى الامبراطورى . ثانيا : أن جو البلاط المحموم الذى كان يقدر الامبراطور قد رفعه إلى مرتبة نائب الجلالة السماوية. ثالثا : طموح جستنيان اللامحدود. ولم يرد على بال الإمبراطور على الإطلاق أى تساؤل عما إذا كانت مثل هذه الحرب المرهقة لاسترداد الغرب فى صالح شعبه ورفاهيته أم لا. وذلك لأن هذه لم تكن طريقة الأباطرة البيزنطيين فى التفكير . بل إن جستنيان لم يفكر حتى فيما إذا كانت بيزنطة تملك من المواد ما يكفى لشن هذه الحرب

الباهظة التكاليف لاستعادة الغرب، وتجاهل تهديد الجرمان والسلاف والمغول على جبهة البلقان الامبراطورية الفارسية في الشرق لآمن الامبراطورية . ولما كانت أطماع وتهديد القوط الشرقيين قد أثارت حفيظته فقد صمم جستنيان عند اعتلاء العرش على إعادة فرض سلطته « على البلاد التي كان الرومان القدامى يملكونها، حتى حدود المحيطين، والتي ضاعت بسبب « الالهال المتوالي »، وأن إمبراطورا يزعم في مجموعته القانونية الكبيرة أنه « التقى المحظوظ ذو السمعة الحسنة، الفاتح ، المنتصر والمقدس إلى الأبد » ليس بالرجل الذي يحسب للفشل حسابا ، لقد أرسل جيشه وأسطوله لغزو شمال أفريقيا بعد سنوات ثلاث فقط من توليه العرش « معتمداً على عناية الثالوث المقدس ».

وحتى قبل أن يرهق جستنيان موارد امبراطوريته العسكرية والاقتصادية في ميادين المعارك بايطاليا ، فإنه كان قد حفر بسياسته الدينية مقبرة النفوذ البيزنطى . فمنذ القرن الرابع أخذ أباطرة بيزنطة يتعرضون للعتاب بسبب المشكلات الدينية، واستطاع ثيودوسيوس الكبير أن يقضى على المذهب الأريوسى، ولكن مذاهب لاهوتية مخالفة جديدة استطاعت أن تستحوذ على تأييد كبير في مصر وسوريا خلال القرنين الخامس والسادس، وكانت هذه المذاهب مستوحاة من الفلسفة الأفلاطونية من جهة، ومن الشعور الوطنى الذى وجد متنفسا فى العقيدة من جهة أخرى. فقد تطلت جموع كبيرة من أبناء مصر وسوريا عن المذهب التقليدى فى التجسد ، وأخذوا بالمذهب المونوفيزيتى Monophysite (مذهب الطبيعة الواحدة)، الذى يزعم أن للمسيح طبيعة روحية واحدة، وكان هذا الرأى ملعونا فى نظر الكنيسة اللاتينية فى الغرب لأنها كانت تؤمن بأن فى شخص المسيح طبيعتين، احدهما إنسانية ، والثانية إلهية. هذا النزاع الدينى بين الكنيسة اللاتينية من جهة، ومسيحيى مصر وسوريا من جهة أخرى، وضع الامبراطور فى موقف صعب للغاية. فإذا كان يريد أن يحوز رضا ولاء البابا - الذى بدونه يتضائل أمله فى

استعادة سلطانه على ايطاليا - فانه لا يستطيع موافقة المونوفيزيتيين على رأيهم : ومن ثم أرغم الامبراطور اساقفة الشرق في مجمع خلقدونية Chalcedon، الذي انعقد سنة ٤٥١، على قبول مذهب الكنيسة اللاتينية في طبيعة المسيح بالصورة التي طرحها البابا ليو الأول. بيد أن هذا لويحل المسألة موضع الخلاف على أية حال، وفي أواخر القرن الخامس انحاز الإمبراطور إلى جانب المونوفيزيتيين، مما جلب عليه سخط البابا جيلازيوس الأول، وأثناء الأعداد لغزو ايطاليا في عشرينيات القرن السادس، عاد الامبراطور جستين الأول إلى تأييد وجهة نظر الكنيسة الغربية حتى يضمن تأييد البابا له ضد القوط الشرقيين.

وواصل جستينيان سياسة خاله، ولكن ذلك لم يكن أنطلاقاً من الأسباب السياسية ذاتها، ذلك أنه اعتقد ، بوصفه واحداً من رجال اللاهوت المتوسمين، أن المونوفيزيتيين على خطأ، وكان قراره هذا مبنياً على أسس مذهبية. وقد شن حملة إضطهادات قاسية ضدهم استمرت طوال حكمه وحكم خلفائه. وكانت النتيجة أن ساد السخط في المدن الكبرى في مصر وسوريا اللتين كانتا أهم أجزاء الامبراطورية وأكثرها قيمة بعد القسطنطينية، وبنهاية عهد جستينيان كان أتباع مذهب الطبيعة الواحدة المضطهدون قد تخلوا عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية. وأمست مصر وسوريا غنيمة سهلة لأي فاتح يبدى تسامحه تجاه المعتقدات الدينية لكنائس شرق البحر المتوسط المخالفة. وأياً ما كان يمكن أن يقال عن آراء جستينيان المذهبية من وجهة النظر اللاهوتية الخالصة فإن هذه الآراء قد جرت المصائب على وحدة الامبراطورية وأمنها، على حد قول المؤرخ الكبير بيوري J.B.Bury الذي كتب عن تاريخ بيزنطة، فقد علق على سياسة جستينيان الدينية بقوله : « أن وجود رجل لاهوت على العرش يمثل خطراً عاماً ».

وهكذا كانت الآثار البعيدة المدى لمنازعات جستينيان مع المونوفيزيتيين في غير صالح السلطة البيزنطية والنقوذ البيزنطى . فقد سهلت هذه المنازعات من إمكانية فتح

إيطاليا بسبب المساعدات التي قدمتها البابوية للجيش الامبراطورى ، والحقيقة أن جستنيان، فى بداية حكمه، مضى شوطا بعيدا فى سبيل كسب البابا إلى جانبه؛ فقد أصدر مرسوما يعترف بفصل الاختصاصات التشريعية للكهنة Sacredatum عن الاختصاصات الامبراطورية Imperium. وكان من الطبيعى أن يتخلى جستنيان عن قبوله للنظرية الجيلازية على هذا النحو وأن يرجع كلية إلى سياسة القيصرية - البابوية التى كانت سياسة بيزنطية تقليدية. ولكن سنة ٥٢٠ كان جستنيان على استعداد لأن يخاطر بكل شئ، فى سبيل نجاح مغامرته الكبرى. وكان على استعداد لأن يخاطر بكل موارده العسكرية والاقتصادية فى سبيل استعادة روما، وكان مستعدا لأن يعادى جموعا كبيرة من السكان فى أكثر مدن الامبراطورية؛ بل وأن يتغاضى عن عقائد البابوية السياسية. وهكذا تعلق مصير كل من بيزنطة والغرب الأوروبى على نجاح هذه المقامرة الكبرى.

كانت المرحلة الأولى من الغزو البيزنطى للغرب اللاتينى سهلة أمام الجيوش البيزنطية. فقد هزمت قوات جستنيان، تحت قيادة القائد العبقري بلزاريوس Belisarius، مملكة الوندال فى شمال أفريقيا فى سنة ٥٣٣. وفى سنة ٥٣٣ كان بلزاريوس مستعدا لعبور البحر المتوسط إلى إيطاليا. ورحب أسقف روما بالغزاة البيزنطيين، وتخلّى السكان الايطاليون والبابا عن حكامهم من القوط الشرقيين الأريوسيين. وكان القوط الشرقيون قد فقدوا ملكهم ثيودوريك، ولم يكن هناك زعيم مثله يقودهم من بعده؛ بيد أنهم، على عكس الوندال ، لم ينسوا كيف يكون القتال . وكان من شأن أى انتصار عسكري سريع فى إيطاليا أن يجعل من خطة جستنيان حقيقة واقعة، وأن يعيد عقارب الزمن إلى القرن الرابع (٢).

(٢) الحقيقة أن مسألة إعادة الزمن فى العملية التاريخية أمر مستحيل. وذلك أن الزمن فى صيرورة دائمة، ومن ثم فإن اللحظة التاريخية التى تنقضى إنما تضى الأبد. وهذا هو السبب فى عدم إمكانية أن يصبح التاريخ علما تجريبيا على نحو ما أراد العلماء الذين تأثروا بلورجانون فرنسيس بيكون فى العلوم الطبيعية، الذى حل محل أورجانون أرسطو. ومن ناحية أخرى فإن الزمن فى صيرورته يضيف جديداً إلى الخبرة الانسانية والتراث الانسانى، ومن ثم يصبح الانسان فى عصر ما مختلفاً عنه فى عصر آخر. فانسان القرن الرابع وظروف القرن الرابع تختلف بالضرورة عن انسان القرن السادس وظروف القرن السادس. ولذا فإن ما يقوله كانتور من أن انتصار بيزنطة السريع فى إيطاليا، لو حدث كان سيعيد عقارب الزمن إلى الرابع قبل مريد. وفى تصورنا أنه ربما يريد القول بأن القضاء على مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا كان سيجعلها جزءاً هاماً فى الامبراطورية كما كانت فى القرن الرابع.

وبدلاً من أن يحدث ذلك انقضت حوالى ثلاثين عاماً حتى تمكن البيزنطيون من القضاء على مقاومة القوط الشرقيين. وقد عرفت هذه الحرب التى دمرت اقتصاد إيطاليا بالحرب القوطية . إذ عانت إيطاليا من ضربة قاصمة لم تفق منها حتى القرن العاشر. وبمنتصف القرن السادس حدث انهيار ملحوظ فى الحياة الحضرية؛ فقد كانت كبريات المدن الإيطالية مثل روما ونابولى وميلانو تعاني من نقص مخيف فى السكان، وتحولت مدن البحر المتوسط الكبرى إلى مدن خاملة. وفى سنة ٥٠٠ كتب أحد المعاصرين بقول: « لم يبق لسكان إيطاليا شيء سوى الموت ». وتعتبر الحرب القوطية بمثابة نقطة التحول الحاسمة فى تاريخ إيطاليا الاقتصادية والاجتماعى فى العصور الوسطى الباكزة، ذلك أن هذه الحرب كانت تدهورا وانهارا يفوق فى نتائجه الغزوات الجرمانية التى حدثت فى القرن الخامس كثيراً. لقد تدهورت إيطاليا بسرعة، وفقدت مكانتها كزعيمة لأوروبا على الصعيد الثقافى والاقتصادى . ولم تبدأ فى استرداد هذه المكانة إلا فى أواخر القرن الحادى عشر.

ولقد كانت الحرب القوطية الطويلة كارثة كبرى بالنسبة لكل من الدولة البيزنطية وإيطاليا. إذ أن جستنيان قد اضطر، فى سبيل تنفيذ سياسته الاستردادية، إلى إعادة فرض الضرائب التى كانت تفرضها الامبراطورية الرومانية، ولكن فى صورة أسوأ، مما أدى إلى أرهاق موارد دولته وحين انتهى حكمه سنة ٥٦٥، كان أعضاء البلاط الامبراطورى - الذين كانوا يعتبرونه أعظم الأباطرة فى بداية عهده - يكرهونه مثل المونوفيزيتيين المضطهدين فى مصر وسوريا. وقد عبر بروكوبيوس Procopius، الذى كان سكرتير بلزارىوس فى كتاب « التاريخ السرى » عن هذا السخط الواسع الذى عم كل أرجاء الامبراطورية. فى هذا الكتاب تبدو صورة الامبراطور الذى شيد كنيسة آيا صوفيا، وأنجز مجموعة القانون المدنى، فى صورة رجل « ... غشاش منحرف. مزيف. مولع بسفك الدماء والسلب والنهب، مضاد، جبار، لأمان له، وعدو متآمر يرتج عقله بالقتل والتخريب » وتعكس افتراءات بروكوبيوس رد الفعل الحتمى من قبل شعب

مرهق مدمر، تجاه القائد الذى تسببت سياسته البالغة الطموح فى جر. هذا الشعب إلى الكارثة .

وفى الوقت الذى كان جستنيان ينفذ حملاته الكبرى فى أفريقيا ، فإنه لم يفعل شيئاً لكى يقلل من قوة الأعداء المتأخمين لحدوده، وترك لخلفائه مهمة النضال اليائس ضد الفرس على الحدود الشرقية، وضد هجمات قبائل المغول والسلاف والجرمان التى كانت تضغط على دفاعات الحدود الامبراطورية فى البلقان. وأخيراً ، قرر الامبراطور هرقل الأول Heracius I (٦١٠ - ٦٤١) انتهاج سياسة جديدة لانقاذ الامبراطورية فسمح للبلغار - إحدى قبائل الهون - ولخلفاء الشعوب السلافية أن تستوطن البلقان مقابل إتاحة رمزية، واحتفظ الامبراطور بحافة شبه الجزيرة فيما حول القسطنطينية فقط تحت سلطانه، ونتج عن ذلك أن تغير التركيب البشرى لعناصر السكان فى البلقان بصورة كانت كافية لانقاذ القسطنطينية وأسيا الصغرى من الفرس، وقد نجح فى ذلك، إذ أنه الحق بالامبراطورية الفارسية، التى ظلت مصدر تهديد لروما على مدى عدة قرون ، هزيمة ساحقة نتج عنها أن تدهورت أحوال الدولة الفارسية (١).

كان هرقل الأول واحداً من أعظم أباطرة بيزنطة وأسوأهم حظاً فى الوقت نفسه، فقد أنقذ الامبراطورية من الدمار؛ بل وبدأ يرتب لاعادة تنظيم الدولة وإحيائها . ويمكن القول أيضاً بأنه أنقذ أوروبا من الفرس، ذلك أنه لو كانت القسطنطينية قد سقطت فى يدى عدوها الشرقى، لم يك هناك ما يحول دون تقدم الفرس داخل إيطاليا. ولكن حين مات هرقل سنة ٦٤١ كانت هناك قوة جديدة أخذت فى الظهور؛ هى قوة المسلمين الذين انطلقوا

(١) تمكن هرقل الأول، بعد عدة حملات قام بها ضد الفرس فى أسيا الصغرى وبلاد النهرين، أن يحطم القوة العسكرية الفارسية، بل وأن ينهى حكم الأسرة المالكة القائمة فى فارس. فقد تمكن من استرداد مدينة بيت المقدس سنة ٦٢٩ من أيدي الفرس، كما أستعاد منهم صليب الصليبات أو الصليب الأعظم، وطارده الامبراطور الفارسى المهزوم حتى نينوى مما سبب ثورة الجيوش الفارسية على كسرى وخلعه ثم قتله بعد تعذيب طويل.
انظر: موسى، ميلاد المصور الوسطى، ص ٢٢١ و ص ٢٢٦؛ ج-م هسى العالم البيزنطى (ترجمة د. رأفت عبد الحميد - القاهرة ١٩٧٧) ص ١٢١ - ٢٢١

من شبه الجزيرة العربية . وبنهاية العقد الرابع من القرن السابع كان العرب قد فتحوا بلاد الشام، ومضوا فى سبيلهم إلى فتح فارس ومصر، وبعد ذلك بثلاثين عاما اكتسحوا سواحل البحر المتوسط وفتحوا الشمال الافريقى بأسره .

وهكذا سقطت أغنى أجزاء الامبراطورية وأكثرها سكانا، خلال قرن بعد جستنيان، فى أيدي سادة البحر المتوسط الجدد، ومن الضروري أن نوافق بيورى فى حكمه القاسى بأنه « اذا كان هناك رجل يمكن اعتباره مسئولاً عن تفكك الامبراطورية الشرقية على هذا النحو، فإن هذا الرجل هو الامبراطور العظيم جستنيان » . فقد تفرق الشرق بسبب المسائل المذهبية نتيجة لسياسته الدينية، وأشاحت كل من مصر وسوريا بوجهها بعيدا عن القسطنطينية، ولم تهتما بمقاومة الفاتحين المسلمين الذين تسامحوا معها عملا بحرية العقيدة، فضلا عن أن جستنيان كان قد أودى بموارد الدولة البيزنطية؛ لدرجة أن خلفاءه لم يجدوا ما يكفى من الرجال أو المال للحفاظ على الحدود الشرقية ، وفى بداية الأمر تخلى الامبراطور عن البلقان للبلغار والسلاف، ثم مالبت المسلمون أن أستولوا على جميع أملاك بيزنطة عدا القسطنطينية وآسيا الصغرى،

وفى إيطاليا، لم يكن رد الفعل الناتج عن أعمال جستنيان شاملا ومدمرا مثلما كان فى الشرق، ولكن رد الفعل جاء فى إيطاليا أسرع منه فى الشرق، إذ لم تكد تدخل تحت حكم الإدارة البيزنطية حتى اندفع شعب جرمانى جديد عبر الدانوب ليفز شمال إيطاليا فى سنة ٦٨٥م؛ وهو شعب اللونجبارديين Logobardi أو اللمبارديين Lombardi الذين كانوا من أكثر الغزاة الجرمان بدائية وممجية، والحقيقة أنه لم يكن قد مضى على موت جستنيان أكثر من سنوات ثلاث، حتى أقام هؤلاء الغزاة دولة تختلف تمام الاختلاف عن مملكة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين،

غير أن اللمبارديين لم يحكموا كل مناطق ايطاليا ، إذ أنهم بسطوا سيادتهم على

البلاد الواقعة شمال روما، باستثناء قلعة رافنا التي بقيت فى أيدي البيزنطيين حتى منتصف القرن الثامن. وظلت معظم الأراضى الواقعة جنوب روما تحت حكم القسطنطينية؛ على الرغم من أن اللمبارديين احتفظوا ببعض المراكز الخلفية فى الجنوب أيضا. كما أستولى المسلمون على جزيرة صقلية فى القرن السابع. وهكذا قدر لإيطاليا أن تقسم بين حكام أربعة هم : البيزنطيين والبابا، والمسلمين ، واللمبارديين، ولم تتوحد مرة أخرى سوى فى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر.

ونظم اللمبارديون أنفسهم فى دوقيتين أو ثلاث دوقيات كبيرة، وعدد قليل من الإمارات الأصغر حجما .. ولم يهتم اللمبارديون بالثقافة الرومانية والنظام القضائى الرومانى، ولم يكن لدى البيزنطيين الوقت الكافى لنشر مجموعة جستنيان القانونية فى إيطاليا. كما فعل الفرنجة الأوائل.، مما أدى إلى أن يبقى القانون الرومانى فى موطنه كمجرد قانون عرقى توارثته أجيال الايطاليين ، كما اختلط بالقواعد العرفية التى جاء بها قانون الشعب اللمباردى. وفضلا عن انحطاط اللمبارديين فى مجال السياسة والقانون، فإنهم بقوا (فى أغلبهم) على المذهب الأريوسى على مدى قرن من الزمان بعد غزوهم شمال ايطاليا. ومن ثم فإنه لم تكن هناك أية علاقة بينهم وبين الكنيسة والبابوية . والواقع أن البابا كان يعتبر الدوقات اللمبارديين أعداءه الألداء حتى القرن الثامن. وربما لم يكن هناك شعب من الشعوب الجرمانية يضارع الشعب اللمباردى المتخلف فى شألة ما قدمه للحضارة الغربية. ذلك أنهم لم يسهموا فى الحياة الايطالية سوى بإسمهم ودمائهم فحسب؛ فقد ترك أسمهم أثره على جغرافية شمال ايطاليا السياسية بينما أختلطت دماؤهم بدماء أهل شمال ايطاليا مما جعل البنية الجسدية للايطاليين الشماليين مختلفة عن سيماء البحر المتوسط التى تميز أهل الجنوب . ولم يكن لدى اللمبارديين سوى حسنات ضئيلة يمكن أن تعوض سياسة التعايش Civilitas التى كان ثيودوريك ينتهجها . ولم يكن جستنيان يقصد،

طبعاً، أن يحل الحاكم اللمباردى محل حكم القوط الشرقيين فى إيطاليا، ولكن المخاطرة التى أخذها جستنيان على عاتقه، فى سياق سياسته إزاء الجزء الشرقى من امبراطوريته، كانت جسيمة لدرجة أن الفشل الناتج عنها تحقق فعلاً فى ظل ظروف أسوأ من تلك التى كانت سائدة فى بداية حكمه.

وبعد جستنيان لم تتوفر أبداً للباطرة البيزنطيين القوة اللازمة لإعادة بناء الامبراطورية الرومانية. فقد جعل المسلمون بيزنطة ملتزم موقفاً دفاعياً بسبب هجماتهم المتكررة؛ مما جعلها تبتعد رويداً رويداً عن أوروبا لتدخل فى نطاق حضارة خاصة بها. وتعتبر مجموعة قوانين جستنيان آخر أثر بيزنطى كبير يكتب باللغة اللاتينية، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أخذت حضارة الامبراطورية الرومانية الشرقية تصبح مزيجاً من عناصر يونانية وبلقانية وشرقية متميزة.

لقد أوضح فشل جستنيان أمام أهل الغرب أن إعادة توحيد الامبراطورية الرومانية بشكل فعال أمر غير ممكن بسبب الغزوات الجرمانية، وكان جستنيان - أعظم الباطرة الرومان منذ قسطنطين - هو اللعنة التى أنزلتها الأقدار بالسلطة البيزنطية. فقد انصرفت أوروبا عن القسطنطينية منذ أواخر القرن السادس، وخلال القرن السابع، ولم تعد شعوب أوروبا تتطلع إلى أباطرة بيزنطة وإلى الحضارة البيزنطية، الغربية عنهم، إلتماساً للقيادة والتوجيه، وهكذا تمثلت نتائج أعمال جستنيان بالنسبة لأوروبا القرنين السادس والسابع فى ظهور رجال الغرب ونظمه من خلال أحداث تلك المرحلة. لقد عاد الغرب إلى الاعتماد على موارده، وكان عليه أن يكتشف قيادته من بين صفوفه نفسها. فقد تولت الكنيسة والبابوية زمام القيادة، وبجانبها المؤسسات الديرية، والملكية الفرنجية، وتسبب التحالف القصير الأجل بين البابوية والامبراطورية فى الكارثة التى حلت بإيطاليا فى نهاية المطاف، وبقي أن نرى ما إذا كان باستطاعة التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية أن يؤتى ثماراً أفضل.

٢ - تأثير الاسلام على أوروبا

فى العصور الوسطى المبكرة

كان انتشار الاسلام عاملا حاسما فى تشكيل تاريخ العصور الوسطى. ذلك أنه أدى إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاث هى : البيزنطية، والأوربية والاسلامية، وكان اللقاء والتفاعل بين هذه التجمعات الثقافية، والاقتصادية، واللغوية، والدينية الثلاث واحدا من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى. فقد كانت كل من هذه الحضارات الثلاث وريثة للامبراطورية الرومانية المتأخرة بدرجة أو بأخرى، إذ كانت بيزنطة تمثل الاستمرارية المباشرة للقانون والادارة والفكر الرومانى، كما ورثت أوروبا الغربية جوانب كثيرة من التراث الرومانى، على حين استوعب العالم الاسلامى بعض جوانب التنظيم الرومانى وأفضل جوانب الفلسفة والعلوم اليونانية والرومانية، وعلى الرغم من هذا؛ فإن الحضارة الاسلامية تدين بالكثير للتراث الشرقى، لاسيما تراث مصر وفارس، وقد أثرت الحضارة الشرقية فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة أيضا، ولكن الحضارة الاسلامية كانت أكثر حضارات العصور الوسطى احتكاكا بالتراث الشرقى.

وكان انتصار الاسلام على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فى القرن السابع الميلادى نتيجة لآخر وأنجح محاولات القبائل العربية للتوغل فى عالم البحر المتوسط. فقد كانت جماعات البدو القاطنين فى صحراء بلاد العرب يقومون بغزوات دورية للهلال الخصيب منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، ولم يكن ظهور العبرانيين فى فلسطين سوى نتيجة لواحدة من أمثال هذه الاندفاعات صوب الشمال . وقد حال التنظيم الذى فرضه الحكم الرومانى على عالم البحر المتوسط دون أى غزو واسع النطاق من جانب العرب، كما أن الامبراطورية البيزنطية قد نجحت حتى مطلع القرن السابع فى صد هجرات قبائل الصحراء صوب الشمال^(٥).

(٥) قامت فى منطقة جنوب فلسطين ، أو بادية الشام، عدة دويلات عربية على مر الأزمنة. وقد لعبت هذه الدويلات دورا هاما =

إذن ماهو الفرق الذى يمكن أن نتبينه فى هذا الغزو العربى الجديد الذى حقق نجاحا كبيرا ؟ أولا، أن الهجوم الاسلامى على عالم البحر المتوسط جاء فى وقت كانت فيه الامبراطوريتان اللتان يمكنهما سد طريق الهجرة والفتح إما ميتة، وإما منهكة. فقد كان هرقل الأول قد فرغ لتوه من تدمير الامبراطورية الفارسية؛ بيد أن الموارد العسكرية البيزنطية كانت قد استنفدت تماما. ولم تستطع الجيوش الامبراطورية أن تصمد طويلا أمام العرب، فضلا عن أن أكثرية جماهير المصريين والسوريين كانت قد تخلت عن ولائها للامبراطورية بسبب السياسة الدينية التى انتهجها الامبراطور الارثوذكسى، وهذه الكراهية أغضبت هرقل فشن حملة اضطهادات واسعة ضد اليهود الذى كانوا يؤلفون قسما هاما من سكان الاسكندرية وانطاكية وغيرها من المدن الشرقية الكبرى، وفى ظل هذه الظروف، لم يكن أمام العرب إلا أن ينجحوا بشرط أن يتوفر لهم الحد الأدنى من الوحدة والتنظيم.

ولأول مرة تتجمع قبائل الصحراء المتقاتلة تحت لواء دين واحد وزعامة دينية واحدة. ومن هنا وفر السلام العالم الأساسى الذى جعل من الممكن للعرب أن يفتحوا، بسرعة، أغنى ولايات الامبراطورية الرومانية الشرقية. ومنذ زمن بعيد تم لحض وتقنين الأسطورة التى تزعم بأن العرب اندفعوا بأسيف فى يد والقرآن فى اليد الأخرى؛ يخبرون شعوب

في حماية حدود الشام الجنوبية من غارات بدو شبه الجزيرة الذين دأبوا على مهاجمة هذه المناطق . فقد قامت دولة الأنباط التى بلغت أوج ازدهارها فى القرن الرابع قبل الميلاد، ثم خضعت للحكم الرومانى حين فتحها كورينيوس بالما حاكم ولاية سوريا فى عصر الامبراطور تراجان، وصارت ولاية رومانية عرفت باسم الولاية العربية Provincia Arabia = حكما قامت فى هذه الانحاء مملكة تدمر التى تحولت إلى مستعمرة رومانية أيضا فى أواخر القرن الثانى الميلادى. وأهم حكامها هى الملكة « زنوبيا » أو « الزباء » التى نسجت حولها قصص خيالية كثيرة، وقد تمكنت هذه الملكة من أن تهزم الجيوش الرومانية وأن تستولى على مصر فى النصف الثانى من القرن الثالث، ولكن الفرق الرومانية تمكنت من القضاء على جيش تدمر سنة ٢٧١ واحتلت المملكة. وكانت امارة الفساسنة، فى منطقة شرق الأردن الحالية آخر هذه الدويلات العربية على حدود الشام الجنوبية ، وقد ظلت هذه الامارة قائمة حتى الفتح الاسلامى. وكانت هناك معاهدة دفاع مشترك - بتعبيرنا المعاصر - بين هذه الامارة وبين الامبراطورية الرومانية، بيد أن العلاقات بين الجانبين أخذت تتدهور منذ عهد الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) . وظلت امارة الفساسنة تتدهور بشكل مطرد حتى طرقتها جيوش المسلمين. من هذه الدويلات العربية. انظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام (الاسكندرية ١٩٧٤) ، أحمد أمين، فجر الاسلام (القاهرة ١٩٢٨) .

البحر المتوسط بين اعتناق الاسلام أو الموت. فالحقيقة أن المسلمين تسامحوا مع من قهروهم من المسيحيين واليهود ، ولم يفرضوا سوى ضريبة الجزية وبعض القيود على الحقوق السياسية لأولئك الذين لم يعترفوا بأن محمدا عليه الصلاة والسلام نبي الله (٦). وهكذا لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الاسلام.

وقد اقترح بعض العلماء سببا آخر للتوسع العربى، هو الضغط الاقتصادى الناجم عن الجفاف المطرد، وتدهور خصوبة التربة فى شبه الجزيرة العربية. إلا أن معلوماتنا عن أحوال شبه جزيرة العرب فى حياة محمد عيه الصلاة والسلام قليلة للغاية. فقد كانت هناك مدن تجارية هامة قليلة من بينها مكة التى كانت أكبر هذه المدن وأكثرها رخاء. إذ كانت التجارة العالمية تحمل بطريق البر إلى الشرق وتمر بهذه المدن كما أن طرق القوافل الكبرى امتدت عبر شبه الجزيرة . وكانت هناك بعض المناطق التى ازدهرت فيها الحياة الحضرية والزراعية فى شبه جزيرة العرب، وعلى أية حال ، تبقى الحقيقة القائلة بأن الجزء الأعظم من شبه الجزيرة كان صحراويا، وأن غالبية السكان كانوا من القبائل البدوية.

(٦) حدد الاسلام موقفه بشكل واضح من اليهود والمسيحيين، أو أهل الكتاب، وغيرهم من أهل الذمة فى آيات القرآن الكريم (أنظر على سبيل المثال سورة آل عمران : آية ٦٤، والبقرة : آية ٢٥٦ ، والشورى : آية ١٥ وآية ١٣٧ ، والمنكوت : آية ٤٦) إذ يتضح من نصوص الآيات القرآنية، وهى المصدر الأول للتشريع الاسلامى، أن موقف الاسلام متعدد بشكل حاسم فيما يتعلق بالدعوة إلى الاسلام، إذ يجب أن تكون الدعوة طيبة تخاطب الناس فى رفق لمحاولة إقناعهم لا إكراه، فيها ولا تهديد ولا تجب مجادلة أهل الكتاب « إلا بالتى هى أحسن » فإن آمنوا فقد آمنوا، وإن تولوا فإن الأمر متروك لله سبحانه وتعالى.

أما الجزية التى أشار إليها كانتورد على أنها ضريبة رأس فليست فى حقيقة الأمر سوى ضريبة دفاع، على حد تعبيرنا المعاصر. ذلك أنها مقابل مادي لما ينعم به أهل الذمة من حماية فى دار الاسلام، وليست ضريبة رأس مثل تلك التى تفرضها الجيوش الغازية على الشعوب المغلوبة. فثمة اختلافات هامة وجوهرية بين « الجزية » و « ضريبة الرأس » صحيح أن كلا منهما قد فرضت على الفرد - وهو سبب الخلط بينهما - ولكن شروط الجزية واختلاف تقديراتها حسب الظروف الاقتصادية لدفعها تميزت بطابع انساني، إذ راعت إعفاء النساء والأطفال والشيوخ فضلا عن غير القادرين على الكسب، كما أعطى منها الرهبان بشرط انقطاعهم فى أديرتهم ، كذلك كان من الممكن تأجيل تحصيلها من المعسر حتى تتحسن أحواله. زد على ذلك أن الجزية حزة من اتفاق عقد الذمة الذى هو التزام متبادل بين طرفين، ففى مقابل هذه الضريبة يجب على المسلمين حماية أهل الذمة وحماية أموالهم، وتعرضهم عما يتلف من ممتلكاتهم كما تكفل لهم حري العقيدة والعلم والتنظيم الداخلى لمواطنهم . وقد نهى الاسلام عن تكليف أهل الذمة مالا قدرة لهم عليه، كما نهى عن ضربهم أو تعذيبهم أو حبسهم بسبب الجزية.

أنظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٧، ص ٢٣ - ص ٢٦). (المترجم)

وقد انعكس هذا الوضع الاقتصادي والاجتماعي على حياة النبي محمد وعلى تعاليمه، فقد كان النبي نفسه من سكان المدن، إذ كان عليه الصلاة والسلام فرداً فقيراً في واحدة من أشهر عائلات مكة وأرقاها، وأشتغل رئيساً لقافلة تملكها أرملة ثرية تكبره بعدة سنوات، وهي السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية التي كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال (٧)، وعلى أية حال، فإن عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم، تعكس الثورة التطهيرية لبدي بسائط ضد الفساد الذي تسببه أخلاقيات المدن، وذلك على نحو مشابه لديانة الانبياء العبرانيين التي قامت على أساس ثورة العناصر الريفية ضد حياة المدن العبرانية المرفهة (٨)، وإسناداً نعرف الكثير غير عن ذلك عن محمد عليه الصلاة والسلام مما يمكن أن يساعدنا على شرح تعاليمه؛ فقد كانت معرفته باليهودية والمسيحية معرفة عابرة من خلال علاقات العمل، وكان جبريل يأتيه بكلمات الله التي ينتظمها القرآن، وعلى عكس المسيح عليه السلام، كان النبي محمد يتمتع بكفاية نادرة كمنظم سياسي وقائد عسكري، وعلى الرغم من أن الأدب العربي قد حفظ لنا معلومات كثيرة عن النبي العظيم، فإن معلوماتنا عن شخصية مستمدة أساساً من الحقائق الواردة في سيرته وفي القرآن الكريم، وتكشف هذه الحقائق عن أنه كان رجلاً صارماً قوياً ورعاً.

ولم يتمكن أي زعيم روحاني آخر أن يدعو إلى دين يعتنقه مثل هذا العدد الهائل من

(٧) أعدنا صياغة الجملة على هذا النحو حتى لا تبدو غريبة على القارئ العربي.

(٨) ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن المؤلف ليس مسلماً ومن ثم فهو ليس مطالباً بأن يؤمن بالرسالة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام، بيد أن هذا لا يمنعنا من أن نتعرض لأرائه بالنقد؛ ولنبداً بكلماته نفسها، فبينما يذكر أن النبي كان من سكان المدن - وهي حقيقة - يحاول تفسير العقيدة الإسلامية على أنها مجرد ثورة تطهيرية لرجل بدوي بسيط، وإذا وضعنا في اعتبارنا أن سكان الجزيرة كانوا، آنذاك، ينقسمون إلى بدو وحضر لكل منها أسلوب حياة يختلف عن الآخر لانتضج لنا مدى التناقض في كلمات كانتور، كما أن الأفكار والمثل والمفاهيم الجديدة التي جاء بها الإسلام كانت جديدة تماماً عن واقع شبه الجزيرة بشكل يجعل من القول بأنها ثورة تطهيرية لبدي بسيط مجرد صياغة فضفاضة خالية من المعاني، إذ كيف يتسنى لهذا البدوي البسيط، وهو ابن بيئته، أن يأتي بمثل هذه الأفكار والمفاهيم التي قامت على أساسها حضارة من أرقى حضارات الإنسان، ومن ناحية أخرى، تحمل كلمات المؤلف إحياءاً بأن هناك تأثيرات يهودية على العقيدة الإسلامية، وهو أمر مردود تماماً نظراً للاختلافات الجذرية بين الإسلام واليهودية على المستوى النظري، والتصاميم بين المسلمين الأوائل ويهود شبه الجزيرة على مستوى الواقع، وعلى الرغم من هذا، فإن المؤلف يتحلى بقدر كبير من الموضوعية تتضح في السطور القادمة. (المترجم)

الناس بمثل هذه السرعة . فالإسلام، من بين كل ديانات البشر الكبرى، هو الوحيد الذي يصلح لأن يكون ديناً للعالمين. فما يقدمه القرآن سهل وبسيط لا يستعصى على الفهم. إذ يصور لنا القرآن رب العالمين الذي يفرض على البشر فروضاً أخلاقية صارمة، ولكنه يعدمهم في الوقت نفسه بالثواب في الحياة الآخرة الخالدة إذا ما أطاعوا فروض الله. فهو سبحانه القوى العليم، إله واحد صمد، لا شريك له، وتبدو فكرة الثالوث المسيحي عند المسلمين إثماً ولعنة وكفراً، كما هي عند اليهود أيضاً. وكذلك فإن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول يبلغ الناس رسالة ربه. ولكنه ليس إلا آخر الأنبياء وأعظمهم « خاتم النبيين ». وهو ليس شريكا لله في قدسيته بأية حال. وفي رأى القرآن أن المسيح مثل إبراهيم، عليهما السلام، أحد الأنبياء العظام الذين مهدوا لمحمد عليه الصلاة والسلام. ولكن محمداً أبعد اللاهوت المسيحي القائل بالثالوث، بما يحمله من تأثيرات قوية للفلسفة الأفلاطونية، من الصحراء العربية تحبيذا للوحدانية الخالصة.

« والاسلام » يعنى الخضوع لمشيئة الله عز وجل، أى أن تسلم وجهك لله حنيفاً، ويفرض الله على البشر مجموعة من الفروض التطهيرية الصارمة. لكى ينالوا الثواب العظيم الذى وعدهم به. فعلى المسلم أن يقيم الصلاة خمس مرات يومياً، وأن يحاول الحج إلى منبع الدين الحق فى مكة مرتواحدة على الأقل فى حياته، اذا استطاع لذلك سبيلا . ويفرض القرآن سلسلة من التنظيمات والترتيبات لحياة المسلم اليومية؛ فعلى المسلم أن يقلع عن شرب الخمر ولعب الميسر، ولا يسمح للمسلم أن يتعامل بالربا، وعموماً فإنه يتعين على المسلم أن يتعامل مع رفاقه من بنى الإنسان وفقاً لاسمى مبادئ الرحمة والعدالة. ويجب على المسلم أن يحسن إلى رفاقه وأن يكون كريماً للغاية فى مساعدة البائسين والمعوزين من الناس. كما يؤكد القرآن على قيمة الحياة الأسرية، وبينما يسمح للمسلم، إذا استطاع، أن يتزوج بأربع زوجات تحت شروط قاسية تكاد تجعل ذلك مستحيلاً، فإن أكثر المبادئ صرامة فى الاخلاقيات الجنسية هى تلك التى يفرضها الاسلام. وأخيراً، فإن على المسلم

أن يضحى بروحه وحياته إذ دعا الداعي للثوب عن العقيدة. ويكون ثواب المسلمين الذين يستشهدون في سبيل الله حياة خالدة في جنات النعيم . ذلك أن الجهاد ركن من أركان العقيدة الإسلامية.

والإسلام هو الدين الوحيد بين ديانات البشر العظمى الذي يطرح أشد النظريات وضوحاً عن الثواب، فإن أولئك الذين يتبعون ما أمر الله به ويتقونه سبحانه وتعالى لهم ثواب الحياة الخالدة والسعادة الباقية. وقد تجنب الإسلام تماماً التيارات المعذبة المضنية التي أثارها تيار بولس - أوغسطين في الفكر المسيحي عن الثواب؛ بل إنه خلا من الشكوك التي عكرت الفكر العبراني أحياناً حول الثواب، كما يتضح في « سفر أيوب »، وفضلاً عن ذلك فإنه في الوقت الذي يتسم المفهوم العبراني عن السماء، حيث الحياة الآخرة، بالغموض والإبهام ، ويبدو فيه المفهوم المسيحي عن السماء روحانياً أثيراً، تبدو الصورة القرآنية عن السماء محددة في تفاصيلها من ناحية، وجذابة للغاية بالنسبة لرغبات البشر من ناحية أخرى، فالواقع أن المسلم موعود بجنة سماوية يستطيع فيها أن ينال نصيبه من الملذات التي حرم منها في الحياة الدنيا. فقد يستطيع أن يشرب من خمر الجنة، وأن يتمتع بصحبة الحور الحسان. فالديانة الإسلامية إذن ديانة متفائلة تعتقد في إله عليم قدير يفرض مستوى سامياً كريماً من التصرفات والسلوك، ويعد من يلتزمون بهذه المبادئ بالثواب الأكيد في السموات، وهو الأمر الذي أصبح بمثابة حاجة جذابة للغاية. وليس هناك سر حول السبب الذي جعل هذا الدين ينتشر بين بنو الصحراء العربية المحاربين، ولكن تعاليم هذا الدين وأخلاقياته صارمة بشكل يجعله ملائماً أيضاً لمن نالوا أكبر قدر من التعليم والمران العقلي سواء في العصور الوسطى أو اليوم.

وفي القرنين السابع والثامن اعتنقت الغالبية العظمى من سكان السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط هذا الدين الجديد الذي نادى به محمد عليه الصلاة والسلام. وكانت ضربة قاصمة ضد المسيحية حين سقطت أقدم وأغنى مراكزها في أيدي المسلمين،

بيد أنه من وجهة نظر تاريخ القيم الانسانية، لا يمكن أن نوافق على القول بأن ذلك كان مصيبة أو كارثة، لاسيما إذا ما أخذنا في اعتبارنا ما يتميز به الفكر الدينى الاسلامى والأخلاقيات الاسلامية من سمو ورقى. ولا يزال السر فى تحول المسيحيين إلى الاسلام بهذه السرعة غامضا، خاصة وأنه لم يوجد مؤرخ استطاع أن يكشف تفاصيل هذا التحول حتى الآن. ومن الواضح أن المسيحيين كانوا يتوقنون إلى اعتناق ديانة الفاتحين لكي يتحرروا من القيود التى فرضت على أولئك الذين لم يعتنقوا الاسلام، بيد أن هذه القيود لم تكن قيودا قاسية، ومن المحزن والغريب فى الوقت نفسه أن الكنائس الكبرى فى سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا أنهارت بمثل هذه السرعة أمام جاذبية إعتناق الاسلام. حقيقة أن الكنائس المسيحية لم تختف تماما، ولا تزال هناك جماعات مسحية موجودة فى البلاد الاسلامية حتى يومنا هذا. ولكن بعد مرور مائتى سنة على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لم تعد لنفوذ الكنائس أو أتباعها، على سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية، قيمة تذكر. ولم تكن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنائس المخالفة اليونانية هى فقط التى فقدت غالبية أتباعها باعتناقهم الإسلام؛ فإن الكنيسة اللاتينية فى شمال أفريقيا قد اختفت تماما بحلول سنة ٩٠٠، كما أن الكنيسة الاسبانية المسيحية عانت هى الأخرى من خسائر جسيمة. ويرى لنا كاتب مسيحي عاش فى القرن العاشر أن كثيرين من معاصريه الشبان كانوا يعتنقون الإسلام، لبدافع من طموحهم السياسى فحسب، ولكن أيضا بسبب جاذبية الأدب العربى والثقافة العربية.

يمكن قياس آثار التوسع الاسلامى على شواطئ البحر المتوسط الشرقية والجنوبية من خلال الحقيقة القائلة بأن هذه الأقاليم تعتبر اليوم بمثابة قلب الحضارة الاسلامية؛ بمالها من مميزات سياسية واقتصادية وثقافية متميزة. والواقع أن العرب ينكرون حق الشعوب الأوربية فى حكم هذه المناطق. وأولئك الذين أفسادوا من الدراسة التاريخية هم فقط الذين يعرفون أن هذه البلاد كانت المهد الأول للمسيحية والتراث

الأفلاطوني - المسيحي الذي كان بمثابة المجري الاساسى للحضارة الغربية حتى القرن الثانى عشر. فقبل أن ينزل الوحي على محمد عليه الصلاة والسلام بزمان طويل كانت الحياة الثقافية على شواطى البحر المتوسط الشرقية والجنوبية خاضعة لتأثير كل من القديس بولس، وافلوطين، وأيوزيبيوس، وأوغسطين. بيد أن السيطرة الاسلامية كانت كاملة ونهائية لدرجة أن تونس، التى كانت منبع المذاهب التى لازمت تطور الحضارة الغربية - لأنها كانت وطن القديس أوغسطين - تعد اليوم من البلاد الاسلامية الخالصة.

لقد استغرقت عملية الفتوح الاسلامية حوالى مائة سنة، منذ وفاة النبى سنة ٦٣٥ حتى معركة تور Tours سنة ٧٣٢ حين هزم حاكم الفرنجة (شارل مارتل) جيوش المسلمين المتوغلة فى فرنسا. فبعد وفاة محمد عليه الصلاة والسلام أثارت عدة قبائل موجة من الاضطرابات وأعمال العنف ، فيما عرف بحروب الردة التى تمكن الخليفة أبو بكر الصديق من التغلب عليها، ووجه القبائل إلى استئناف غاراتها العسكرية ضد الامبراطورية البيزنطية.

وما أن أهل عام ٦٣٨ حتى كانت مدينة بيت المقدس فى أيدي الجيوش الاسلامية التى اكتسحت بلاد الشام وفارس، بل وصلت إلى شمال الهند خلال الاعوام الثلاثين التالية، كما دخلت جيوش عربية أخرى مصر وفتحت الاسكندرية، ثم تحركت بسرعة عبر الصحراء إلى شمال افريقيا واستولت عليها بسهولة وانتزعتها من الحكم البيزنطى^(٩) وفى سنة ٧١١ استطاعت الجيوش الاسلامية بمساعدة بربر شمال أفريقيا الذين اعتنقوا الإسلام، أن تلحق بملك القوط الغربيين هزيمة فادحة، أصبح العرب من بعدها سادة على

(٩) الحقيقة أن فتح شمال أفريقيا لم يتم بسهولة كما يقدر كاتتور، بل أن فتح هذه البلاد اتسم بالصعوبة الشديدة على عكس الفتوحات الاسلامية الأخرى، وقد لقي المسلمون مقاومة عنيدة من جانب البربر، ولم يتم فتح البلاد إلا بعد جوالى اثنتين وسبعين سنة ... ولعل ما يقوله المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون من أن البربر ارتدوا عن الاسلام اثنتى عشرة مرة يجسد هذه الحقيقة إذ لم تثبت أقدام المسلمين فى هذه البلاد الا على يد موسى بن نصير.

لمزيد من التفاصيل حول فتح شمال افريقيا انظر

سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ٧٨ - ص ٢٢١.

(المترجم)

أسبانيا، واحتل الأمراء المسيحيون بجزبال البرانس حتى القرن العاشر حين بداوا حرب الاسترداد البطيئة لاستعادة شبه جزيرة أيبيريا من المسلمين، وهى الحرب التى لم تنته سوى فى القرن الخامس عشر.

وكان وضع المسلمين أمنا فى أسبانيا حتى القرن الثانى عشر، فقد كانوا يسيطرون على معظم أنحاء شبه الجزيرة، والواقع أنه حتى القرن العاشر لم يكن هناك خبر عن أولئك الأمراء المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى الجبال طوال هذه الفترة.

وربما كان العرب قد استنفدوا مواردهم آنذاك، وعلى أية حال، فإنه لم يكن باستطاعتهم أن يفتحوا فرنسا، بيد أن هزيمتهم فى معركة تور، أو بلاط الشهداء، سنة ٧٣٢ أوقفت تقدم المسلمين صوب الشمال فظلوا قانعين بأسبانيا، وفى سنة ٧١٧ شن العرب آخر حملاتهم الكبرى ضد القسطنطينية فيما قبل القرن الخامس عشر، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة العظيمة الرابضة على ضفاف البسفور. وسرعان ما صار العرب سادة على عالم البحر المتوسط ففتحوا صقلية وكريت، مما مكنهم من أن يهاجموا القسطنطينية عن طريق البحر. ولكن القلعة المنيعه استطاعت صد الهجوم الاسلامى بفضل سلاح جديد ابتكره البيزنطيون، هو النار الإغريقية؛ التى هى عبارة عن نوع من القنابل الحارقة استخدمه البيزنطيون وأحدث دمارا جسيما بالأساطيل الاسلامية. وهكذا استطاعت القسطنطينية أن تنجو من الهجوم العربى ومن ثم أنقذت الغرب الأوربى من الغزو الاسلامى عن طريق شبه الجزيرة (البلقان) المهد ومع ذلك فإن بيزنطة لم تحتفظ سوى بآسيا الصغرى من بين جميع ولاياتها الشرقية الغنية. وعندئذ اضطر الامبراطور البيزنطى، الذى نفذت موارده، إلى التزام موقف الدفاع ولم يكن هناك أدنى احتمال بأن تقوم الدولة البيزنطية المرهقة بشن حرب استرداد ضد العرب قبل مرور مائتى سنة أخرى.

وحتى منتصف القرن الثامن كانت الأراضى الشاسعة التى فتحها العرب خاضعة

لحاكم واحد هو الخليفة الأموي الذي اتخذ من دمشق عاصمة له يحكم منها هذه الأراضى الشاسعة والشعوب الكثيرة وفقا لنظام فردى على نمط الملكية الشرقية فى فارس. وفى القرن الثامن لم تعد الشعوب غير العربية التى اعتنقت الاسلام راضية عن وضعها الأدنى، وبدأت تطالب بنصيب فى حكم الدولة العربية الواسعة الأرجاء، كما طالبت هذه الشعوب بحقوق متساوية مع المحاربين القادمين من شبه جزيرة العرب. وأخيرا، وفى منتصف القرن الثامن الميلادى ثارت الشعوب الخاضعة ضد الخليفة الأموى القابع فى دمشق، وانتقل لقب الخلافة إلى أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة العباسية، التى بنت عاصمة جديدة فى بغداد، واستندت إلى تأييد الفرس.

لقد كان سقوط الأمويين على أيدى العباسيين بمثابة إشارة البدء لحركات التمرد واللامركزية السياسية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى. وما أن غربت شمس القرن التاسع حتى كان العالم الإسلامى قد انقسم الى عدة دول، بدلا من دولة عربية عظمى واحدة. واستمر حكام تلك الدول على احترامهم للخليفة باعتباره خليفة رسول الله. بيد أن السلطة السياسية فى العالم الإسلامى آنذاك قد انتقلت إلى بعض الأمراء المستبدين، بما فى ذلك حاكم اسبانيا حيث ظلت الأسرة الأموية قائمة. وفى ذلك الحين توحد عالم البحر المتوسط فى ظل الدين الإسلامى واللغة العربية، كما قام نظام اقتصادى عالمى كبير. إلا أن الحضارة العربية لم تعد مجرد وحدة سياسية فحسب، فمنذ القرن الثامن بات لفظ «عربى» يعنى حضارة عظيمة ترمى بظلالها الوارفة على سواحل البحر المتوسط فى الشرق والجنوب. وتلك هى الحضارة التى ساهمت فيها شعوب كثيرة (اليونان، الفرس، السوريون، اليهود، البربر إلى جانب العرب).

وكان مركز الخليفة، بوصفه زعيما روحيا، مركزا إسميا تماما. وبنهاية القرن الثامن ظهرت فى الجماعة الإسلامية مذاهب. ثلاثة كان، ولا يزال، لها أتباع كثيرون (١٠)

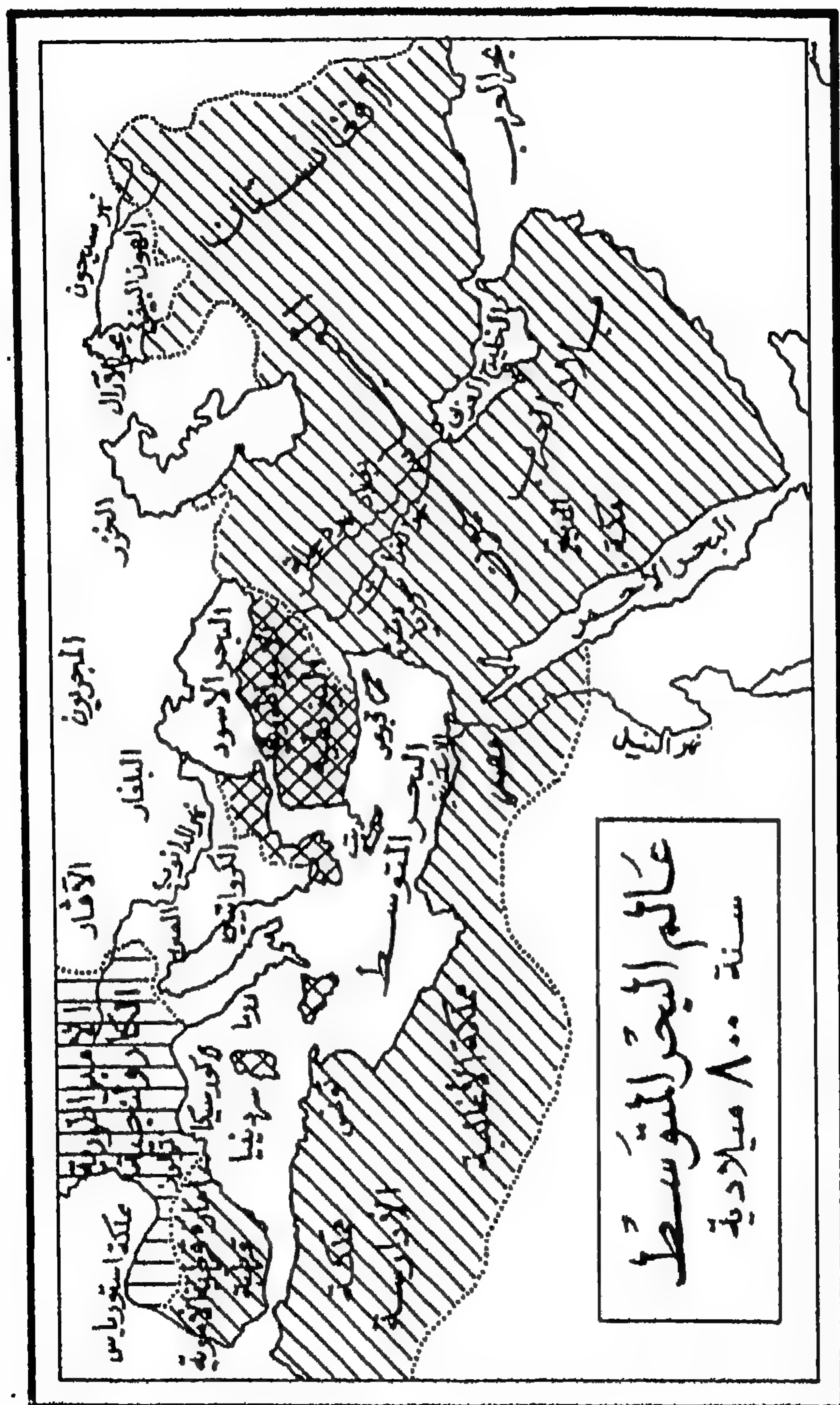
(١٠) يقصد المؤلف بهذه المذاهب الثلاثة، السنة، والشيعة، والخوارج وعن الفرق الأحزاب السياسية الإسلامية وبداية نشأتها وتكوينها أنظر : د. محمد ضياء الدين الرئيس، النظريات السياسية الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية، سنة ١٩٦٠. (المترجم)

وكان أسبق هذه المذاهب هو مذهب السنة الذي كان أتباعه يفوقون الآخرين بدرجة ساحقة. وتعتمد تعاليم السنة على القرآن الكريم والسنة النبوية كما أعتمد السنة على الشريعة المستمدة من التعاليم الدينية والأخلاقية الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكان المفروض أن يحمى الخليفة السنة ؛ ولكن الواقع أنه لم تكن هناك سلطة دينية عليا في الجماعة الإسلامية مثل البابوية، فإن الإسلام لم يعرف مثل هذه الواسطة بين الفرد المسلم وربه، وكان الأئمة السنيون في شتى أرجاء العالم الإسلامي يتجمعون للدعوة إلى الحق الذي نزل به الوحي وإلى طاعة الله، وقد اعتمد نفوذهم وقوتهم على مدى تأييد الدولة لهم إلى حد بعيد، ذلك أنه حتى القرن الحدي عشر كان الحكام المسلمون أكثر تحررا وعلمانية من زعماء السنة، وعلى الرغم من النفوذ الواسع الذي كان السنة يتمتعون به في العالم الإسلامي؛ فإنهم كانوا يفتقرون إلى القوة اللازمة لمحاربة مخالفيهم في المذاهب والمبادئ الشرعية.

أما المذهبان الإسلاميان الآخران اللذان ظهرا في العصور الوسطى، فكان أحدهما يؤمن بأئمة زعموا أنهم ينحدرون من نسل فاطمة بنت الرسول، وعرف مؤيدو أولئك الأئمة باسم الشيعة، وكان طبيعيا أن تنشأ عداوة مريرة بينهم وبين جماعة السنة الذين أموا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم، هو آخر الأنبياء^(١١) ولكن زعماء الشيعة في الشرق الأوسط

(١١) يبدو من كلام المؤلف أنه وقع في خطأ التعميم من ناحية، وعدم وضوح معلوماته التاريخية عن نشأة الشيعة، وتطورهم من ناحية أخرى، والحقيقة أن بداية ظهور هذا الحزب الإسلامي منذ مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وما نتج من ذلك من إنقسام العالم الإسلامي إلى معسكرين كبيرين : أحدهما شايح « عليا » والثاني أيد « معارية » وإلى ذلك الحين كان الحزب الذي ناصر عليا بن أبي طالب يضم في صفوفه من سبغون خوارج بعد حادثة التحكيم الشهيرة، إلى جانب من سيطلق عليهم في المستقبل اسم الشيعة، فقد كانت نتيجة حادثة التحكيم، التي انتهت كما تنتهي المسرحيات الهزلية، أن تكون حزبان إسلاميان : أحدهما الخوارج الذي بدأ كحزب له شخصية واضحة على مسرح الأحداث، وعقائد جلية متميزة، ونظام كفل له الوجود والتطور المستمر طوال عصور التاريخ الإسلامي، وثانيهما، الشيعة الذي بدأ على أساس عاطفي هو حب آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، وأعجاب بشخصية علي بن أبي طالب نفسه، وصفاته النادرة المثال.

وقد تطور هذا الحزب من هذا الشكل العاطفي البسيط، حتى أخذ صورة غامضة حافلة بالأحاجي والألفاظ بفعل التأثير الفارسي على عقائد هذا الحزب ونتيجة لتوالي الأحداث المحزنة على الشيعة، بعد مقتل علي نفسه، بطلعة خنجر مسموم، ثم تولى ابنه الحسن عن حقه وموته في ظروف مريبة، ثم الوحشية والقسوة التي اتسم بها اضطهاد الدولة الأموية =



وشمال الهند نجحوا في أن يحولوا دعاوهم الشيوقراطية إلى سلطان سياسى حقيقى، فقدموا إلى بعض المناطق المعزولة حيث يجد أتباعهم الملجأ المأمون. والأغاخان هو سليل أولئك الأئمة الذين يزعمون أنهم ينحدرون من نسل النبى عليه الصلاة والسلام أما التصوف فى الاسلام فقد جاء كرد فعل للقيود الصارمة التى فرضها السنة. إذ تطلع المتصوفة المسلمون إلى علاقة مباشرة بالله، وكانوا يتوقون إلى تجربة دينية عنيفة كمهرب من التشريع السنن الصارم. وبعد الانتصار النهائى للمذهب السنن فى القرن الثانى عشر كان الصوفية يقدمون الإسهام الفكرى الوحيد إلى جانب التراث القرآنى فى الثقافة الاسلامية، وقبل نهاية القرن الثانى عشر ظهر تيار علمانى قوى وثرى فى لعالم الإسلامى جعل من العلماء العرب فى القرنين العاشر والحادى عشر أعظم علماء عصرهم وفلاسفته، ومنهم استمد الأوربيون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر شطرا هاما للغاية من معارفهم فى هذه المجالات ؛ فقد تمت ترجمة الكتابات اليونانية فى الفلسفة والعلوم إلى اللغة العربية، بما فى ذلك مؤلفات أرسطو الكاملة التى لم تعرفها أوربا سوى فى القرن الثانى عشر. وكانت هذه المؤلفات قد ترجمت فى سوريا فى القرن الثامن بمساعدة العلماء اليونانيين من الطوائف المسيحية الشرقية. وقد انتقلت كتابات أرسطو وغيرها إلى الغرب الأوربى عبر العالم الإسلامى كما وصلت إلى أسبانيا قرب نهاية القرن التاسع. وكانت قرطبة فى القرن العاشر تشتهر بأنها مركز للأبحاث الناجحة والعلوم ، ووصلت شهرتها هذه إلى أعدائها من المسيحيين اللاتين. وفى القرن العاشر كتبت راهبة ألمانية تقول إن

«الشعة فمقتل الحسين فى كربلاء، مما ترك أثارا من الحزن واللوعة لا يمكن أن يمحوها الزمن. ومن خلال هذه المأسى المتتالية برزت الشيعة وقد صاغت آراها السياسية، وأصبحت قوة كبرى فى الصراع السياسى، ولا يزال حزب الشيعة على قوته حتى اليوم.

والجدير بالفكر أن الشيعة ليسوا فرقة واحدة، وإنما هم عدة فرق، أولاها هى الكيسانية التى كانت تدعى الشيعة إلى مبايعة « محمد بن على » المعروف بابن الحنفية. ومنذ ذلك الحين بدأت تتجسد فكرة « الإمامية » « المهديّة » و « الرجعة » وغيرها من أركان مذهب هذه الفرقة التى أخذتها عنها الفرق الشيعية الأخرى. ثم تظهر فى فترة لاحقة فرقة « الرافضة »، وفرقة « الزيدية » ثم تظهر فرقة رابعة هى « الاسماعيلية » ف«خامسة» هى « الغلاة »الذين يفالون فى مذهبهم بشكل يخرجهم عن دائرة الاسلام.

أنظر : الشهر ستانى ، الملل والنحل (طبعة الازهر، ٢ ج، ص ٢٨٠ وما بعدها ؛ محمد ضياء الدين الرئيس، النظريات السياسية الاسلامية (الطبعة الثالثة الانجلو المصرية ١٩٦٠)، ص ٤٣ - ٦١ (المترجم)

قرطبة» زخرفة جميلة « للحضارة ذاع صيتها بسبب جداول المعرفة السبعة الموجودة فيها. وحتى القرن الثانى عشر، كان الطب العربى أرقى فى مستواه من المعلومات الطبية التافهة فى غرب أوروبا بدرجة كبيرة، ولم يمنع الأطباء العرب من التوصل إلى الاكتشافات الطبية التى تحققت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوروبا سوى معارضة زعماء السنة للتشريع، وفى القرنين العاشر والحادى عشر كانت الرياضيات علما عربيا خالصا، وهو ما يتضح من انتشار استخدام مصطلحات الرياضيات مثل الجبر والأرقام العربية فى اللغات الأوروبية الغربية. صحيح أن الرياضيات العربية تدين بالكثير للدراسات والبحوث الصينية؛ ولكن العرب ساهموا بعدة اسهامات أصلية فى هذا المجال، وفى العالم العربى قبل القرن الثانى عشر كانت الفلسفة والعلوم وقفا على مجموعة من العلماء الذين يعملون فى أعمال مدنية مثل الطب، والتعليم، والجهاز الحكومى، لقد كانت الزعامة الدينية منفصلة عن الزعامة الفكرية، فقد سيطر على الحياة الفكرية عدد من العلماء الذين تربطهم بالمذهب السنى وشائج قوية، وقد أدى هذا الوضع إلى تلك الحيوية والشجاعة التى اتصفت بها العلوم العربية؛ على الرغم من أنه - على المدى الطويل - جعل من التأمل العقلى هدفا للهجوم والتحقيق من جانب أنصار المذهب السنى أثناء رد الفعل السنى الذى استمر طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

وقد اشتهر العالم العربى فى العصور الوسطى، لا بسبب الانجازات الفكرية فحسب، وإنما بسبب ثروته الزراعية وتجارته المزدهرة أيضا، وكانت أوروبا الغربية تبدو، بالمقارنة مع البلاد الإسلامية، منطقة متخلفة، وقد تمتع العرب بإدراك قوى جعلهم يبقون على نظم الرى التى كان معمولا بها فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى الباكرة، وهى النظم التى كانت قائمة منذ العصر الرومانى، وقبله بكثير فى أماكن عديدة. كما أن حسن إدراكهم هذا جعلهم يحافظون على التجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط، وهى التجارة التى كان البيزنطيون يسيطرون عليها، ولم يكن لدى العرب ما يسهمون به فى

الحياة الاقتصادية لعالم البحر المتوسط، ولكنهم سرعان ما تعلموا الأساليب الفنية في التجارة من الشعوب التي قهروها.^(١٢) ثم تحولوا إلى بحارة مهرة بشكل لافت للنظر، كما بنوا الأساطيل الكبيرة وفرضوا سيطرتهم التامة على البحر المتوسط في القرنين الثامن والتاسع، وسك الحكام المسلمون عملة قوية للغاية صارت أساسا في عمليات التبادل التجارية الهامة، لا في عالم البحر المتوسط فقط، وإنما في العديد من أنحاء غرب أوروبا أيضا. وقد ظلت شعوب غرب أوروبا تستخدم العملات الذهبية العربية في عمليات التجارة العالمية بعد أن توقفت هذه تالشعوب عن سك عملات ذهبية خاصة بها في القرن الثامن، وقد اكتشف الأثريون هذه العملات الذهبية العربية في شتى أنحاء أوروبا الغربية، وينبغي أن نتذكر أيضا، أثناء تقييمنا للتجارة العربية، أن الصورة الشائعة للتاجر العربي في عالم العصور الوسطى الباكرة، كانت غالبا، صورة رجل لا يتحدث سوى اللغة العربية، وربما كان مصرية أو سوريا، يهوديا أو من البربر، أو من أى شعب آخر من الشعوب الإسلامية.

كان انتشار الإسلام وتأثيره على اقتصاد أوروبا الغربية موضوعا للجدل والخلاف الشديد بين المؤرخين. وربما تحوم بعض شكوك قليلة حول تأثير الإسلام على تطور أوروبا الغربية في المجال السياسى والفكرى في العصور الوسطى الباكرة، إذ أن تأثير الإسلام في هذين المجالين كان ضئيلا. وليس السبب في ذلك راجعا إلى أن أوروبا الغربية لم تجد

(١٢) عرف العرب في كل العصور بأنهم أصحاب تجارة ومن البديهي أن العرب المقصودين بهذا هم أولئك الذين سكنوا على طول الطرق التجارية بين الشرق والغرب، وقد بلغت شهرة العرب في التجارة حدا جعل استرابون يقول أن كل عربى تاجر أو سمسار، فقد اشتغل اليمينيون بالتجارة منذ وقت مبكر في التاريخ الانسانى، وكانت موارد التجارة تمثل ركنا هاما من أركان البناء الاقتصادى للدول التي قامت في اليمن قبل الإسلام منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد (دولة معين ١٢٠٠ - ٦٣٠ ق.م ودولة سبأ ٨٠٠ - ١٥٥ ق.م ثم الدولة الحميرية ١١٥ ق.م إلى ٥٢٥ ميلادية). كما أن بلاد الحجاز - التي كانت بمثابة الجسر الذى يربط بين بلاد الشام وحوض المتوسط من ناحية، ودول شرق إفريقيا والمحيط الهندى من ناحية أخرى - قد شهدت نمو عدد من المدن التجارية ومن بينها مكة ويثرب. وقامت على ساحل البحر الأحمر موانى هامة مثل الشعيبية (ميناء مكة القديم قبل جدة) وينبع ميناء مدينة يثرب، ومنذ نهاية القرن السادس الميلادى احتكرت قریش التجارة التي نظمها (هاشم بن عبد مناف) في رحلتى الشتاء والصيف. وهكذا نصل إلى أنه إذا كان العرب قد أبقوا على نظم الرى وأساليب الزراعة التي علموا أساليب التجارة من الشعوب المغلوبة.

حول هذا الموضوع أنظر : السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام (الاسكندرية ١٩٧٤ ؛ محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية (القاهرة ١٩٢٤)، الجزء الأول. (المترجم)

ما تتعلمه من الحضارة الاسلامية؛ بل على العكس من ذلك، أستطاع الأوربيون أن يتعلموا الكثير من العرب في مجال الحكم، الذي استوعب فيه العرب تقاليد الحكومة البيروقراطية التي خلفتها الحضارة الرومانية - البيزنطية، كما أنهم استفادوا كثيرا من التعاليم العربية في مجالى الفلسفة والعلوم . ولكن لأنه لم يكن هناك مسلمون خاضعون لأى من الحكام المسيحيين الغربيين في العصور الوسطى الباكرة، ولأن الشعوب الغربية كانت ترى في المسلمين مجرد هراطقة جامحين وأعداء ضارين، فقد أغضت هذه الشعوب عيونها عن المكاسب التي كانت يمكن لها أن تحصل عليها من خلال الاتصال بالشعوب العربية الاسلامية . وكان لابد أن تدفع أوروبا لعصور الوسطى الباكرة ثمن الستار الحديدي الذي فرضته على شعوبها وأن تدفع ثمن الحرب الباردة التي شنتها ضد الإسلام، فكان أن حرمت الشعوب اللاتينية نفسها من ثمار الحضارة الاسلامية بسبب سياستها الانغلاقية، وعزلتها الحضارية. وقرب نهاية القرن العاشر فقط بدأت كراهية المسيحيين للتعاليم التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، تتقهقر وتتراجع لتأتى في المرتبة الثانية بعد إدراك المسيحيين الغربيين لما يمكنهم أن يحققوه من مكاسب من خلال الدراسة في قرطبة. فقد ذهب جريردى أوريلاس Gerber d'Aurillace الذى كان أعظم علماء عصره والذى تولى البابوية فيما بعد، إلى الأندلس لى يدرس الفلسفة والرياضيات ، وكان للتعليم الذى تلقاه على أيدي أساتذته المسلمين الفضل فى تفوقه على أقرانه من المسيحيين، ونظرا لأن الفارق بين جرير ورفاقه من العلماء المسيحيين كان شاسعا ؛ فقد ساد الاعتقاد على مدى عدة قرون، فى أنه كان يعتمد على قوى خفية تساعد على العرافة والتنجيم وأعمال السحر الأسود. ولم يرفع الستار الحديدي بين أوروبا الغربية وأسبانيا الاسلامية إلا بعد سنة ١١٠٠ م، وكانت نتيجة ذلك أن سخلت كتابات أرسطو إلى غرب أوروبا عن طريق أسبانيا إيذانا ببدء الثورة الفكرية.

أما الآثار الاقتصادية الناجمة عن انتشار الاسلام، فهي غير واضحة . وهو ما جعل

المؤرخين يتنازعون طيلة الأعوام الستة والعشرين الماضية حول مسألة ظهور هذه القوة الجديدة فى حوض البحر المتوسط فى القرنين السابع والثامن، وتأثير هذه القوة على العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، واندلع هذا الجدل نتيجة لآخر مؤلفات المؤرخ الاقتصادى البلجيكى الذائع الصيت هنرى بيرين Henry Pirenne وهو كتابه المعنون « محمد وشارلمان » الذى نشر سنة ١٩٢٩م. وكان بيرين رجلا نادر المثال، فهو باحث قدير غزير العلم، ومفكر أصيل صاحب أسلوب حى مقنع، وبينما يعنيل معظم المؤرخين الى الحذر كلما تقدمت بهم السن، فإن بيرين على عكس ذلك، صر أكثر ميلا إلى التعميمات المتسارعة، وأخذ رفاق بيرين يدافعون عن آرائه دفاعا حارا فى كل مكان، مها أدى إلى إعتناق الكثيرين لهذه الآراء، والواقع أن كتاب «محمد وشارلمان» قد أثر تأثيرا كبيرا على التفسير العام لتاريخ العصور الوسطى، لدرجة أن الكثيرين من مؤرخى الجيل القديم كانوا يجدون صعوبة كبيرة فى التخلّى عن كتاب بيرين، أو حتى تعديله؛ على الرغم من النقد البالغ القوة الذى وجهه لهذا الكتاب علماء من أمثال لوبز، ولاتوش وغيرهما فى السنوات الأخيرة.

فما هو رأى الذى طرحه بيرين ؟ يمكن ايجاز هذا الرأى فى أن التوسع الإسلامى قد سبب الانهيار الاقتصادى لعالم البحر المتوسط، كما أن التوسع الإسلامى كان السبب فى الانفصال النهائى بين الشرق والغرب، ونهاية وحدة عالم البحر المتوسط التى زعم بيرين أنها استمرت قائمة إبان فترة الغزوات الجرمانية، إذ أن أفريقية، وإسبانيا اللتين كانتا على الدوام جزءا من العالم اللاتينى، قد صارتا من منذ ذلك الحين تابعتين لحضارة أخرى مركزها بغداد، وصار الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط بحيرة إسلامية. وهكذا وجد الغرب نفسه محاصرا مما أجبره على الاعتماد على موارده الخالصة، وللمرة الأولى فى التاريخ يتحول محور الحياة إلى الشمال بدلا من البحر المتوسط، وبانقطاع أوروبا الغربية عن البحر المتوسط كان عليها أن تعود إلى إنتهاج نمط الاقتصاد الطبيعى

(أى الاقتصاد الريفى)، وظهرت نظم جديدة تلائم الدولة الاقطاعية ومجتمع الضيعة الاقطاعية. وفى هذا البحث الواضح الحاسم الذى قام به بيرين تبدو عوامل الجذب واضحة تماما، فقد استطاع أن يقدم آراءه مدعومة بالبراهين الجديرة بالاعتبار. ولكن العديد من العلماء الذين كتبوا فى السنوات العشرين الأخيرة، يميلون إلى القول بأن كتاب « محمد وشارلمان » مجرد مبالغة كبيرة، وتبسيط شديد للأمور التى تتعلق بحضارة العصور الوسطى الباكرة.

وسوف نرى أن ثمة جانبين فى البحث الذى قام به بيرين فى حاجة إلى تدعيم لكى يكون تفسيره مقبولا، وأولهما قوله أن الغزوات الجرمانية لم تكن نقطة تحول فى تاريخ غرب أوروبا الاقتصادية، وثانيهما قوله أن الإنتشار الاسلام كان هو نقطة التحول الحاسمة ، وفى رأينا أنه يجب تناول كل من هذين الموضوعين بحرص

ففى رأى بيرين أنه على الرغم من الغزوات الجرمانية فإن وحدة عالم البحر المتوسط ظلت قائمة أثناء القرنين الخامس والسادس، كما ظلت فرنسا الميروفنجية جزءا من حضارة البحر المتوسط . وقد انبنى هذا رأى على أساس القراءة الخاطئة، سواء عن قصد أو غير قصد، للصورة التى رسمها جريجورى التورى للمجتمع الميروفنجى . إذ لم تكن ثمة قطيعة كاملة مع تجارة البحر المتوسط وحضارته، ولكن كان هناك تدهور واضح فى تأثير حوض البحر المتوسط على المجتمع الفرنجى. ولم يكن اقتصاد غاله فى القرن السادس من ذلك النمط الذى تمثل التجارة وعمليات التبادل النقدى ركنا هاما من أكانه، لأن فرنسا الميروفنجية كانت تعتمد إلى حد بعيد على الأرض فقط كمصدر أساسى للثروة . فلم تكن المدن التى يصورها جريجورى التورى فى تاريخه سوى مراكز سياسية وأسقفية، ولم تكن مراكز تجارية، فقد كانت طبقة التجار الرومانية قد اختفت، وتحمل الشرقيون من السوريين واليهود عبء تجارة أوروبا الغربية مع البلاد الشرقية، وبالمقارنة مع بيزنطة تعتبر فرنسا الميروفنجية منطقة متخلفة تماما، يقوم اقتصادها على الزراعة،

وليسست للتجارة فى هذا الاقتصاد سوى أهمية ضئيلة، ويبدو من المستحيل أن ننكر صحة هذه الصورة التى كان عليها العالم الميروفنجى، لاسبىما وأنها صورة يدعمها الدليل الأثرى، ومن الواضح إذن، أن تدهور فرنسا الاقتصادية وتفكك وحدة عالم البحر المتوسط قد حدثا بالفعل قبل البعثة النبوية.

وليس معنى هذا أن الغزوات الجرمانية كانت بمثابة الكارثة المفاجئة التى سببت هذا التدهور الاقتصادى، ذلك أن وحدة البحر المتوسط الاقتصادية، وحجم التجارة العالمية، أخذتا فى التدهور منذ القرن الثانى، وفى الوقت الذى لانزال فيه غير واثقين تماما إلى أى حد كانت الغزوات الجرمانية نقطة تحول حاسمة فى التاريخ الاقتصادى لغرب أوروبا، فإنه يبدو من المؤكد أن « تفاعل بدائية الجرمان مع الإنحلال الرومانى » على حد تعبير لوبيز، قد زاد من سرعة التفكك الاقتصادى فى عالم البحر المتوسط، وهو التفكك الذى أخذت أعراضه تبدو واضحة من النصف الثانى للقرن الثانى.

وتكشف الأبحاث التى قام بها أخيرا المؤرخون الاقتصاديون، أنه حدث إحياء جزئى للتجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط قرب نهاية القرن السادس برعاية البيزنطيين، ويعتبر وجود التجار السوريين فى غرب أوروبا أيام جريجورى التورى دليلا على ذلك، كما أن هناك دليلا على أنه كان هناك إحياء جزئى لتجارة التصدير فيما بين انجلترا والشاطئ الشرقى للبحر المتوسط فى منتصف القرن السابع، فضلا عن أن هناك أدلة متفرقة على أن ايرلندا وبلاد البلطيق، التى لم تكن تربطها صلة بالحضارة الرومانية، قد شاركت فى النشاط التجارى فى عالم البحر المتوسط آنذاك.

ويبقى علينا الآن نعرض الجزء الثانى من كتاب بيرين، ترى ألى أى مدى كان انتشار الاسلام سببا فى القضاء على هذا الإحياء الجزئى للتجارة بين الشرق؟ فى رأى بيرين أن كلا من المسلمين والمسيحيين يكرهون بعضهم بعضا، ومنذ أن تحكمت القوة البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط خلال القرنين الثامن والتاسع أصبح استمرار

العلاقات بين أوروبا الغربية وحوض المتوسط أمرا مستحيلا . ثم يسوق لنا مناقشة تخطط بين الأسباب والنتائج. وربما كانت هذه المناقشة مضللة في صياغتها التي تبدو منطقية، إلا أن المؤرخين يرونها صحيحة في أغلب الأحيان نظرا لعدم وجود البراهين الواضحة على خطئها. فقد أشار بيرين إلى انتقال مراكز الحياة الأوربية إلى الشمال الفرنسي وواى نهر الراين وإلى تدهور موانئ فرنسا على البحر المتوسط. كما أشار إلى الاتجاه المطرد نحو الاقتصاد الريفي الخالص في فرنسا خلال القرن الثامن، وخلص من هذا باستنتاج مؤداه أن السبب في ذلك هو انقطاع التجارة بين الشرق والغرب نتيجة التوسع الاسلامي. وقد استطاع بيرين أيضا أن يقدم في بحثه بعض الأدلة التطبيقية الواضحة. ففي أواخر القرن السابع توقفت الكنيسة الغربية عن استخدام النبيذ المستورد من فلسطين في طقس الأفخارستيا، أي العشاء الرباني، كما أنها بدأت تنشر وثائقها على الرق بدلا من ورق البردى المستورد من مصر. والاستنتاج الأكثر صحة هو أن الأوربيين لم يعرفوا قادرين على شراء النبيذ الفلسطيني ورق البردى المصري، لأن استيرادهما كان يتكلف نفقات باهظة، نتيجة الظروف التي ترتبت على الفتح الاسلامي لهذه البلاد.

وكان من الصعب على ناقد بيرين أن يفسروا هذا الدليل التطبيقي. وهناك رأى يقول بأن الطلب على مثل هذه البضائع الشرقية قد انخفض نتيجة للتغيرات التي طرأت على طعمها وطرق انتاجها، بيد أن هذا الرأي غير مقنع على الإطلاق. وعلى أية حال، فإن هناك دليلا يكفى لأن يفند رأى بيرين بشكل خطير، وربما كانت التجارة بين الشرق والغرب قد توقفت تماما على مدى نصف قرن من الزمان أو أكثر قليلا، بيد أنه من المؤكد أنه كانت هناك علاقات تجارية مستمرة بين أوروبا الغربية والبلاد الاسلامية منذ منتصف القرن التاسع فصاعدا. وكانت سلع الصادرات الغربية إلى الشرق هي: العبيد، والفراء، والمنتجات المعدنية، والأخشاب. وفي مقابل ذلك كان التجار المسلمون يفنون ببضائع الترف والرفاهية الشرقية التي كانت تجعل من حياة النبلاء الأوربيين الخشنة حياة أكثر راحة.

ويبدو غريباً أن بيرين، الذي كان حجة وعلماً من أعلام تاريخ تجارة العصور الوسطى، قد تغافل تماماً عن تجارة العبيد التي كانت تجارة رائجة بين أوروبا الغربية، وبلاد البحر المتوسط. وقد لعب اليهود دوراً هاماً في هذا النشاط التجاري في بداية الأمر، وبحلول سنة ٩٩٠ تولى البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين عن غيرتهم الدينية حتى يتمكنوا من القيام بدور هام في النشاط التجاري بين الشرق والغرب. ومن المؤكد أن التجارة في البحر المتوسط كانت تتعرض لخطر القراصنة طوال العصور الوسطى الباكورة؛ مما جعل من التجارة العالمية عملاً محفوفاً بالمخاطر، كما رفع تكاليف النقل إلى درجة كبيرة للغاية. بيد أن التجار الأوروبيين كانوا يحصلون على مكاسب طائلة جداً من البضائع التي كانت تسلم من خطر القراصنة أو الغرق. فقد كانت هذه البضائع عبارة عن مستلزمات الرفاهية والمواد الخام التي كان يقصد بها إشباع حاجات الطبقة الحاكمة، ولم تكن تستورد بهدف الاستهلاك الشعبي، ومن ثم فإن التكلفة المتزايدة بالضرورة لم تكن لتحول دون استيراد هذه البضائع.

ومن الممكن أن نسلم بأن إنتشار الإسلام قد تسبب في تدهور النشاط التجاري في عالم البحر المتوسط، وأنه كان عاملاً من عوامل تحول الاتجاه الاقتصاد الأوربي نحو الشكل الريفي Ruralization وانتقال مراكز الحياة الأوربية إلى فرنسا وواى نهر الراين. ولكن انقطاع أوروبا الغربية حقاً عن تجارة البحر المتوسط لم يحدث إلا بشكل مؤقت، هذا إن كان قد حدث مثل هذا الانقطاع على الإطلاق. ولا يمثل إنتشار الإسلام سوى مرحلة واحدة من مراحل العملية الاقتصادية التي اتسمت بالاكْتفاء الذاتى وتدهور الحياة الحضرية de - urbanization التي كانت تجرى منذ نهاية القرن الثانى بعد الميلاد . فإن الحروب الأهلية التي شهدتها القرن الثالث، ثم الغزوات الجرمانية، ثم الانتصار العسكرى العربى فى نهاية الأمر، كانت كلها أحداثاً ساعدت على تكريس الاقتصاد الطبيعى فى غرب أوروبا، كما ساعدت على قيام النظام الأقطاعى فى القرن التاسع. وقد لعب بيرنين

دوراهما في فهمنا وإدراكنا لتاريخ العصور الوسطى، وذلك لأنه لفت الانتباه إلى النتائج الاقتصادية للإسلام - على الرغم من أنه كان يبالغ في أهميتها - إلى جانب نتائج الغزوات الجرمانية. إن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يحدد مصير عالم شارلمان، على نحو ما اعتقد بيرين، لأن نظم أوروبا القرنين الثامن والتاسع لم تكن لتختلف جذريا لو لم يحدث التوسع الإسلامي . والحقيقة الأساسية في تاريخ العصور الوسطى هي أن أوروبا الغربية قد اتجهت إلى الاكتفاء الذاتي بعد أن فشل جستنيان في إعادة بناء الامبراطورية الرومانية، وأن أوروبا هي التي حسمت مصير الحضارة الغربية بما تتميز به من نظم ومؤسسات ، كما أن زعماءها كانوا من أبنائها.

الفصل السادس

نمو الزعامة الكنسية

١ - المؤسسات الديرية

في حضارة العصور الوسطى

لم يكن ممكناً أن تأتي القيادات التي أمست حاجة المجتمع الغربي - بما انسم به من الفوضى والاضطراب في القرن السادس - ملحة إليها إلا من داخل الكنيسة . فقد كانت الكنيسة تضم بين صفوفها جميع الرجال المتعلمين في أوروبا آنذاك، كما كانت هي أقوى مؤسسات العصر. بيد أن الكنيسة كانت قد عانت كثيراً من الغزوات الجرمانية؛ إذ أن الاساقفة ربطوا مصالحهم بمصالح النبلاء، والحقيقة أنهم غالباً ما كانوا من أقرباء الملك أو من أبناء الطبقة الارستقراطية القوية النفوذ، وكان رجال الدين بشكل عام موصومين بالجهل، والفساد، كما أنهم عجزوا عن علاج المشكلات التي نجمت عن تنصير مجتمع ظل على وثنيته إلى حد بعيد رغم اعتناق جماهير المحاربين الجرمان للمسيحية بشكل رسمي، فقد تسربت إلى رحاب المسيحية اللاتينية أشد ضروب الخرافات والخزعبلات فجاجة وبدائية، كما عقلت بالعقيدة في القرنين السادس والسابع شوائب الاعتقاد في الشياطين والسحر، فضلاً عن أحط وأدنى ضروب عبادة الذخائر المقدسة . وتسربت إلى المسيحية عبادات القوى الطبيعية المحلية متمثلة في تبجيل القديسين، بالإضافة إلى ما أصاب العقيدة من انحطاط وتدهور عام بسبب البداءة الوثنية، ولم يكن هناك من رجال الكنائس الأبرشية من يستطيع أن يذهب إلى الريف لمجابهة مثل هذا الانحطاط، وغالباً ما كان أحد قساوسة الكاتدرائية يقوم برحلة بين الحين والحين من مقره الأسقفى إلى الريف لإنجاز بعض الأعمال الدينية المتعلقة بالأسرار المقدسة، ولم يكن رجال الكليروس العلمانيون يهتمون، أو يرغبون، في القيام بالأعمال التبشيرية الشاملة، بل إن احداً لم يهتم بمجرد

التنصير الشكلى للقبائل الجرمانية التى كانت تعيش داخل المملكة الميروفنجية. وهى القبائل التى تسكن شرق نهر الراين. إذ أن أولئك الجرمان بقوا على وثنتهم حتى القرن الثامن. ومع بزوغ شمس القرن السابع، كان النظام الكنسى فى بلاد الغال غارقا فى حال من الفوضى والاضطراب، وتمثلت المشكلة الأساسية فى كيفية الحفاظ على المبادئ الكافية التى يمكن أن تستمر بها الطقوس والتعاليم المسيحية اللاتينية، وتضمن استمرار ماكانت تقدمه الكنيسة اللاتينية من ارشادات. فقد كان الكثير من القساوسة لايفقهون معنى ما يقولون فى قداس الكنيسة ولكنهم كانوا يتمتعون، دون فهم، بعبارات غامضة من اللغة اللاتينية جعلتها تبدو كما لو كانت رقايا أو « تعازيم » سحرية، وذلك من أجل التأثير فى البدائيين فى المناطق الأبرشية القريبة.

ويرجع الفضل فى بقاء الكنيسة اللاتينية، والحضارة الأوربية، وصونهما من الزوال، إلى المؤسستين الكبيرتين اللتين تمتعتا - دون غيرهما - بالقوة والكفاية اللازمتين لمجابهة التأثيرات السلبية للعالم البربرى المحيط بأوربا، وهما الإكليروس النظامى (أى الرهبان) والبابوية. فمن بين جميع مؤسسات أوربا الغربية، كانت الديرية والبابوية هما فقط القادرتين على افراز قيادات المجتمع الأوربى، وسرعان ما تمثلت نتيجة جهودهما المتواصلة فى تطوير الملكية الجرمانية وتحضرها، وتحويلها الى قوة خلق إضافية فى مجتمع العصور الوسطى الباكرة. ولكن، بينما كانت البابوية والملكية الجرمانية مكرستين تماما لقيادة أهل أوربا الغربية صوب الإتجاه الأكثر فعالية وجدوى، كان الرهبان يشكلون القوة الاستمرارية فى ميادين التعليم، والتنظيم والتقدم الاجتماعى فى الفترة ما بين القرن السادس والقرن الثانى عشر، كما كانوا من أكبر قوى الحسم فى تشكيل حضارة العصور الوسطى. فكيف تأتى للإكليروس النظامى - أى رجال الدين الذين عاشوا فى ظل دستور ديرى - أن يلتزموا بهذه الإلتزامات الاجتماعية الضرورية ؟ ان الإجابة على هذا السؤال هى التى حددت شكل بناء الحضارة الجديدة التى قامت فى اوائل العصور الوسطى.

أما الديرية ، فهي شكل من أشكال النسك الدينى، تضمن تنظيم وتقييد أو إنكار الذات فى الجوانب المادية والجسدية فى الحياة الانسانية من أجل ضمان علاقة روحانية خالصة مع الرب تكون سبيلا إلى الخلاص. وهكذا يهدف النسك إلى الخلاص، وهو هدف يمكن تحقيقه إما بانسحاب الناسك من المجتمع بمغرياته ولهوه المفسد، وإما بالتحكم القاسى فى الحياة الاجتماعية لكى تكون البيئة مناسبة للناسك حتى يواصل حياته فى الدنيا. وتسمى الوسيلة الأولى بالديرية بينما يمكن أن نطلق على الوسيلة الثانية اصطلاح «التطهرية Puritanism». ومن الواضح أنه فى ظل الظروف التى كانت سائدة أوائل العصور الوسطى، حيث المجتمع العنيف الفوضوى ، والذي كان غير مسيحي أساسا، يصبح التحكم التطهرى فى المجتمع من أجل ملازمة العالم لحياة النسك أمرا مستحيلا. ومن ثم كان على الناسك أن يعتزل العالم لكى يؤكد انتصار ارادته الروحانية وخلاص روحه. بيد أن طبيعة النظام الديرى فى أوروبا أوائل العصور الوسطى فى شكله النهائى لم تسمح لمثل هذا الهروب من العالم بأن ينجح تماما. وبدلا من ذلك : صار الدير مؤسسة اجتماعية فائقة الأهمية. فقد قدم الرهبان المبرزون أعظم الخدمات لكل من الكنيسة والملكية، كما قدمت الديرية لكل من المؤسستين الدماء والقيادات الجديدة.

وعلى أية حال ، فإن الديرية كنظام لاترتبط بالغرب كما أنها لم تكن من نتائج العصور الوسطى. إذ لا يزال هناك رهبان بوذيون إلى اليوم، كما كان هناك رهبان يهود فى فلسطين، قبل العصر المسيحى، وهم أفراد الطائفة الآسينية الراديكالية، الذى يعتقد انهم كانوا أصحاب وثائق البحر الميت^(١). وربما كان القديس يوحنا المعمدان قد تأثر

(١) الطائفة الآسينية (الآسين أو الآسينيين) طائفة يهودية رأت أن تهرب من العالم لكى تحافظ على نقاء الجماعة وطهارتها، وكان أفرادها يعتقدون أنهم وحدهم اليهود الحقيقيون. وقد وجدت هذه الفرقة قبل ميلاد المسيح وعاشت بعده وكانت أهم فرق اليهود وأكثرها احتراما ونشاطا حين ظهر. ونظرا لقلة المعلومات المتاحة عن هذه الفرقة - بحكم العزلة التى فرضتها على نفسها - فإنها تمثل مشكلة أمام الباحثين . والمصدر القديم الوحيد عنهم تمثل فى الفقرات القليلة التى كتبها المؤرخ اليهودى يوسفوس فى كتابيه « حرب اليهود »، « تاريخ اليهود » وفيما كتبه عنه عالم الطبيعة الرومانى بلينيوس الأكبر (٢٣-٧٩)، وقد حار العلماء فى تفسير اسم هذه الفرقة اليهودية كما حاروا فى تاريخها وعقائدها.

من هذه الفرقة وعقائدها انتظر : حسن ظاننا، الفكر الدينى الاسرائيلى (معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١) ص ٢٦٤ - من ٢٧٣. أما وثائق البحر الميت التى عرفت ايضا باسم اللغات البحر الميت The Dead Sea scrolls أو مخطوطات =

بمذاهب هذه الطائفة من حيث انتظارها المخلص المرتقب واعتقادها فى الحياة الأخرى. وعلى أية حال، فإن يوحنا المعمدان قد مارس أشد أنماط حياة النسك تزمنا وصرامة. ويمكن القول بأن المسيح قد جذب مثل هذه الحياة باعتبارها أكثر أنماط الحياة مثالية، وذلك حين أخبر حواريه أنه يجب عليهم التحلل من كل القيود التى تربط الانسان بالحياة المادية بما فى ذلك حبه لأبويه لكى يدخلوا فى الملكوت، كما كان التحذير الذى أطلقه المسيح « لا تقدرُونَ أن تخدموا الله والمال » (انجيل متى ، الأصحاح السادس)، والنموذج الذى قدمته حياة المسيح، الذى يستطيعه أباه حتى الموت على الصليب، ملهما لكل الأجيال المتعاقبة من النساك والزهاد المسيحيين جعلهم ينفصلون عن الحياة الدنيا، ويحيون حياة روحانية خالصة بالقدر الذى يستطيع الانسان. وكان لتغلغل الفلسفة الأفلاطونية العميق فى الفكر المسيحى فى القرون الأولى بعد الميلاد ، بثنائيتها عن الروح والجسد وتحللها من قيود العالم المادى، أثره فى شيوع الإيمان بأن الروح تضمن خلاصها حين تحل الجوانب الروحانية فى البشر محل الجوانب الجسدية. وفى القرنين الثانى والثالث شعر بعض رجال الكنيسة الاتقياء - ممن فسرُوا الانجيل على هذا النحو الثنائى المتعسف - بالخطر العظيم الذى يهدد أرواحهم من جراء عيشهم فى المجتمع فهربوا إلى أماكن مقفرة لكى يقوموا بالممارسات الروحانية الخالصة. وكانت الصحراء المصرية هى المكان المفضل الذى يفر اليه أولئك المتدينون الميالون للعزلة والتأمل. بيد أن أبناء الصحراء اكتشفوا أن العالم لم يكن ليدعهم يذهبون بعيدا ، فعمدوا ذاعت أنباء تدينهم، أخذ المريدون فى السفر اليهم عبر الصحراء المصرية طلبا لمساعدتهم فى التوسل الى الرب. وهكذا فعمد البداية الأولى للديرية المسيحية، وجد الرهبان أنفسهم محاطين بالعالم الذى كانوا قد تركوه

تقمران، نسبة الى المكان الذى اكتشفت به بطريق الصدفة فى المناطق المجاورة للبحر الميت فى الاردن حاليا منذ عام ١٩٤٧، وهى عبارة عن كتب فرقة دينية يرجع تاريخها الى الفترة ما بين سنة ١٥٠ ق.م وسنة ١٢٥ ميلادية تقريبا، وبينما يعتقد بعض العلماء أن لفافات البحر الميت تحمل تراث الاسيين فإن البعض يقول ان اسم هذه الطائفة لم يرد مرة واحدة فى هذه الوثائق والنصوص. ومعظم هذه الوثائق عبارة من مقتطفات من العهد القديم ومن المجموعة المعروفة باسم الابوكريفا (وهى كتب دينية يهودية مشكوك فى صحتها وأصالتها وذلك فهى غير قانونية) والبعض الآخر خاصة بفرقة يهودية يميل بعض الباحثين إلى القول بانها فرقة الاسيين. ويمكن اهمية هذه الوثائق فى أنها تساعد على فهم الكثير من جوانب الفكر اليهودى آنذاك :

H.A.R Edgell, Dead Sea Scrolls, Oxford 1976

انتظر

(المترجم)

لتوهم احتقارا لشأنه، كما أن المجتمع التمس منهم الشفاعة لأفراده لدى الرب. لقد كانت بداية حركة الزهد والنسك في المسيحية دليلا على علاقة الشد والجذب بين الدير والعالم.

كانت صورة القديس - الناسك مألوفة وشائعة في الكنيسة الشرقية، ولم تتمكن الديرية الشرقية أبدا من التخلص من النموذج الذي أرسته الأصول الأولى لحركة الرهبنة الانفرادية في الشرق.

وقدم اثناسيوس في كتابه المسمى « حياة القديس أنطون » أشهر آباء الصحراء في القرن الرابع ، كانت حركة الرهبنة الشرقية تجنح الى التطرف لأن العامة كانوا يخلطون بين القداسة والمبالغة في حرمان الجسد؛ كما فعلوا مع القديس السوري سمعان العمودي Simeon Stylites ، الذي عاش في أوائل القرن الخامس ، واشتهر بأنه أمضى الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته جالسا على قمة عمود يرتفع عن الأرض سبعين قدما، إلا أن بعض رجال الكنيسة الشرقية من ذوى العقول المتحضرة الحساسة لم يؤيدوا مثل هذا التعسف المتطرف، فقد كان من رأى باسيل ST. Basil - وهو أحد كبار آباء الكنيسة الشرقية في القرن الرابع وكانت ثقافته كلاسيكية - أن على الرهبان إطاعة الوصية القائلة بأن على المرء أن يحب جاره مثل حبه للرب، لقد كان القديس باسيل رائدا في تكوين نظام الديرية الجماعى في الكنيسة الشرقية، وهو النظام الذى قدر له أن يتغلب بالتدريج على نظام الرهبنة الانفرادى القديم. ولكن نظام الديرية الجماعية الشرقية ظل فضفاضا، إذ احتفظ للراهب الفرد بالقدر الأكبر من استقلاله إذ أُنسم الدير اليونانى بكونه مجتمعا كبيرا عاش فيه الرهبان سويا بقصد التقارب، ولكن سيطرة مقدم الدير abbas عليهم كانت ضئيلة، فقد كان مجرد رجل دين أعلى قدرا يحظى بتبجيلهم له.

أما الديرية الغربية، فإن تطورها بدأ أيضا من الرهبنة الفردية. ذلك أن انهيار عصب المجتمع الغربى إبان القرن الأخير من حياة الرومانية، دفع بعض ما فقدوا إيمانهم

بالحضارة، دون أن يفقدوا إيمانهم بالله، إلى محاولة ضمان خلاص ارواحهم عن طريق حياة الزهد والتقشف في الكهوف والأماكن الموحشة. وغالبا ما ذاع صيت مثل أولئك الرجال باعتبارهم قديسين صانعي معجزات. فقد وضعت رفات القديس مارتن St. Martin، أحد أولئك النسك اللاتين، في تور Tours التي صارت مزارا شعبيا شهيرا، مما كان له أكبر الأثر في نمو ثروة هذه الأسقفية، وفقا لرواية جريجورى التورى التي يرويها في فخر، ولكن النسك والتقشف الإنفرادى المتطرف لم تكن له أبدا تلك الأهمية التي أحرزها في الشرق؛ إذ حلت محل ذلك أنماط جديدة من الديرية الجماعية في القرنين الخامس والسادس. ويرجع السبب في ذلك إلى أسباب مناخية من جهة، وإلى أسباب إجتماعية من جهة أخرى. فقد كانت المحاولة التي يقوم بها المرء لكي يصير ناسكا في ظل ظروف مناخ شمال أوروبا البارد مسألة جد مختلفة عن الحياة المنفردة في مصر. فضلا عن أن التقشف والنسك الفردى المتطرف لا يظهر سوى كرد فعل تجاه المجتمع الحضري الثرى. ولم يكن هناك ما يبرر التبرؤ الدرامى من مظاهر الترف. ذلك أنه كان من الشائع في أوروبا أوائل العصور الوسطى ألا يجد كل فرد تقريبا كفايته من الأكل، ولم يصبح النسك الإنفرادى حركة قوية في الحياة الدينية الغربية إلا بعد وجود المجتمع الحضري في القرنين الحادى عشر والثاني عشر. وحتى ذلك الوقت كانت الديرية الغربية تتميز بارتباطها بالنظام الجماعى.

وتماثلت الأنماط الأولى من الديرية في غرب أوروبا تماثلا شديدا مع الكيان الغضفاض للجماعات الدينية الشرقية. والحقيقة، أن الدير الذى أسسه « حنا كاسيان St. John Cassian » في مرسيليا في أوائل القرن الخامس، كان من هذا النوع من الديرية. ويعتبر كتاب « المقارنات » الذى يحوى ما كتبه كاسيان عن محاوراته مع آباء الصحراء المصريين، إسهاما في تطوير النظام الديرى الغربى. ويوضح كتابه هذا مدى ما تمتع به آباء الصحراء من قدسية، كما يكشف عن الأخطار الناجمة عن عزلة حياة الزهد، الأمر

الذى جعل الكتاب مطلوباً في جميع أديرة العصور الوسطى الباكرة.

وكانت أكثر الأديرة نجاحاً في القرنين الخامس والسادس هي تلك التي وجدت في أيرلندة؛ إذ تماثلت الأديرة الأيرلندية إلى حد بعيد مع الأديرة الشرقية من حيث الشكل وربما كان ذلك نتيجة للتأثيرات المباشرة القادمة من شرق البحر المتوسط، فهناك بعض الأدلة على قدوم رجال الكنيسة الاغريقية إلى أيرلندة في القرن السادس، والراجح أنهم تتبعوا طرق التجارة بين أيرلندة والشرق، وكان الرهبان الأيرلنديون يمثلون استثناء من حيث رقى تعليمهم وغيرتهم الدينية؛ فقد قاموا بأعمال تبشيرية ممتازة، كما كانوا رواداً في تحويل الأنجلو - سكسون الوثنيين إلى المسيحية، وفي محاولات إصلاح الكنيسة في غالة، ولكن لم تكن لمقدم الدير الأيرلندي أية سلطة على الأخوة الرهبان الذين تمتعوا بحرية الذهاب والإياب كيفما تراسى لهم، وبدلاً من هذا الشكل الفضيض للحياة الديرية، قُدِّرَ لنمط آخر من الحياة الديرية، أكثر احكاماً وصرامة - بل إنه كان في الواقع شكلاً من أشكال الديرية الجماعية - أن يصبح ممد النظام الديرى في أوروبا الغربية حتى القرن الحادى عشر.

ما أن غربت شمس القرن التاسع، حتى كان نظام القديس بندكت النورسى St. Benedict of Nursia هو القاعدة التي تسير عليها جميع الأديرة الغربية باستثناء أديرة أيرلندة، وكان القديس بندكت (ت. سنة ٥٤٣) قد وضع هذا النظام للدير الذي أسسه في مونت كاسينو Mont Cassino بالقرب من نابلى، وصار النظام البندكتى طابع الديرية الغربية، ونظراً للمساهمة الهامة التي قدمها الرهبان السود (كما أطلق عليهم بسبب لون مسوحهم) في الحياة الدينية، والتعليم والحكومة الاقتصادية، عرفت الفترة من سنة ٥٠٠ إلى سنة ١١٥٠ غالباً باسم «القرن البندكتية». ومن المؤكد أن القديس بندكت لم يقصد أن يرسى نظاماً أو يبنى مؤسسة تتصدى لزعامة مجتمع العصور الوسطى، بل إن هناك خلافاً وجدلاً حول إذا ما كان قصده أن يطبق نظامه على نطاق

عالمى فى جميع الأديرة اللاتينية. ولكن من الثابت أن القديس بندكت كان يأمل فى أن يقلد الآخرون نمط الحياة الدينية فى مونت كاسينو. ولم يتوصل الى الصيغة النهائية لدستوره الرهبانى (٢) إلا بعد سنوات عديدة من التدبر والتفكير المتأنى فى الحياة الدينية المثالية، وبعد أن مرت به بعض التجارب الأليمة. ولما كان بندكت سليل الأرستقراطية الرومانية القديمة فإنه جلب الى الحياة الديرية المفهوم الجماعى الرومانى عن الأمر، والنظام، والسلطة وكان قد تمرد على المدرسة التى أرسله أبواه إليها فى روما، وهرب إلى منطقة موحشة لكى يصير ناسكا ؛ ولكنه اكتشف إن حياة الزهد والنسك الانفرادى ليست حياة مرضية كما أنها خطيرة من الوجهة النفسية. ثم أصبح مقدما فى أحد المجتمعات الديرية الشرقية الحرة التى كانت شائعة آنذاك . بيد أنه تكدر واغتم بسبب الفوضى والتراخى والتساهل التى قابلها هناك، ومن هذه التجارب استمد انتقاداته القاسية التى وجهها فى مقدمة دستوره ضد الأشكال الديرية القديمة.

كان هدف الجماعة البندكتية أن تضمن الخلاص لأرواح أعضائها . فقد كانت الجماعة تتمتع بالاكتماء الذاتى تماما، اقتصاديا ، سياسيا، وروحانيا. ولم يكن لها أن تعتمد على العالم الخارجى فى شئ سوى فى أقصى حالات الفساد وسوء السمعة التى قد تلحق بالجماعة الديرية. إذ كان التدخل الخارجى فى الدستور البندكتى مشروطا بحالة واحدة فقط هى أن تكون حياة مقدم الدير والرهبان ملطخة بالقضائح؛ فحينئذ فقط يصبح من المتوقع أن يتدخل الأسقف أو أحد المؤمنين فى الجوار لإعادة بناء الحياة النظامية، وفيما عدا هذا الاستثناء كان على الدير البندكى أن يحقق الاكتفاء الذاتى التام، يمون نفسه بنفسه ويحكم نفسه فى عالم خاص به. وكان الرهبان ينتخبون مقدم الدير لمدى الحياة ، حيث تكون له السلطة المطلقة على حياة وأرواح الأخوة الرهبان الذين تحتم عليهم

(٢) عن « الدستور البندكتى » انظر :

Robert Brentano : the Early Middle Ages (Macmillan 1994), pp. 81 - 95.

Norman F. Cantor : The Medieval World (2cd, Macmillan 1968) pp. 99 - 111.

أن يلتزموا بأعباء شديدة الوطأة، وبالزهد، وطاعة مقدم الدير لمدى الحياة، وكانت سلطة مقدم الدير المطلقة تستند على مبادئ النظام الكنسى، فإنه سوف يحاسب أمام الله على أفعاله بوصفه وزيراً مقدساً فى الدير، وكان هذا الالتزام السامى بمثابة التصديق على سلطته من جانب الجماعة، وقد تمتع مقدم الدير بسلطة مطلقة فى تنظيم الحياة اليومية بالدير وتوزيع الأعباء المختلفة على الرهبان، ومعاقبتهم عند الضرورة، ولم يكن مسموحاً للرهبان أن يتركوا الدير على الإطلاق، وإلا تحت ظروف إستثنائية للغاية، وبموافقة مقدم الدير، وكان على الرهبان أن يطيعوا أوامر مقدم الدير أياً كانت، حتى لو كانت خاطئة فى رأيهم. ذلك أن مسئولية التصرف الخاطيء سوف تقع على عاتق مقدم الدير وليس على الراهب الذى كان يطيع القواعد التى حددها له رئيسه الكنسى.

وتتميز الحياة الديرية، كما يصورها الدستور البندكتى، بأنها حياة عامة غاية فى التنظيم، والترتيب الصارم والنظام الثابت، ولم يكن الدستور البندكتى يتضمن أية صورة من صور الرهبانية المتطرفة، إذ كان بندكت يتمتع بحس رومانى متوازن، وبمنظرة سيكلوجية ثابتة فيما يتعلق بالقيود التى يمكن أن تلائم طبيعة البشر، فلم يكن دستوره ينكر حق البدن - بل على العكس من ذلك، كان مقدم الدير مسئولاً عن الحفاظ على صحة الإخوان فى الدير، كما كان عليه أن يتأكد من أنهم يتناولون وجبتين يومياً. فضلاً عن أن المريض، والصغير والعجوز كانوا يلقون عناية خاصة، والواضح أن بندكت لم يلق بالاً إلى أشكال التقشف المتطرفة مثل الجلد بالسياط، وأرتداء قمصان الشعر الخشنة، والصيام الطويل فقد كان يؤمن بتنظيم حاجات الجسد؛ لابتدعيم النفس أو الكفر بالذات.

كان النظام اليومى فى الدير، وفقاً لما تصوره الدستور البندكتى، يعتمد إلى حد ما على الفصل السائد من فصول السنة، بيد أننا إذا اخذنا متوسطاً عن العام كله، سنجد أن الساعات الأربع والعشرين فى حياة الراهب اليومية، كانت موزعة على أربعة أقسام، فقد كرس أربع ساعات يومياً للقداس Opus Dei، بينما خصصت أربع ساعات للصلاة

الانفرادية والتأمل، والقراءة الخاصة في الأدب الدينى، كما كرست ست ساعات للأعمال اليومية؛ فقد كان على الدير أن ينتج طعامه بنفسه، وأن يحقق اكتفاء ذاتيا كاملا. أما الساعات العشر الباقية فقد تركت للأكل والنوم، وتحتم على الرهبان السود أن يحيا فى جو دائم من التقوى والورع يلفه الصمت، ويميزه التجرد من الدنيا. ولم يكن الصمت المطبق مطلوبا، بيد أن الثثرة الفارغة كانت ممنوعة. وأثناء تناول وجبات الطعام كان على أحد الاخوان أن يقرأ بصوت مرتفع فى أحد الكتب الدينية - المزامير أو مقارنات كاسيان - ينما يتناول الآخرون طعامهم فى صمت.

وكان بندكت موقنا من أنه لن يكون بوسع بعض الناس، حتى الاتقياء منهم، أن يحتملوا حياة على هذه الدرجة من القيود والتنظيم. ومن ثم ، حدد متطلبات صارمة للإنخراط فى الجماعة الديرية؛ فقد كان على من يتقدم للحياة الديرية أن يخضع لفترة تجريبية على مدى سنة كاملة قبل أن ينهال العهد النهائى. وفى هذه الأثناء يقوم مقدم الدير بمراقبة سلوك الراهب الجديد بحرص. وكان القديس بندكت يعتبر ديريه بمثابة مجتمع مصغر يضم كل الطبقات، وكل الفنى والفقير، المسن والشاب، المتعلم والامى، والقساوسة والعلمانيين. وكان الدستور البندكتى يسمح باستقبال الأطفال فى الأديرة كأشخاص منضوين لخدمة الرب.

لم يخطر ببال بندكت قط، أن يكون الرهبان جميعا من الرجال المتعلمين أو من رجال الدين. فقد أراد أن يقوم الرهبان بتعليم الأميين والجهلاء إلا أنه، بكل تأكيد لم يكن ينظر الى ديريه باعتباره مركزاً تعليمياً ؛ فلم يكن لجماعته ان تقدم شيئا للمجتمع أو أن تسدى أية خدمات الحضارة، ولا حتى الكنيسة. وقد وجدت هذه الأنانية الجماعية لنفسها مبرراً على أساس أنها تقدم المأوى الذى يجد فيه المتدينون مكاناً يسعون فيه إلى تحقيق أسمى غايات الانسان، ألا وهو الحج الى « مدينة الله ».

وفى القرون الثلاثة الأولى التى أعقبت موت بندكت، تعرض النظام الديرى الذى ابتدعه لتغييرات هامة، كما اندمج فى المجتمع كمؤسسة لها الأهمية الأولى ولم يكن هذا هو ما أراده بندكت، أو أحب أن يكون ولكنه كما أوضح نواز جعله تطوراً حتمياً بشكل ما ، بسبب فعالية وتأثير النظام الذى ابتدعه، فقد كان مجتمع العصور الوسطى الباكرة، بافتقاره الشديد الى النظام القادر على العمل ، يفرض على الرهبان التزامات إجتماعية معينة، ولم يكن المجتمع قادراً على الاستغناء عن خدمات المتعلمين من الرجال والقادة القادرين الذين كانت تضمهم الجماعات الديرية ، بل جذبهم خارج تنظيماتهم الدينية لكى يسبوا إليه أهم الخدمات وأعظمها. كما أن طبيعة الاكتفاء الذاتى فى الدير البندكتى جعلت منه وحدة سرعان ما توافقت مع ظروف العصور الوسطى الباكرة . وهو الأمر الذى بدأ ظهوره فى العالم الجديد الذى خلفته الغزوات الجرمانية؛ حيث كانت الحياة السياسية والاقتصادية قد تحلت، بينما صارت الوحدات المحلية فى المجتمع أكثر فعالية وتأثيراً، فسرعان ما حلت الضيعة الاقطاعية، والقرية والمقاطعة محل الدولة والمدينة كمراكز للحضارة. وقد تلازم الدير البندكتى تماماً مع النزعة المحلية كما أنيطت به عدة مهام هامة، تعليمية ، دينية، واقتصادية ، وسياسية بفضل كفاءته وقدرته الذاتية على الاستمرار.

وحتى فى أيام بندكت نفسه صور العالم الأرستقراطى الرومانى كاسيودوروس Cassiodorus الأديرة باعتبارها أكثر الأماكن ملائمة للتعليم، كما اعتبر أنها المراكز الأدبية فى المجتمع الجديد . ويخبرنا كاسيودوروس أنه كان يريد أن ينشئ مدرسة مسيحية للدراسات العليا على غرار المدارس الريانية، اليهودية ^(٣) التى علم وجودها فى

(٣) الرهبان (الرهبون) هم غالبية يهود العلم المعروفين أكثر من غيرهم الآن، كما كانوا فى العصور الوسطى، وتعنى كلمة « رهبان » المبرية : الامام أو المهر النقي، وقد عرفت هذه الكلمة إلى « رهبان » ووردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (سورة المائدة آية ٤٣) ، « أنا أنزلنا العزوة فيها هدى ونور يحكم بها الرهبون الذين أسلموا للدين هادوا والرهبانون الأسفار ، بما استحلوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء.. الآية » ويورد الرقوت أصبح هذا اللفظ يطلق على الغالبية العظمى من اليهود، وقد سمي أتباع هذه الفرقة رهبانين إشارة إلى تفاسير علماء اليهود الرهبانين وهم يختلفون فى عدد من المسائل الجوهرية والفرعية مع غيرهم من الفرق اليهودية مثل القرائين والسامرة لمزيد من المعلومات عن اليهود الرهبانين أنظر قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، ص =

الشرق الأوسط، ولكنه وجد ذلك مستحيلاً بسبب ظروف العصر، وبدلاً من مثل هذا المعهد للدراسات ؛ كرس نفسه لإنشاء نوع من المؤسسات التعليمية أقل من ذلك في المستوى وإذا أسس ديراً لكي يستخدمه كمركز للتعليم والبحث المسيحي، وفي كتابه المسمى « مدخل إلى القراءات الدينية والدنيوية » يحدد كاسيودوروس دقة برنامجاً للمدرسة الديرية أوضح فيه أنه يجب على الرهبان غرس تقليد دراسة كتابات آباء الكنيسة؛ بيد أنه يجب عليهم أيضاً أن يحفظوا وأن يدرسوا نصوصاً كلاسيكية معينة، لكي يتعلموا اللغة اللاتينية الضرورية لهذه الدراسة المسيحية، كان هذا العمل التعليمي يفترض مسبقاً، كما بين كاسيودوروس ، أنه سيكون لدى الدير مكتبة جيدة من النصوص المسيحية والوثنية، وأن هذه المكتبة بدورها تضم حجرة للنسخ Scriptorium تقوم بإعداد النسخ المراد دراستها في المدرسة الديرية.

وفي القرنين التاليين لتأسيس دير كاسيودوروس ذى الاتجاه التعليمي قامت الجماعات البندكتية في شتى أوروبا بتأسيس المدارس والمكتبات وحجرات النسخ المشابهة. ولم يكن هذا راجعاً إلى تأثير كاسيودوروس ورسائله التعليمية فحسب على الرغم من الأهمية العظمى لهذه المؤسسات فيما يتعلق بتلبية الحاجات الاجتماعية؛ إذ أنه بانهيار الدولة الرومانية، وتقلص المدن عدداً، ومساحة، وسكاناً في غرب أوروبا ، اختفت مدارس الدولة ومدارس البلديات، ولم تكن المدارس الأسقفية في العصور الوسطى الباكورة سوى مؤسسات تخضع فعاليتها وتأثيرها للظروف السائدة . فقد اعتمدت تلك المدارس اعتماداً كاملاً على تعضيد ورعاية الأساقفة الذين نادراً ما كانوا يهتمون بالحياة الفكرية، بل أنه حتى حين كانت تقام مدرسة أسقفية مزدهرة، فإن الأسقف التالي غالباً ما يكون من أنصاف المتعلمين فيسرح هيئة التدريس ، ويبيع المكتبة. وكان الدير البندكتي هو المؤسسة

١٠٩٣ - ص ١١٠ : مراد ليرج : القرامن والريانون (القاهرة ١٩١٧) أنظر أيضاً على عبد الواحد واني : اليهودية واليهود، من ٨٠ وما بعدها (القاهرة ١٩٧٠) وكذلك :

Universal Jewish Ency : Art Rabbanite.

(المترجم)

الوحيدة القادرة على الاستمرار، والتي تمتلك الموارد، والمكتبة، فضلاً عن المدد الدائم من المدرسين؛ مما جعله مؤسسة تعليمية فعالة. وقد تعين على الرهبان أن يقوموا بهذا العمل التعليمي من أجل الحفاظ على الأدب المسيحي، وما أن أهل عام ٨٠٠ حتى كانت الأديرة البندكتية الهامة في شتى أنحاء أوروبا تمتلك مدارسها المزدهرة، وحجرات النسخ التي تنتج المخطوطات، ويتم تقدير متحفها فإن ٩٠ ٪ من الرجال المتعلمين بين سنة ٦٠٠ وسنة ١١٠٠ تلقوا تعليمهم في مدارس ديرية.

وليس بوسعنا أن نقول إن الأديرة البندكتية كانت مؤسسات تعليمية نموذجية، إذ أن موقفها من التعليم كان موقفاً وظيفياً إلى أبعد الحدود؛ فقد أولت اهتمامها لتدريس اللغة اللاتينية، ونشر التراث الذي خلفته دراسات آباء الكنيسة من أجل الحفاظ على الوعي الثقافي للكنيسة، ومع بعض الاستثناءات القليلة، نجد أن العلماء الديرين في العصور الباكورة قد اتخذوا موقفاً وظيفياً إتباعاً لموقف أوغسطين تجاه التراث الكلاسيكي، إذ أنهم اهتموا بالأدب اللاتيني كوسيلة لتعليم تلاميذهم الكتابة بلغة لاتينية مقبولة لا أكثر ولا أقل. وقد أدى هذا الموقف إلى حرمان الأديرة من أن تصير مركزاً للفكر الخلاق، ولكن مجتمع العصور الوسطى الباكورة، على أية حال، لم يكن يمتلك وقت الفراغ اللازم للإبداع الفكري، فقد كان مطلوباً من جميع المتعلمين أن يقوموا بخدمة الكنيسة والملكية، وعلى الرغم من أن الناسخ الديرى في أوائل العصور الوسطى لم يكن يقدر النصوص الكلاسيكية التي ينسخها تقديراً جمالياً، فإنه قد حاف تقريباً على جميع كتابات العالم القديم اللاتينية ذات القيمة، وأقدم مخطوطات النصوص الكلاسيكية التي وصلتنا هي تلك التي نسخها الرهبان البندكتيون في العصور الباكورة.

وبينما صور القديس بندكت القديس باعتباره جزءاً متميزاً من اليوم الديرى فحسب؛ أصبح لـ Opus Dei في القرن التاسع المهمة الرئيسية في كثير من الأديرة البندكتية، وكانت الخدمة في المذبح تستغرق كل ساعات النهار تقريباً لدى مثل هذه

الجماعات، وقد نتج هذا التطور عن الاحترام الدائم والرغبة اللذين استمر المجتمع العلماني ينظر بهما إلى الرجال الزاهدين نوى الصفات القدسية. ومثلما كانت جماهير الاسكندرية تتوسل إلى القديس « أنطوني » أن يصلى من أجلهم، اتخذ الناس الرهبان البندكتيين، الذين استحوذوا على اعجابهم الشديد، وسطاءهم وشفعاءهم الرسميين عند الله من أجل مجتمع العصور الوسطى الباكرة، كما أغدق الملوك والنبلاء والضياع، بما تدره من مكاسب، على الأديرة لقاء القداس الذي يقوم به الدير من أجل أرواح أقاربهم. وبحلول القرن التاسع كانت هناك أديرة كثيرة تنعم بالثروات الطائلة من وراء تلك الهبات والعطايا لقاء خدمة القداس. وألقى مقدم الدير نفسه سيداً على ضياع واسعة تعمل فيها جموع المزارعين التابعين، وحتى من هذه الناحية شارك الرهبان الديرين في حياة مجتمع العصور الوسطى؛ إذ كانت ضياعهم تدار بكفاية وذكاء أكثر من معظم ضياع النبلاء. فقد كان الرهبان رواداً في أسس العلم الزراعي في مطلع العصور الوسطى، أيا كانت قيمة هذه الأسس. وبحلول القرن العاشر كان الرهبان السود يمتلكون جزءاً كبيراً من أجود الأراضي الزراعية في أوروبا الغربية.

هذا التطور وضع كثيرين من مقدمى الأديرة ضمن القوى المحلية، وأنيطت بهم سلطات سياسية وقضائية على سكان ضياعهم، شأنهم في ذلك شأن النبلاء، وفي أثناء تطور النظام الإقطاعي إبان القرنين التاسع والعاشر، صار أكبر مقدمى أديرة شمال أوروبا أفصلاً لإقطاعيين للملوك والدوقات، بسبب ثروتهم ونفوذهم. وكان عليهم أن يرسلوا الفرسان للعمل في جيوش سادتهم الإقطاعيين. وكان مقدم الدير البندكتي فصلاً Vassal ملكياً بالغ الأهمية في معظم الأحيان وكان أحد أولئك الأفصال الديرين في إنجلترا وأواخر القرن الحادى عشر يقدم ستين فارساً للخدمة في الجيش الملكى، مما جعله واحداً من أهم ثلاثة أو أربعة من كبار الملوك في المملكة. وقد كان مقدم دير بيورى - سان آدموندز Bury St. Edmonds - يتحكم في أكثر من نصف أراضي كونتية نورفولك Norfolk في القرن

الثانى عشر، بل إن هناك أمثلة قليلة فى القرنين العاشر والحادى عشر تدل على أن بعض مقدمى الأديرة الفرنسيين كانوا يرتدون لباس الحرب، ويتوجهون للقتال على رأس فرسانهم، كما برز نفوذ مقدمى الأديرة على الصعيد السياسى نتيجة لاحتكار الأديرة للتعليم، إذ كان العلماء البندكتيون البارزون يعملون فى خدمة الكنيسة، وخرج منهم أساقفة وبابوات، وأعضاء فى مستشارية الملك أو الدوق، كما كان منهم وزراء ملكيون، ومستشارون يثق بهم الحكام. ومنذ القرن الثانى عشر برزت أمثلة عديدة من رجال الدولة الديريين الذين كانوا يعملون فعلاً كوزراء فى خدمة الملكيات الغربية.

لقد تركت الالتزامات الفردية والجماعية التى نهضت بأعبائها الأديرة البندكتية تأثيرها على الحياة الداخلية وتكوينات الجماعات الدينية بعد قرنين من وفاة بندكت، وما أن أهلت سنة ٨٠٠ حتى تخلت الأديرة عن سياسة الاكتفاء الذاتى، ولم يعد الرهبان السود يقومون بالأعمال البدنية، فقد كان الاثنان يعملون فى ضياع الرهبان فيوفرون لهم المأوى والأغذية، على حين كرس الرهبان أنفسهم للعمل التعليمى وخدمة القديس. كما أن عضوية الجماعة البندكتية فى القرن التاسع لم تعد انعكاساً لكل طبقات المجتمع إذ صار الرهبان من طبقة النبلاء دون سواها، وكان مقدمو الأديرة البندكتية فى القرن العاشر من أعلى الطبقات الأرستقراطية فى العادة، وفى كثير من الأحوال كانوا من الأمراء. أما أديرة النساء البندكتية، التى بدأ تأسيسها عقب موت بندكت مباشرة، فكانت تنقسم بتجانس تكوينها الاجتماعى على نحو خاص، فقد كانت راهبات القرنين التاسع والعاشر جميعاً من سيدات الطبقة الراقية، وكان يستحيل تماماً قبول إحدى السيدات فى الأديرة البندكتية ما لم تكن أرملة أو سيدة تنتمى بصلة القربى لأحد أصحاب النفوذ، وبينما ظل معظم الرهبان فى أديرتهم مقيمين على عهودهم، كان أكثرهم مقدرة غالباً ما يتركون جماعاتهم منذ القرن الثامن فصاعداً ليعملوا فى ميدان التبشير، وفى الكنيسة، أو فى السكرتارية الملكية، ولم يكن هذا هو الدير كما أنشأه القديس بندكت، ولكنه كان مؤسسة لعبت دور القوة

الإصلاحية الفعالة في مجتمع العصور الوسطى الباكرة. فقد أمست الديرية، التي بدأت كمهرب إلى الصحراء بعيداً عن العالم المتعدن، جزءاً مندمجاً في المجتمع وقوة إنقاذية هامة في خضم الفوضى التي أعقبت الغزوات الجرمانية لأوروبا في العصور الوسطى الباكرة.

٢- جريجورى الكبير والبابوية أوائل العصور الوسطى

من الممكن أن نقيس مدى المساهمة البندكتية في قيادة كنيسة العصور الوسطى الباكرة من خلال الحقيقة القائلة بأن كثيرين من البارزين في الفترة ما بين القرن السادس والقرن الثامن عشر كانوا من الرهبان السود. ففي سنة ٩٥٠ أعتلى أول أولئك البابوات الديرين، وهو جريجورى الأول الكبير Gregory I The Great (ت سنة ٦٠٤)، عرش القديس بطرس، وعلى الرغم من أن فترة بابويته لم تكن طويلة، فإنها تعتبر من أهم نقاط التحول في تاريخ كنيسة العصور الوسطى. وليس السبب في هذا راجعاً إلى أنه استطاع أن يتغلب مرة واحدة على الآثار المدمرة التي تركتها الغزوات الجرمانية على نظام وثقافة الكنيسة اللاتينية؛ فإن تحقيق هذا الهدف استغرق خمسة قرون أصبحت أوروبا بعدها قارة مسيحية بمعنى الكلمة. ولكن أهمية جريجورى الأول تتمثل في أنه صاغ بشكل واضح المنهج الذى كان على البابوية أن تنتهجه على مدى القرنين التاليين. فقد أدرك تماماً أن مصير البابوية التاريخي يجب أن يتحدد في غرب أوروبا، كما أدرك أن السبيل إلى تأكيد زعامة البابوية للمجتمع الأوربي هو التحالف مع النظم الديرية، والملكية الفرنجية.

وعقب انتخاب جريجورى لمنصب البابوية أرسل خطابات يعلن فيها أنه لم يكن يسعى إلى عرش بطرس، وأنه كان يفضل حياة الرهبان بما فيها من عبادة وتأمل. وكان جريجورى صادقاً في تصريحه، على الرغم من أن مثل هذه العبارات المتواضعة صارت تقليداً عند البابوات اللاحقين؛ حتى أولئك الذين سعوا منهم عدة سنوات من أجل الفوز بالكرسی البابوي. وكان جريجورى يعلم حيناً أعتلى كرسی البابوية أن الكنيسة تسير في

طريق محفوف بالأخطار وأن مشاكل تأكيد زعامة البابوية في غرب أوروبا مشاكل مستعصية تماماً. فقد كانت الكنيسة اللاتينية في عصره أشبه بسفينة يصدر عنها صرير الفرق، والواقع أن البابوية لم تمارس أى دور قيادى فعال منذ بابوية جيلازيوس الأول، قبل قرن تقريباً. ولم يبذل بابوات القرن السادس أى جهد لعلاج التغير الذى طرأ على الحكومة والمجتمع الأوربي في أعقاب الغزوات الجرمانية. إذ أن أساقفة بلاد الغال وضعوا مصالحهم في سلة واحدة مع مصالح الأسرة الميروفنجية، وحين تدهورت هذه الأسرة ربط هؤلاء الأساقفة مصالحهم بمصالح الأرستقراطية المحلية في المقاطعات. بل أن نظرة جريجورى التورى، الذى يعد أفضل أساقفة غاليا آنذاك، تتسم بالقصور الشديد بالقياس إلى نظرة أمبروز وأوغسطين العالمية؛ فإن رؤيته القاصرة لم تتعد حدود الأبرشية الضيقة وقد قال مؤرخ ألماني لامع من المتخصصين في تاريخ كنيسة العصور الوسطى الباكورة، إن تاريخ الكنيسة الفرنجية قبل القرن الثامن، يمكن كتابته دون ذكر روما على الإطلاق، وهذا القول صحيح إلى حد كبير. ولم يكن ينتظر من الكنيسة الأسبانية في ظل الحكم القوطى الغربى أن تقدم ما هو أفضل من ذلك. إذ كان القوط الغربيون قد تحولوا من الأريوسية إلى الكاثوليكية، وارتبط الأساقفة الاسبان ارتباطاً وطيداً بالملكية القوطية. وبتصرفهم هذا ربطوا مصير الكنيسة الاسبانية، بمؤسسة عاجزة هي مملكة القوط الغربيين التى كانت تستمد قوتها من التأييد المعنوى الذى أسبغته عليها الكنيسة. وهو ما لم يكن كافياً لانقاذ مملكة القوط الغربيين في اسبانيا من الغزو الاسلامى في مطلع القرن الثامن.

وعندما أرتقى جريجورى الكرسي البابوى، كان موقف الكنيسة الرومانية نفسها مزعزعا للغاية. ^(٤) فقد كان البابا محاطاً بالأعداء من كل جانب، فالى الشمال كان اللمباردويون البدائيون سادريين في تأييدهم للأريوسية على حين كانت قوات الامبراطورية

(٤) حول هذا الموضوع أنظر :

Margaret Deanesly : A History of The medieval church (Mithuen and co., London 9th ed.,

PP 15 - 28' Geoffrey Barraclough : The Medieval Papacy, (Thomas and Hudson Lon-
(don 1968), PP. 27 - 34. (المترجم)

البيزنطية في رافنا وجنوب إيطاليا تشكل تهديداً دائماً لأمن البابا، وكان التحالف بين روما وبيزنطة قد أنهار منذ زمن بعيد؛ وهو التحالف الذي تمخض عن القضاء على مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا في النصف الأول من القرن السادس، ولأن كلا من الامبراطور والبابا كان يزعم أنه نائب الله في الأرض، فقد كانت العلاقات بينهما غير مستقرة، وكانت بمثابة الهدنة في أفضل الأحوال، وكانت أيرلندة هي النقطة الوحيدة المضيئة في صورة كنيسة أواخر القرن السادس، ولم يكن بوسع جريجورى أن يطرب للمستوى الراقى الذى تميز به الرهبان الكلتيون، ذلك أن الكنيسة الأيرلندية لم تنشأ بفضل توجيهات روما؛ مما أدى إلى أن تكون لرجال الكنيسة الكلتية أساليبهم الخاصة التى كانت تختلف عن أساليب الكنيسة اللاتينية، كما أنهم كانوا يختلفون مع البابوية أيضاً حول المذهب البطرسي، كان هذا، على الأقل، هو الاستنتاج الذى كان على جريجورى أن يصل اليه حين تلقى خطابات القديس كولبان St. Columban المبشر الكبير الذى كان يعمل في بلاد الغال، والتي كانت تخاطب البابا بشأن الادارة العادية في الشئون الكنيسة، بلهجة قاسية تخلو من الاحترام، فحين اُعُتلى جريجورى كرسي البابوية كانت البعثات التبشيرية الأيرلندية تتوغل فعلا في شمال انجلترا؛ محرزة بذلك قصب السبق في تحويل الانجليز الوثنيين إلى المسيحية، وهو ما كان جريجورى يعتبره خطراً يهدد بحدوث انقسام بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الكلتية.

ولم يتغلب جريجورى على أى من تلك المشكلات التى جابهت الكنيسة وقت أن أُعُتلى العرش، ولكنه أرسى دعائم السياسة التي سار عليها خفاؤه في نضالهم لحل تلك المشكلات، كما أنه حرك سلسلة الأحداث التى بدأت في تحسين حال الكنيسة اللاتينية والمجتمع الأوربي، وجريجورى هو البابا الوحيد في الفترة ما بين القرن الخامس والقرن الحادى عشر الذى حفظت لنا الأيام مراسلاته وكتاباتة الأخرى كاملة، ولدينا الوثائق الكافية لكتابة سيرته وتوضيح جوانب شخصيته، وذلك أن ملامحه ليست مجهولة لنا مثل

رجال الكنيسة الآخرين في العصور الوسطى الباكرة ، ولكن شخصيته تصدمننا كشخصية غامضة مبهمه. فمن ناحية كان جريجورى إدارياً قديراً حاسماً، ودبلوماسياً ماهراً حاذقاً، كما كان زعيماً على قدر كبير من الوضوح الفكرى. ولكنه من ناحية أخرى يبدو من خلال كتابته راهباً ساذجاً يؤمن بالخرافات والخزعبلات ويعادى التعليم ، كما يبدو فى صورة رجل اللاهوت المحدود الأفق الذى يؤمن بالقديسين ، والمعجزات والذخائر المقدسة، وليس من الممكن أن نفسر هذا الغموض الظاهر سوى على ضوء خلفية جريجورى والوسط الذى عاش فيه. فقد كانت إيطاليا أواخر القرن السادس تعاني من آثار الحرب القوطية الطويلة و آثار الغزو اللمباردى المدمرة. إذ تدهورت الحياة الحضرية، اضمحلت الثقافة، كما أخذ الاتجاه نحو الاقتصاد الريفى يتزايد، وانتشر الجهل وتفشيت الخرافات. وكان جريجورى سليل عائلة رومانية قديمة، وتعلم تعليماً كلاسيكياً طيباً، ولكن اهتمامه الأول كان موجهاً، وهو فى طور الرجولة، الى خلاص روحه عن طريق الهرب من العالم وأنشأ ديراً عاش هو نفسه به كراهب متواضع. وعلى الرغم من إعجابه الشديد بالقديس بندكت، الذى كتب سيرته، فإن موقفه الشخصى من الحياة الديرية كان يفتقر إلى اعتدال بندكت واحترامه للطبيعة البشرية. فقد فرض جريجورى على نفسه قيوداً صارمة تركت آثارها الوبيطة على صحته بشكل دائم. وحتى حين تولى البابوية كانت نظراته للامور تعكس آثار التعصب غياب الحس الانسانى مع الكفاية والمقدرة التقليدية فى الحكم التى تميزت بها الأرستقراطية الرومانية. لقد سمع جريجورى ذات مرة أن أحد الأساقفة فى بلاد الغال قد اعتزم انشاء مدرسة لدراسة الفنون الحرة، وبدلاً من أن يهنئ رجل الكنيسة على جهوده لتطوير التعليم وتحسينه، عاقبه على أنشغاله فى هذا المشروع الذى كان البابا يراه مشروعاً سخيلاً . وثمة عيب آخر واضح فى شخصية جريجورى هو عدم اهتمامه بدراسة اللغة اليونانية، حين كان قاصداً رسولياً (سفيراً بابوياً) على مدى عدة سنوات فى القسطنطينية . وتكشف لنا ثقافة جريجورى الشخصية عن النتائج المدمرة للتقلبات التى مرت بها إيطاليا إبان القرن السادس، إذ تضمنت كتاباته آثاراً تدل على ضيق الأفق والتفاهة والعناد المدمر الذى تتسم

به كتابات معاصره جريجورى التورى ومن حسن الطالع أن جريجورى الكبير لم تتسن له متابعة اتجاهه العنيد، وإلا بقى مجرد راهب مغمور جاهل، فقد كانت الكنيسة فى حاجة إلى رجل على هذا القدر من التعليم والذكاء والاخلاص والتجربة السياسية، وترك جريجورى ديريه ليلتحق بخدمة البابوية؛ وعلى نهجه سار كثيرون من الرهبان البندكتيين فى القرون التالية، وجلس على عرش القديس بطرس مكرها، وتتنقسم أعماله كبايا إلى أقسام ثلاثة هى : مساهمته وإضافاته إلى المنصب البابوى، وموقفه من البابوية، وتسخيريه للبعثات التبشيرية فى خدمة الكنيسة.

وفيما يتعلق بالقسم الأول كان جريجورى مدركاً لحقيقة أنه عضو فى حكومة الكنيسة، وفى كتابه «كتاب العناية بالرعية» حدد لرفاقه من رجال الكنيسة واجباتهم كرعاة لكنائس العشب المسيحى، مقارنا هذه الواجبات بالمزايا التى يتمتعون بها بوصفهم أمراء الكنيسة، وهى المزايا التى كانت تحتل المركز الأول بين اهتماماتهم ولا يمكن القول بأن الرسالة التى كتبها جريجورى عن المنصب الكنسى قد أقنعت زملاءه باتخاذ مواقف أكثر غيره وحماسة تجاه مناصبهم ولكنها، على الأقل، استخدمت فى القرون التالية كبيان تعريفى بطبيعة الوظيفة الكنسية، وعلى أية حال، كان جريجورى واعياً بالحقيقة القائلة بأنه كان أكثر من مجرد أسقف؛ وإنما هو نائب المسيح على الأرض لأنه أسقف روما، ولم يقدم أى جديد لتطوير إيديولوجية البابوية، ولكنه لخص المذهب الجيلانزى، ونظرية ليو الأول فى المذهب البطررسى تلخيصاً حازقاً، وتلخصت نظريته إلى المنصب البابوى فى مصطلح «خادم خدام الرب Servus Servorum Dei» الذى استخدمه كلقب رسمى له، وهو اللقب الذى لا يزال يظهر كلقب ثانوى فى الوثائق البابوية، وهكذا عبر جريجورى عن السلطة البابوية فى ضوء مبدأ الحكومة الكنسية الذى كان القديس بندكت قد استخدمه بالفعل لتبرير سلطة مقدم الدير المطلقة على أرواح الرهبان فى ديريه، ووجد مبدأ الحكومة الكنسية سنداً له فى الكتاب المقدس فى عبارة المسيح فى إنجيل مرقس^(٥) «ومن أراد

(٥) مرقس ١٠ : ٤٣ - ٤٤ « من أراد أن يصير فيكم عظيماً، يكون لكم خادماً، ومن أراد أن يصير فيكم أولاً، يكون للجميع عبداً ».

أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبداً؛ وهو ما يعنى أن صاحب المسئولية الأكبر تكون له السلطة الأعلى، ولما كان البابا مسئولاً أمام الرب كزعيم للكنيسة المسيحية، كان ينبغي ألا تكون سلطته مقيدة حتى يتسنى له القيام بأعباء العمل المقدس الموكل إليه.

بيد أن اقرار أيديولوجية البابوية كان شيئاً، على حين كان تأكيد الزعامة الفعلية للبابوية في غرب أوروبا شيئاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف. فقد كان من رأى جريجورى أن الضرورة الملحة تدعو إلى تأمين مركز البابا في إيطاليا نفسها، والعمل على توسيع رقعة الأراضي الخاضعة للحكم البابوى فيما وراء روما، وبناء الدولة البابوية. كما كان على وصى تام بالحاجة إلى دخل ثابت لكى يضمن على أعماله الإدارية في الكنيسة الفعالية اللازمة، وقد كرس خطابات كثيرة من خطابات جريجورى لارشاد وكلائه كيف يديرون الضياع البابوية في جنوب إيطاليا بكفاءة.

وحتى إذا أحرز البابا وضعاً مستقلاً آمناً في إيطاليا، كان عليه أن يقيم العلاقة مع الكنائس الإقليمية في البلاد الجرمانية، إذا ما كان يريد حقاً أن يؤكد وضعه كزعيم للعالم المسيحى. وكان جريجورى أكثر إدراكاً لهذه الحقيقة من أى بابا سبقه، وهو ما يدعم المزاعم التى تجعل منه مؤسس البابوية في العصور الوسطى. فقد أيقن أن أوروبا ليست مسالة جغرافية فقط؛ ولكنها حضارة متميزة وروح ترتبط بالمسيحية اللاتينية التى ربطت البابوية نفسها بمصيرها ربطاً مطلقاً. وكان جريجورى يحترم امبراطور القسطنطينية، لا لأنه كان يعتقد بأن هناك ما يمكن أن يقدمه الإمبراطور الرومانى، وإنما فقط لأنه كان يهتم بالحفاظ على حالة السلام القلق مع القسطنطينية حتى يضمن للبابوية حرية متابعة أهدافها في أوروبا الغربية. كما كان جريجورى يدرك تماماً أنه يجب على البابوية أن ترتبط بالتحالف مع الملكية الفرنجية على نحو ما، لكى يتحقق وجود حضارة أوربية. ولم تكن الملكية الفرنجية في زمن جريجورى نظاماً واعداً، إلا أنها سيطرت على مستقبل أوروبا السياسى نتيجة للتطورات التى عاشتها أوروبا آنذاك.

فلأن ملوك الفرنجة كانوا يتحكمون فى أراضى وسط أوروبا من الناحية الرسمية على الأقل، ولأن مملكتهم كانت أكبر وأغنى ملكيات العالم المسيحى اللاتينى؛ فقد كان من الضرورى أن تتمسدى الملكية الفرنجية لقيادة المجتمع الأوربى. بتوجيه من الكنيسة، وبفضل حيوية الملكة الفرنجية يستطع جريجورى أن يجد طريقاً آخر غير هذا يمكن أن يحقق هدفه. ولأن جريجورى كان يعى هذه الحقيقة الأساسية فى الحياة الأوربية، فقد كتب إلى الملك الميروفنجى شلدبرت الثانى Childebert II خطابات تفيض احتراماً، ولم يكن جريجورى غافلاً عن عجز ملوك الفرنجة الشديد، ولكنه كان يتصور أن التحالف بين البابوية والأسرة الميروفنجية يمكن أن يحول الملكية الفرنجية الى ملكية إصلاحية قوية.

ولم تؤت خطابات جريجورى إلى الملك الفرنجى ثمارها فى عصره. فلم يحدث قبل القرن الثامن أن تولى حكم الفرنجة ملوك أنكياء بالقدر الذى يجعلهم يفهمون نمو قوتهم الذاتية من خلال التحالف بين البابوية والفرنجة فى القرن الثامن وهو التحالف الذى قامت على أساسه الحضارة الأوربية الجديدة. وبعد تولى جريجورى البابوية بزمان قصير، ونتيجة لتحدى الكنيسة الكلتية، شعر جريجورى بضرورة تحويل إنجلترا إلى المسيحية. وكان طبيعياً بالنسبة له كراهب مجند فى خدمة الكنيسة أن يستخدم الرهبان البندكتيين فى الأعمال التبشيرية فى إنجلترا. وأصدر تعليماته إلى أوغسطين، رئيس البعثة التبشيرية، بأن يبدأ نشاطه فى مملكة كنت Kent جنوب شرق إنجلترا، لأن حاكمها كان معروفاً بزواجه من أميرة مسيحية فرنجية. وعند موت جريجورى كانت بعثة أوغسطين قد أحرزت نجاحها الأولى حين نصرت ملك كنت ونبلاته وأقامت الكنيسة اللاتينية الأولى فى كانتربورى Cantrbury (ومعناها الحرفى مدينة كنت). وفى نصف القرن التالى لموت جريجورى كان الرهبان الكلتيين العاملين فى الشمال على اكتساب الشعب الانجليزى. وفى النهاية، فى سنة ٦٦٤، قرر مجمع دينى ضم رجال الكنيسة الانجليزية إخضاع البلاد بأسرها تحت إشراف الكنيسة الرومانية. وكانت نتيجة هذا القرار أكبر من مجرد المدارس البندكتية

الانجليزية أكثر مدارس أوروبا ازدهاراً في أواخر القرن السابع، كما أن البندكتيين الانجليز أرسلوا بعثاتهم التبشيرية إلى القارة في القرن الثامن، وبذلك بدأت عملية تطور الكنيسة الفرنجية والملكية الفرنجية. وكان مقدراً لأحد البندكتيين الانجليز في منتصف القرن الثامن أن يلعب دوراً قيادياً في بناء التحالف البابوي - الفرنجي الذي كان جريجوري يعتبره أساساً ضرورياً لبناء حضارة أوربية جديدة.

الجزء الثالث

أوربا الأولى

القرنان الثامن والتاسع

« ياشارل الفائق الحاذق، يامجد الشعب المسيحي. يامن تدافع عن كنائس المسيح ،
ياسلوى حياتنا الحاضرة!...»

... من الضروري على جميع الرجال أن يثنوا على بركتك في صلواتهم وأن يساعذك
بشفاعاتهم، طالما أن حماية الامبراطورية المسيحية تتأتى من خلال رفاهيتك ، وتجسد
العقيدة الكاثوليكية مدافعا عنها في شخصك، ويصبح حكم العدل سائداً بين الجميع «
- الكوين.

الفصل السابع

بناء الملكية الكارولنجية

١ - الثقافة الأنجلو- أيرلندية والظاهرة الاستعمارية.

توصل المؤرخون إلى كشف الكثير من أسباب تدهور واضمحلال الحضارات؛ ولكنهم لم يبذلوا جهداً كبيراً لتفسير العوامل الرئيسية التي تؤدي إلى صعود وتآلق حضارة من الحضارات. وكل ما لدينا في هذا الصدد مجرد صياغات فارغة مكررة عن التحدي والاستجابة. ومن المؤكد أن تفسير الفشل أيسر بكثير من محاولة فهم النجاح؛ ذلك أن توضيح أسباب الترهل والإنهيار العصبى، فى إطار الانهيار الثقافى، أسهل من تبيان الطاقات الجديدة، والقدرة العقلية، والزعامة التى تعتبر من علامات البداية فى أية حضارة جديدة. فبعد قرون من التدهور والفوضى بدأت أوروبا تتشكل فى القرنين الثامن والتاسع، وكانت الحضارة التى حاول الأوربيون أن يخلقوها، فى شكل بناء سياسى هو الامبراطورية الكارولنجية - متعدين بذلك حدود طاقتهم - حضارة أولية ناقصة. فقد كانت الامبراطورية الكارولنجية أكبر من مواردهم. ولقد عانوا من خيبة الأمل وسقطوا فريسة لصدمة عميقة، بيد أن كثيراً من النظم والقيم والمبادئ التى تميزت بها حضارة العصور الوسطى تحددت خلال هذين القرنين، كانت بمثابة الأساس الذى قامت عليه تجارب سياسية أكثر نجاحاً فى القرنين التاليين.

ومن الممكن أن نستبعد الحسم الاقتصادى فى سياق توضيح كيفية تكوين أوروبا الأولى. ذلك أن التحسن الذى طرأ على الحياة السياسية والكنسية والفكرية كان فى الحقيقة معاصراً للتدهور التجارى والاتجاه نحو الإقتصاد الريفى. ومن الكنيسة خرجت القوة الديناميكية فى عملية صعود الحضارة الأوربية الأولى، وتمكنوا بالعمل سوياً أن يغيروا من طبيعة الملكية الفرنجية كما أيقظوا الكفاءات السياسية بين شعوب القارة؛ وهو

الأمر الذى أدى إلى قيام الامبراطورية الكارولنجية وإلى تحسن ظروف الحياة التعليمية والثقافية فى القرنين الثامن والتاسع.

ويمكن الكشف عن أصول هذا التغير الكبير فى ثقافة أيرلنده فى القرنين السادس والسابع وفى ثقافة انجلترا فى القرنين السابع والثامن، وقد يبدو غريباً أن الأيرلنديين الذين لم يكونوا أبداً من العالم الرومانى والانجليز الذين كانوا سنة ٥٩٠ قوماً وثنيين ولا تربطهم بعالم البحر المتوسط صلة، هم الذين قاموا بهذا الدور الكبير فى تكوين أوروبا الأولى . ويمكن تفسير هذا الأمر باعتباره تجسداً لما يمكن أن نطلق عليه اسم « الظاهرة الاستعمارية » فى تاريخ العالم. فالناس الذين يعيشون على هامش امبراطورية ما ، أو حضارة ما ، أى رجال الحدود أو المستعمرون ، غالباً ما يكونون أكبر المساهمين فى بناء الدولة أو الحضارة التى اختاروا الإلتحاق اليها. وبفضل حماسهم المتوقدة وجهودهم الواعية من أجل الحضارة التى يبعد مركزها عنهم، يحق لهم أن يطالبوا بحقوق مواطنة مساوية لتلك التى يتمتع بها من يعيشون فى قلب الحضارة. ذلك أن الآخرين يعيشون بنياهم كما هى فى الغالب، ولا يبذلون إلا القليل فى سبيل رقيها ودوامها وقد أظهر الرهبان الأيرلنديون والانجليز ذلك النمط من حماسة المستعمرين الراغبين فى ربط أنفسهم بمراكز الحضارة . فقد تحمل الأيرلنديون، الذين لم ينعموا قط بشمار الحضارة الرومانية ، الكثير فى سبيل تأسيس العديد من المكتبات الكبرى التى كانت تضم النصوص الكلاسيكية وبرعوا فى اللغة اليونانية. كما صار العلماء الانجليز فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن - وبينهم وبين ماضيهم الوثنى جيلان أو ثلاثة أجيال على الأكثر - اتباعاً متعصبين للكنيسة الرومانية. وكان مؤرخهم الكبير بيديه Bede متعصباً للرومان لدرجة أنه أراد أن يتنكر لجهود البعثات التبشيرية الأيرلندية لتحويل انجلترا إلى المسيحية.

وتختفى البداية الأولى للثقافة اللاتينية - المسيحية فى أيرلندا خلف ضبابية

الغموض، ويبدو أنها سوف تبقى غامضة . وربما حدث فى القرن السادس ومطلع القرن السابع أن وفدت مجموعات ثلاث من رجال الكنيسة إلى أيرلندا وفى ركبها دخلت المسيحية والتعليم المسيحى. وكانت أولى هذه المجموعات مكونة من القساوسة البريطانيين الهاربين من الغزوات الأنجلو - سكسونية، وربما كان القديس باتريك St. Patrick ضمن هذه المجموعة . أما المجموعة الثانية، فقد تكونت من رجال الكنيسة الذين هربوا من غالة أثناء الغزوات الجرمانية فى القرنين الخامس والسادس بحثا عن الملجأ والمأوى فى أيرلندا، وربما تكون المجموعة الثالثة قد تشكلت من رجال الكنيسة الشرقية القادمين من شرق المتوسط على طول الطرق التجارية فى أواخر القرن السادس وأثناء القرن السابع ، وجلبوا معهم لغتهم ونصوصاً لم يكن ممكناً أن توجد فى أى مكان آخر بأوروبا فى العصور الوسطى الباكرة، ولعل هذا يساعدها على فهم سبب معرفة العلماء الأيرلنديين باللغة اليونانية، وإذا كان هناك من يعرف هذه اللغة فى القرن السابع والثامن والتاسع فلا بد وأن يكون من أصل أيرلندى.

وقد أولت المسيحية الأيرلندية اهتماماً بالغاً بالتعليم كما تجلت حماسها للتبشير، وقد تطورت بعيداً عن كنيسة روما بسبب بعض الخصائص التى فصلت بين الكنيسة الكلتية والكنيسة الرومانية ؛ فقد كانت الكنيسة الكلتية تحتفل بعيد الفصح فى تاريخ غير تاريخ احتفال الكنيسة الرومانية به، كما كان الأكليروس كله من الديرين، ولم يكن تنظيم الكنيسة الأيرلندية قائماً على جزء من الأباطورية الرومانية فى يوم من الأيام ؛ فإنه لم يكن ثمة سبب يدعو الأيرلنديين لإنشاء الأكليروس الأسقفى، ولم يكن زعماء الكنيسة الكلتية من الأساقفة ، بل كانوا من مقدمى الأديرة الكبرى المزدهرة . كما أن المدارس الديرية الأيرلندية أنشأت مكاتب عظيمة استمرت فيها دراسات الفنون الثلاثة الحرة trivium (النحو والبلاغة والمنطق) والفنون الأربعة quadrivium (الرياضيات ، الهندسة الفلك والموسيقى)، وفى أوائل القرن السابع كان لدى الرهبان الأيرلنديين أفضل مراكز التعليم

فى أوربا الغربية. إلا أنهم توقفوا بعد سنة ٨٠٠ عن القيام بأى دور هام فى الحياة الثقافية الأوربية، وانتهى أمر الكنيسة الكلتية الى الذبول ، وحين قام البارونات الانجلو - نورمان بغزو أيرلندا وجدوا الشعب الذى قهره شعبا همجيا وجاهلا تماما. وكان على أيرلندا أن تنتظر حتى أواخر القرن التاسع عشر حتى تنهض مرة أخرى . ولم تكن هذه غلطة الأيرلنديين بطبيعة الحال، لأنهم ظلوا عبيدا للانجليز على مدى سبعة قرون.

ويبقى السؤال على أية حال : لماذا تدهورت الكنيسة الكلتية المزدهرة المستنيرة على هذا النحو السريع بعد عام ٨٠٠ ؟ من الممكن اقتراح أسباب ثلاثة : أولاها أن الأيرلنديين عزلوا أنفسهم عن العالم المسيحى الغربى وقت كان هذا العالم يدخل إلى مرحلته الإبداعية وذلك بترددهم فى الأخذ بطقوس الكنيسة الرومانية؛ وبذلك فرضوا على أنفسهم عزلة ثقافية. والأمر الثانى هو أن هذا القرار قد برهن على كونه قرارا هداما لاسيما حين دمر الغزاة الاسكندنافيون كثيرا من الأديرة الأيرلندية فى القرن التاسع. وأخيرا كان لاستمرار تفكك أيرلندا السياسى بسبب القبلية البدائية تأثيره السلبى، على المدى الطويل، على الحياة الثقافية والكنسية فى الجزيرة.

وخلال الشطر الأخير من القرن السادس وجد الرهبان الكلتيون متنفسا لحماسهم التبشيرى على الشاطئ المقابل للقنال الأيرلندى حيث ظل الانجلو - سكسون على وثنيتهم ، وذلك قبل بعثة أوغسطين التبشيرية ودون أى اتصال بالمسيحية اللاتينية . فقد تتبععت عصابات الحرب الجرمانية الفرق الرومانية المنسحبة من بريطانيا حوالى سنة ٤٢٥ حتى عبروا بحر الشمال آتين من الأراضى الواطئة وتوغلوا فى مصاب النهر شرق بريطانيا، وهزموا الأمراء البريطانيين المسيحيين بما فيهم آرثر Arthur. كما استعبدوا الكثير من الوطنيين ودفعوا من بقى من الكلت نحو جبال ويلز وكورنول والشاطئ المقابل على القنال الانجليزى حتى ذلك الجزء من جنوب فرنسا المعروف باسم بريتانى Brittany. وتجسد الغزو الانجليزى البطىء لبريطانيا فى شكل كيانات سياسية مبعثرة فى انجلترا القرن

السادس، وأسس زعماء عصابات الحرب معالك صغيرة - كان عددها التقليدي سبعة، ولكن القرون الثلاثة التالية. وفي أواخر القرن السادس كان ملك كنت Kent سيدا مهابا في جنوب إنجلترا ، وعلى مدى فترة طويلة من القرن السابع تمتع حكام نورثمبريا North-umbria بالسيادة ، وفي القرن الثامن كان ملك مرسيا Mercia في بلاد الوسط الزراعية الغنية - قد أكد تفوقه على كثير من الحكام الآخرين. بيد أن البناء الاجتماعي والسياسي في إنجلترا الأنجلو - سكسونية لم يكن متقدما كثيرا عن المؤسسات التي وصفها تاكيتوس والتي عرفناها من ملحمة Beowulf. وكانت قوة الملك تعتمد على كفايته كقائد عسكري ومدى قدرته على مكافحة رفقة الحرب، أما البناء الاجتماعي فقد تميز بوجود أعداد صغيرة من الفلاحين الأحرار.

أما البعثات التبشيرية الكتلية التي بدأت نشر المسيحية شمال إنجلترا في أوائل القرن السادس وأوائل السابع فقد جلبت معها نظامها التعليمي الشامل، فقد كانت المدارس الأنجلو - سكسونية في القرنين السابع والثامن مدينة بالفضل إلى مساهمة الدراسات الأيرلندية إلى حد كبير. ولكن إزدهار الثقافة الأنجلو سكسونية كان راجعا في الأساس إلى المؤثرات الوافدة من القارة الأوروبية. ونتيجة لقرار رجال الكنيسة الانجليز بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية في الستينيات من القرن السابع، أرسل البابا إلى إنجلترا باحثا متعلما هو تيودور الطرسوسي Teodor of Tarsus الذي يرجع أصله إلى آسيا الصغرى، ليكون كبير أساقفة كانتربروري. وقد أسس تيودور في كانتربروري مدرسة عظيمة قدر لتلاميذها أن يصبحوا مقدمي الأديرة البندكتية في جنوب إنجلترا، وفي الوقت نفسه تقريبا، قام بندكت بيسكوب Beodor of Tarsu، وهو قسيس أنجلو - سكسوني من طبقة النبلاء، ببناء دير جارو Jarro الكبير في نورثمبريا (يوركشاير). وكان بندكت قد جاب القارة طولا وعرضا في أسفاره ، ويقال أنه أحضر معه إلى إنجلترا نواة مكتبة المدرسة الديرية في « جارو » ، بل وبعض الأعمال الفنية من القارة.

وصار « جaro » بمثابة مركز للتعليم فى شمال انجلترا ، على حين كانت كاتريورى وأديرتها المزدهرة تقدم القياساة فى الجنوب ، ومنه تخرج بيديه Bede (ت سنة ٧٣٥) وهو أعظم الباحثين الأنجلو - سكسون . وقد أمضى بيديه، الذى يعد أفضل الباحثين تعليما فى أوائل القرن الثامن، حياته راهبا فى جaro ولم يرح موطنه المجذب القليل السكان اطلاقا، وهو ما يعتبر من أفضل المدرسة النورثمبرية، كما يعيد تأكيد مجرى الظاهرة الاستعمارية. إذ أن وجود أكثر الرهبان تعليما فى مجتمع الحدود فى شمال انجلترا، أمر يمكن مقارنته مع وجود أعظم باحث فى أمريكا فى منتصف القرن التاسع عشر فى غابات اليسورى الخليفة، وهو أمر يبدو مستحيلا وإن كان مدهشا.

كان بيديه يعتبر نفسه مدرسا أولا وقبل كل شىء، ورئيسا للمدرسة الديرية فى جaro، ورجلا يحافظ على التراث الذى خلفته كتابات الآباء، وطبق ما تعلمه لخدمة حاجات الكنيسة. ولم يكن مهتما بالتأمل الفلسفى كما كان يطبق معلوماته فى الرياضيات والفلك فى علاج مشكلة حساب عيد الفصح. وكتب موجزا لمعلوماته العلمية التى استقاها أساسا من كتاب التاريخ الطبيعى لبلىنى Pliny. وقد تركزت دراساته الأساسية فى التاريخ. وكان بيديه هو الذى نفذ اقتراح ايسيدور الأشبىلى Isidor of Seville بعمل تقويم مسيحي إبتداء من تجسد السيد المسيح، وقد جعل بيديه من هذا التقويم الطريقة الأوربية الشائعة فى حساب الزمن التاريخى. وتمثلت أعظم جهود بيديه فى مجال كتاب « التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى » وهو أحد الأعمال القليلة جدا فى أوائل العصور الوسطى التى لاتزال تحتفظ بجاذبيتها بين أوساط عامة المتعلمين. فهو كتاب مرتب فى حذق، ويعرض مناقشاته بدهاء بحيث يجعل للكنيسة الرومانية النور الحاسم فى صياغة الحضارة الانجليزية. وكان دور بيديه فى الكتابة التاريخية أكثر علمية من دور أى كاتب آخر فى العصور الوسطى فى الفترة ما بين جريجورى التورى والقرن الحادى عشر، فبينما تبدو كتاباته عن سير القديسين فجة غير ناضجة مثل سائر كتاب سير القديسين فى العصور الوسطى، نجده

يتحرر فى كتابة التاريخ بشكل ملحوظ من أوهام المعجزات؛ إذ يحمل تاريخه رنة واقعية منضبطة صارمة. فقد تجشم العناء فى سبيل جمع أية معلومات حفظتها الذاكرة الشعبية عن الغزو الانجلو - سكسونى. وفى سبيل ماكتبه عن بعثة أوغسطين التبشيرية، أرسل راهبا إلى روما لى يبحث فى المحفوظات البابوية عن خطابات جريجورى الكبير الخاصة بانجلترا ، وهى الخطابات التى نشرها كاملة فى تاريخه، وتختلف خاصية فكر بيديه فى وضوح عن خاصية فكر باحث انجلو - سكسونى آخر عاش فى القرن الثامن هو الكوين Alcuin الذى انتقل فى الثمانينيات من القرن الثامن من منصبه كرئيس لمدرسة يورك ليصبح مساعدا بارزا لشارلمان فى اصلاح الكنيسة الفرنجية. فبينما كان الكوين خياليا، عاطفيا، ومنغمسا بشخصه فى مشاكل عصره السياسية ، كان بيديه صارما، حذرا، محدود الاهتمام للغاية بالملكية وبمشاكل المجتمع العامة.

وفى نهاية كتابه « التاريخ الكنسى » يبدى بيديه بعض الملاحظات الكثيرة عن زبول وتدهور حيوية الثقافة الانجلو - سكسونية. وبينما يحتمل أن يكون هذا مجرد ترديد للنقمة التقليدية فى تعليقات الكبار على الأجيال الجديدة، يؤكد تاريخ الكنيسة الانجلو سكسونية اللاحق أن بيديه كان مهتما بالتقدم المستمر للكنيسة التى كرس نفسه لها. فضلا عن أن التطور اللاحق فى انجلترا الانجلو - سكسونية بعد القرن الثامن عبارة عن قصة طويلة من الإخفاق وخيبة الأمل؛ خصوصا إذا نظرنا إلى تفوق البندكتيين الإنجليز فى مجالات الثقافة الأوربية فى عصر بيديه والكوين. فبعد سنة ٨٠٠ فقد رجال الكنيسة الانجلو - سكسونية مكانتهم كزعماء ثقافيين لأوربا إلى الأبد. وخلال القرنين العاشر والحادى عشر كانت الكنيسة الانجليزية تنتظر من القارة الإرشاد والتوجيه. وفى سنة ١٠٠٠ لم يعد هناك شك فى أن انجلترا منطقة متخلفة ثقافيا فى أوربا . ومن الأمور التقليدية أن يوجه اللوم الى الأسكندنافيين، الذين كانوا ينتشرون فى جميع الأرجاء ، على هذا التدهور الذى لحق بالثقافة الانجلو سكسونية، فقد دمر الغزاة الفيكنج Viking « جارو » فى نهاية القرن

الثامن، وعلى مدى المائتي وخمسين عاما التالية لم يتل الشعب الانجليزى سوى مهلة يلتقط فيها أنفاسه بين كل موجة وأخرى من الموجات المتتالية من الغزاة الاسكندنافيين الذين استنفذوا طاقة الشعب الانجليزى فى تضاله ضدهم.

وثمة سببان آخران وراء تدهور انجلترا فى العصور الباكورة؛ فقد حار الملوك الأنجلو سكسون أشخاصا غير ملائمين، إذ ظلوا محاربين فى المحل الأول، بينما فشلوا فى خلق وتطوير أية مؤسسات ملكية فعالة. ونتيجة الغزو الدانمركى لم يبق من بين جميع أمراء الأنجلو - سكسون سوى ألفرد Alfred ملك وسكس Wessex. ورغم أن ألفرد - الذى كان يراد له فى الأصل أن ينضم إلى الكنيسة - كان عالما جيدا، ورغم أنه حارب الاسكندنافيين حتى اقتسم انجلترا معهم؛ فإنه لم يسهم بأى قدر فى تقدم الزعامة الملكية للمجتمع الأنجلو - سكسونى. وقد بسط خلفاؤه فى القرن العاشر سيطرتهم على أراضى الدينلو Danlout، وهو الاسم الذى كان يطلق على المنطقة التى غزاها الاسكندنافيون، ولكنهم لم يتمكنوا من وقف تقدم نفوذ السادة المحليين. وكان أكثر الملوك تأثيرا فى التاريخ الأنجلو سكسونى هو كانوت Kanute قاهر الدانيمرك فى بواكير القرن الحادى عشر. وحاول الكنسيون الإنجليز فى القرن التاسع تدعيم الملكية الأنجلو - سكسونية العاجزة عن طريق الصفات الأخلاقية والصفات المقدسة التى أسبغوها عليها؛ بيد أن نجاحهم فى هذا المضمار لم يزد كثيرا عن نجاح أساقفة القوط الغربيين فى أسبانيا، فقد كان ضعف الملكية الأنجلو - سكسونية، وانتقال زعامة المجتمع إلى النبلاء المحليين عاملين من العوامل التى أدت إلى تدهور الكنيسة الأنجلو - سكسونية وانحدارها من مكانها المزدهر الذى كانت تتمتع به عصر بيديه، أما السبب الأخير الذى يمكن أن يرتبط بهذا التطور، فهو سبب بسيط نسبيا، ذلك أن الكنيسة الانجليزية التى كانت تفيض حماسة وغيرة فى القرن الثامن أرسلت عددا كبيرا للغاية من مبشريها وباحثيها المبرزين العمل فى القارة؛ مما جعلها تفقد خيرة زعمائها وأكثرهم كفاءة، وتستنفذ مواردها. فقد كان تكريس الكنيسة

الانجلو - سكسونية لصالح أسقف روما أمرا خدّم البابوية أكثر مما خدّم مصالح الكنيسة الانجليزية.

بدأت البعثات البشرية الانجلو - سكسونية إلى القارة في العقد الأخيرة من القرن السابع، وبدأ المبشرون الديريون عملهم بين الوثنيين في البلاد الواطنة التي كانت الموطن الأصلي لمعظم القبائل الانجليزية. وأراد المبشرون الانجليز أن يجلبوا معهم مكاسب الخلاص من أجل الوثنيين الذين اعتبروهم بنى جلدتهم، وسرعان ما اتصل المبشرون الانجلو - سكسون بالكارولنجيين - العائلة الحاكمة الجديدة في فرنسا آنذاك - وعملوا تحت توجيه بين الثاني Pepin II رأس العائلة الكارولنجية الذي كان يرغب في بسط نفوذه على الأراضي الواطنة، والذي اعتبر المبشرون الانجلو - سكسون بمثابة الطليعة للغزو الفرنجي. فقد عمل قائد البعثة الانجليزية في الأراضي الواطنة تحت البابوية أيضا وذهب إلى روما، بإذن من بين لكي يرسم أسقفا على فريزيا. كان هذا هو المثال الأول من نوعه على العلاقة المحددة بين البابوية والحكام الفرنجة، مما أرسى نمط ارتباطهما الثابت في النصف الأول من القرن الثامن بسبب تأييدها المتواصل لجهود المبشرين الانجلو - سكسون^(١).

(١) يرجع الفضل إلى حد كبير، في تنصير ألمانيا، إلى جهود المبشرين الانجليز، وقد بدأت هذه الجهود على يد ويلفريد Wilfrid أسقف يورك الذي كان مبحرا في طريقه إلى روما، ولكن سفينته عرقت أمام شاطئ فريزيا (هولندا) فظل يبشر بالمسيحية هناك على مدى شتاء كامل ونجح في تعميد عدد كبير من الرؤساء الوثنيين وأتباعهم، بيد أن تحويل الأراضي الواقعة حول منصب نهر الراين إلى المسيحية بشكل حقيقي كان ثمرة جهود آخر من نورثمبريا هو ويلبرود - wili-broad الذي بدأ أعماله التبشيرية بمعارنة أحد عشر راهبا ولقى تشجيعا من بين هرستال Pepin of Herstal روق الفرنجة الذي سمح له بالعمل على الحدود الشمالية لأملاكه، ورحل إلى روما حيث رسم أسقفا سنة ٦٩٥، وأعطاه بين فيليتنبرج Wiletaburg بالقرب من أوترخت Utrecht لتكون مركزا لكروسيه الأسقفى، ولكن أعماله التبشيرية لقيت بعض المتاعب من قبل الأمير العزيزي رادبود Radbod؛ فاضطر إلى العمل في أراضي الفريزية الخاضعة للفرنجة، حيث بنى عدة كنائس وأبيرة وحاول أن ينشر المسيحية بين الدانمركيين ولكنه لم يحقق سوى نجاح ضئيل وقد هاجمه الفريزيون فعاد إلى فريزيا الفرنجية بعد نهب أحد رفاقه. على أن مركز الكنيسة في هذه الأنحاء لم يكن أمنا على الدوام، وحين مات بين ثار رادبود وهزم شارل مارتل في معركة بالقرب من كلوني Cologne واستعاد الأراضي الفريزية من الفرنجة فحرق الكنائس وطارد القساوسة حتى أجبر ويلبرود على ترك كروسيه الأسقفى (مقدم لأحد الأبيرة .. كروسيه الأسقفى). وفي السنوات الثلاث الأخيرة من عمره عمل معه مبشر انجليزي شاب هو بونيفاس Boniface الذي لعبه دورا هاما في مجال التبشير كما يتضح من كلام المزال في الصفحات التالية

انظر: Margeret Deansely : A hist of the Medieval church Pp. 19 - 51.

وكان صعود الأسرة الكارولنجية إلى مراكز السيادة في فرنسا هو الدرجة القصوى التي وصلت إليها عملية اغتصاب الطبقة الأرستقراطية للسلطة الملكية في القرن السابع، فقد كان جميع الحكام الميروفنجيون بعد الثلاثينيات من القرن السابع إما نساء أو أطفالاً، أو معتوهين؛ وهو ما يعنى أنهم كانوا في جميع الأحوال عاجزين عن منع أرستقراطيي الأقاليم من الاستحواذ على السلطة والممتلكات الملكية. ووصل التدهور إلى حد أن الملوك الميروفنجيين لم تكن لهم أية سلطة فعالة خارج ضياعهم الخاصة. وبمنتصف القرن فقدوا هذه السلطة على ضياعهم؛ إذ انتقلت إلى « عمدة القصر » وهم الموظفون المسئولون عن إدارة القصر، وعلى الرغم من هذا فإن العوامل الأصلية في إحياء السلطة الملكية في فرنسا كانت كامنة في هذا الموقف الشاذ؛ ذلك أن عمدة القصر، وقد اغتصبوا ما بقي من السلطة والممتلكات الملكية، وجدوا أنه من صالحهم أن يحصلوا على ما يمكنهم الحصول عليه من الخزانة الملكية التي كان أرستقراطيو الأقاليم قد اغتصبوها. وبحلول العقد الثامن من القرن السابع أفادت أسرة نمساوية أو شرقية، عرفت فيما بعد باسم الكارولنجيين، من سيطرتها على وظيفة عمدة القصر في إرساء دعائم سيادتها؛ لأعلى الطبقة الأرستقراطية في الجزء الألماني الشرقي من المملكة الميروفنجية فحسب، ولكن أيضاً على بوقات وكونتات الغرب الأكثر رومانية.

وكان الكارولنجيون يتلمسون السبل لإعادة بناء السلطة الملكية في فرنسا التي كانت بأيديهم وقد رحبوا بنشاط المبشرين الأنجلو - سكسون على طول حدود المملكة الفرنجية في أواخر القرن السابع وفي النصف الأول من القرن الثامن. وكان موقف التعاطف الذي اتخذته الكارولنجيون حيال البعثات التبشيرية الأنجلو - سكسونية نابعا من رغبتهم في الظهور بمظهر أصدقاء الكنيسة التي يمكن أن يكون تأييدها المعنوي مفيدا بصفة خاصة فيما يتعلق بحقهم في العرش الفرنسي، وهو ما كان محل شك، ولأنهم يعتقدون أن تحويل قبائل الحدود الجرمانية إلى المسيحية سيجعل نوبانهم داخل أملاك الملكية الفرنجية أكثر سهولة.

وكان بين المبشرين الانجلو - سكسون العاملين فى فريزيا فى أواخر القرن السابع شاب بندكتى يدعى وينفريد Wynfrid - وهو أكثر شهرة باسمه اللاتينى الذى سُمى به فيما بعد وهو القديس بونيفاس - كان ينحدر من صلب عائلة نبيلة مرموقة فى جنوب انجلترا ، وقد لاقت أهمية أعمال بونيفاس تجاهلا من جانب المؤرخين، ولكن الأبحاث التى تمت فى الربع الأخير من القرن العشرين وضعت فى مكانه الصحيح كواحد من المبدعين المبرزين حقا فى أوروبا الأولى، ويوصفه رسول ألمانيا ومصلح الكنيسة الفرنجية والمحرك الرئيسى للتحالف بين الكنيسة والأسرة الكارولنجية. فبعد أن عمل عدة سنوات كمبشر فى البلاد الواطئة، قرر أن يبدأ فى تنصير القبائل الألمانية التى كانت تعيش داخل المملكة الميروفنجية، فى المنطقة التى أصبحت جنوب غرب ألمانيا الحالية ، وعاد بونيفاس إلى انجلترا حيث جند عدة رفاق من الأديرة البندكتية، وفى سنة ٧١٨ رحل إلى القارة حيث عمل كمبشر وأسقف ومبعوث بابوى حتى موته سنة ٧٥٤.

وقد تمت أعمال بونيفاس بتأييد كل من الأسرة الكارولنجية والبابوية، كما حدث بالنسبة لأعمال المبشرين الانجلو - سكسون فى الأرض الواطئة. ولكن لأن اهتمام بونيفاس كان موجها لضم منطقة كبيرة فى نطاق المملكة الميروفنجية إلى حظيرة الحضارة المسيحية اللاتينية، فإن أهمية هذا الاتجاه (التبشيري) المستمر كانت أكبر فى حالته، فقد تمت غالبية أعمال بونيفاس التبشيرية فى عهد شارل مارتل، وهو محارب خشن الطبع أصبح بطل أوروبا المسيحية بفضل انتصاره على المسلمين سنة ٧٢٣. (٢) وكان شارل حريصا فى موقفه تجاه روما، ولم يكن على استعداد للدخول فى تحالف قوى مع البابوية؛ ولكنه حين سمح لبونيفاس بالعمل تحت سلطة البابوية مباشرة، فتح الطريق لدخول النفوذ البابوى فى المملكة الفرنجية ، كما فتح الطريق أمام المعاهدة التى عقدها ابنه بين الثالث

(٢) هذه اشارة إلى معركة تور - بواتييه أو معركة بلاط الشهداء كما اسمها المؤرخون المسلمون، وفى هذه المعركة انتصر شارل مرتل (أى شارل المظفر) على الجيش الاسلامى الكبير بقيادة عبد الرحمن الغافقى والى أسبانيا ، والواقع أن هذا الانتصار قد أنقذ دولة الفرنجة من الغزو الاسلامى، وقد أعاد المسلمون محاولتهم حيث استولوا على ارل والينيون، وظلوا بها سنوات ثلاث حتى اخرجهم عنها اشارل مارتل.
(المترجم)

مع البابوية في الخمسينيات من القرن الثامن. وأوضح بونيفاس في خطاباتته مدى أعماده على مساعدة شارل مارتل « بدون حماية أمير الفرنجة، لا يستطيع أن يحكم شعب الكنيسة، ولا أن أذاع عن القساوسة والشمامسة والراهبات، كما لا يستطيع منع ممارسة الطقوس الوثنية وعبادة الأصنام دون تكليف منه بذلك ، ودون المهابة والرهبنة التي يوحى بها اسمه ».

وقام بونيفاس بثلاث رحلات إلى روما في سياق أعماله التبشيرية في ألمانيا وهي الأعمال التي استمرت حتى سنة ٧٣٩ . وأثناء زيارته لروما تلقى تكليفا بابويا بتحويل الشعب الألماني إلى المسيحية ، كما منحه البابا اسمه اللاتيني رمزا لوضعه الجديد كمثل للكنيسة الرومانية في ألمانيا . وفي زيارته الثانية لروما رسم بونيفاس أسقفا . وتمثلت نتيجة مقابله الأخيرة مع البابا في تنظيم الكنيسة الألمانية بالتعاون بين البابوية وهذا الراهب الانجليزى الذي أصبح كبير أساقفة مينز Mainz (٢).

كان تحويل بونيفاس لألمانيا إلى المسيحية انجازا ضخما، إذ أنه ضم منطقة جديدة بأكملها إلى حظيرة الحضارة المسيحية اللاتينية، وانتهى إلى تأسيس الكنيسة الألمانية التي لفتت الأنظار إليها في القرن العاشر لما تميزت به من القدين الشديد ، وقد أنجز بونيفاس عملية تأسيس المسيحية الألمانية عن طريق بناء الأديرة العظيمة، مثل الدير

(٢) تم تنظيم الكنيسة الألمانية سنة ٧١، وبذلك صار لـ بونيفاس الاشراف على الجماعات المسيحية التي تكونت بفضل جهوده في الاقاليم الوسطى والاقاليم الجنوبية من ألمانيا؛ وبذلك أصبح بوسع بونيفاس أن يحول اهتمامه إلى اصلاح الكنيسة الفرنجية التي كان نظامها قد انهار في غمار الفوضى التي تروث فيها في القرن السابع، ولهذا الغرض تم عقد عدة مجامع دينية Synods كبيرة، ففي سنتي ٧٤٢، ٧٤٣ عقد مجمعان لدراسة أحوال القسم الشرقي من مملكة الفرنجة ، وفي سنة ٧٤٤ عقد مجمع خاص بالغرب وأخيراً عقد مجمعان في عامي ٧٧، ٧٤ ليبحث شئون المملكة بأسرها .

عن هذا الموضوع أنظر : Geoffrey Barraclough : The medieval Papacy : pp. 47, 50

وأنظر كذلك : Margaret Deansaly : Abist. of The Medieval Church : PP : 50 - 51.

= حيث يتناول بالتفصيل حياة بونيفاس (وينفريث winfrih) وأعماله التبشيرية - أنظر أيضاً :

هـ، موسى . ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٢٠/ص ٢٢١ (ترجمة عبد العزيز جاويد - سلسلة الآلاف كتاب) وكذلك،

هـ، أ. ل. فيشر تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ٧١.

(ترجمة : الباز العريفي ، زيادة - دار المعارف)

(المترجم)

الذى بناه بنفسه فى فولدا Fulda. وقد أصبحت هذه الأديرة مراكز تعليمية قدمت الأشخاص الذين كانت الكنيسة الألمانية ، التى ظهرت فى مطلع القرن الثامن، بحاجة إليهم، بل أنه حتى القرنين العاشر والحادى عشر، كانت الأديرة الكبيرة التى أسسها بونيفاس ومساعدوه هى المراكز الحيوية للحياة الكنسية الألمانية . ومنذ أيام بندكت بيسكوب فى القرن السابق كان الرهبان الانجلو – سكسون جميعا من البندكتيين، فقد كانت القاعدة البندكتية هى القاعدة التى فرضها بونيفاس على الأديرة الكبيرة التى أنشأها فى ألمانيا. كما كان للصيغة القانونية لديره فى فولدا مغزى خاص، فقد حصل له بونيفاس على امتياز Privilegium الاعفاء من السيطرة الاسقفية وبذلك جعله خاضعا للبابوية، باعتبارها رأس العالم المسيحى، مباشرة. وقد ظهر هذا النوع من الاشراف الخاص على يد جريجورى الكبير الذى أخضع أديرة بندكتية معينة للارتباط المباشر مع البابوية؛ بيد أن ذلك لم يحدث إلا فى حالات نادرة، وذاع صيت فولدا وغيره من الأديرة الألمانية بسبب ماكانت تحويه من مكتبات كبيرة وحجرات النسخ ، وقد انتجت مدرسة فولدا الديرية بعض الأعمال الكبيرة فى الفن الكارولنجى، وهى المخطوطات المزودة بالرسوم والصور التوضيحية.

ولكى يتم هذا الانجاز التبشيرى على نحو فعال كان لابد من تسخير كل موارد الكنيسة الانجلو – سكسونية فى القرن الثامن فى هذا السبيل. ولدينا خطاب موجه من بونيفاس إلى جميع قساوسة وشمامسة الكنيسة الانجليزية طالبا مساعدتهم فى أعماله التبشرية « نحن نرجوكم فى تواضع.. أن كلمة الرب قد تمضى قدما إلى الامام وتحظى بالمجد، أننا نتوسل إليكم أن تبدأوا الصلاة بان الرب... قد يحول قلوب السكسون الوثنيين الى العقيدة الكاثوليكية... وجمعهم مع اطفال الكنيسة الام . كونوا بهم رحماء ، لانهم يقولون الآن : « نحن واياكم من دم واحد وعظام واحدة »... وفضلا عن ذلك، ليكون

معلوماً لديكم ، أنه في حالة انجاز هذا فإن لدى موافقة وقبول ومباركة اثنتين من أحبار الكرسي الرسولي . ويوضح هذا الخطاب مدى وعي رجال الكنيسة الانجلو - سكسون بخلفياتهم الجرمانية، كما يوضح في الوقت نفسه الولاء الحار الذي كانوا يحملونه للبابوية في القرنين السابع والثامن، وقد أدت النداءات التي وجهها بونيفاس إلى مواطنيه إلى هجرة كثيرين من انجلترا إلى القارة ؛ وهو الأمر الذي تمثلت نتائجه في قيام مستعمرة دينية أنجلو - سكسونية في ألمانيا .

وبتعيين بونيفاس رئيساً لأساقفة ميونخ صار هو الرجل الأول في الكنيسة في الشطر الشرقي من الامبراطورية الفرنجية . وبعد سنة ٧٣٩ تحول من حوارى أو رسول للألمان ليبدأ في اصلاح الكنيسة الفرنجية . وساعده في هذا العمل التأييد الذي أسبغه عليه ولدا شارل مارتل، بين الثالث ، وكارلومان Carloman اللذان تقاسما حكم المناطق الشرقية والغربية من المملكة الفرنجية . أما كارلومان، فهو أول ملك من طراز الملوك القديسين الذين يهتمون بالتكريس الدينى أكثر من اهتمامهم بالسلطة الملكية، وهو الأمر الذى سوف يظهر كثيراً في القرون الثلاثة التالية والذي يعتبر مؤشراً على التأثير المتنامى للدين على المجتمع الجرمانى، ففي سنة ٧٤٧ تنازل عن العرش ليصير راهباً في مونت كاسينو، وكان قد بدأ مع بونيفاس في إصلاح الكنيسة الفرنجية خلال السنوات الثماني السابقة، وقد أعلن مجمع دينى ضم رجال الدين الفرنجة الولاء للبابا ، ولكن هذا لا يوضح أنه كانت للبابوية سيطرة حقيقية على الاساقفة الفرنسيين؛ بل انه يعتبر مؤشراً دالاً على روح جديدة وموقف جديد من جانب رجال الكنيسة الذين لم يعترفوا بمثل هذا الولاء للبابوية من قبل على الاطلاق. وبدأ بونيفاس عملية إعادة إحياء الأديرة الفرنسية ، وقبول هذه الأديرة الفرنسية ، للقاعدة البندكية فضلاً عن تأسيس أول المدارس الديرية الهامة في المملكة الميروفنجية، وكان تكون أكليروس علمانى على مستوى الأبرشية المحلية خارج المدن الاسقفية واحداً من أهم حاجات الكنيسة الفرنجية، فقد كان على الاساقفة المتعلمين أن

ينشروا تعاليم العقيدة فى كل قرية » حتى يصبح اعتناق أوربا للمسيحية حقيقة أبدية «، ومن الممكن أن ترجع البدايات الغامضة للنظام الأبرشى فى العصور الوسطى - وهو النظام الذى يمكننا أن نقول أنه كان نظاما حقيقيا فى بعض أجزاء فرنسا القرن التاسع - إلى أعمال بونيفاس.

وبعد أن صار بين الثالث حاكما على المملكة الفرنجية بأسرها سنة ٧٤٧ امتد الإصلاح الذى كان بونيفاس قد بدأه فى أسقفية إلى غرب فرنسا بمساعدة بين. ولم تكن علاقة بين بالكنيسة تتسم بذلك التدين الشخصى العميق الذى كان أخوه يتميز به؛ فقد كان يرى فى أعمال بونيفاس الفرصة والوسيلة لنقل المملكة والاستيلاء على العرش من الميروفنجيين عن طريق التحالف مع البابوية، وهو الأمر الذى هيا بين نفسه له بقبول خطة بونيفاس لإصلاح الكنيسة فى مملكته، وفى الوقت نفسه كان الاعتقاد السائد فى روما أن نتائج أعمال بونيفاس سوف تفتح الطريق لتحقيق أيديولوجية البابوية التى كانت قد بدأت تتطور منذ زمن جريجورى الكبير، وفى أواسط القرن الثامن، كانت نتائج التطور الذى ظل مضطربا طوال عدة قرون تتجمع فى بؤرة حادة، وأخيرا بدأت الخطوط والملاحم العريضة لأوربا الأولى تكتسب شكلها المميز، وتشكل هذه الفترة (منتصف القرن الثامن) واحدة من أهم نقاط التحول فى التاريخ الوسيط. فقد تميزت هذه السنوات العشر باستقلال البابوية النهائى عن الامبراطورية الرومانية الشرقية، وحلول الأسرة الكارولنجية محل الأسرة الميروفنجية، فضلا عن سيادة فكرة الملكية الثيوقراطية فى أوربا الغربية، والوجود القانونى للدول البابوية، وبعد ذلك بنصف قرن فقط تم إحياء اللقب الامبراطورى فى الغرب كنتيجة مباشرة للحوادث التى جرت فى منتصف القرن الثامن، وترتكز جميع هذه الانجازات الحاسمة على خلفية ضرورية تمثلها أعمال القديس بونيفاس ومساعديه الذين ساهموا فى تحويل أوربا إلى المسيحية.

وفى سنة ٧٥٤ عاد بونيفاس إلى العمل التبشيري فى الأراضى الواطئة، ممارسا

نفس العمل الذى كان قد تركه قبل أربعين سنة، حيث استشهد على يد الفريزيين البدائيين ناكري الجميل. وبالنظر إلى سير القديسين فى العصور الوسطى تكون حياته فى خدمة الكنيسة قد انتهت على هذا النحو نهاية كاملة مضبوطة. وقد وصفه كاتب سيرته بأنه «**الحوارى المرسل إلى الألمان**» وإذا كانت الكنيسة الألمانية المتحمسة، والتي كان البندكتيون يسيطرون عليها فى العصور الوسطى الباكورة، هى الأثر الجدير بتخليد الخدمة التى أسداها للمسيحية اللاتينية، فإن الملكية الكارولنجية فى القرنين الثامن والتاسع، كانت هى الأخرى من نتائج أعماله إلى حد كبير. وعلى أية حال فقد كانت الملكية الكارولنجية أثرا لم يكن هو نفسه ليقدره أو يريد أن يفتخر به ؛ ذلك أن نضال البندكتيين الانجليز البطولى من أجل نشر المسيحية فى الغرب، قد حرك مجموعة معقدة متشابكة من الأفكار والنظم التى شكلت حضارة وثقافة أوروبا الأولى التى كانت عالما تجاوزت توتراته، وطموحاته، وانجازاته، واخفاقاته، المثل العليا والتوقعات البسيطة النقية للمبشرين الإنجليز.

٢ - اللفز الكارولنجى

يتسم مجرى التاريخ الكارولنجى بالغموض المحير، وكلما زاد البحث فى هذه الفترة كلما بدت أكثر غموضا وأكثر صعوبة من حيث فهم النموذج العام للتاريخ الأوروبى فى القرنين الثامن والتاسع، واللفز الكارولنجى لفرز مزيج سواء فى طبيعة أحداث الفترة نفسها، أو فى التفسيرات العامة المتضاربة للباحثين المحدثين، والتاريخ الكارولنجى مغمم بالتضارب والتناقضات الحادة، والتطرف ما بين المثالية والبريرية، والذكاء والعنف الجاهل، والانجاز السريع الواضح، والانهيار المتماثل السرعة. وقد وجد كثير من المؤرخين، لاسيما من أتباع المدرسة القديمة، أن النغمة الرئيسية لتلك الفترة إنما تتمثل فى صراعاتها الأيديولوجية، وفى استخلاص الأفكار العقلانية المعقدة التى تبدو واضحة للعيان فى المصادر الوثائقية للتاريخ الكارولنجى. بينما استبعد فريق آخر من المؤرخين هذه

الآراء الأيديولوجية باعتبارها التفكير الذى كان الرهبان، الذين انتجوا كل أعمال هذا العصر الأدبية، يرغبون فيه؛ وبدلاً من ذلك أكد هؤلاء الباحثون على ما بدا لهم أنه حقائق الحياة الاجتماعية والسياسية: أى السيادة، والاقتصاد الريفى، والفوضى المألوفة فى المجتمع الجرماني. ومن هذا التفسير تبرز صورة شارلمان Charlemagne، لا باعتباره الامبراطور المسيحى الكبير فى أوروبا المتحدة، وإنما باعتباره ملكاً - محارباً - King - Warrior من النمط الجرماني المدمر العنيف، مما جعل التمييز الحاد بين العالم الميروفنجى والعالم الكارولنجى يختفى ليحل محله النموذج العام « للغرب البربرى » قبل القرن العاشر.

ويمكن حل اللغز الكارولنجى فى ادراك أن أوروبا فى القرنين الثامن والتاسع تندرج تحت الشكل العام للمجتمع النامى فى مرحلة ما قبل التصنيع، والذى بدأ لتوه فى الإفادة من الزعامة الذكوية. ولأن السلطة فى هذه المجتمعات تتركز فى صفوف ضئيلة - كانت هذه الصفوة فى العالم الكارولنجى ممثلة فى الملك، وقادة الكنيسة، وعدد قليل من كبار الارستقراطيين - فإنه يكون واضحاً أن التطورات الهامة يمكن إنجازها بسرعة كبيرة. وفى مثل هذا الموقف تكون أيديولوجية الصفوة بالضرورة عاملاً هاماً فى بدء التغيير الاجتماعى. فإذا كان عدد قليل من زعماء القمة يقفون إلى جانب التقدم والتنوير، فإن المحلية والفوضى قد تتخلى عن مكانها فى الحال للمركزية والنظام. وبينما لا يتوافق هذا الإصلاح الاجتماعى مع مثل مجموعة الصفوة إلا نادراً، فإن التقدم الحقيقى يمكن أن يتم فى وقت قصير نسبياً حيث يسيطر القادة على الأذكىاء والمتعلمين الموجودين فى مجتمعهم. وعلى أية حال، فإن الموقف يظل مزعزعا بسبب ما يسود المجتمع من تراث الفوضى والمحلية والعنف.

إذ أن مجرد موت عدد قليل من القادة المستنيرين، أو حتى اختفاء أحد الشخصيات الكبيرة فجأة، يمكن أن يتسبب فى إنهيار النظام بأسره، ويفتح الطريق أمام ردة سريعة

إلى الفوضى والبربرية. ذلك أن المجموعة المستتيرة في هذا المجتمع، الذي يمر بمرحلة ما قبل التصنيع، محاطة بجماهير المحاربين المتوحشين والفلاحين الخاملين الذين لا يفهمون على الإطلاق ما يحاول القادة عمله. ومن ثم فحين يضرب التوجيه المركزي، يحدث الإنزلاق السريع المتقهقر تجاه البربرية. وفي المجتمعات الصناعية الحضرية، والكثيفة السكان، المتعلمة، الحديثة، يكون من الصعب على مجموعة صغيرة من الرجال أن تفعل ما هو أكثر من إعطاء إنطباع ما. ولكن من ناحية أخرى، لا تنهار هذا المجتمعات حضاريا ولا تتعرض للفوضى السياسية على هذا النحو نتيجة اختفاء واحد أو اثنين من زعمائها المهمين.

وهكذا تصبح تقلبات أحوال العالم الكارولنجي مفهومة في ضوء نموذج المجتمعات النامية. فقد كانت للمثل التي اعتنقتها مجموعة الصفوة المركزة في البلاط الملكي والكنيسة أهمية قصوى باعتبارها من عوامل الحسم في التغيير الاجتماعي والسياسي. وفي الوقت نفسه يجب أن نتذكر أن هذه المجموعة كانت تعمل في مجتمع يتسم بالطابع الريفى والمحلى إلى حد كبير، بل إن الغالبية العظمى من السادة الفرنجة لم يفهموا إطلاقا الشطر الأكبر من الأيديولوجية العقلانية التي قدمها المنظرون الكنسيون، كما كرهوا التورط في معظم الأمور التي تعذر عليهم فهمها. ولم تكن ثمة وحدة تجمع مجموعة الصفوة^(٤) التي كانت تضم الملوك والأساقفة ومقدمى الأديرة والبابوات والدوقات من حيث تصورهم للمجتمع المسيحى المثالى. بيد أنه كان هناك صراع خفى لا يقبل المصالحة بين موقف قادة المجتمع وتوقعاتهم العامة من جهة، وحقائق الحياة السياسية والاقتصادية البشعة من جهة أخرى. وهذا هو السبب في تميز التاريخ الكارولنجي بوجود الأيديولوجية العقلانية المعقدة من ناحية، والحيوية المتزايدة للسيادة وعلاقات الضيعة الاقطاعية Manorialism من ناحية أخرى. الأمر الذى يفسر لنا سبب ظهور شارلمان بمظهر الامبراطور المسيحى وصورة السيد البربرى في آن واحد، كما يفسر أهداف قادة أوربا البعيدة المنال، وما أحرزوه من انتصارات قصيرة المدى فضلا عما لاقوه من خيبة آمالهم. إلا أن استمرار وجود النظم الجرمانية، بما تحمله من تأثيرات

سلبية أعاقَت تحقيق مثل رجال الكنيسة العليا في تلك الفترة، لا يمثل أكثر جوانب التاريخ الكارولنجي أهمية، وإنما يتمثل هذا الجانب، إلى حد ما، في التعبير عن هذه المثل، وفيما بذل من جهود عظيمة لبناء المجتمع المسيحي. هذه العوامل الجديدة هي التي تميز أوروبا الأولى عن العالم الذي وجد عقب الغزوات الجرمانية مباشرة. ورغم أن التوقعات العظيمة للملوك الكارولنجيين، ورجال الكنيسة لم تتحقق في زمنها؛ فإن الشطر الأكبر من أيديولوجيتهم ونظمهم ظلت موجودة حتى بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية. كما كانت ركنا هاما من أركان النظام الاجتماعي الأكثر نجاحا الذي وجد في القرنين العاشر والحادي عشر^(٤).

٢ - الملكية والبابوية

يتركز جزء من تاريخ أوروبا القرن الثامن والقرن التاسع حول ثلاث أيديولوجيات، وطرق تعبير هذه الأيديولوجيات عن نفسها ومواجهاتها وتفاعلها فيما بينها. هذه الأيديولوجيات الثلاث هي: مفهوم السلطة البابوية ومذاهب الملكية الثيوقراطية، ثم المثال الامبراطوري أو المثل الامبراطورية بتعبير أدق. وكان زعماء العالم الكارولنجي يتحركون في قوة بدافع من واحدة أو أكثر من هذه الأيديولوجيات، كما كان تطور سياسة الملكية والبابوية محكوما إلى حد بعيد بالمحاولات الرامية إلى تحويل هذه الأيديولوجيات إلى خطط عملية.

(٤) عن الصلوة وأعمالها في العصر الكارولنجي أنظر:

Phillippe Wolf : The awakening of Europe (Penguin Book 1967) p. 36 - 56.

ومن حياة شارلمان أنظر:

Two Lives of Charlemagne : The Vita Caroli of Einhard, and The De Carlo Magna of Notkr The Stammerer . Monk of Saint Gall.

وقد ترجمها وقدم لها لويس ثورب،

(Penguin Books 1974) Lewis Thorpe

وكذلك أنظر عن حياة شارلمان الترجمة الواردة لجزء من حياة شارلمان التي كتبها اينهارد في:

The early middle ages, pp. 251-61.

انظر أيضاً المختارات التي أوردها نورمان كانتور في كتاب:

The Medieval World 300 - 1300

من حياة شارلمان كما كتبها اينهارد، وخطايات الكوين، والمراسيم النورية الملكية في الصفحات من: 153 - 139 وعن العصر الكارولنجي بصفة عامة أنظر: هـ. موسى: ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٢٦/٢٧٢، وسعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ١٨٦/٢٠٥، ج ٢: ص ٢٥/٨٧. (الترجم)

كان مذهب السلطة البابوية قد تشكل ما بين عام ٧٣٠ وعام ٧٦٠ . وإلى حد ما ، كان التعبير عن هذا المذهب من نتائج النزاع الأيقوني مع بيزنطة . ففي أواخر العشرينات من القرن الثامن حرم الامبراطور (٥) استخدام الصور وغيرها من المواد الفنية الممثلة للأشخاص (الأيقونات) باعتبارها مظاهر وثنية وعبادة أصنام ، كما أمر بأن تزال من الكنائس الخاضعة لحكمه . وكانت النتيجة نزاعا انشقاقيا عنيفا أمتص طاقات الدولة البيزنطية والكنيسة البيزنطية على مدى قرنين من الزمان حتى انتصر الأيقونيون المدافعون عن الصور الدينية في نهاية الأمر . وقد فسرت دوافع الامبراطور الذي أثار النزاع الأيقوني عدة تفسيرات . فقد كان الأباطرة الذين حرموا الصور الدينية من أسيا الصغرى حيث يوجد الإمداد البشري اللازم للجيش البيزنطي في ذلك الحين ، وقد فسر موقفهم اللايقوني على أنه نتيجة لتأثر الرجال الذين ارتقوا سلم السلطة في الامبراطورية الرومانية بالتراث الديني لدى شعوب الشرق الأوسط مثل المسلمين واليهود الذين كانوا يحرمون الصور في بيوت العبادة الخاصة بهم (٦) . وفي رأى أصحاب هذا التفسير أن النزاع اللايقوني قد نشب نتيجة الاستشراق المتزايد للحضارة البيزنطية . وثمة رأى آخر يعود بأصل الحركة اللايقونية إلى محاولات أباطرة القرن الثامن لزيادة سلطة الدولة البيزنطية ، وحيث وجدوا أن الشعبية التي يتمتع بها الرهبان البيزنطيون سوف تكون عقبة في طريقهم . وأعتقد الأباطرة أن هذه الشعبية جاءت نتيجة للاعتقاد الشائع بأن الأيقونات المحفوظة في المؤسسات الديرية قادرة على صنع المعجزات ؛ ومن ثم أعتقد الأباطرة أن سياستهم اللايقونية كانت أساسا ضروريا لإعادة إحياء السلطة الامبراطورية .

(٥) هو الامبراطور ليو الثالث الأسيرى الذى بدأ سنة ٧٢٦ حملة ضد الأيقونات وعبادتها . وقد حكم هذا الامبراطور من سنة ٧١٧ إلى سنة ٧٤٧ . (المترجم)

(٦) الحقيقة أن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أمر في سنة ١٠٤ هـ (٧٢٢) م بكسر الصليبان في كل مكان وبمحور الصور من الكنائس في جميع أنحاء الدولة العربية الاسلامية مما قد يشير إلى تأثير ليو الثالث بما فعله جيرانه المسلمون . (المترجم) .

وأيا كانت نوافع الامبراطور لإصدار مراسيمه اللايقونية، فإنه لم يكن بوسع البابا الإذعان لها، فقد كان الامبراطور قد أمره بالالتزام بسياسته الجديدة. وفي المحل الأول، لم يستطع البابا أن يسلم بحق الامبراطور في التشريع لمثل هذه المسائل المذهبية الهامة. وثانيا، كانت الكنيسة الغربية تعارض الموقف اللايقوني معارضة شديدة، وقد جسد جريجورى الكبير موقف الكنيسة الغربية من مسألة وضع الصور في الكنيسة. فبينما كان جريجورى يرفض، بطبيعة الحال، فكرة أن تكون للصورة الكنسية أية قوى إعجازية، فإنه مع ذلك كان يدافع عن استخدامها كوسيلة تثقيف وتعاليم في الارشاد الدينى. وفي سنة ٧٤٠ كان البابا هو جريجورى الثانى، الذى كان لإسمه أهمية ومغزى؛ ذلك أنه كان من عادة البابوات عند ولايتهم أن يتخذ الواحد منهم اسم أحد البابوات السابقين يكون محل إعجابه أكثر من غيره، وكان جريجورى الثانى يرغب فى منافسة جريجورى الكبير، كما كان يريد أن يضع برنامجا الخاص بزعامة البابوية لأوربا موضع التنفيذ العملى. ولم تكن البابوية قادرة على فعل ذلك إبان القرن السابع، بسبب ضعف الملكية الفرنجية من جهة، وبسبب وقوع البابوية فى متناول الامبراطور وجيشه الرابض فى إيطاليا من جهة أخرى.

وقد وصل النزاع اللايقونى بالأمور الى غايتها كما منح جريجورى الثانى فرصة تنفيذ سياسة سمية فأرسل خطابا غاضبا الى القسطنطينية ينكر فيه حق الإمبراطور فى التدخل فى المسائل المذهبية، مؤكدا أنه إذا عاود الإمبراطور محاولة استخدام القوة ضد اسقف روما، فإن العالم الغربى بأسره سوف يقف على قدم الاستعداد لمساعدة البابا. والحقيقة أنه لم تكن هناك وسيلة يعرف جريجورى بها مدى صدق هذا الزعم.

فقد رفض شارل مارتل المجىء الى ايطاليا بناء على طلب البابوية لحمايتها فى مواجهة الامبراطور واللمبارديين سنة ٧٥٩. ولاشك فى أن شارل كان يشعر أن لديه من المشاغل فى وطنه ما يكفيه. وكان ملك الفرنجة، على أية حال قد صار على علاقة طيبة بالقسطنطينية منذ عهد كلوفيس. ولكن جريجورى الثانى، لسبب لاندريه، كان يعتقد أن

الوقت قد حان لكي تعلن البابوية استقلالها عن الإمبراطور الروماني، ولكي تربط نفسها بالعالم الغربي ومن ثم بالأسرة الكارولنجية التي كانت تحكم معظم أراضى أوروبا.

وفي سنة ٧٥١ أتت سياسة جريجورى الكبير، وسميه جريجورى الثانى ثمارها، وذلك حين لجأ بين الثالث الى روما فى طلب المساعدة فى الحصول على التاج الفرنجى، فقد كان الملك الميروفنجى فى القرن الثامن مجرد شخص لا أهمية له على الإطلاق . فلم تكن لديه السلطة ولا الممتلكات ، كما كان يركب عربة تجرها الثيران مثل أى فلاح؛ بيد أنه كان ما يزال يملك اللقب الملكى . ووفقا للقانون الفرنجى لم يكن هناك من سبيل يمكن عمدة القصر الكارولنجى من انتزاع اللقب لنفسه، فكان بحاجة إلى تأييد الكنيسة، والسلطة البابوية على وجه الخصوص ، لكي يفتصب العرش الفرنسى . وكان بين الثالث يملك من المهارة ما يكفى لأن يفعل ذلك حين تواتيه الفرصة؛ ذلك أنه من المحتمل أن يخرج من بين الملوك الميروفنجيين، الذين ظلوا على مدى قرن من الزمان أشخاصا من نوى العاهات الجسدية أو العقلية ، كلوفيس آخر، واتضح أمام بين السبيل الذى يجب أن يتبعه بفضل أعمال بونيفاس فى المملكة الفرنجية ، وازدياد نفوذ الكنيسة فى المجتمع الفرنجى، والنظرة الجديدة المفعمة بالاحترام التى نظر بها رجال الكنيسة الفرنجية الى البابوية.

فقد كان متوقعا أن يعلو قانون الكنيسة، وما تفرضه البابوية من عقوبات فوق التقاليد الفرنجية. ومن ثم فإنه طلب من بونيفاس أن يحمل إلى روما سؤالا عما إذا كان يجب للرجل الذى يمارس السلطة الفعلية أن يكون ملكا أم لا. وكانت البابوية قد انتظرت قرنا من الزمان من أجل هذه اللحظة . ولم يكن بمقدور البابا الا أن يعطى بين الإجابة التى كان يريدتها (٧). ولكن الحقيقة أن القرار البابوى بحق بين فى خلع الملك الميروفنجى الحاكم وأخذ التاج الفرنسى كان متوافقا مع تقاليد النظرية السياسية لكنيسة العصور الوسطى الباكرة. ذلك أن المنظرين الكنسيين لم يتأثروا قط بمزاعم الوراثة ، وكانوا ينادون على

(٧) البابا المتصود زكريا (٧٤١ - ٧٥٤).

(المترجم)

الدوام بأن ولاية العرش تتوقف على ملازمة الشخص للمنصب، وهو ما يعنى أن يتمتع المرشح للعرش بمؤهلات تجعل منه حاكما كفؤا عادلا. ولم يكن بين قادرا على الإفادة من هذا الرأي؛ ذلك أن مبدأ استحقاق العرش عن جدارة كان قد اختفى من فرنسا في القرن الخامس، وحلت محله تقاليد الحق المطلق للأسرة الميروفنجية في العرش. وربما يكون هذا التحول الذى طرأ على أسس الملكية الفرنجية راجعا في الأصل الى مزاعم الميروفنجيين، في عصور ما قبل المسيحية، بأنهم من سلالة الآلهة، وقد تدعم هذا التحول في مطلع القرن السادس حين غزا كلوفيس عمالة وزعم أن الملكة بأسرها ملك خاص لأسرته. وكان من الواضح أن قرار نائب الله في الأرض (البابا) فقط هو الذى يمكنه كسر الارتباط الفرنجى بالبيت الميروفنجى؛ هذا الارتباط الذى أكدته تساهل الفرنجة على مدى أكثر من قرن مع سلسلة من المعتوهين الملكيين.

وقد ارتقى بين عرش الفرنجة وفقا للقانون الكنسى والبابوى خلال احتفال دينى رمزى متقن، فقد مسح القديس بونيفاس، بوصفه ممثل البابوية في فرنسا، بين بالزيت المقدس بنفس الطريقة التى يتم بها ترسيم الأساقفة، ثم توجه ملكا على الفرنجة. وكان لهذا التتويج المقدس للحاكم الكارولنجى أثره المرجو من حيث إيجاد الإنطباع بحق بين في العرش لدى رجال الكنيسة الفرنجية والسادة العلمانيين على حد سواء، وأرسل آخر الميروفنجيين إلى أحد الأديرة، وبذلك اختفت أسرة كلوفيس وكان مسح بونيفاس لبين بالزيت المقدس علامة على نقطة تحول هامة في تطور الملكية في أوائل العصور الوسطى لأنها كانت تتضمن في طياتها فكرة الملكية الثيوقراطية التى عرفتها أوروبا الغربية وثمة دليل على أن اساقفة القرن السابع الأسبان قد جربوا أيديولوجية واحتفالا مشابهيين في محاولة لمنح بعض التأييد المعنوى والدينى للملكية القوطية الغربية الضعيفة؛ ولكن هذه المحاولة انتهت بالفتح الإسلامى لشبه جزيرة أيبيريا، ولا يبدو أنها كانت مفيدة كسابقة في التتويج المقدس للحاكم الكارولنجي.

فلماذا إذن قدمت البابوية التتويج المقدس للملكية فى غرب أوربا ، وقدمت معه أيديولوجية الملكية الثيوقراطية التى ناضلت البابوية ضدها فى صيغتها البيزنطية نضالا مريرا منذ القرن الخامس؟ يجب أن نؤكد أن البابوية أخطأت فى استحداث هذه البدعة من حيث نتائجها البعيدة المدى ؛ فقد صارت الملكية الثيوقراطية مذهباً سبب من المتاعب للكنيسة فى صيغته الغربية أكثر مما عانت منه فى صيغته البيزنطية. ولم يكن هذا شيئاً يمكن رؤيته فى منتصف القرن الثامن، وكانت غلطة الملكية الجرمانية، فى نظر الكنيسة؛ أنها كانت غاية فى الضعف بحيث تعجز عن قيادة المجتمع أو حماية الكنيسة؛ وليس كونها أداة للاستبداد وتهديداً مسلطاً على زعامة الكنيسة المعنوية للمجتمع. وأخيراً سنحت الفرصة للبابوية سنة ٧٥١ لى تضع برنامج جريجورى الكبير موضع التنفيذ الفعلى ، وأن تضع الملك الفرنجى فى موقف المدين بعرشه لروما. بيد أنه كان عليها، لى تفعل هذا، أن تتحكم فى التقاليد الفرنجية الراسخة، وأن تحصل على التاج لحلفائها الكارولنجيين، وكانا التطبيق الكامل للعقوبات الدينية هو أضمن وسيلة لتحقيق هذه الأهداف ، وهما يؤدى إلى رفع الأسرة الكارولنجية إلى منصب مقدس. وبدا الأمر وكأنه احتفال درامى رمزى أخاذ يمكن أن يحقق هدف الحصول على العرش الفرنجى لبين؛ ولكنه لا يشكل أى تهديد لزعامة البابوية للمجتمع الغربى . وكان المنظرون الكنسيون يعرفون مضامين الملكية الثيوقراطية والتتويج الملكى المقدس، ولكن البابوية فى منتصف القرن الثامن لم تكن تتوقع أن الملوك الجرمان الأميين سوف يفيدون من هذا التتويج على نحو يتعارض مع مصالح روما، أو إنهم سوف يدركون كل ما تضمنته المذاهب العقلانية المعقدة.

فضلاً عن أن البابوية لم تكن مهتمة بتقديم الملكية الثيوقراطية فى غرب أوربا؛ لأنها كانت قد شكلت أيديولوجيتها الخاصة عن سيادة البابوية على ملوك أوربا الغربية، وقد حصلت من بين على الاعتراف الواضح بسلامة هذا المذهب.

وقد صيغت فكرة السلطة البابوية على العالم الغربى فى أشهر وثائق العصور

الوسطى وهى هبة قسطنطين التى كانت أشهر عملية تزيف فى التاريخ. وهناك بعض الشك حول تاريخ كتابة هبة قسطنطين فى الشكل الذى وصلتنا به. وربما يكون النص الموجود قد كتب فى منتصف القرن التاسع؛ إلا أن هناك دليلا قويا على أن هبة قسطنطين الأصلية، وهى تماثل فى جوهرها نفس الوثيقة التى وصلتنا، قد كتبت فى المقر البابوى فى منتصف القرن الثامن، وقدمها البابا شخصيا إلى بن فى باريس سنة ٧٥٤ وتقبلها الملك الفرنجى على أنها إقرار حقيقى بصلاحيه السلطة البابوية.

لقد شعرت البابوية أن من الضرورى لها أن تعبر عن أيديولوجيتها من خلال وثيقة مزورة ترتبط بالامبراطور قسطنطين؛ وذلك بسبب المفاهيم القانونية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى الباكرة؛ إذ كان القانون الجيد هو القانون القديم، فقد كان القانون مساويا للعادة، وكان لابد للدعوى الجديدة من بعض الأسس التاريخية أو المرتبطة بالعادات والتقاليد، وإذا ما اخذنا فى اعتبارنا أيضا ماكان الناس فى مجتمع أغلبه جاهل يكتونه من الاحترام تجاه الوثائق المكتوبة؛ يصبح من السهل علينا أن نفهم بواقع رجال الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة الى تزوير الوثائق من أجل إيجاد أساس قانونى لدعوايهم، ولا تدمغ هبة قسطنطين المزورة بابوات القرن الثامن بالدناءة الأخلاقية؛ لأن الوثيقة كانت مجرد وسيلة قانونية للتعبير عن أيديولوجية البابوية. فضلا عن أنه من المحتمل أن تكون البابوية قد اعتبرت التفسير الخاص لعهد قسطنطين تفسيرا حقيقيا، وهو التفسير الذى استندت اليه الهبة والذى اوجز فى ديباجة الوثيقة التى أعتقدوا أن قسطنطين قد أصدرها حقا، وإذا فإنهم زورا وثيقتهم الخاصة بنفس الطريقة التى زورت بها كثير من أديرة العصور الوسطى نسخا جديدة من الوثائق الأصلية التى فقدت.

ويعتمد كاتب هبة قسطنطين على أسطورة القديس سيلفستر St. Sylvester التى أشار إليها جريجورى التورى فى كتابه « تاريخ الفرنجة » ، والتي ربما يكن أصلها راجعا إلى ايطاليا أواخر القرن الخامس، فى وقت معاصر لتكوين المذهب الجيلازى. إذ تقدم

الأسطورة ، فى شكل تاريخى - قانونى، الجانب الراديكالى فى مفهوم جيلازيوس الأول عن العلاقة بين البابوية Auctoritas والملكية Potestas وتحكى الأسطورة التى بنيت هبة قسطنطين على أساسها، أن البابا سيلفستر الأول عالج الامبراطور الرومانى من مرض الجذام؛ واعترافا بالجميل عينه قسطنطين أسقفا للعالم الرومانى وتنازل أيضا عن تاجه الامبراطورى وعن جميع سلطاته البابا، وكرمز لخضوعه للبابا سيلفستر؛ قام الامبراطور بوظيفة سائس الخيول البابوية، وفى مقابل ذلك رد البابا الكريم على قسطنطين تاجه الامبراطورى. وعلى أية حال فقد هجر الامبراطور روما وإيطاليا والعالم الغربى وتركه للبابا وذهب ليقوم فى القسطنطينية، والمذهب الكامن خلف هذه القصة مذهب راديكالى للغاية إذ يعنى أن البابا فوق جميع الحكام؛ بما فى ذلك الامبراطور الرومانى الذى يدين بتاجه البابا؛ ومن ثم يمكن عزله بمرسوم بابوى، كما أن للبابا الحق المطلق، لا على روما وكنيسة القديس بطرس فقط؛ ولكن أيضا على إيطاليا والعالم الغربى بأسره اذا ما اختار أن يمارس ما زعمه لنفسه من سلطات.

وربما يمكن تفسير جسارة راديكالية هبة القسطنطينية من خلال نجاح البابوية فى تحقيق سياسة جريجورى الكبير إذ أن بابوات النصف الأول من القرن الثامن حصلوا على استقلالهم عن القسطنطينية وعقدوا حلفا مع الملكة الفرنجية . ثم كانت لهم الزعامة الأخلاقية على أوروبا الغربية بشكل واضح، وفى أواسط القرن الثامن بدا أن مطامح البابوية فى تحقيق السلطة لاتنتهى عند حد، فضلا عن أن البابوية تشجعت للتعبير عن ايدىولوجيتها حين قام الملك الفرنجى بوظيفة سائس الخيول البابوية بشكل رسمى، إذ أنه قام بقيادة حصان البابا مسافة قصيرة بشكل يتوافق مع دور الامبراطور الرومانى كما حددته هبة قسطنطين. ثم أقيم احتفال كبيرا آنذاك بكنيسة سان دوى St. Denis التى هى بمثابة الدير الملكى فى فرنسا - وهى الكنيسة التى كانت ترمز الى الارتباط بين روما وباريس بسبب تكريسها لتلميذ القديس بولس الرسول، ولم يقتصر البابا علي مسح بين

فقط بالزيت المقدس بل مسح زوجته وأطفاله أيضا كما منح الملك الفرنجي لقب هامى الرومان Patricius Romanorum (والرومان هنا تعنى الكنيسة الرومانية)، ولتحقيق هذه الوظيفة الجديدة تعهد بين بأن يعيد البابوية حكم أقليم رافنا، الذى كان قد سقط بأيدي اللمبارديين سنة ٧٥١، ولكن بين أقسم أن يعيده؛ لا إلى البيزنطيين الذين كان الأقليم تابعاً لهم، إلى وقت قريب، وإنما إلى أوقاف القديس بطرس، تمشياً مع ما جاء فى هبة قسطنطين من أن إيطاليا بأكملها منحة القديس سيلفستر وخلفائه، وفى العام التالى بر الملك الكارولنجى بوعده للبابا، فقد غزا إيطاليا، وانتزع رافنا من اللمبارديين، وسلمها إلى البابوية رغم احتجاجات البيزنطيين التى ضاعت هباء. وقبل رجوعه إلى فرنسا سنة ٧٥٦ أودع على مقبرة القديس بطرس فى روما وثيقة عرفت باسم « هبة بين » تؤكد على استقلال أوقاف القديس بطرس. وهكذا كان لدى البابوية فى نهاية خمسينيات القرن الثامن سبب قوى يجعلها تعتقد أنها إحرزت زعامة أوروبا الأولى، وأن الملكية الفرنجية المتجددة الحيوية يمكن أن تكون مؤيدا يدافع عن البابوية ويفيد فى خلق نظام مسيحي عالمى.

إلا أنه أصبح واضحاً، خلال ثلاثين عاماً بعد هذه الأحداث الخطيرة التى شهدتها منتصف القرن الثامن، أن أوروبا الأولى كانت تتشكل بطريقة لا تتوافق مع الايديولوجية البابوية التى تعبر عنها هبة قسطنطين، فلم تكن زعامة أوروبا الغربية بأيدي أساقفة روما، وإنما كانت بيد شارلمان ابن بين (٧٦٨ - ٨١٤). ووجد البابا نفسه فى تراجع مستمر ليصبح فى المحل الثانى بعد الملك الكارولنجى، كما أن شارلمان لم يحافظ بشكل حقيقى على هبة قسطنطين، فقد التزم بهبة أبيه فى البداية، ولكنه فى سبعينيات القرن الثامن دمر المملكة اللمباردية واتخذ نفسه لقب ملك اللمبارديين، وهكذا عارض شارلمان، بما أدعاه من حقوق فى شمال إيطاليا، كلا من هبة قسطنطين وهبة بين، وعلاوة على ذلك اتخذ البابا سبيل الحذر حين وجد شارلمان يأخذ ما يعنيه تتويجه على يد البابوية مأخذ الجد، فقد كان

علماء بلاط شارلمان يسمونه الملك داوود الذى كان النموذج الاصيل للملك المقدس وكان واضحا أن أيديولوجية الملكية الثيوقراطية قد برزت فى المملكة الكارولنجية لنفس الغرض الذى تطورت من اجله فى بيزنطة. وقد اخطأت البابوية فى القرن الثامن فى حساباتها حيث أنها لم تفهم أن الكنيسة الفرنجية التى تم إصلاح احوالها، لم تكن لتضخ للبابوية رغم اعترافها الرسمى بالولاء لروما، فضلا عن أن الاساقفة ومقدمى الأديرة ربطوا انفسهم بالتحالف الوطيد مع الحاكم الكارولنجى الذى كان بإمكانه ان يقدم لهم مناصب هامة فى حكومته وفى البلاط، أو يظلمهم بالحماية والأمان على الأقل، وإذا كان الملك الفرنجى، آنذاك، يشغل منصبا مقدسا، وإذا كان ملكا وقسيسا Rex et Sacerdos، فقد كان لرجال الكنيسة الفرنجية عندهم فى الارتباط بالملكية، لقد افترضت البابوية أن وجود كنيسة فرنجية مستنيرة ناجحة يعنى أن تولى هذه الكنيسة وجهها شطر روما، وكان هذا خطأ قاتلا.

وأخطأ البابا حساباته أيضا من حيث عدم سماحه ب بروز شخصية قوية فى الأسرة الكارولنجية، فلم يظهر فى العصور الوسطى الباكورة شخص أكثر تأثيرا من شارل العظيم. فقد كان محاربا عظيما أنفق سنوات حكمه فى محاولة مد مملكته فى جميع الاتجاهات، وضم شمال غرب المانيا إلى المملكة الفرنجية، كما ذبح فى غزواته الآلاف من السكسون الوثنيين دون تردد، إذ كان من طبيعة الملكية الجرمانية، أن تكون مقدرة الملك كمحارب عظيم محل إعجاب السادة الشديد ولولائمهم، مهما كانت مزاياه الأخرى التى تدعو إلى الإعجاب، فلم يكن أولئك السادة يحترمون أية صفات عدا الكفاءة فى ميدان المعركة، بيد أن شارلمان كان بالفعل يتمتع بميزات أخرى عدا الكفاءة فى ميدان المعركة، ضمنت له ولاء أقدر رجال الكنيسة، واخلاصهم، فضلا عن خدماتهم، لافى ممتلكاته الشاسعة فحسب، بل أيضا فى انجلترا وشمال ايطاليا. وشارلمان ككل، على حد وصف كاتب سيرته وسكرتيه رجل الكنيسة اينهارد Eindard، يبدو شخصية مؤثرة للغاية، وإذا كان

اينهارد يحبس نفسه من حين لآخر فى اطار كتاب سويتونيوس Suetonius « قصة حياة القياصرة الاثنى عشر » أثناء وصفه لسيدته وبطله، فمن الممكن تبرير ذلك من ناحية بعينها، ذلك أن شارلمان يستحق أن يحتل مكانه بعد اعظم الأباطرة الرومان مباشرة، وعلى الرغم من كونه نصف متعلم – اذا لم يكن يقرأ اللاتينية جيدا ولم يكن يستطيع رسم اسمه الا بصعوبة – فقد كان يتمتع بذكاء حاد استخدمه فى حل جميع المشاكل التى واجهت حكمه، كان محارب عصره العظيم ! إلا أنه فى الوقت نفسه تكفل باستمرار أعمال بونيفاس لتطوير وتحسين نظام الكنيسة، وتطوير التعليم فى المدارس الديرية داخل مملكته، وقد جند أشهر عالم فى عصره، وهو الانجليزى ألكوين Alcuin ! لكى يطور ويرقى المدارس الديرية الفرنجية، كما أحاط نفسه فى البلاد برجال الكنيسة المتعلمين المتحمسين سائلا إياهم النصيحة ومتبعا لها، وبين الأونة والأخرى كان الرئيس الجرمانى البدائى يخترق هذه الواجهة الحضارية (مظهرها الوجه الآخر لشارلمان)، فقد كان لشارلمان عدد كبير من الأبناء غير الشرعيين، وكان يسىء معاملة بناته بالإضافة الى أنه خطط لتقسيم مملكته بين من يخلفه من أبنائه كما لو كانت قطعة من ضيعة إقطاعية ومثلما كان يفعل أقل الميروفنجيين نضجا، بيد أن هناك قدرا كافيا من أعمال شارلمان يتسم بالذكاء والمثالية التى استخدمت فى الحكم لتكون علامة التحول الشامل الذى طرأ على الملكية الجرمانية، فقد كان أول ملك جرمانى منذ ثيودوريك ملك القوط الشرقيين يتجه بوعى وباستمرار نحو الإصلاح الاجتماعى، واذ أيقن رجال الكنيسة المعاصرون هذا، رفعوه الى مرتبة بطل المسيحية اللاتينية، واحتفظوا للبابا بمكانة محترمة ولكنها أدنى من مرتبة شارلمان، كما أن شارلمان لم يزعم مثل الامبراطور البيزنطى انه الممثل الأول لله على الأرض، ولم يشرع فى المسائل المذهبية؛ وإن تمتع ببصيرة نافذة ووعى بقدره، الأمر الذى وافق هوى رجال الكنيسة العاملين فى بلاطه تماما، فجعلوا منه زعيما للمجتمع الأوربى الجديد.

ولم يتبق للبابوية فى ترسانتها الروحية سوى سلاح وحيد كانت تستطيع بمقتضاه تأكيد سلطتها على الملك الكارولنجى. فإن الامبراطور، وفقا لما تقوله هبة قسطنطين، تنازل عن لقبه الامبراطورى ثم تلقاه ثانية من سيلقستر، وتستمر المناقشة البابوية فى القول بأنه منذ ذلك الوقت فصاعدا صار اللقب الامبراطورى من حق البابا الذى يمنحه أو يمنعه، وبدأ الأمر منذ ثمانينات القرن الثامن حيث يوجد دليل على أن البابوية كانت تعد العدة لكى « تترجم » (تنقل) اللقب الامبراطورى من القسطنطينية الى المملكة الكارولنجية ، وأوقف البابا تاريخ الوثائق البابوية بسنة تولى الامبراطور الرومانى العرش واستبدالها بسنة تولى شارلمان. وفى تسعينيات القرن الثامن أرسل البابا الاعلان الرسمى باختيار الملك الفرنجى عوضا عن الحاكم البيزنطى كما كانت العادة، وكان منح اللقب الامبراطورى لشارلمان، كوسيلة لاعادة تأكيد السلطة البابوية فى غرب اوربا، اجراء يائسا ولكنه كان المخرج الوحيد المتاح امام البابوية. وأضفى التتويج الإمبراطورى لشارلمان فعالية جديدة على هبة قسطنطين ، ولما كان للبابا الحق فى أن ينزع اللقب الامبراطورى؛ فقد كان معنى ذلك أنتمتع البابوية بصلاحيات قوية فى مواجهة الملك الكارولنجى. وفهم شارلمان، بطبيعة الحال، مغزى التتويج الامبراطورى على يد البابا، مما وضع عقبة فى سبيل تحقيق خطط البابا ، وعند نهاية القرن الثامن بالضبط وجدت البابوية نفسها مجبرة على الاسراع فى تنفيذ برنامجها الخاص بنقل اللقب الامبراطورى الى الغرب.

فقد تجدد تهديد أمن وسلامة أسقف روما، من جانب طبقة النبلاء الرومان، الذين ناضلوا لانتخاب واحد منهم لولاية عرش القديس بطرس، ونتيجة لهذا النزاع الداخلى تعرض ليو للضرب من قبل عامة الرومان، كما اتهمه اعداؤه من النبلاء الرومان بالخسة الاخلاقية، ففر صوب الشمال طلبا لمساعدة « حامى الرومان » الرسمى الذى كان مشغولا فى ذلك الوقت بحربه الطويلة ضد السكسون، وعملا بنصيحة ألكوين ، تصرف شارلمان فى روية وبطء شديدين فى استجابته لتوسلات البابا . وأعيد البابا إلى روما تحت الحراسة

وبقي تحت الحراسة لحمايته حتى تمكن شارلمان من عبور جبال الألب قرب نهاية ٨٠٠. وفي الثالث والعشرين من ديسمبر بدأ ليون نفسه يواجه التهم الموجهة ضده في محاكمة على الطريقة الجرمانية رأسها شارلمان. وكان لمجرى الحوادث على هذا النحو مغزاه فقد حطت من قدر البابا بشكل مريع، كما تضاعفت شخصيته أمام الحاكم الكارولنجي. فصمم على استعادة هيبة منصبه وسلطته من خلال التتويج الامبراطوري لشارلمان، وفي يوم عيد الميلاد، وبينما كان شارلمان ينهض من الصلاة أمام مقبرة القديس بطرس، وضع البابا ليون التاج فجأة على رأس الملك، وصاح رجال الكنيسة أفراد الشعب الروماني - الذين كانوا قد تدربوا على هذه الصيغة جيدا - قائلين : « شارل اغسطس امبراطور الرومان العظيم مانح السلام، له الحياة والنصر » وكان شارلمان حائقا ومتكدرا للغاية في هذا اليوم حتى انه قال، وفقا لرواية اينهارد، « انه لم يكن ليدخل الكنيسة إطلاقاً في ذلك اليوم، رغم انه كان يوم عيد هام جدا، لو كان يعلم بنية البابا ». وبذل شارلمان ما في وسعه ليهديء من ثائرة البيزنطيين الغاضبين، الذين زعموا أن لقبهم الامبراطوري سرق منهم. ولم يستخدم شارلمان أبدا لقب امبراطور الرومان الذي منحه البابا اياه، وكان راضيا بلقب « امبراطور ملك الفرنجة والمبارديين » التي توضح الأسس الحقيقية الفعالة التي قامت عليها سلطته.

وأثار التتويج الامبراطوري لشارلمان نزاعا شديدا بين المؤرخين، فاستبعد كثيرون منهم عبارة اينهارد على انها تواضع زائد من جانب شارلمان. والحقيقة ان شارلمان لم يكن يريد أن يتوج امبراطورا على الرومان لأن كلمة « رومان » كانت تعنى عنده « بيزنطيون » في المحل الأول. كما لم تكن لديه اية رغبة في اثارة غضب حاكم القسطنطينية. وثانيا لأنه فهم المفزى الدستوري للتويج البابوي، ولم يكن عنده أدنى نية لوضع نفسه في موضع المدين أو موضع الضعف بالنسبة لأسقف روما. وعلى أية حال،

فإنه مازاد في تعقيد الموقف، وتسبب في حيرة كثير من المؤرخين أنه كان ثمة مثال امبراطورى يحتل مكان الصدارة بين « المثل » المنتشرة بين رجال الكنيسة في المملكة الكارولنجية. الا أن هذا المثال لم يكن نفس مفهوم مثال الامبراطورية السائد في روما أو القسطنطينية، إذ تحفل خطابات الكوين، على نحو خاص، بالإشارات الى « الامبراطورية المسيحية » وإلى « أوربا » ؛ أى المنطقة المرتبطة بالمسيحية اللاتينية والتي كان شارلمان زعيمها. وبالنظر الى ما بذله شارلمان لصالح أوربا، ووضع كاعظم ملك في أوربا ، كان الكوين وغيره من الكنسيين في البلاد قد بدأوا يفكرون في انه يجب أن يأخذ شارلمان لقب الامبراطور. وعلى أية حال؛ فقد كان لهذا اثره الضئيل من حيث اثارة غضب الامبراطور الرومانى القديم أو حاكم القسطنطينية . وكان المقصود بهذا أن يكون مركز شارلمان ، كزعيم العالم المسيحى ، مقدسا . وربما كان التتويج الامبراطورى لشارلمان، سيحدث لو لم يسبق البابا الملك الفرنجى ومستشاريه فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠. ومن المؤكد ان شارلمان لم يكن ليسمح للبابا أن يقوم بتتويجه . بل كان احتفال التتويج الذى يفضلهُ هو ذلك الذى تم سنة ٨١٣ حين قام هو بنفسه بتتويج ابنه ووريثه - لويس - امبراطورا . وبما انه قد توج على يد البابا، فقد اختار شارلمان ان يفسر لقبه الامبراطورى بالطريقة التى حددها الكوين. فقد رفض اعتبار نفسه امبراطور الرومان وتجاهل الحقوق التى يضمنها تتويجه بواسطة البابا، واستمر يسمى نفسه ملك الفرنجة والمبارديين ؛ واعتبر اللقب بمثابة تعبير عن مكانته كبطل مسيحى عسكرى وملك ثيوقراطى، وزعيم للكنيسة الفرنجية.

ولعبت الفكرة الامبراطورية دورا أكثر أهمية فى سياسة ابن شارلمان وحفيده، لويس التقي ، وشارل الأصغر، كما اصبحت مفهوما تأثرت صياغته كثيرا بالايديولوجية الأصلية. وابتعد رجال الكنيسة الكارولنجية فى القرن التاسع عن امبراطورية شارلمان المسيحية، واتجهوا نحو السلفية السياسية political antiquarianism الهادفة الى الاحياء الكامل

للأفكار الرومانية الامبراطورية عن طريق تقليد احتفالات البلاط المزخرفة المزينة التي يستخدمها الأباطرة البيزنطيون، واستخدام اللقب الكامل : امبراطور الرومان، وفي سنة ٨١٦ حدث بالفعل أن سمح لويس التقى للبابا أن يتوجه بهذا اللقب . وحتى القرن التاسع كان تأكيد الحكام الكارولنجهين ومؤيديهم من رجال الكنيسة على اللقب الامبراطوري وربط الحاكم الكارولنجي بالأباطرة الرومان هو الدعامة التي يستندون اليها في مواجهة تدهور السلطة الملكية المطرد بعد موت شارلمان. ذلك أن الأيديولوجية صارت بديلا عن شهرته كقائد عسكري جرمانى، ولكن الأيديولوجية لم تستطع أن تفعل شيئا حيال مد المحلية المرتفع، ونمو السيادة الاقطاعية . لقد دبح أساقفة القرن التاسع الرسائل حول أبحاث الامبراطورية والملكية كما زخرف الأباطرة الكارولنجهيون بلاطهم؛ ولكنهم لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بزعامة حقيقية فعالة في مملكتهم.

وعلى المدى الطويل ، لم تريح البابوية أكثر مما ربحه الكارولنجهيون من إحياء اللقب الامبراطوري في الغرب وتقبل الكارولنجهين للأيديولوجية الرومانية . وفي منتصف القرن التاسع أكد البابا نيكولاس الأول Nicholas I المذهب الراديكالى لهبة قسطنطين بشكل عدوانى، وبرع البابوات في استخدام سيطرتهم على اللقب الامبراطوري لمضايقة الكارولنجهين المتأخرين، ولكن ذلك لم ينقذ البابوية من الكارثة التي ألت بها في نهاية القرن التاسع. ذلك ان البابوات كانوا في حاجة لحاكم كارولنجي يحميهم من لصوصية طبقة النبلاء الرومان. ومع ذبول القوة الكارولنجية دخلت البابوية واحدة من أظلم فتراتها في أواخر القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر؛ حين صارت دمية في أيدي النبلاء الحاكمين، وفقدت مكانتها كزعيمة للعالم الأوربي تماما.

وإذا كان تاريخ امبراطورية القرن التاسع هو تاريخ الفشل في كل الاتجاهات فلا يجب أن نغمى أبصارنا عن حقيقة أن عنصرا جديدا ظهر في الحياة السياسية في أوروبا الغربية . وفي الشطر الأخير من القرن العاشر اخذت الملكية الألمانية التي قامت على

انقراض المملكة الكارولنجية الشرقية، اللقب الامبراطوري لنفسها. وكان على الملوك الالمان حتى منتصف القرن الثالث عشر أن يجعلوا اللقب الامبراطوري جزءا هاما للغاية من سياستهم ، وكان على خلفائهم أن يحتقوا باللقب حتى سنة ١٨٠٦.

الفصل الثامن

الثقافة والمجتمع فى أوربا الأولى

١ - العالم الكارولنجى

تتميز المصادر الأدبية والأدلة الوثائقية التى خلفتها لنا الفترة الكارولنجية بأنها أكثر بكثير منها فى أية فترة زمنية أخرى بعد القرن الرابع الميلادى . فبينما تعتمد معلوماتنا عن فرنسا القرن السادس، بشكل أساسى، على ما أمدها به جريجورى التورى، وبينما تتسم مصادر تاريخ الملكية الفرنجية الميروفنجية فى القرن السابع بكونها مجرد شذرات متناثرة إلى حد بعيد؛ حفظت لنا الأيام مئات الصفحات من المدونات التاريخية، والخطابات، الوثائق الحكومية، والمعاهدات التى تغطى الفترة فيما بين سنة ٧٥٠ وسنة ٩٠٠ بعد الميلاد . ويعتبر ارتفاع مستوى التعليم فى ظل الدولة الكارولنجية ، مؤشرا على تقدم الحضارة وأية على تخطى آثار الغزوات الجرمانية، وحركة الفتوح الإسلامية، كما يعتبر دليلا على ظهور ثقافة متميزة ومجتمع متميز فى غرب أوربا . وفى سنة ٤٠٠ بعد ميلاد المسيح لم تكن أوربا تعنى ما هو أكثر من تعبير جغرافى . فقد كانت الحضارة الرومانية تتركز على البحر المتوسط، كما كانت فرنسا وإنجلترا، ووادي نهر الراين مجرد مناطق متاخمة للعالم الرومانى، أما فى سنة ٨٠٠ ، فكانت أوربا تعنى حضارة جديدة أخذة التواجد فى المنطقة المسيحية اللاتينية خلقها التفاعل بين التراث الجرمانى والثقافة المسيحية - اللاتينية، وإذا ما قورنت أوربا، آنذاك، ببيزنطة أو بالعالم الإسلامى لبدت فقيرة ومتخلفة؛ ولكنها كانت مع ذلك قد طورت أفكارا ونظما خاصة بها، كما وجدت لنفسها قياداتها من بين صفوف أبنائها، فضلا عن أنها باتت واعية ومدركة لوجودها ومصيرها فى المستقبل.

كانت أوربا الأولى تضم فرنسا وإنجلترا وألمانيا الغربية وإيرلندا ووسط وشمال

إيطاليا إلى جانب الأقاليم الجبلية في شمال أسبانيا . ولم تكن المراكز الحيوية للحضارة واقعة على البحر المتوسط وإنما في وديان الأنهار في شمال فرنسا وأراضي الراين . أما ثقافة أوروبا الأولى قد توحدت تحت راية اللغة اللاتينية التي كان رجال الكنيسة، والملوك وأبناء الطبقة الارستقراطية يستخدمونها جميعا . فقد كانت هي اللغة التي يستخدمها الحكومة الكنسية والحكومة العلمانية على حد سواء كما كانت هي اللسان الذي تتم به مناقشة جميع الأمور الثقافية والعقلية ، وبها كان يتم تدوين مثل هذه الأمور . وفي جميع الأحوال كان الدراسون الكنسيون- الذين كانوا كلهم تقريبا من نتاج المدارس الديرية المزدهرة في شتى أنحاء العالم الكارولنجي - هم الذين يتولون القيام بالكتابة باللغة اللاتينية ؛ سواء كان ذلك لصالح الملكية أو لصالح الكنيسة أو لصالح البوق (الحاكم المحلي) . أما لغة الحياة اليومية التي كان عامة الناس، بما في ذلك غالبية النبلاء، يستخدمونها، فقد اختلفت من إقليم لاقليم ، ففي إنجلترا كان الناس يتحدثون اللغة الأنجلو - سكسونية، وقد صارت هذه اللغة لغة قومية في القرنين الثامن والتاسع، وفي أيرلندا صار اللسان الكلتى هو لغة الناس، على حين كانت المناطق الشمالية في القارة تتكلم اللغة الألمانية . أما الجنوب والغرب فقد انتشر في ربوعهما خليط من اللهجات المشتقة من اللاتينية الدارجة، وهي اللغة التي كانت عامة الناس يتحدثون بها فعلا في رحاب الامبراطورية الرومانية من قبل . هذه اللهجات المشتقة من اللاتينية الدارجة كانت بمثابة البشائر التي خرجت منها اللغات الرومانسية، وبحلول منتصف القرن التاسع كانت كل من اللغة الألمانية واللغة الفرنسية قد برزت كلغة قائمة بذاتها . ففي عهد ستراسبورج Oath of Stasbourg سنة ٨٤٢ جاءت توقيعات ملوك الأجزاء الشرقية والغربية من الامبراطورية الكارولنجية باللهجات الفرنسية الألمانية المتعارف عليها آنذاك، وهكذا ، فإنه بحلول منتصف القرن التاسع كان هناك انفصال بين اللغات الشعبية أو المحلية في كل من الأجزاء الشرقية والأجزاء الغربية من الامبراطورية الكارولنجية . وقد ساهم ظهور اللغة الفرنسية واللغة الألمانية في تفكك وانحلال الامبراطورية الكارولنجية، بقدر ما كانت اللغة اللاتينية ، من ناحية أخرى، عاملا في توحيد مختلف أقاليم أوروبا الأولى تحت راية ثقافة عليا مشتركة.

كانت الكنيسة فى سنة ٤٠٠ ميلادية تحت سيادة الامبراطور الرومانى . وما أن جاءت سنة ٨٠٠ حتى كانت الكنيسة قد تحررت من آخر قيود السيطرة البيزنطية، بيد أن رجال الكنيسة كانوا خاضعين لنفوذ الحكام الكارولنجيين، كما كانوا يضعون مصالحهم ومصالح الملكية الفرنجية فى سلة واحدة . ولم يكن الحكام الكارولنجيين يتدخلون فى شئون العقيدة، ولكنهم اهتموا بتحسين نظام الكنيسة، كما كانوا يهدفون إلى تسخير موارد الكنيسة العقلية، بل وحتى مواردها المالية، فى خدمة الملكية . وقد اعترف الكارولنجيون بالنظرية البطرسيية، وبأكثر جوانب المذهب الجيلاسى محافظة. كما انهم سلموا بأن الكنيسة ملك للأساقفة ، غير أنهم كانوا يعتقدون بأن الأساقفة ملك للكارولنجيين . وقد تعين على رجال الكنيسة فى المملكة الفرنجية أن يوافقوا على هذا الموقف من منظور يرى الحاكم الكارولنجى فى مكانة ملك باركته الكنيسة، وامبراطور مسيحى ، فضلا عن كونه حاميا للكنيسة . ويعتبر كبير الأساقفة هنكار الريمسى Hincmar of Rheims (ت ٨٧٦ نموذجاً نمطياً لكبار رجال اللاكليسوس فى القرن التاسع، فقد كان صديقا ومستشارا وداعية لشارل الأصلى، كما كان خبيرا فى الاحتفالات الحكومية واحتفالات البلاط، وفى الوقت نفسه كان داعية ونصيرا نشطا لامتيازات أسقفية ولامتيازات الوظيفة الأسقفية بصفة عامة. وكانت التزامات رجال اللاكليسوس الكارولنجى ومصالحهم الدنيوية من ناحية، ودعاوى ملوك القرنين الثامن والتاسع الروحية من ناحية أخرى، هى العلامة الدالة على مدى تداخل كل من الكنيسة والعالم فى الآخر، وهو الأمر الذى قدر له أن يكون السمة المميزة لحضارة العصور الوسطى على مدى القرون الثلاثة التالية . وفى أوروبا الأولى كان قد بات واضحا بالفعل ذلك التوتر بين السلطة والروح، وبين المثال والمادة، وهو التوتر الذى صار أكبر قوة من قوى التغيير فى التاريخ الأوروبى.

وفى سنة ٦٠٠ كانت الحياة الحضرية ماتزال على قدر من الأهمية ، ولكنها لم تكن ذات أهمية تذكر فى أوروبا الأولى. كانت المواصلات والاتصالات سيئة بدرجة يصعب

تصديقها؛ إذ باتت أسوأ بكثير مما كانت عليه زمن الامبراطورية الرومانية. فثمانون بالمائة، على الأقل، من جمهرة السكان لم يكونوا يتحركون أبدا مسافة تزيد عن عشرة أميال من مواطنهم الأصلية، كما كان خطر المجاعة شبحا يتهدد الناس بشكل دائم، والعنف هو الحقيقة التي تفرض نفسها على الحياة اليومية. ولم يكن متوسط عمر الفرد ليزيد عن ثلاثين سنة. أما في مجال العلوم فكانت معلومات الناس في الأراضي الكاروانجية ضئيلة للغاية، على حين كانت معلوماتهم شبه منعدمة في مجال الطب، وفي ظل هذه الظروف لم يكن من المثير للدهشة أن تتفشى الخرافة بين الناس، وأن تكون القوى الاعجازية المنسوبة إلى القديسين المحليين هي الملاذ الوحيد أمام بلايا الطبيعة والأمراض. وكان رجال الدين المتعلمون يناضلون ضد الخرافة، كما كانوا يحاولون الحد من الظهور المتوالى والمستمر للقديسين المحليين، وذلك بطلب وضع القوانين المنظمة للكنيسة؛ بيد أن ذلك لم يأت سوى بنتائج محدودة.

كانت مراكز الحياة الكاروانجية هي القلعة، والدير، والكاتدرائية، بل إن ما كان يسمى بالمدن في المملكة الفرنجية مثل آخن Aachen عاصمة شارلمان، أو مدينة ريمس Rheims الكاتدرائية، كانت لا تتألف سوى من مبنى الحكومة تحيط به عدة منازل يضمها جميعا سور. وكانت ماتزال توجد بقية من المدن الرومانية الكبرى في شمال إيطاليا، مثل المدينة الخالدة (روما) نفسها. غير أن كثيرا من الشوارع في المدن الإيطالية كانت مهجورة ولم يبق من المنازل غير أطلالها. كذلك توقف نظام المياه ونظام الصرف الصحي الجيد الذي كان الرومان قد شأبوه في هذه المدن عن العمل، بل أن المباني الحكومية والعسكرية والكنسية في العالم الكاروانجي كانت متواضعة للغاية؛ فعادة ما كانت القلعة الكاروانجية عبارة عن مبنى خشبي. أما الكنائس وغيرها من المباني المشيدة بالأحجار فكانت منخفضة واطئة ومبنية على غرار الحمامات الرومانية.

وفي سنة ٨٠٠ كانت الغابات الكثيفة أو الأراضي التي تملؤها المستنقعات والتي

لاتصلح للزراعة تغطي نصف مساحة أوروبا تقريبا، وكانت طبوغرافية المناطق الزراعية وكذلك شكل الاقتصاد الريفي قد تحدد بتأثير المحراث الثقيل ذي العجلات والذي تجره الثيران، وهو المحراث الذي كان مستخدما في العالم الروماني، وكان نتاج عمل يوم كامل للفلاح عبارة عن شريط طويل ضيق يشقه المحراث، ومن ثم حدث أن غلبت على المناطق الريفية الحقول الكبيرة المفتوحة التي كانت تقسمها تلك الشرائط التي شقها المحراث الثقيل، ولأن المخصبات والأسمدة لم تكن موجودة كان لابد أن يترك كل حقل دون زراعة كل سنتين أو كل ثلاث سنوات لراحته، ولم يكن جميع الفلاحين في أوروبا؛ بل ولا حتى الغالبية الكبرى منهم، أقنانا مربوطين بالأرض يخضعون لسيّد الضيعة، وفي ألمانيا وشرق إنجلترا على وجه الخصوص كانت قرى الفلاحين الأحرار الذين يشتركون في ملكية الحقول المفتوحة، ويتقاسمون الشرائط الحقلية تمثل القاعدة في الحياة الريفية، ففي هذه الأماكن ظل البناء الاجتماعي الجرمانى يتسم بوجود أعداد ضخمة من الفلاحين الأحرار في ثنائيه، وفي المملكة الفرنجية غرب الراين، وكذلك في الأراضي الزراعية الغنية في وسط إنجلترا، كانت ضيعة العصور الوسطى manor هي بالفعل الوحدة الأساسية في النظام الاقتصادي، فقد كان السيد lord يحتفظ بجزء من الأرض الصالحة للزراعة في القرية تحت تصرفه الخاص، وكان تقسيم هذه الأراضي أيضا يأخذ شكل الشرائط الحقلية، أما الفلاحون - الأقنان فكانوا يحصلون على شرائط في الحقول المفتوحة لقاء قيامهم بالعمل في أرض السيد وكان أولئك الأقنان مربوطين بالأرض كما كانوا خاضعين لسلطة السيد وسلطانه القضائي، فضلا عن التزامهم بأداء بعض الالتزامات تجاهه، مثل ضريبة الوراثة التي كانت تعرف باسم heriot، وقد للحقول المفتوحة المقسمة إلى شرائط أن تظل أساس النظام الاقتصادي في شطر كبير من ريف أوروبا حتى القرن الرابع عشر، وكان هذا نظاما زراعيا عقيما لايساعد على التقدم كما كانت انتاجيته ضئيلة، بيد أنه كان النظم الوحيد المتاح في ظل ظروف التكنولوجيا المتيسرة آنذاك.

كانت الضيعة وحدة اقتصادية مكتفية ذاتيا . وكان هذا ضروريا بالنظر إلى صعوبات النقل في تلك الفترة. ولم تكن التجارة العالمية تخدم غير مطالب الأثرياء، وغالبا ماكانت هذه التجارة بأيدي التجار الأجانب من البيزنطيين واليهود والمسلمين. ولم تكن المجتمعات المحلية تحتاج إلى استخدام النقود تقريبا . أما التبادل التجارى المحلى، فكان يتم عن طريق المقايضة . فقد اقتربت أوروبا الأولى جدا مما أطلق عليه كتاب القرن التاسع عشر مصطلح « الاقتصاد الطبيعي ». إذ أن حجم التجارة العالمية البالغ الضالة قد حل دون وجود الحاجة إلى سك العملات الذهبية، واكتفى الكارولنجيون بسك العملات الفضية فقط، وعادة لم تكن تبرز الحاجة إلى غير هذه العملات لأن الظروف كانت تتيح شراء بقرة بأصفر قطعة فضية، وحين كانت تظهر الحاجة إلى استخدام العملات الذهبية كان الناس يستخدمون العملات البيزنطية والعملات الإسلامية.

كان الفقر والسمة المحلية التي غلبت على أوروبا الأولى يجعلانها تبدو منطقة غير هامة إذا ماقيست بالامبراطورية الرومانية التي وجدت من قبل، أو بحضارة كل من بيزنطة والاسلام المعاصرتين . ولكن العالم الكارولنجى كان يتميز بأنه كان قد بدأ فى استخدام ملكة الفهم والاستنتاج في حل مشكلات المجتمع. وبينما قد لا تبدو الانجازات فى هذا المجال كبيرة نسبيا؛ فإن هذا التطور على قدر كبير من الأهمية فى حضارة العصور الوسطى. ذلك أنه يعتبر علامة على نقطة البداية والانطلاق صوب النمو السياسى والثقافى الذى شهدته القرون التالية. وفى المحل الأول ، كانت أعمال الكارولنجيين قد حققت وجود طبقة متعلمة فى المجتمع الجرمانى كان عليها النهوض بأعباء العمل فى خدمة الكنيسة الملكيه. وكان قائد هذه الحركة التعليمية الكبرى هو ألكوين Alcuin الانجليزى (٨٠٤ م) الذى كان شارلمان قد استقدمه من انجلترا لى يطور المدارس الديرية ويحسنها فى رحاب مملكته ، ولكى يواصل العلم الذى كان بونيفاس Boniface قد بدأه. وقد أحرز ألكوين نجاحا رائعا فى إنجاز المهام التى عهد بها شارلمان إليه. إذ أنه قام بتأسيس وتوسيع

المدارس والمكتبات وحجرات النسخ scriptoria في الأديرة المنتشرة في شتى أنحاء فرنسا . كما أنه ألف الكتب المدرسية، وأعد قوائم الكلمات وجعل المجموعة الثلاثية -trivium والمجموعة الرباعية quadrivium جزءا ثانيا من المنهج التعليمي في المدارس الكارولنجية، ويمكن رصد أثر هذا العلم من خلال الزيادة الكبيرة في الموارد الأدبية والوثائقية التي خلفها لنا العصر الكارولنجي . كما يمكن رسمه من خلال النصوص الكلاسيكية التي كتبت مخطوطاتها بأيد كارولنجية . فضلا عن أنه يمكن رصد هذا الأثر من خلال انتشار ملقوس الخدمة الكنسية الرومانية في الكنائس الفرنسية، وفي بعض الاسهامات الأصلية التي قدمها رجال الكنيسة أنفسهم في هذا المجال . ويمكن رصد أثر هذا العلم أيضا من خلال حقيقة أن أول مجموعات القوانين الكنسية الكبرى يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع؛ وذلك على الرغم من عدم منهجيتها وتضمنها للكثير من المراسيم المزورة.

كان العمل الذي قام به الكوين في مجال التعليم حاسما للقرنين التاسع والعاشر، فلم تعد هناك على الإطلاق إمكانية لأن تواجه أوروبا مخاطر البربرية والامية، أو احتمال اندثار الثقافة اللاتينية، وهي المخاطر التي كانت قائمة في القرن السابع . لقد أتم الكوين العمل الذي كان بونيفاس قد بدأه : وباتت المسيحية اللاتينية ترتبط بأوروبا الغربية ليس على المستوى النظري فحسب؛ وإنما على مستوى الواقع أيضا . وثمة اختبار هام لدى تغفل المسيحية اللاتينية في حياة العالم الكارولنجي يتمثل في التأثير الذي أحدثته تحلل الامبراطورية وغزوات الفيكنج على التعليم . لقد كانت هناك بعض التأثيرات - مثل ذبول واضمحلال بعض المدارس الديرية نتيجة للأحوال المحلية المضطربة أو من جراء الهجمات إلى قام بها المغيرون الفيكنج - ولكن المدارس الديرية استمرت في أداء عملها بنجاح خلال الفترة الصعبة بشكل عام. وفي البقاع التي لم يتوغل فيها الفيكنج، أي في الجزء الشرقي من المملكة الألمانية، ازدهرت المدارس بشكل مطرد وأخذت زمام القيادة من أديرة الأقاليم الغربية.

وفى إبان القرن التاسع، وعلى حين يتوالى جيل بعد آخر من المدارس الديرية، يمكننا أن نلاحظ أن ثمة تقدم ونمو ثابت فى مدى وعمق العملية التعليمية التى كانت تقوم بها هذه المدارس، لقد كان الكوين يناضل فى سبيل فرض نمط من التعليم الأساسى على الكنيسة الكارولنجية، وما أن حل منتصف القرن التاسع حتى كانت هذه المشكلة قد تلاشت، ومع وجود الخط الأول الذى كان قد تم تحقيقه فى الميدان الثقافى، باقت المدارس الديرية قدرة على أن تعضى قدما صوب دراسات أكثر عمقا وشمولاً. وكان الهدف الذى تسعى إليه هذه المدارس سعياً واعياً هو استعادة تراث أدب الآباء فى القرن الرابع، والواضح أنه بمغيب شمس القرن التاسع كان هذا الهدف قد تحقق. وقد وجدت مكاتب نسخ نشيطة وكبيرة فى اثنتى عشرة مدرسة ديرية أو أكثر؛ فضلاً عن تلك المكاتب التى وجدت فى الأديرة التى أسسها (أو على الأقل بثوا فى أوصالها النشاط من جديد) الرهبان الأنجلو سكسون أو الأيرلنديون فى القرن السابع والثامن، وهذه المكاتب حفظت نصوص الكتاب المقدس وجميع كتابات الآباء ونشرتها. وقد تمت دراسة أوغسطين بصفة خاصة فى عناية، ويمكن الوقوف على مدى الجهد الثقافى الذين كرسهما علماء القرن التاسع لدراسة الكتاب المقدس من خلال المخطوطات المصورة الرائعة التى أنتجوها، ويبدو تأثير فن تزيين الأيقونات Iconography البيزنطى واضحاً فى الرسوم التوضيحية الكارولنجية التى ألحقت بهذه المخطوطات، بيد أن نمطها الفنى يتميز بقدر أكبر من النزعة الطبيعية الكلاسيكية، وقدر أقل من النزعة الرمزية غير التجسيدية التى تتميز بها النماذج البيزنطية.

وقد اتصلت التيارات الثقافية الصغيرة، ذات الاتجاه الانسانى، والتى كانت تطفر على سطح النشاط الثقافى فى المدارس الديرية، بما كان فى البداية يعتبر مجرى مختلفاً تماماً من مجريات الثقافة فى العصر الكارولنجى. إذ أن شارلمان جمع حوله فى

« مدرسة القصر »^(١) مجموعة من العلماء المرموقين بينهم عدد من الايطاليين . وكان الكوين ينضم الى هذه المجموعة أحيانا . وقد كرس هؤلاء أنفسهم لتنظيم وترتيب كراسات من الشعر اللاتيني فضلا عن قيامهم ببعض ألعاب البلاط بالمشاركة مع الامبراطور . وفي عهدى لويس التقي وشارل الأصلع كانت هناك مجموعات بلاط مشابهة . وثمة ملاحظة تدل على النزعة السلفية الواعية والتقليدية التي تسرى في أعمال هذه المجموعات . وأطلق على هذه الحركة اسم حركة الإحياء الكارولنجي Carolingian Renaissance كما بولغ في أهميتها كثيرا . فقد كان علماء البلاط عبارة عن مجموعة صغيرة من الرجال المتعلمين (على الرغم من اقتباسهم للنصوص الكلاسيكية ، كان بهم هوى إلى الاعتماد على المجموعات والمختارات الأدبية Anthologies) الذين أضفوا مسحة ثقافية رومانية على البلاط الكارولنجي وفى المقابل نالوا مكافآت سخية . ومن الصعب أن نخرج من أعمالهم بما هو أكثر من ذلك ، كما أننا لا يمكن أن نربطهم بعلماء القرن الثانى عشر أو علماء القرن الخامس عشر . لأنهم كما يقول كل من فينختناو H. Fichtenau وبولجار R.R. Bol gar كانوا على قدر كبير من الجهل بحاجات البشرية ، ولم يسخروا تعليمهم في حل مشكلات المجتمع ، وإنما استخدموه فقط ليزينوا البلاط الملكى ويضيفوا إليه واجهة من العظمة القديمة . ولم يكن بين علماء البلاط الكارولنجي سوى مفكر واحد يتمتع بقدر من الأصالة هو حنا سكوت John the scot ، وهو إيرلندي كان يعمل فى بلاط شارل الأصلع . إذ أن حنا سكوت هذا ترجم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، التي تنسب إلى الراهب السورى الذى كتب فى القرن الخامس تحت اسم ديونيسيوس Dionysius ، كما أضاف من لدنه بعض التأملات الأفلاطونية الجديدة . بيد أن حنا سكوت لم يكن رائد حركة فلسفية ، لأن أحدا لم يتابع ما بدأه من عمل ، كما أن نصيبه من الأهمية فى تاريخ الفكر

(١) من هذه المجموعة روبر شارلمان انظر :

Philippe Wolff, the awakening of Europe. The pelican history of European thought I, pp. 36 - 53.

(الترجم)

الأوربي محدود . أما تأثير الكوين على التطور الثقافى فى العصور الوسطى فكان نتيجة لجهوده التى بذلها فى ميدان التعليم ويتأثير فكرته عن الامبراطور المسيحية، على حين تبدو أشعاره الرتيبة المملة التى نظمها كعضو فى مدرسة القصر ذات أهمية ضئيلة، وربما لا تكون لها أهمية على الاطلاق.

ومع أن أكثر العلماء الكارولانجيين حظا من التعليم لم يحاولوا علاج مشكلات المجتمع ، وإنما كرسوا أنفسهم للتدريبات التعليمية العقيمة، فإننا يمكن أن نشهد فى الفترة الكارولانجية بشائر تسخير ملكة الفهم والعقلانية فى علاج المشكلات الاجتماعية. إذ أن شارلمان ومستشاريه الكنسيين لم يكتفوا راضين بالاعتماد على تراث الجرمان السياسى، وإنما انطلقوا انطلاقا واعية صوب تحسين النواحي التنظيمية والفنية فى نظام الحكم . وبعد ثلاثة قرون من الفوضى والارتجال أفرز العالم الكارولانجى نماذج تدل على التخطيط والإبداع بشكل يناقض ماكان سائدا فى قرون الفوضى، وتقوم المخطوطات التى ترجع للعصر الكارولانجى دليلا على هذا. ذلك أنه بينما تكاد تستحيل قراءة الخط الميروفنجى فإن أى فرد يعرف اللاتينية يمكنه قراءة الوثائق الكارولانجية بعد ساعتين فقط من التدريب والتوجيه. ولأن المخطوط الكارولانجى معقول للغاية وواضح فقد أقبل عليها ناشرو الكتب الأوائل فى القرن الخامس عشر، وترتب على هذا أن صارت المخطوطات الكارولانجية محل استخدام واسع النطاق الآن. بل أن المخطوط الكارولانجى قطع شوطا أبعد من المخطوط الرومانى الذى لم يكن يستخدم سوى الحروف الكبيرة، إذ اخترع الناسخون الكارولانجيون الحروف الصغيرة.

ويمكن الكشف عن ملكة العقلانية والاستنتاج ذاتها فى طيات النظم النقدية والنظم القانونية الكارولانجية، فبعد ثلاثة قرون من الفوضى النقدية أسست الحكومة الكارولانجية عملة جديدة يمكن الاعتماد عليه وتقوم على أبسط المبادئ. فقد أمر الكارولانجيون بوزن سك العملة باتخاذ رطل من الفضة وتقسيمه الى ٢٤٠ قطعة، تمثل كل منها قطعة من العملة

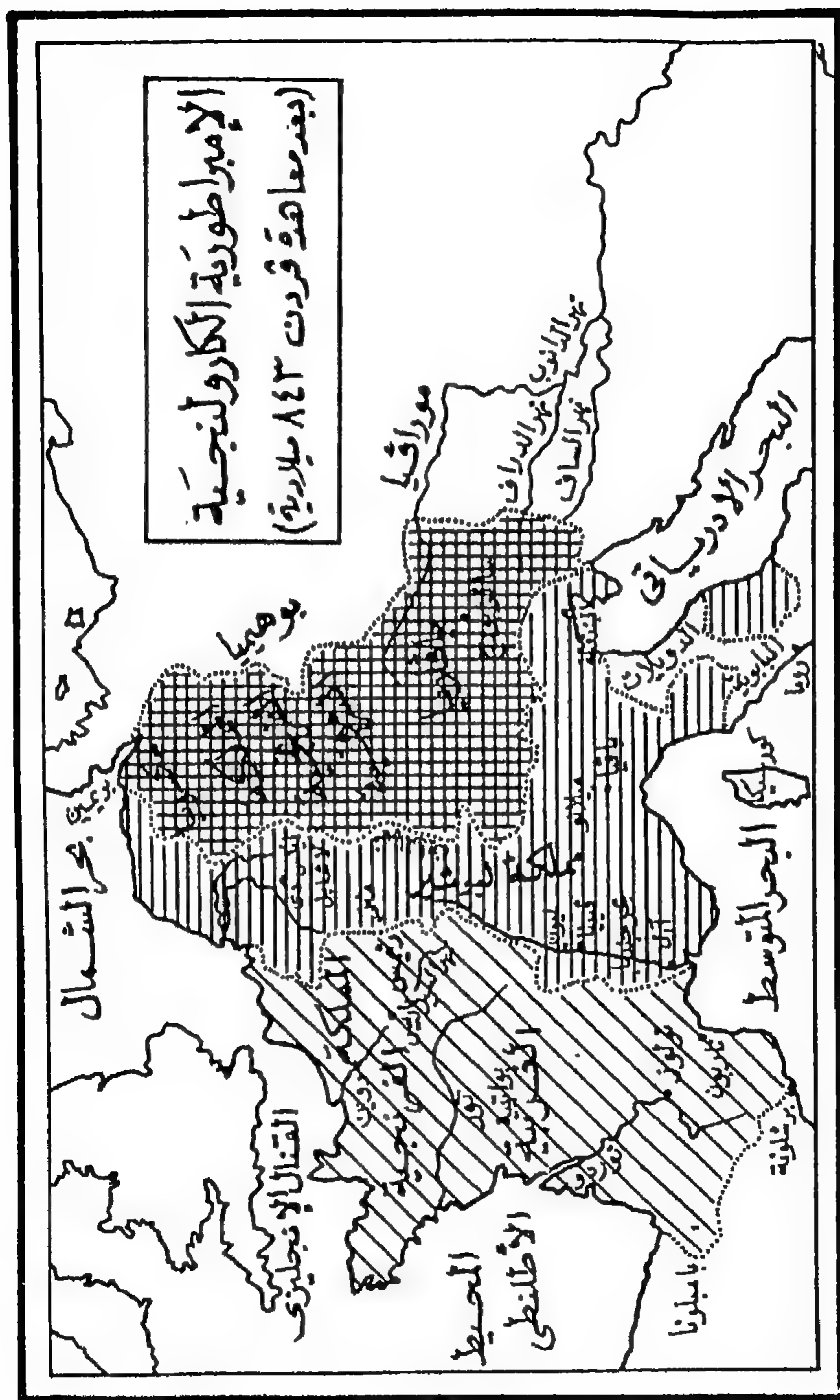
الكارولنجية وأطلقوا على هذا النوع من العملة اسم الدينار denarius، وهو اسم إحدى وحدات النظام النقدي الذي كان قسطنطين قد وضعه، وأثبتت العملة الكارولنجية صلاحيتها بشكل جعل الانجليز يقلدون هذا النظام الذي ما يزالون يحتفظون به كأساس لنظامهم النقدي، وثمة عنصر عقلائي آخر يدخل في طيات التأثير الكارولنجي على تطور القانون الجرمانى، فقد ابتكرت المحاكم الكارولنجية نظام التحرى والتحقيق يقوم من خلاله مجموعة من الرجال نوى المكانة من سكان المناطق القريبة بإبداء الرأى فى المنازعات التى تنشأ حوله ملكية الأرض ، وقد ظل نظام التحرى قائما فى القرنين العاشر والحادى عشر فى نورمانديا حيث انتقل إلى انجلترا فى الشطر الأخير من القرن الحادى عشر على يد « وليم الفاتح »، وهناك تطور إلى شكل نظام المحلفين فى القانون الانجليزى العام.

ويكشف نظام الحكم الكارولنجى من عدة جوانب عن استخدام ملكة الفهم والاستنتاج والأسلوب العقلائى فى حل مشكلات الملكية الجرمانية ، فشارلمان على نحو خاص لم يكن قانعا بمكانته، سواء بوصفه سيذا وقائدا عسكريا أو بوصفه ملكا ثيوقراطيا، وبذل جهدا فى سبيل تأسيس إدارة فعالة ، كما أنه كان يمتلك أفضل جهاز بيروقراطى منذ ثيودوريك الأوستروقوطى، وكانت الخطوة الأولى فى سبيل إصلاح نظام الحكم الكارولنجى تتضمن تأسيس مجلس قضائى إدارى ملكى يتألف من العلماء الديريين ويهتم بإصدار الوثائق المتعلقة بمختلف نواحي الحياة المدنية والمجتمع الكنسى والتى كان الملك مهتما بها. وقد اتخذت الوثائق الكارولنجية شكل المنشورات الدورية التى يعالج كل منها على حدة مختلف مشكلات الحكم، وهذه المنشورات تذكرنا بالمراسيم الامبراطورية الرومانية ، إذ كان المنشور الدورى المتعلق بالكنيسة يأمر رجال الاكليروس بإنجاز المهام والالتزامات التعليمية وأن يرتقوا إلى مستوى النظام المطلوب منهم، على حين يخاطب منشور آخر المشرفين على الضياع الملكية موجها إياهم إلى تحمل مسئولية إدارة الضياع، وكانت هذه ضرورة بالنظر إلى الحقيقة القائلة بأن الأراضى المملوكة للملك الكارولنجى

كانت تمثل مصدر دخله الرئيسى. وثمة منشور دورى آخر يطبق الأسلوب العقلانى فى حل مشكلة تكوين الجيش. فقد كان النظام العسكرى فى الامبراطورية الفرنجية ما يزال قائما على أساس مبدأ الشعب تحت السلاح folk - in - arms؛ وحين كان الملك، بوصفه قائدا حربيا، يدعوهم كان المفروض أن يلتحق كل الرجال القادرين جسديا بالجيش الملكى، وقد أدرك شارلمان ووزرائه مدى مافى هذا النظام من اهدار للجهد ومدى ما يشوبه من قصور، ومن ثم وزع الملك منشورا دوريا يسمح للقرويين بأن يتحدوا سويا فى جماعات تقدم كل منها فارسا واحدا، ولاشك أن هذا الفارس كان أكثر جدوى من الجماعات الغوغائية التى كانت تتألف من الفلاحين المسلحين بالعصى والمساخى.

وربما كانت أهم مراسيم شارلمان قاطبة هى التى تعالج مشكلات الحكم المحلى، فحين كان الملك ومعه المجلس القضائى الإدارى ، والبلاط والجيش، يحل بأية منطقة لم تكن تظهر أية مشكلة تتعلق بولاء سكانها لها. ولكن نظرا لسوء الاتصالات والمواصلات، ونظرا لطبيعة العلاقات الاجتماعية المجزأة، كانت المشكلة تتمثل فى كيفية الحفاظ على النفوذ الملكى فى المناطق الواقعة خارج نطاق التأثير الممكن لشخصية الملك . كيف كان يمكن إخضاع الدوق (الموظف العسكرى المحلى) والكونت (ممثل الملك المحلى فى شئون القانون والمالية) للسيطرة فى المناطق البعيدة عن نطاق التأثير المباشر للبلاط الملكى ؟ هذا هو السؤال الذى أربك الميروفنجيين، وكان عجزهم عن حله من أكبر أسباب انهيار السلطة الملكية فى القرنين السادس والسابع. وقد استمرت هذه المشكلة عقبة كأداء فى طريق الكارولنجيين. والواقع أنه يمكن القول بأن هذه المشكلة كانت أكثر المشاكل التى واجهتها ملكية العصور الوسطى صعوبة واستمرارية. وتمثل الحل الكارولنجى فى إرسال ممثلين من البلاد، أو مبعوثين missi، فى رحلات دورية للتفتيش فى الأقاليم على أمل مواصلة السيطرة على الموظفين الملكيين ومنع اندماجهم فى الارستقراطية الاقليمية.

كان نظام المبعوثين missi ابتكارا ذكيا ومقنعا إلى درجة كبيرة فى مجال نظام



الحكم عند الكارولنجيين، كما كان برهانا على المهارة الادارية التى كان يتمتع بها رجال الكنيسة الذين خدموا شارل الكبير (شارلمان) من أمثال ألكوين واينهارد، ولكن فى أخريات سنوات شارلمان كان على الحكومة المركزية أن تواجه مشكلة الحد من نمو طبقة ارسقراطية جديدة فى الأقاليم . إذ كان من الممكن إرسال النبلاء خارج البلاط الملكى للعمل فى وظائف دوق أو كونت، وكان اختيارهم يتم بعناية من بين الرجال المخلصين، بيد أنهم كانوا بمجرد وصولهم إلى إقليم بعيد مثل اكويتانيا أو غيرها، يتجهون إلى ترسيخ جنودهم فى المجتمع المحلى . كما يحولون ألقابهم والضياغ الملكية المرتبطة بالألقاب إلى أملاك وراثية. وبعد موت شارلمان زاد معدل التفسخ والتحلل السياسى بهذه الطريقة، ولم يكن بوسع المبعوث الملكى missi أو أى مبعوث آخر، أن يجابه العوامل الجديدة التى فرضت نفسها وسببت تدهور السلطة الكارولنجية فى القرن التاسع، لقد كان الابن الشرعى الباقى من أبناء شارلمان هو خليفته لويس التقي (٨١٤ - ٨٤٠)، الذى كان رجلا ذكيا حسن الطوية، ولكنه لم يكن قط قادرا على زعامة المجتمع الجرمانى. فلم يكن يصلح كجندى على الاطلاق، وقد أفقده هذا احترام النبلاء العلمانيين الذين كانوا يشعرون بأنهم أحرار فى أن يفعلوا ما يشاؤون وأن ينطلقوا فى سبيل زيادة موروثاتهم. وازداد الموقف سوءا بفعل الصراعات المريرة التى نشبت بين أبناء لويس التقي فى سبيل الفوز باللقب الملكى، الذى كان قد تدهور بالفعل قبل موت لويس. وكان ذلك، فى جوانب عديدة منه، تكرارا لأسوأ لحظات تاريخ الملكية الفرنجية. وأخيرا، وفى سنة ٨٤٣ قرر أبناء لويس الثلاثة تقسيم الامبراطورية بمقتضى معاهدة فيردن Verdun. وكان هذا يعنى قيام ثلاث ممالك كاروانجية، المملكة الغربية والمملكة الشرقية، ومملكة ثالثة فى الوسط كانت تعتمد حوالى ألف ميل فى الأراضى الواطنة، بطول الراين، وعبر جبال الألب لى تضم شمال ايطاليا. وكادت المملكة الوسطى أن تنهار فى الحال، تاركة وراءها بقايا من الامارات الهزيلة فى المنطقة الممتدة ما بين الفلاندر ولبارديا. أما بقايا المملكة الوسطى على طول نهر الراين فكان مقدرا لها أن تدخل فى نطاق الامبراطورية الألمانية فى القرنين العاشر

والحادى عشر، وكان غزو هذه الأجزاء هدفا من أهداف الملكية الفرنسية القوية التى قامت فى القرن الثالث عشر. ومنذ ذلك الحين ظلت هذه المنطقة سبيبا فى الحروب التى استمرت بين ألمانيا وفرنسا حتى القرن العشرين

ولم ينته الخط الكارولنجى فى ألمانيا حتى سنة ٩١١، على حين استمر الكارولنجيون فى حكم فرنسا حتى سنة ٩٨٧، بيد أن الملك الكارولنجى، منذ الربع الأخير من القرن التاسع، لم يكن أكثر من مجرد نكرة لا يحسب أحد حسابه، لقد كانت السلطة فى ألمانيا بأيدي رؤساء القبائل الذين تدعم مركزهم بفضل الكارولنجيين الذين منحوا كلا منهم لقب دوق، أما فى فرنسا فقد اغتصب الدوقات والكونتات سلطة الحكومة المركزية، وظل هؤلاء قادة للمجتمع الفرنسى حتى منتصف القرن الثانى عشر.

كان الموقف فى المملكة الكارولنجية الغربية قد تدهور بفعل غارات الفيكنج الذين توغلوا حتى وادى نهر اللوار ووادى نهر السين بقصد السلب والنهب، وكان الهجوم الاسكندنافى على أوروبا الغربية قد نشأ عن الصراعات الغامضة التى دارت فى الدانمرك والنرويج بين الجماعات السكانية والتى نتج عنها طرد الجماعات العسكرية المهزومة إلى خارج اسكنديناوة، هذه الجماعات المهزومة لاذ بعضها بالفرار داخل الأراضى الروسية، على حين لجأ البعض الآخر إلى قواربهم الطويلة لكى يشنوا بواسطتها غارات النهب فى وديان الأنهار فى أوروبا الغربية. وقد عبر بعضهم مضيق جبل طارق وهاجموا بعض موانئ إيطاليا، ولكن الأماكن التى شعرت بثقل وطأة الفيكنج كانت هى شمال فرنسا والجزر البريطانية. ولم يكن لدى الاسكندنافيين شىء يمكنهم أن يشاركوا به فى صنع حضارة أوروبا الغربية، فلم يكن مستواهم الثقافى والحضارى ليزيد عن مستوى أكثر القبائل بدائية بين الجرمان بنى جلدتهم الذين غزوا غرب أوروبا فى القرنين الخامس والسادس، وكانت الوحدة الأساسية فى المجتمع الاسكندنافى نوعا من عصبة الحرب التى ورد ذكرها فى ملحمة بيوفولف Beowulf. وكان رئيس عصبة الحرب الذى يمنح الهبات

والعطايا هو وحده القادر على كسب أولئك المحاربين المتوحشين. ولم يكن الملوك الدانمركيون والسويديون يتمتعون سوى بقدر ضئيل من السلطة والنفوذ، والحقيقة أن الاسكندنافيين كان بهم هوى إلى إغراق ملوكهم في الآبار. ولم تنتشر المسيحية اللاتينية بين الشماليين (الفيكنج) حتى القرن العاشر، وإنما كانوا حتى ذلك الحين وثنيين مغرمين بنهب الأديرة الكبرى التي اكتشفوا بسرعة مدى ثرائها الفاحش.

وكان الملوك الكارولنجيين الأواخر عاجزين تماما عن مواجهة أولئك الغزاة الجدد، فإن أحفاد شارلمان هؤلاء كانوا أتقياء وعقلانيين للغاية، ولكنهم جميعا كانوا جبناة وفي جميع الأحوال، لم يحاول أحدهم أن يشتبك مع الفيكنج ولو في معركة واحدة، وإنما كانوا يقدمون الرشاوى للغزاة الذين لم يكونوا يقنعون بها سوى لفترة قصيرة. أما الاسكندنافيون الذين هاجموا فرنسا في القرن التاسع فكانوا قلة محدودة العدد، ولم يكن توغلهم ليشكل حدثا فاجعا إذا ما قورن بالغزوات الجرمانية. إلا أن هجماتهم زرعت الرعب والفوضى التي أدت بدورها إلى تشجيع الناس على البحث عن أقوى سيد في المناطق المجاورة لكي يستظلوا بحمايته في مقابل ما يقدمونه من خدمات وولاء. وقد أكدت الغزوات الاسكندنافية من جديد الأمر الذي كان واضحا منذ ثلاثينيات القرن التاسع - أعنى حقيقة أن الكارولنجيين لم يعيدوا محاربين عظماء، وأن الارستقراطية الإقليمية لم تعد بحاجة إلى أن تشغل نفسها بعد ذلك بالامتنال لما تحمله المنشورات الملكية النورية.

أما رجال الكنيسة الفرنسيون الذين شهدوا هذه الأحداث الكثيرة فقد انزعجوا وخابت آمالهم إلى أبعد الحدود. ويتسم أدب السنوات الخمس والسبعين الأخيرة من القرن التاسع بكونه أدبا تشاؤميا يحمل مرارة واضحة. ولم يكن هذا ناجما عن تصدع النظام الاجتماعي تصدعا كاملا، وإنما أرجح أن السبب في ذلك هو أن العالم الذي شهد الأساقفة تبشير وجوده كان يختلف اختلافا بينا عن العالم الذي تصوره مثلهم العليا. لقد كانوا يحلمون بالوحدة السياسية التي تضم أوروبا المسيحية تحت راية الامبراطورية الكارولنجية،

التي يقودها ملك مقدس صالح - وفقا لتعاليم أوغسطين - ينشر السلام والعدالة في الأرض بمشورة زعماء الكنيسة . هذا الحلم تبدد، وكانت الامبراطورية قد قسمت ، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى أيدي أبناء الطبقة الارستقراطية، وتضاعلت ، رويدا رويدا ، قدرة الملوك الكارولنجيين على الاحتفاظ بسيطرتهم على الحكومة والقضاء داخل ممتلكاتهم ، كما عجزوا عن التصدي للغزاة المتوحشين من الأجانب الذين توغلوا في المناطق الداخلية ونهبوا الكنائس دون أن ينالهم عقاب ما . وجاء القرن التاسع ليفيق رجال الكنيسة من أحلامهم، فلجأوا إلى وسائل واجراءات يائسة بفعل المرارة التي غصبت بها قلوبهم . وحاول بعضهم أن يكتسب للملكية مكانة جديدة وهيبة متجددة، وذلك عن طريق زيادة خصالها المقدسة ، ومن خلال الجوانب الاحتفالية في الملكية. على حين تحول البعض الآخر ، وهم متأفون ، عن الملوك الكارولنجيين العاجزين ورموا بثقلهم إلى جانب البابوية. وقاموا بنشر موجز شامل للقانون الكنسي، يتضمن كثيرا من المراسيم المزورة التي نسبت إلى سان ايزيدور St. Isidore والتي تضع سلطة البابوية على الملوك وعلى كبار الاساقفة في موضعها الذي يتفق ومحتوى هبة قسطنطين. وبطبيعة الحال لم يكن هذا الاجراء ليساعد رجال الكنيسة الفرنسية على ضوء نمو سيطرة النبلاء الرومان (في إيطاليا) على البابوية.

وبعد سنة ٩٠٠ تلاشت النغمة اليائسة المريرة. فقد ربط رجال الكنيسة أنفسهم بالملكية الألمانية الجديدة التي قامت في المنطقة التي كانت تتألف منها فيما مضى المملكة الكارولنجية الشرقية، ووجدوا في أسرة أوتو Otto خلفاء جديرين تماما بأن يخلفوا شارلمان . وفي القرن العاشر تولى الاساقفة ومقدمو الأديرة عن أحلامهم بقيام الامبراطورية ، وتوافقوا مع النظام الاقطاعي الجديد.

٢ - التنظيم الاقطاعي للمجتمع

كان المؤرخ القانوني الانجليزي الكبير ميتلاند F.W. Maitland معتادا على تسليطة

تلاميذه في كمبريدج بقوله بأن النظام الاقطاعي قدم إلى إنجلترا في القرن الثامن عشر. وكان يعنى بهذا أن كلمة اقطاع Feudalism لم تكن اصطلاحاً مستخدماً في العصور الوسطى، فقد ابتكرها رجال القانون الفرنسيون والانجليز في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وغالباً ما كان هذا المصطلح يفسر بالنظام القديم ancien regime وبامتيازات الارستقراطية الفرنسية التي زادت من حق البورجوازية الفرنسية. ومن ثم فإن اصطلاح اقطاع Feudalism قد استخدم في القرن الثامن عشر بمعنى الازدراء والتحقير على الاطلاق، واخذه كارل ماركس عن الراديكاليين الفرنسيين، واستخدمه للدلالة على اقتصاد ما قبل الرأسمالية. وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ العلماء المتخصصون في العصور الوسطى، ولاسيما في فرنسا وألمانيا، يربطون بين المصطلح وبين أوروبا الغربية في العصور الوسطى، محاولين استخلاص تاريخ هذا المصطلح. وفي ضوء الحقيقة القائلة بأن اصطلاح Feudalism لم يكن معروفاً في العصور الوسطى، وأن الفلسفة الاجتماعية الحديثة اكسبته عدة معان، فربما يكون من الحكمة للمؤرخين المشتغلين بالعصور الوسطى أن يتجنبوا استخدام هذا الاصطلاح، وأن يستخدموا بدلاً منه كلمات شاعت في العصور الوسطى مثل التبعية Vassalage والسيادة Lorship. وعلى أية حال، فإنه لم يكن بوسع المتخصصين في العصور الوسطى أن يكونوا على هذا القدر من التحفظ في هذه المسألة، فقد كان عامة المتعلمين يطلبون منهم تعريفاً مدرسياً للاقطاع، وتقدم جمع كبير من المؤرخين الثقات بتفسيراتهم.

وقد طرحت الأبحاث العديدة التي تمت في النصف الأول من القرن العشرين عدة تفسيرات متعارضة حول طبيعة الاقطاع. فثمة مدرسة تعتبر الاقطاع بمثابة طائفة من المؤسسات السياسية والقانونية، مثل نظام الحكومة اللامركزية، « حيث تكون السلطات العامة في أيادي خاصة » على حد تعبير سترايير J.R. Strayer الممتاز. وهو ما يعنى أن الاقطاع ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع مع تفكك الامبراطورية الكارولنجية.

وهذه المدرسة لا تعتقد بأن الاقطاع كان مرتبطا بالضرورة بأي نوع من الأنظمة الاقتصادية ، وهي تبرز أنه كانت ما تزال هناك نظم اقطاعية في ظل النظام النقدي المتنامي في القرن الثالث عشر، وأنه بدلا من مكافأة الاتباع الاقطاعيين (الفصال Vassals) بمنحهم الضياع، كان هؤلاء يتلقون اقطاعات نقدية fief - rentes أى معاشات. وهذا الرأي يفصل تماما بين الاقطاع Feudalism وبين نظام الضيعة manorialism لأنه يوضح أن الاقطاع كان نظاما من العلاقات السياسية والقانونية القائمة بين رجال أحرار، على حين كان نظام الضيعة نظاما زراعيا يشترك فيه الفلاحون الاتباع^٣ وتميل براهين التفسير السياسى - القانونى للاقطاع، أو التفسير الصارم كما يمكن تسميته ، إلى الشك فى إمكانية استخدام الاصطلاح فى مجال آخر غير مجال التاريخ الأوروبى . فالاقطاع Feudalism هو نمط محدد من نظم الحكم اللامركزية التى سادت أوروبا منذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر، وأبرز العلماء الذين تبنا هذا التفسير هم هينريخ ميتيس Heinrich Mitteis فى ألمانيا وجانشوف F.L. Ganshof فى بلجيكا، وستنتون F.M. Stenton فى انجلترا وهاسكينز C.H.Haskins، وستراير J.R. Strayer وبريس ليون Bryce Lyon فى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما التفسير البديل الشائع للاقطاع فإنه يرجع إلى حد كبير إلى أبحاث مارك بلوك Marc Block وتلاميذ فى فرنسا. وقد طرح هذا التفسير فى الدراسة القيمة التى قام بها بلوك تحت عنوان « دراسة اقطاعية » فى سنة ١٩٤٠ ، وباعتباره مؤرخا اقتصاديا واجتماعيا ، لم يكن مارك بلوك مستعدا لأن يحدد الاقطاع فى ضوء المصطلحات السياسية والقانونية الخالصة وإنما نظر إليه على اعتبار أنه نظام شامل تتركز فيه كل جوانب الحياة - لا السياسية منها فقط، بل والاقتصادية والكنسية والثقافية أيضا - فى مفهوم السيادة Lordship . لقد كان الاقطاع نظاما سياسيا ، ونظاما له قيمة ومثله العليا . ففى مقدورنا أن نتحدث عن الاقتصاد الاقطاعى، والكنيسة المتأثرة بالاقطاع، والأدب الاقطاعى ،

بالطريقة ذاتها التي نستخدم بها مصطلح « الرأس مالية » لكى نشير، لا إلى نمط معين من الانتاج والتبادل فحسب بل أيضا إلى نظام الحكم ، والفكر ، والروح Spirit. ويقترب تفسير بلوك الواسع للاقطاع من الرؤية الماركسية ، ولكنه يختلف عنها أساسا من حيث أن ما يحدد طبيعة الاقطاع ليس هو النظام الاقتصادي، وإنما هو عدد معين من العوامل من بينها نظام الضيعة، وأولئك الذين يأخذون بهذا التحديد الواسع للاقطاع يميلون إلى اعتباره مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى وجدت فى أزمنة مختلفة فى أماكن أخرى غير أوروبا مثل اليابان، والدولة البيزنطية، وروسيا.

أما وقد رسمنا صورة للأبحاث المكثفة التى تمت فى النصف الماضى من هذا القرن، واعتمدنا على كل من المدرستين فى التفسير - بيد أننا نميل أكثر إلى رأى بلوك - فإننا يمكن أن نعرف السيادة بأنها عنصر لاغنى عنه فى الاقطاع، وأن نحاول وضع تعريف من لدنا . فبالاقطاع شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى حيث تكون غالبية السلطات السياسية والاقتصادية ، أو جزء كبير منها على الأقل، بأيدى النبلاء الذين يتوارثونها جيلا بعد جيل. وتقوم قوة النبلاء الاقتصادية فى أساسها على سيادتهم على الضياع الكبيرة. وسيادتهم على فئة الفلاحين التابعين. أما القوة السياسية والعسكرية للنبلاء فإنها تتركز على أساس سيطرتهم على الجنود من الرجال الأحرار وسيطرتهم على الضياع الكبيرة. وسيادتهم على فئة الفلاحين التابعين. أما القوة السياسية والعسكرية للنبلاء فإنها تتركز على أساس سيطرتهم على الجنود من الرجال الأحرار وسيطرتهم على المؤسسات الحكومية والقضائية اللامركزية. وهذا هو شكل التنظيم الاجتماعى الذى كان يميز فرنسا منذ القرن التاسع حتى أواخر القرن الثانى عشر. ولم يظهر هذا التنظيم الاجتماعى فى إنجلترا قبل أواخر القرن الحادى عشر، كما أنه لم يظهر فى ألمانيا حتى سنة ١١٠٠ تقريبا . فضلا عن أنه لم يظهر فى إيطاليا على الاطلاق. وليس معنى هذا أن المناطق غير الاقطاعية فى أوروبا الغربية لم تعرف السادة Lords على الاطلاق ، ولكن

والاقتصادية بشكل يكاد يكون مطلقا . كما أن التعريف لايعنى أن طبقة النبلاء الوراثية قد فقدت أهميتها في أوروبا بعد سنة ١٢٠٠ بل على العكس، ظل النبلاء يحتفظون بأهميتهم في الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان كبار الارستقراطيين يتمتعون بتنفيذ سياسى هائل في شتى أنحاء أوروبا. ولكن قوة النبلاء لم تعد تتركز في أساسها على سيادتهم على الأقتان serfs والضياغ الاقطاعية ، وهيمنتهم على المؤسسات الحكومية والقضائية اللامركزية. وفي العصور الوسطى قام النظام الاقطاعي في مناطق أخرى من العالم، وهو أمر منطقي تماما، ولكن لكي يظل هذا الفرض على فعاليته فإنه يجب أن يستند إلى دليل تطبيقي يؤكد مؤرخو هذه الحضارات الأخرى.

فكيف نشأ النظام الاقطاعي، كما عرفنا ، في فرنسا في القرن العاشر؟ هذا سؤال تصعب الاجابة عليه للغاية، فمن الصعب أن نتتبع أصول ونمو النظم الاقطاعية بسبب تفرق الأدلة والبراهين وندرتها في الفترة السابقة على القرن التاسع، وكان هذا بدوره من نتائج الأمية التي كان يعيش تحت نيرها المجتمع الأوربي من ناحية، ونتيجة لإجراءات السادة الاقطاعيين كانت غالبا تتم في شكل تصرفات مؤقتة، ولم تكن تصرفات دائمة وثابتة تشهد عليها الوثائق.

وفي النظام الاقطاعي الكلاسيكي الذي شهدته فرنسا القرنين العاشر والحادي عشر يمكن أن تميز ثلاثة عناصر هي : أولها الشخصى وهو (السيادة والتبعية Lordship and Vassalge) والثاني هو الواقعى أى عنصر الامتلاك (الإقطاع fief) والثالث هو لامركزية الحكم والقضاء ، وأبان التطور الذى مر به الإقطاع حتى القرن العاشر ارتبط العنصران الأخيران بالسيادة والتبعية. وفضلا عن ذلك أصبح الإقطاع يشكل نظاما من المثل والقيم الاجتماعية.

وقد أضاع مؤرخو القرن التاسع عشر قدرا كبيرا من الجهد، وكما كبيرا من

الأوراق فى مناقشة ما إذا كانت النظم الاقطاعية رومانية أم جرمانية فى « الأصل » . وقد يقول معظم العلماء اليوم أن هذه مشكلة قد حملت أكثر مما تحتل على نحو سىء، وأنها مشكلة مصطنعة فى أساسها. لأن همزة الوصل التى تربط بين النظم الاقطاعية فى القرن العاشر قد تكونت من خلال أشكال سياسية وقانونية واقتصادية معينة، جرمانية فى بعض الأحوال ورومانية فى أحوال أخرى وذلك استجابة لحاجة اجتماعية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب.

كانت السيادة Lordship هى النظام الاجتماعى والسياسى الأساسى فى المجتمع الجرماني. فقد كان الكوميتاتوس Comitatus أو gefolge أى مجلس الحرب الجرماني الذى وصفه تاكيتوس Tacitus وكما ورد فى ملحمة البيوولف، يقوم على أساس ولاء المقاتلين لرئيسهم فى مقابل حماية الأخير لهم وكرمه معهم. وكان هذا هو الشكل الجنينى للنظام الاقطاعى فى العصور الوسطى. وقد ظل هذا الضرب من ضروب الولاء قائما فى القرنين الخامس والسادس بفضل وجود نظام مشابه فى الامبراطورية المتأخرة هو نظام التبعية Patrocinium . وفى غمار الأحوال المضطربة التى سادت الامبراطورية الرومانية المتأخرة جمع بعض الارستقراطيين حولهم الشباب القادرين على القتال وأغدقوا عليهم الهبات والحماية فى مقابل ولائهم وخدماتهم . لقد كان الأفضال فى القرنين السادس والسابع ببساطة استمرارا لعصبة الحرب gefolge الجرمانية ، والتبعية Patrocinium اللاتينية . وكان الأفضال الاقطاعيون Vassals رجالا أحرارا أخضعوا أنفسهم طواعية لأحد سادة الجند البارزين فى منطقتهم. بيد أنه من ناحية أخرى كان مؤهلهم الوحيد هو قدراتهم القتالية. وقد اشتق اصطلاح فصل Vassal من الكلمة الكلتية التى تعنى « ولد Boy » . ووفقا لما يدل عليه اشتقاق الكلمات Etymology فإن أفضال القرنين السادس والسابع كانوا ببساطة هم « الأولاد » أى جماعات البلطجية الذين كانوا يقاتلون رجالا كبارا فى المناطق المجاورة. فقد كانوا أبعد مايكونوا عن الفرسان نوى

الشهامة الذين يصورهم الأدب الرومانسى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . كان أولئك الافصال مجرد بلطجية يضربون الناس ويحطمون المنشآت تنفيذا لمشينة سيدهم فى مقابل حمايته لهم واعالتهم واقتسام الأسلاب معه . واعتمد الوضع الاجتماعى للافصال على سيدهم الذى يقومون بخدمته، وذلك بصرف النظر عن حقيقة أنهم كانوا جميعا من الرجال الأحرار فى الحقيقة، وعلى سبيل المثال ، فقد كان الحراس الشخصيون body guards للملك الميروفنجيين يتمتعون بثروة كبيرة وأهمية كبيرة، وكان يطلق عليهم antrustiones تمييزا لهم عن غيرهم.

وحتى ذلك الحين لم تكن التبعية الاقطاعية vassalage ترتبط بملكية الأرض ، فقد كان الافصال يعيشون فى قلعة ذات جدران خشبية سميكة يقيمها سيدهم الذى يتكفل أيضا بإطعامهم وكسوتهم ، وتسليحهم . وفى المرحلة التالية من مراحل تطور النظم الاقطاعية تم الربط بين التبعية الاقطاعية وملكية الأرض، وهو ما كان يقصد به مكافأة الافصال على خدماتهم وتأيدهم لسيدهم، وأنها لحقيقة ذات أهمية كبرى أن هذا « الخلق للعلاقات الاقطاعية » - على حد تعبير جانشوف Ganshof - كان بطيئا للغاية، كما أن تطور هذه العلاقات لم يتم بشكل متسق . فحتى فى القرن العاشر لم يكن غالبية الافصال فى فرنسا يمتلكون أية أراضى وكانوا ما يزالون يقيمون فى منزل سيدهم، وحتى مطلع القرن الثانى عشر، كان هناك عدد من الافصال الذين لا يملكون أرضا فى المناطق المكتظة بالاقطاعيين فى شمال فرنسا وانجلترا ، على الرغم من أن هؤلاء الافصال كانوا يشكلون أقلية بكل تأكيد . ويبدو أنه فى أيام الميروفنجيين لم يكن يمتلك الأراضى سوى الرجال البارزين فى المجتمع. وكان الحكام الميروفنجيون يمنحون الهبات benefices، التى كانت عبارة عن قطع من الأراضى تعطى على سبيل الهبة ، للدوقات والكوتتات لكى يضمّنوا ولائهم من ناحية، ولكى يعيشوا على دخلها لقاء قيامهم بأداء خدماتهم الحكومية فى المقاطعات من ناحية أخرى، ولكن كبار الأرستقراطيين الذين كانوا يتلقون هذه الضياع

كانوا يعتبرونها ضياعا وراثية، وكانت تلك هي بداية الربط بين الضياع الوراثة وخدمة السيد الاقطاعي . وقد شاع تقليد نظام الاعانات على نطاق أضيق في مجال العلاقة بين بعض كبار الارستقراطيين وأهم أفضالهم.

وثمة تغيير بطيء ، ولكنه أساسي ، في الأساليب العسكرية حدث ما بين القرن الخامس والقرن الثامن ، وزاد من ضرورة الربط بين التبعية الاقطاعية ، والاقطاع fief وهو الاسم الذي صارت الضيعة الاقطاعية تعرف به بعد القرن الثامن . فقد كان الجرمان يستخدمون المشاة في جيوشهم في أغلب الأحوال ، ولكنهم كانوا يتبعون المبدأ العسكري القائل بتجنيد الشعب كله لحمل السلاح Folk - in - arms والملك أن يستدعي جماهير المزارعين الأحرار لمساعدته في حروبه ، ولكن تفوق الفرسان المسلحين – الذين اشتركوا في القتال فعلا أثناء الغزوات الجرمانية ، ضد جيوش الامبراطورية الرومانية والهنون Huns ، وبعض القبائل الجرمانية – بدا واضحا أكثر فأكثر . وما أن بزغت شمس القرن الثامن حتى كان هناك عدد متزايد من سادة الجند المستعيرين يتلمسون بناء جيوش على أساس الجندي الراكب المدرع أي الفارس chevalier أو cniht وحين نقلت أوروبا الغربية استخدام الركاب في الخيول عن عالم البحر المتوسط ، زادت كفاءة الفرسان . إلا إن معدات تجهيز الفارس كانت باهظة التكاليف ، وكان على السيد الذي يرنو إلى تكوين جيش قوى من أفضاله أن يمنحهم الضياع أو الاقطاعات التي قد يحصلون منها على الدخل الذي يكفي لأن يجهزوا أنفسهم للمعركة.

ولم يكن منح الاقطاع fief يعني أن يمنح الفصل الاقطاعي كافة حقوق ملكيتها . إذ كان له أن يفيد من عائد الأرض كمكافأة له على خدماته ، ولكي يتمكن من إعداد نفسه الاعداد اللائق كفارس . ولكن ، من الناحية القانونية كانت ملكية الأرض بصفة نهائية حقا للسيد الذي يمكنه استعادتها إذا لم يلتزم الفصل بالولاء له . وعندما يموت الفصل كان الاقطاع يعود إلى السيد بشكل تلقائي . ومن المعتقد أن أصل الحيازة الاقطاعية كان هو

نظام حيازة الأرض الذى كان معروفا فى القرنين السابع والثامن باسم بريكاريوم pre-carium وهو النظام الذى كان معمولا به فى أراضى الكنيسة على نحو خاص ، ووفقا لنظام الحيازة المؤقتة هذا، كان مقدم الدير أو الأسقف، الذى يمتلك مساحة من الأرض أكبر مما يمكنه أن يديرها بنفسه، يسمح للمدنيين بالافادة من هذه الاراضى لقاء إيجار معين، مع العلم بأنه يمكن لصاحب الأرض أن يستردها متى شاء.

ومنذ وقت مبكر أدرك ملوك الأسرة الكارولنجية، بفضل عبقريتهم المعهودة، مدى ما يمكن تحقيقه من مزايا عسكرية من خلال اسباغ الاقطاعات على أقصالهم. وهكذا كان شارل مارتل Charles Martel وهو يبنى جيشه لمواجهة الغزاة المسلمين فى أربعينيات القرن الثامن، يسعى إلى الحصول على أكبر قوة عسكرية ممكنة من الفرسان، ونجح فى أن ينتزع الاقطاعات لافصاله من أراضى الكنيسة، ربما على أساس الحيازة المؤقتة . وخلال النصف الثانى من القرن الثامن كان الحاكم الكارولنجى يكافىء انفصاله الارستقراطيين بالاقطاعات الكبرى المأخوذة من الاراضى الملكية ذاتها. وسرعان ما أخذ السادة الكبار فى النصف الغربى من المملكة الكارولنجية فى محاكاة الملك وحولوا فرسانهم إلى فرسان مقطعين. وكان لهذه الرابطة المتنامية بين الاقطاع والتبعية الاقطاعية تأثيرها من حيث الارتفاع بمكانة الفصل الاجتماعية . فمن البلطجى الأجير، كان هذا الفصل نفسه، يصبح سيدا محليا مرموقا فى كثير من الحالات ويتمتع بالسيطرة على اقطاع أو أكثر، وبطبيعة الحال، كان هناك تباين شديد بين اللوق أو الكونت التابع للملك، وبين عامة الانفصال من الفرسان، الذين ظلوا على مدى عدة قرون تالية، قوما أفضلا خشنى الطباع.

وكانت نتيجة الربط المتزايد بين التبعية الاقطاعية والاقطاع أن نشأ جوع إلى الأرض فى أوساط الانفصال فى المجتمع الاقطاعى الذى استمر على حاله الطويلة حتى القرن الثانى عشر. فقد كان الاقطاع يعتبر قبل ذلك مكافأة لقاء الخدمة والولاء فى الفترة

السابقة، أما الآن فقد أخذ الافصال يبحثون عن سادة مستعدين لأن يقدموا لهم الاقطاعات . وأولئك الافصال الذين كانوا يملكون الاقطاعات بالفعل أخذوا يبحثون عن امتلاك المزيد من الاقطاعات ، كما سعوا إلى تأكيد الصفة الوراثية للأرض التي حازوها من سيدهم. وعلى الرغم من أنه من الناحية الفنية لم يكن الاقطاع وراثيا، وكان يؤدل إلى السيد بعد موت الفصل، فإنه بمنتصف القرن العاشر صار الاقطاع وراثيا بالفعل. وبدفع ضريبة وراثية تسمى relief كان ابن الفصل المتوفى يقدم ولاءه للسيد ويمنح الاقطاع لقاء ذلك . ويبدو جوع افصال القرنين التاسع والعاشر للأرض واضحا في الملحمة الاقطاعية العظيمة المعروفة باسم Raoul de cambrai التي – رغم أنها وصلتنا في اشعار تعود إلى القرن الثاني عشر – تعكس بشكل غامض حادثة حقيقية وقعت في القرن الثامن، كما تعكس أخلاقيات الطبقة الاقطاعية في تلك الفترة. وفي الملحمة يغفل الامبراطور منح « راؤل » الاقطاع الذي كان بيد والده فيبادر راؤل إلى رفع السلاح ضد سيده في محاولة لإجباره على منحه ما اعتبره ميراثه الشرعى.

وتمثلت المرحلة النهائية في تطور النظام الاقطاعي في انتقال السلطة الحكومية والقضائية إلى كبار أفسال الملك الذين نقلوها بدورهم إلى أفسالهم . وهذه المرحلة هي نتاج القرن التاسع وهي نتاج أيضا لعجز الكارولنجيين الأواخر عن الحفاظ على سيطرتهم على الدوقات والكونتات الذين اغتصبوا السلطة الملكية في دوقياتهم وكونتياتهم وحولوها إلى اقطاعات وراثية وتضمنت السيادة على الضياع الاقطاعية دائما السيطرة السياسية والقضائية على الفلاحين التابعين، بيد أن هذه السلطة كانت ضئيلة الى حد بعيد. ذلك أن الأمراء الاقطاعيين في القرن التاسع قد استطاعوا أن ينتزعوا من الملكية الضعيفة حق جمع الضرائب وعقد المحاكمات في القضايا الهامة « حق العدالة السامية » high Justice وسلطة شنق المجرمين في دوقياتهم وكونتياتهم. وعلى نفس المنوال جاهد السادة الاقطاعيون الأقل قدرا في سبيل كسب بعض السلطات العامة لأنفسهم وممارسة بعض

السلطات السياسية والقضائية داخل اقطاعاتهم. وما أن حل منتصف القرن العاشر فى فرنسا حتى كانت المحاكم الاقطاعية الخاصة قد ابتلعت سلطات ونفوذ الملك الكارولنجى ومارست صلاحيات قضائية متطابقة ومتضاربة فى عملية ترقيع مجنون للسلطة اللامركزية.

لقد كان بروز نمط اقطاعى من التنظيم الاجتماعى مقدمة لعملية التهذيب والتبرير التى خضعت لها جوانب كثيرة من جوانب السيادة فضلا عن تعزيز مجموعة من القيم الاجتماعية التى قامت على أساس من مثل الولاء . وفى خلال احتفال عام معقد كان الفصل يعلن عن ولائه لسيدته، وكان الفصل المرشح يركع أمام سيده ، على حين يحتضن الأخير يدي الفصل بين يديه، وأضافت الكنيسة الواجهة المسيحية المعتادة على إحتفال الولاء Fealty وذلك بأن ألزمت الفصل بأداء اليمين المقدس بالولاء لسيدته.

وفى منح الاقطاع للفصل، كان السيد فى العادة يسلمه رمزا للاقطاع على هيئة سنبل أو سكين أو غير ذلك، وأصبح من المعتاد (حين أخذت نسبة التعليم تتزايد فى المجتمع) أن يتم التصديق على منحه الأرض بفعل قانونى كان يسمى ببساطة «الحجة» أو الوثيقة . وبشكل عام كانت الوثيقة فى العصور الوسطى تتألف من خمسة أجزاء وهى : التحية التى كانت توجه فى العادة إلى الرجال البارزين فى المناطق المجاورة للاقطاع . ثم الخطبة التى توضح سبب المنحة ، وغالبا ما كانت هذه الخطبة مسببة إذا كان المانح من رجال الدين، ثم تاتى الفقرة التى تتحدث عن الحيازة. وهى عبارة عن قائمة توضح فى تفصيل كبير موضع الاقطاع وحدوده . فاللعنة التى كانت توقع عقوبة الحرمان الكنسى على أى شخص يجزؤ على مخالفة شروط الحجة أو الوثيقة، وأخيرا قائمة الشهود التى كان يصدق عليها بأختامهم الخاصة أولئك الذين شهدوا عملية منح الاقطاع. وغالبا ما كان الكاتب فى الوثائق الملكية يكتب اسم أى شخص يكون حاضرا فى البلاط فى تلك الأثناء حتى يصل إلى نهاية قطعة الرق التى تكتب عليها الوثيقة . وهكذا كانت الحجة فى العصور

الوسطى وثيقة رائعة مؤثرة وكافية - حتى القرن الثاني عشر على الأقل - لأن تكون دليلا حاسما فى أية دعوى أو قضية مدنية تتعلق بملكية الأرض، وليس من المثير للدهشة أن نعرف أن رجال الكنيسة كثيرا ما زوروا الحجج لتدعيم مزاعمهم فى ملكية الضياع، وإنما المدهش حقا هو كيفية إهمال السادة الإقطاعيين فى حفظ هذه الوثائق، وذلك أنهم نادرا ما كانوا يستطيعون تقديم حجة الاقطاع إذا ما اضطروا إلى ذلك، وهو ما أدى إلى نشوب نزاعات لا تنتهى حول ملكية الضياع.

وبغروب شمس القرن العاشر كانت حقوق وواجبات كل من السيد الاقطاعى والفصل قد تحددت واستقرت تماما، فقد كان الفصل ملزما بتقديم الخدمة العسكرية لسيدده بحيث لا تتجاوز مدتها أربعين يوما فى السنة، وإذا كان هذا الفصل رجلا هاما يحوز اقطاعا كبيرا، كان عليه أن يقدم - علاوة على الخدمة العسكرية - فرقة من الفرسان لجيش سيده، فضلا عن أن الفصل كان ملزما بأن يحضر إلى محكمة السيد الخاصة للمداولة فى القضايا التى تنشأ بين أقرانه، أى انفصال السيد الآخرين وأن يقدم المشورة لسيدده إذا طلبها، كذلك كان الفصل خاضعا للنظام الضريبى الاقطاعى - فقد كانت هناك ضريبة الاعانة relief وهى التى تحصل من أملاك الفصل إذا مات دون أن يترك وريثا بالغاً، فيقوم السيد بالوصاية على أملاكه مقابل هذه الضريبة، وكان على الفصل أيضا أن يدفع ضريبة غير منتظمة هى « المساعدة الاقطاعية » Feudal aids وهى عبارة عن مبالغ كان على الفصل أن يدفعها إلى سيده حين ينصب ابنه الأكبر فارسا، أو يزوج ابنته الكبرى أو يدفعها لافتداء هذا السيد من الأسر، وفى المقابل كان على السيد أن يحافظ على فصله، إلا أنه لم يكن من حقه أن « يحط من شأن » الفصل باهاتته بطريقة أو بأخرى، وإذا لم يف الفصل بقسم الولاء الذى قطعه لسيدده كان يتعرض لأن ينتزع منه اقطاعه بعد محاكمته فى محكمة سيده، أما إذا تصرف السيد تجاه فصله على وجه غير لائق، يكون للفصل حق التحلل من الرابطة الاقطاعية، وهو الحق الذى عرف آنذاك باسم diffidatio

وعادة ما كان يبدأ بتكسير السنبلة الرمزية أو السكين الرمزي الذي يعنى انتقال الاقطاع إليه. وعادة ما كانت الحالة الأولى والحالة الثانية أيضا تعنى الحرب. بيد أن الحرب كانت حقيقة يومية فى المجتمع الاقطاعى على أية حال.

وبنهاية القرن العاشر كان تقسيم الاقطاع الى اقطاعات أصغر subinfeudation قد أصبح أمرا شائعا. وغالبا ما كانت هذه العملية تتم خلال عدة درجات فى السلم الاقطاعى بداية بالملك أو الدوق تنازليا حتى أصغر الاقطاعيين، وأقلهم مرتبة وهو «الفافاسور» vavasour. وكان هناك سؤال يطرح نفسه آنذاك، عما إذا كان يجب على أولئك الأتباع الصغار أن يلتزموا بالولاء للسيد الأعلى أم يجب أن يقتصر ولاؤهم على سادتهم المباشرين فحسب. ولم تكن هناك إجابة عامة على هذا السؤال، فقد كانت المسألة تتوقف على قوة السيد الأعلى أو ضعفه، فإذا كان قويا ونشيطا كان يجبر الافصال الصغار subvassals على أن يقسموا له يمين الولاء والتبعية باعتباره زعيما لهم، أو رئيسا، أو سييدا. وقد ثارت مشكلة مشابهة من جانب الفرسان الذين كان جوعهم للأرض يدفعهم إلى أن يصبحوا أفصالا لاثنين أو أكثر من السادة الاقطاعيين حتى يمكن الحصول على اقطاعات اضافية. وكان مثل هذا الموضع الشاذ يمكن حله إذا ما تمكن أحد السادة الاقطاعيين أن يؤكد حقوقه على هؤلاء الافصال كسيد أعلى. أما إذا لم يحدث هذا ثم حدث أن اضطر السيدان الاقطاعيان، الذى يتبع الفصل لكل منهما فى الوقت نفسه، إلى قتال بعضهما البعض وطلب كل منهما من الفصل نفسه أن يساهم فى القتال إلى جانبه، فإن الفصل ينضم إلى السيد الذى يرجح فوزه حتى يتخلص من ورطته.

وفى بداية الأمر كان رجال الكنيسة فى الامبراطورية الكارولنجية يوجهون إلى نظام السيادة الاقطاعية انتقادات مريرة، لأنهم كانوا يعتقدون - وبحق - أن هذا النظام سوف يؤدي إلى انهيار الامبراطورية المسيحية. ولكنهم لم يلبثوا أن توافقوا مع النظام الاجتماعى الجديد واندمجوا فيه. وصار الأساقفة ومقدمو الأديرة سادة اقطاعيين

وأفصالا شأنتهم فى ذلك شأن النبلاء. كما أنهم إندمجوا فى شتى وجوه حياة المجتمع الاقطاعى اللهم إلا المشاركة الشخصية فى شئون الاقطاعية. وبذل رجال الكنيسة كل مافى وسعهم لاقرار السلم فى المجتمع الاقطاعى، ومحاولة اصفاء الصبغة المثالية المسيحية على العلاقات الاقطاعية، وإذا فانهم أضافوا الاحتفال الدينى الذى يقوم الفصل فيه بأداء يمين الولاء للسيد الاقطاعى، كما صاروا خبراء فى تعديد الالتزامات المتبادلة بين السيد الاقطاعى والفصل، وصياغة هذه الالتزامات الاقطاعية على شكل شروط كانت تفترض مسبقا وجود مستوى حضارى وأخلاقى أسمى من مستوى أولئك المقاتلين الأجلاف الذين كانوا ما يزالون يمثلون نسبة تبلغ حوالى ٩٥٪ من الطبقة الاقطاعية. وبذلت الكنيسة مافى طاقتها لمحاولة حصر نطاق الحرب فى المجتمع الاقطاعى خلال القرن الحادى عشر، وذلك عن طريق الترويج لحركة « سلام الله » التى كانت تفرض على النبلاء الاقطاعيين أن يكونوا جماعات لحفظ السلام، وأن يعدوا بعدم القتال فى أيام معينة، وكانت حركة السلام هذه فاشلة بشكل عام، لأنها لم تكن تحرز نجاحا إلا حين يرهاها حاكم قوى يرى أنه سوف يجنى منها عدة مكاسب لنفسه.

وكقاعدة عامة، فإن النظام الاقطاعى كان قطبا مضادا للسلطة الملكية وكان هذا النظام - كما رأينا - يعنى لامركزية الحكم، وتميرير السلطات العامة إلى أيادى خاصة. والواقع أن الهرم الاقطاعى الذى يتربع الملك على قمته - كما يحب مؤلفو الكتب المدرسية تصويره - يعطى إنطبعا خاطئا عن طبيعة هذا النظام الاقطاعى. فقد كان ملك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر سيدا على كبار الأمراء الاقطاعيين بيد أنه لم يكن يتمتع بأى سلطان حقيقى على أفصاله من النوبات والكونتات، لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على أفصالهم الصغار. وطالما كان الملك القابع فى باريس عاجزا عن أن يهزم دوق نورماندى، أو كونت تولوز، فإنه لم تكن له أية سيطرة عليهما أو على غيرهما، وذلك على الرغم من أنهما يتبعانه. من الناحية الرسمية، فقد كان جيش دوق نورماندى أقوى كثيرا من جيش

الملك ، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقاً بأن الملك هو سيدهم الأعلى ، ومن الناحية العملية ، فإن ملك فرنسا - سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابيه بعد سنة ٩٨٧ - لم يكن أكثر من مجرد دوق باريس. وقد كان الوضع مشابهاً في التنظيم الإقطاعي لألمانيا في القرن الثاني عشر.

إذن أين وجد النظام الإقطاعي حقيقة ؟ لقد كان ذلك في إنجلترا بعد الغزو النورمانى سنة ١٠٦٦. والسبب فى هذا أن الدوق النورمانى كان قد تعلم خلال القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر كيف يستخدم النظم الإقطاعية بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية . ولم تكن هذه هى الطريقة التى سار عليها النظام الإقطاعي فى الامبراطورية الكارولنجية المتأخرة.

وجميع النظم الاجتماعية تقوم على أساس مجموعة من الافتراضات حول الصواب والخطأ فى العلاقات الانسانية ، وتظل هذه الافتراضات فترة طويلة تفرض نفسها حتى بعد أن تنقضى الضرورات الاجتماعية التى كانت تفرضها . وكانت القيم التى تخدم النظام الإقطاعي والسادة الإقطاعيين ثلاثاً هى : أولاً : كانت البطولة والبسالة العسكرية تعتبر من الحسنات الاجتماعية ، وذلك لأن الرجل القوي كان هو فقط الذى يستطيع توفير الأمن والحماية فى ذلك العصر. ثانياً : كان الولاء الشخصى هو عصب النظام الاجتماعى، كما كانت العلاقات بين الأفراد هى الوسيلة الوحيدة لقرار الالتزامات السياسية والقانونية . وثالثاً : كانت روابط الولاء هذه مرتبة خلال نظام تصاعدي بحيث تمتد خلال طبقات المجتمع وتصعد إلى مناطق سماوية.

وبمقتضى الفرض الثالث والأخير (تدرج روابط الولاء فى نظام تصاعدي) كان رجال الكنيسة يوافقون على العلاقات الإقطاعية، لأنهم كانوا متمرسين على القواعد القانونية القديمة التى تحدد تدرج الرتب فى السلك الكنسى. والواقع أنه يحتمل أن يكون رجال الكنيسة هم الذين أكدوا على هذه القيمة الإقطاعية، وجعلوا التدرج فى السلك

الاقطاعى أكثر تركيزا وجهودا فى المجتمع الاقطاعى. أما القيمة الاقطاعية الثانية، أى الولاء، فقد كان مفيدا للملوك والنبقات الطموحين الذين كانوا يتوقون لفرض سلطاتهم السيادية على مجتمع القرنين الحادى عشر والثانى عشر الزراعى. ومن مثل الولاء استوحت العصور الوسطى فكرة حساسة عن العلاقات الشخصية، وكانت هذه عبارة عن رؤية عاطفية للرابطة بين كائن بشري وآخر. وهذه الرؤية صارت قاسما مشتركا فى فكرة العصور الوسطى عن الحب كما صارت إلهاما للحركة الرومانسية فى القرن الثانى عشر.

أما القيمة الاقطاعية الأولى، وهى التى تتعلق بالقيمة الاجتماعية للبطولة والبسالة العسكرية فقد تحولت إلى المثل الأعلى الذى تحتذى الزعامة الارستقراطية فى المجتمع، والاعتقاد الذى شاع فى القرن العشرين. يكون الفارس قائدا طبيعيا فى مجتمع العصور الوسطى، حيث كان من يمتطى فرسا يجد من يخدمه لقاء حمايته. وقد ظل إعتراف المجتمع الاقطاعى بفضل القوة الجسدية ساريا، ومنذ القرن الثانى عشر حتى القرن العشرين ظل مبدأ تفوق الأقوى على الضعيف أساسا لسياسة الدولة الأوربية ولا تزال رواسب الاقطاع هذه تتلكأ وتصب شرورها الملعونة، وتذل أعناق الدعاة إلى السلام، وتسحب البشرية بمعناى عن السلام والسعادة.

الجزء الرابع

التوازن فى العصور الوسطى الباكرة

القرن العاشر وأائل القرن الحادى عشر

« إنه بحق السلطة المقدسة، وتقاليذ وتراث الأباء المقدسين، يتم تكريس الملوك فى كنيسة الرب، أمام المذبح المقدس، ويتم مسهم بالزيت المقدس، وتسبغ عليهم البركة المقدسة، لكى يمارسوا سلطة الحكم على المسيحيين ، شعب الرب.. وعلى كنيسة الرب القدس ».

– مؤلف مجهول من يورك.

الفصل التاسع

الكنيسة والعالم

١ - طبيعة التوازن في العصور الوسطى الباكرة

بحلول سنة ٩٠٠ بات من المؤكد أن مثال الوحدة السياسية للحضارة اللاتينية المسيحية الجديدة مستحيل التحقيق، وأن الشعوب الأوربية لابد وأن تقنع بكيانات سياسية أقل حجما، وخلال القرن العاشر بدأت هذه الدول في التشكل والظهور. لذلك أن اللامركزية السياسية، والفوضى الاجتماعية اللتين ميزتا الفترة الأخيرة من القرن العاشر، استمرتا في الوجود، كما برز إلى الوجود مثالان ناجحان للقيادة السياسية في شمال غرب فرنسا، وفي ألمانيا. فقد كانت دوقية نورمانديا الاقطاعية، وامبراطورية أوتو Otto الألمانية قد قامت إلى حد كبير، على أساس من أنماط متضاربة من النظم والمؤسسات. بيد أنهما كانتا تتميزان، عموما، بخاصية أساسية من خواص الحضارة الأوربية الجديدة : فالمثل الكنسية والعلمانية، والزعامة والموارد قد اندمجت في بعضها بقوة وتفاعلت لكي تخلق وتطور هاتين الدولتين. وهذا التداخل المتبادل نفسه بين الكنيسة ecclesia والعالم mun-dus، يمكن رصده في شتى أنحاء أوربا القرن العاشر، وحتى في الملكية الأنجلو سكسونية المخيبة للأمال بحكومتها المركزية الواهية، بل وفي الملكية الكايبية الأكثر ضعفا.

كان التوازن بين الكنيسة والعالم هو حصاد الصراع الطويل على طريق تنصير المجتمع الأوربي. فقد كان جريجورى الكبير، وسان بونيفاس قد أسسا هذه الحركة، التي تقدمت إلى حد كبير في أواخر القرن الثامن وفي القرن التاسع على أيدي الملوك الكارولانجيين وكبار رجال الكنيسة، وقد أوضح فشل اللكية الميروفنجية مدى حاجة الملكية الجرمانية إلى التزكية الدينية والأدبية، وغيرها من المساعدات التي كان يمكن للكنيسة أن تقدمها. وقد بذل قادة الكارولانجيين جهودهم في سبيل خلق نظام عالمي تعمل فيه الكنيسة

والمملكية جنباً إلى جنب. ولكن هذه الجهود لم تؤت سوى الفشل المرير الأليم. وعلى أية حال استغل الدوقات النورمان، والأباطرة الألمان، هذا التداخل بين الكنيسة والعالم من ناحية، والتمايز بينهما من ناحية أخرى، لكي يقيموا المزيد من الكيانات السياسية المحدودة، بيد أن هذه الكيانات أظهرت مميزات فائقة من حيث القوة والاستمرار كما ضربت للحضارة الأوروبية الأمثلة الأولى على نجاح القيادة السياسية.

وقد قامت قوة كل من الأباطرة والدوقات النورمان في القرنين العاشر والحادي عشر، إلى حد كبير، على مدى السيطرة التي كان يوسعهم أن يمارسوها على الكنيسة في أراضيهم، لاسيما الأديرة البندكتية، وعلى مدى المساعدة والتأييد اللذين تقدمها الكنيسة لهم في شكل عوائد، أو فرسان، أو أفراد للعمل في الجهاز الإداري، فضلاً عن الترويج لمشاعر التبجيل العام للحاكم التقى الذي يحض على صداقة الكنيسة، وكانت الكنيسة من جانبها تكسب الحماية ضد النبلاء العلمانيين المارقين، والهبات التي تغدق الضياع الكبرى والأبنية الدينية ذات الطابع الروماني الفخم، على الأديرة والأسقفيات، فضلاً عن ترقى كبار رجال الأكليريوس إلى الصفوف الأولى بين طبقة النبلاء، والفرص الكثيرة التي تسنح لزعماء الأكليريوس للمثول في بلاط الحاكم ومجلسه الشورى ومن ثم يؤثرون على سياسته. هذا النوع من العلاقة بين الزعماء الدينيين والعلمانيين تدعم من خلال العقيدة الواعية بتمايز كل من الكنيسة *ecclesia* والعالم *mundus* وهو التمييز الذي كان شائعاً بالضبط في الفترة التي تحقق فيها توازن العصور الوسطى الباكورة. ومنذ القرن التاسع كان هناك اتجاه متزايد لدى الكتاب الكنسيين إلى وصف الكنيسة، التي اعتبروها جسد المسيح الغامض، كمؤسسة تحضن العالم. وفي هذه النظرة لم تكن ثمة مجالات منفصلة للكنيسة والعالم، ولكن الكنيسة كانت جسداً للمسيح، يتميز بأنه جسد عالمي واحد لا يتجزأ يدخل ضمنه العالم بأسره. وفي القرن الحادي عشر باتت هذه النظرية بمثابة القاسم المشترك بين كبار المفكرين، بل ومن هم دونهم من الكتاب في الكنيسة اللاتينية. كانت « الكنيسة »

والعالم « مصطلحين يستخدمان باعتبارهما مصطلحين متميزين مترادفين فى الوقت نفسه، ومن ثم كانت الممالك والامبراطوريات تعتبر كيانات، ليس خارج الكنيسة بقدر ما هى داخلها فى حدودها العالمية. وهذه النظرية القائلة بامتصاص المملكة الدنيوية داخل المملكة الروحية كانت استلهاما من العلاقة التى كانت سائدة بالفعل بين الكنيسة والملكية فى غرب أوروبا فى القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر.

٢ - الدولة الاقطاعية النورمانية

أخيرا فى سنة ٩٨٧ فقدت السلالة الكارولنجية اللقب الملكى فى غرب الراين، فلم يكن أحفاد شارلمان يمارسون أية سيطرة فعالة على كبار الأمراء الاقطاعيين على مدى مائة سنة، كما أن الملكية لم تكن لها أية موارد ذاتية، إلا أن استمرارية التقاليد الجرمانية والمسيحية المتعلقة بالملكية حولت التاج الفرنسى إلى ملكية خاصة يستحقها أقوى سيد إقطاعى فى المنطقة المعروفة باسم Ile - de - France وهو ما حدث بالنسبة لهوف كاييه Hugh Capet الذى أزاح الكارولنجيين جانبا، وتحمل عناء تأمين ارتقائه للعرش من خلال عملية الانتخاب الرسمية الجرمانية. وقد أضفت الكنيسة على حكمه المسحة الشرعية من خلال عملية المسح بالزيت المقدس، كما صار مقدم دير سان دونى St. Denis الملكى يكرس نفسه لهوف قدر ما كان يكرسها للكارولنجيين من قبله. وبفضل تأييد الكنيسة استطاع هوف كاييه أن يورث ابنه اللقب الملكى، والحقيقة أنه قيض للأسرة الكاييه أن تتولى العرش الفرنسى فى خط مباشر من التابع الوراثى حتى القرن الرابع عشر، ولم يحدث شىء هام فى القرنين العاشر والحادى عشر، فكل ما حدث أن أسرة ضعيفة ذهبت لتحل محلها أسرة ضعيفة أخرى، وقبل القرن الثانى عشر كانت شهرة آل كاييه تقوم على أمرين لاثالث لهما : التدين المتطرف، والشراهة الجنسية، وربما كان هذا التناقض فى صفات آل كاييه الأخلاقية راجعا إلى حقيقة أن كل ما نعرفه عن الكاييين الأوائل مستمد من الوصف الوارد فى المدونات التاريخية الديرية التى يقوم حكمها على الأمور على

أساس معايير محدودة للغاية . بيد أنه من الأمور ذات الدلالة أن ملوك آل كاييه فى القرنين العاشر والحادى عشر لم يلتفتوا الانتظار إليهم سوى بممارساتهم الدينية أو بفضائهم الجنسية. وكانت هذه أعمالا شخصية خالصة بمعنى أن ملوك آل كاييه لم يتركوا أثرا على الحكم والمجتمع فى فرنسا. وقد تصرف كبار الأمراء الاقطاعيين، الذين كانوا أفصالا لآل كاييه من الناحية الأسمية ، بشكل مستقل ولم يقدموا لهم أى عون. والحقيقة أن أولئك الملوك لم يكونوا أمنين حتى على أملاكهم فى المنطقة المعروفة باسم Ile - de - France والتي كانت تفص بقلع البارونات اللصوص. والحقيقة أن ملوك آل كاييه كانوا يحملون اللقب الملكى، كما أنهم غرسوا تقاليد الملكية المقدسة بمساعدة مقدم دير سان دونى وكبير أساقفة ريمس، وبينما صارت هذه التقاليد مفيدة بالنسبة للكاييين الأواخر، فإنها لم تكن ذات فائدة بالنسبة لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر إلا بقدر قليل للغاية. لقد كان من الممكن أن تصير الملكية الثيوقراطية قوة أدبية مؤثرة، بشرط أن تكون مرتبطة بقوة مستعدة من المؤسسات الفعالة التى لم يكن للملكية الكايية أى نصيب منها.

ومن بين زعماء فرنسا الاقطاعية فى القرن العاشر كان كونت الفلاندرز ودوق أكويتانيا بيرزان يفضل سيطرتها الفعالة على الافصال الاقطاعيين فى إمارتيهما. أما كونتات شامبني Champagne وتولوز Toulouse وأنجو Anjou ، فقد كانوا هم أيضا أشخاصا بارزين فى المجتمع الاقطاعى الجديد، بيد أن بوقات نورمانديا كانوا هم البارزين بين أفصال ملك فرنسا. وفى أواخر القرن العاشر وخلال النصف الأول من القرن الحادى عشر جعلوا من منطقة الحدود الخلفية فى نوستريا Neustria ، فى شمال غرب فرنسا، بلادا تشتهر بأديرتها الكبيرة ومؤسساتها العظيمة، كما أنهم تعاملوا مع المؤسسات الاقطاعية بطريقة مبتكرة ساعدتهم على خلق أقوى دولة أوروبية غرب نهر الراين.

لقد ولدت نورمانديا كدوقية إقطاعية في سنة ٩١١ حين قام رولو Rollo ، الذي كان قائداً همجياً لواحدة من عصابات الفايكنج المقاتلة، بانتزاع منطقة من الملك الكارولنجي المذعور، وهي المنطقة الملاصقة لمقاطعة روين Rouen الكنسية. وقد صار رولو هذا فصلاً إقطاعياً للملك الفرنسي، كما حمل لقب دوق بيد أنه استمر يتصرف بطريقة مستقلة تماماً، كما أنه واصل توسيع رقعة دوقيته الأصلية. لقد كان حجم الاستيطان الاسكندنافي صغيراً، ولكن سرعان ما تزوج رجال الشمال مع السكان الأصليين واتخذوا الفرنسية لغة لهم. وقد اعتنق رولو ورفاقه المسيحية على أيدي كبار أساقفة روين rouen ولكن اعتناقهم لها لم يغير أسلوبهم في الحياة، فعلى مدى سبعين عاماً كانت نورمانديا ميداناً للحروب الداخلية والصراعات الدموية بين السادة الإقطاعيين النورمان، كما أن سلطة الدوقات الأوائل كانت تقوم على أساس من قدراتهم كمحاربين، كما أن تاريخ نورمانديا قبل سنة ٩٨٠ لا يحمل أى شيء يمكن أن يكون تمهيداً للتطور الذي شهدته المؤسسات النورمانية في الفترة اللاحقة. فكيف، إذن، استطاع النورمان، فيما بين سنة ٩٨٠ وسنة ١٠٥٠، أن يبنوا أقوى إقطاعية في غرب أوروبا؟

هناك مراحل ثلاث يمكن تحديدها في مجرى بروز سلطة الدوقات النورمان. ففي ثمانينيات القرن العاشر، شارك أولئك الدوقات في ارتقاء « هوف كاييه » عرش فرنسا، ونتيجة لذلك لم يحاول ملوك آل كاييه التدخل في شئون الدوقية إبان الفترة الحرجة التي شهدت بناء الدولة النورمانية. ولم يدرك الملك الكايي مغزى قيام نمط جديد من الدول الإقطاعية في الدوقية المجاورة لأملكه في منطقة جزيرة فرنسا Ile - de - France^(١) سوى في ثلاثينيات القرن الحادي عشر، وعندها كانت فرصة إزالة هذا الخطر قد ولت إلى غير رجعة. أما المرحلة الثانية، والأكثر حسماً، في خلق نورمانديا، فجاءت في إطار العلاقات بين الدوقات النورمان والكنيسة في أملاكهم. إذ كان الدوقات النورمان أثناء

(١) يطلق الفرنسيون اسم جزيرة فرنسا Ile - de - France على المنطقة التي تقع باريس في وسطها.

الفترة الأخيرة من القرن العاشر وبواكير القرن الحادى عشر أكثر حذقا من أسلافهم وكانوا على وعى بمدى تخلف نورمانديا الثقافى فاستقدموا العلماء الديريين البارزين من أراضى الراين وشمال إيطاليا لكى يبدأوا تطوير وتحسين ظروف الكنيسة النورمانية، وبنى الدوقات الأديرة ومنحوها الأوقاف، كما أيدوا المدارس الديرية ودعموها، وأتاحوا الفرصة لأولئك العلماء المقتدرين لكى يؤسسوا ألمع المراكز التعليمية فى غرب أوروبا، ولم تكن علاقتهم بالكنيسة مقيدة داخل إطار هذه الحماية بآى حال من الأحوال، فقد لجأوا إلى تسخير موارد الكنيسة واستخدام رجالها فى تقوية سلطتهم على أملاكهم وربما كان زعماء الحركة النورمانية قد شجعوا النورمان ووجهوهم بمشورتهم فى هذا المجال، لأن أولئك الكنسيين كانوا قد وفدوا إلى نورمانديا، فى معظم الأحوال، من مناطق تقع داخل نطاق الامبراطورية الألمانية، التى كان حكامها يستخدمون الكنيسة لتحقيق غرض مماثل، ومن المؤكد أن كبار رجال الكنيسة فى نورمانديا لم يشغلوا أنفسهم بنوع العلاقات بين الكنيسة والدولة النورمانية قبل سنة ١٠٣٥، إلا أنهم تقبلوها ولم يجربوا غضاضة فى ذلك.

لقد كانت خطة الدوقات أن يفرضوا التزامات إقطاعية باهظة على كبار رجال الاكليروس وأن يسخروا الفرسان الموجودين فى أراضى الكنيسة ليكونوا نواة لجيش يمكن به التغلب على النبلاء العلمانيين، والواقع أنه بحلول منتصف القرن الحادى عشر، كان بمقدور الدوق النورمانى أن يحصل على الخدمة العسكرية من أكثر من ثلاثمائة فارس من أفضاله الإقطاعيين، وكانت هذه القوة كافية للقضاء على قوة النبلاء وزيادة، وحصل الدوق على امتيازات عديدة من جراء بدئه لعملية فرض النظام الإقطاعى فى نورمانديا، وذلك من خلال فرض التبعية الإقطاعية vassalage على رجال الكنيسة، وعندما انتهى من ذلك استدار نحو النبلاء العلمانيين، فلم يكن رجال الكنيسة يستطيعون الزواج بطريقة قانونية، وعلى الرغم من أن كثيرين منهم كان لديهم أطفال، فإن هؤلاء الأطفال كانوا غير شرعيين ولا يمكنهم وراثة الاقطاع بحكم القانون الإقطاعى، ومن ثم فإنه لم يكن بوسع أى أسقف

أو مقدم دير أن يتابع المصالح الأسرية من خلال الاقطاع الذى يحوزه، ومهما يكن من أمر، فإن الاقطاع كان يرتبط بالمنصب الكنسى ولم يكن أملاكاً شخصية للأسقف أو مقدم الدير فضلاً عن أن الدوق كان متحكماً فى انتخابات كبار رجال الكليروس، إذ كان هو الشخص المبجل لدى الكنيسة النورمانية ويجب الأخذ برأيه قبل أن يشرع الرهبان أو القساوسة فى الكاتدرائية فى اختيار مقدم الدير أو الأسقف، كذلك كانت للدوق سلطة الاعتراض Veto على كبار رجال الكليروس المنتخبين، ذلك أنه مالم يكن الدوق مرحباً بقبول الأسقف أو مقدم الدير المنتخب فصلاً إقطاعياً له، فإن الأخير لم يكن يستطيع أن يستحوذ على الأملاك المرتبطة بمنصبه.

وفى عشرينيات القرن الحادى عشر بدأت المرحلة الأخيرة من مراحل ظهور السلطة الدوقية بفرض التعية والالتزامات الاقطاعية على النبلاء العلمانيين، وقد تيسر هذا العمل بفضل حال الجوع إلى الأرض وازدياد عدد طبقة الفرسان فى نورمانديا، وفى العقد الثانى من القرن الحادى عشر كان عدد السادة الاقطاعيين النورمان غير المستقرين قد رحلوا بالفعل قاصدين جنوب إيطاليا لى ينتزعوا لأنفسهم أملاكاً فى هذه البلاد الغنية. أما الفرسان الذين لا أرض لهم، والذين بقوا فى مواطنهم فلم يكن أمامهم سوى فرصة الحصول على إقطاعات من الدوق بشرط أن يبدا استعدادهم لتقبل الالتزامات الاقطاعية الباهظة. أما كبار السادة الاقطاعيين فى نورمانديا، والذين كانوا فى الواقع من ملاك الأراضي التابعين، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى قبول التبعية الاقطاعية بسبب قوة الدوق العسكرية. هذه المرحلة الأخيرة والناجحة من مراحل بناء الدولة النورمانية الاقطاعية توقفت فجأة حين رحل أحد الدوقات، فى نوبة تقوى مفاجئة، فى رحلة حج إلى بيت المقدس ومات وهو فى الطريق. وخلف لورائته طفلاً تحوم سحب الشك حول شرعيته بسبب حقيقتة أنه ولد قبل زواج والديه، وقد تميز الشطر الأول من حكم وليم الثانى ابن الزنا William II the Bastard (١٠٣٥ - ١٠٨٧) بمحاولات يائسة من جانب أعداء

السلطة الدوقية - أى الملك الكابى فى فرنسا والنبلاء الايطاليين - للقضاء على ما تم خلال نصف القرن السابق. وعلى أية حال، ظل التحالف بين العائلة الدوقية ورجال الكنيسة النورمانية على حاله، كما أن توحيد قوة الأفضال الكنسيين وقوة وليم العسكرية الفائقة جلبت النصر النهائي للدوق على أعدائه فى نهاية أربعينيات القرن الحادى عشر. وحينذاك انطلق وليم مواصلا سياسة أسلافه، أى بناء أقوى سلطة إقطاعية فى أوروبا، وهو الحلم الذى تحقق عند نهاية النصف الأول من القرن الحادى عشر. ذلك أنه لم يفرض التبعية الإقطاعية vassalage على جميع النبلاء المدنيين فحسب، وإنما استطاع أيضا أن يطالبهم بالخدمة العسكرية التى كانت مرمقة ومحددة بشكل دقيق للغاية. كما أنه استطاع أن يتغلب على نقائص التقسيمات الإقطاعية الدنيا بأن جعل نفسه السيد المباشر لكل فصل إقطاعى داخل حدود دوقيته. وكان حجم الخدمة الإقطاعية الذى يدين به حائزو الإقطاعات لسيدهم قد تقرر بشكل محدد فى نورمانديا، وذلك فى متواليات عديدة تبدأ بخمسة فرسان حتى يصل العدد إلى فيلق إقطاعى يتألف من مائة وعشرين فارسا، تبعا لمساحة الأرض التى كان الأفضال الإقطاعيون يحوزونها من الدوق. وبحلول سنة ١٠٦٠ كان بوسع الدوق النورمانى أن يتولى قيادة جيش قوامه ألف فارس، وهو جيش أكبر من أى جيش كان باستطاعة أى حاكم غرب نهر الراين أن يجنده. وقد حظر وليم بناء القلاع دون ترخيص منه واحتفظ لنفسه بحق سحب هذا الترخيص. كما كان صارما للغاية فى إلزام أفضاله الإقطاعيين بالمثل فى بلاطه. أما الموظف المحلى Viscount الذى عينه فى الأقاليم نائبا عنه، فكان بمثابة أداة يمكنه بواسطتها سحب الصلاحيات القضائية والضريبية من السادة الإقطاعيين إلى نطاق السلطة الدوقية.

أما التزكية الأدبية لهذه السلطة العسكرية والإدارية الفعالة فجاءت من خلال التأييد الذى لقيه وليم من الكنيسة. فقد كان مثل أسلافه. يقدح حمايته وهباته الكثيرة على الأديرة، كما ظلت المدارس النورمانية تجتذب ألمع العقول فى أوروبا. وكان بين هؤلاء

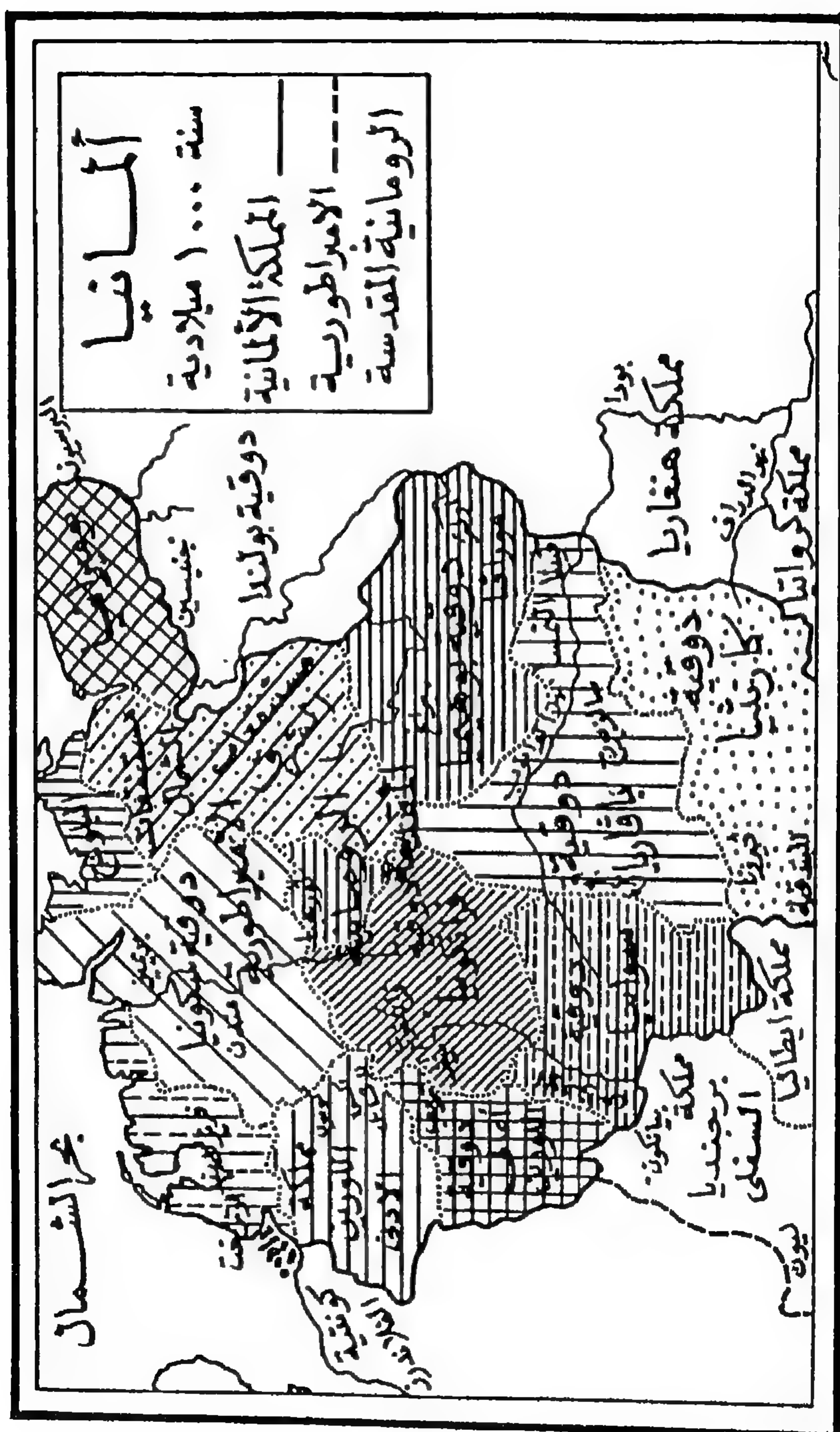
لانفرنك Lanfranc الذى كان مدرس قانون سابق فى بافيا Pavia فى شمال إيطاليا، ثم صار راهبا فى نورمانديا وذاع صيته كواحد من ألمع اللاهوتيين فى منتصف القرن الحادى عشر، ثم أصبح وحدا من أشد المعجبين بوليام. وكان وليام قد حاز إعجاب رجال الكنيسة فى شتى أرجاء أوروبا لأنه أخذ حركة « سلام الرب peace of God » مأخذ الجد. فقد كان وليام يرى فى هذه الحركة وسيلة تكسب بها السلطة الدوقية مناصرة رجال الدين، كما رأى فيها وسيلة لفرض المزيد من القيود على الحروب الجرافية التقليدية التى سادت المجتمع الاقطاعى، وهو أمر لم يكن يتوافق مع مفهومه عن الدولة الاقطاعية. وجعل وليام من نفسه رئيسا لحركة « سلام الرب » فى نورمانديا، كما أجبر أفضاله على القسم بالالتزام بها. وفى سنة ١٠٦٠ كان يتعين على من يفكر فى العصيان ضد الدوق من السادة الاقطاعيين النورمان أن يتحسب لمجابهة الهزيمة الساحقة، وفقدان أملاكه، فضلا عن إدانة الكنيسة له.

وباكتمال بناء السلطة الدوقية بات وليام حرا فى البحث عن ميادين جديدة للغزو والانتصار، إذ كان وراءه جيش كبير، ومجموعة من النبلاء العدوانيين تحبهم الرغبة فى البحث عن متنفس يرضى تعطشهم للقتال وجوعهم للأرض على حد سواء. ومن ثم شرع وليام، عند منتصف القرن الحادى عشر، فى تحويل اهتمامه إلى مايجرى من أحداث عبر القنال الانجليزى، وبدأ يخطط فى كيفية الفوز بالعرش الانجليزى، فقد كان الموقف فى انجلترا يمثل تنقاضا دراميا مع الموقف السائد فى نورمانديا، إذ أن سلطة الملكية الأنجلو سكسونية المتأخرة كانت أخذه فى التلاشى أمام السيادة الاقطاعية Lordship الأخذة فى الصعوب، فقد استولى كبار السادة الاقطاعيين على الاقطاعات الضخمة كما تحكموا فى المؤسسات القانونية والإدارية والمالية الملكية فى أقاليمهم. وكانت نورمانديا بلدا صغيرا فقيرا قليل السكان بالمقارنة مع انجلترا. بيد أن الدوقات النورمان نجحوا فى التحكم فى جميع موارد بلادهم، على حين كانت السلطة العامة فى انجلترا تنتقل إلى الأيادى الخاصة

بسرعة كبيرة، كما أن سلطة الملك كانت على حافة التلاشى . كذلك كان الدوق النورمانى يبدو مجرد دعى حديث النعمة إذا ما قورن بالملك الأنجلو سكسونى، سليل بيت وسكس Wessex الذى تولى حكم إنجلترا أو أجزاء منها على مدى خمسة قرون. ولم يستطيع الدوق النورمانى أن يعيد شيئاً من مذهب الملكية الشيوقراطية الذى ساد إنجلترا منذ منتصف القرن العاشر. إلا أنه مع ذلك كان يمتلك ما يفتقر إليه الأنجلو سكسون، أعنى المؤسسات الفعالة، والشخصية القوية، والكفاية العسكرية. وهذا المزيج من الصفات الايجابية كان علامة على منعطف جديد فى طريق تطور الملكية فى العصور الوسطى.

٣ - الامبراطورية الأوتوية

فى شرق الراين لم تكن المؤسسات الاقطاعية تتضمن قواعد التنظيم الاجتماعى، كما كان الحال فى فرنسا. ذلك أن البنيان السياسى والاجتماعى للملكية الكارولنجية الشرقية كان ما يزال رهن التقاليد الجرمانية الأصلية. فقد اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلفة، أو « الأفخاذ Stems » كما كان يطلق عليها - وهى الفرنجة السكسون، السوابيون، الافار، اللوثرنجيون، الثورنجيون - بزعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق الادارى، وحولوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعى إبان الفترة الكارولنجية. وكان يلى بوقات القبائل فى السلم الاجتماعى مجموعة صغيرة من النبلاء الكبار ثم تتلوهم جماهير الفلاحين الأحرار. أما فى الجنوب والغرب فكانت علاقات الضيعة الاقطاعية Manorialism، ومبدأ السيادة الاقطاعية Fuedal Lordship تشق طريقها إلى الوجود، ولكنهما اتخذتا شكلاً جنينياً محدوداً للغاية بحيث لم يكن لظهورهما أى تأثير على السلطة السياسية. وكان قادة المجتمع الجرمانى هم بوقات القبائل، وكبار النبلاء والأساقفة ومقدمى الأديرة الألمانية. كما كان لرجال الكنيسة تأثيرهم بفضل سيطرتهم على مجال التعليم بأسره، وعلى قدر كبير من ثروة البلاد المرتبطة بالأرض الألمانية، وذلك لأن الأديرة الكبيرة، التى كان بونيفاس وأتباعه قد شيدها فى



واديان الانهار فى المنطقة التى تعرف الآن باسم المانيا الغربية، كانت بمثابة الطلائع التى مهدت للتوسع الكارولنجى بعد أن قام الرهبان بتنصير الناس، وتأسيس مراكز التعليم والحضارة، كما أوجدوا الكنيسة الألمانية وبعد أن كان ذلك قد تم بالفعل بدأ الملوك الفرنجة يمارسون الحكم بصورة فعالة فى مناطق شرق الراين.

ومع غروب شمس القرن التاسع كان الملوك الكارولنجيون قد تحولوا إلى نكرات ، ولم يكن باستطاعتهم أن يقودوا القبائل فى صراعها لصد الغزاة على طول حدودهم. وفى الغرب كان الخطر متجسدا فى الاسكندنافيين. أما فى الشرق فكان توغل المجرىين - وهم غزاة آخرون قدموا إلى أوروبا من مناطق وسط آسيا - والسلاف بشكل خطرا داهما على وجود الدوقيات الألمانية. وفى سنة ٩١١ مات آخر الملوك الكارولنجيين، فاختار دوقات القبائل الذين مارسوا المبدأ الانتخابى الجرمانى، كونراد الأول Conrad I دوق فرانكونيا Franconia ملكا . ولا يمكن القول بأن هذا الحدث كان علامة تحول هام فى تاريخ الملكية الألمانية، فلم يكن كونراد قادرا على ممارسة أى سلطة على الدوقات القبليين الذين بقوا على استقلالهم . وحين مات كونراد فى سنة ٩١٨ انتخب الدوقات هنرى الأول الصياد Henry I the Fowler دوق سكسونيا الذى كان أكبر مناوئى كونراد ، ملكا ، وقبض لأسرة هنرى، التى عرفت فيما بعد بأسم أسرة أوتو Ottonians، أن تحكم فى ألمانيا على مدى أكثر من قرن من الزمان، ومن ثم فإن بداية حكمه تعتبر دائما هى البداية الحقيقية للملكية الألمانية، ولكن الحقيقة أنه لم يكن أكثر توفيقا من سلفه، وعندما تولى ابنه أوتو الأول Otto I العرش سنة ٩٣٦ لم تجد الملكية الألمانية المؤسسات أو الايديولوجية التى تمكنها من السيطرة على كبار الدوقات. والواقع أن دوق بافاريا كان يحاول أن يربط دوقيته بلمبارديا، وهو الأمر الذى كان سيجعله أقوى منه لو ربط نفسه بالدوقات السكسون، والذى كان كفيلا بالقضاء على أى قدر من الوحدة تتمتع به المملكة الألمانية.

لقد تم بناء الملكية الألمانية على يد أوتو الأول الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣) . وقد صاغ

السياسة التي بيت النية على أتباعها في الطريقة الرمزية الواعية التي تم بها تنويجه . فقد أصر على أن يتم مسحه بالزيت المقدس وتنويجه على به كبير أساقفة ميترز Mainz الكنيسة الألمانية وهو الذي كان كبير أساقفة في أخن Aachen عاصمة شارلمان القديمة وبذلك كان يعنى أنه يربط نفسه بالكنيسة الألمانية القوية، وكان يقصد أن يفيد من أيديولوجية الملكية الثيوقراطية. لقد كان أبوه يخشى الأساقفة ومقدمى الأديرة الأقوياء، كما رفض أن يتم تنويجه على يد أى من رجال الكنيسة . أما أوتو فقد عقد العزم على أن يضع الكنيسة تحت سيطرته، وأن يستخدم مواردها ورجالها في سبيل إرساء الأسس التنظيمية للسلطة الملكية في ألمانيا، ولم تكن هناك طريقة أخرى كان يمكن للملكية الألمانية بواسطتها أن تحصل على الثروة والدعم العسكرى والادارى اللذين تحتاج إليهما لكي تتمكن من التغلب على قوة الدوقات القبليين الوطيدة، وكان رجال الكليروس الألمان على استعداد للتعاون مع الملك الذى كان يقدم لهم الحماية ضد النبلاء، ويغدق الهبات السخية على المؤسسات الكنسية، فضلا عن إتاحة الفرصة لرجال الكنيسة للخدمة في مجلسه الاستشارى وتولى وظائف الوزراء الملكيين.

ومن الممكن أن نحدد ثلاثة أسس تنظيمية قامت عليها سيطرة أسرة أوتو على الكنيسة وأهم هذه الأسس هو النظام الذى أستخدمه منتقوه في أواخر القرن الحادى عشر على تسميته بالتقليد العلمانى Lay investiture والذى كان يشار إليه حتى ذلك الحين باسم « التقليد الملكى للكنائس » . فقد كرس الملك حق تقليد الأساقفة ومقدمى الأديرة برموز مناصبهم، ووجد التأييد النظرى لهذا الزعم في خاصيته كملك مسح بالزيت المقدس (أى باركته الكنيسة)، وبدون التقليد الملكى لم يكن الأسقف أو مقدم الدير المنتخب يستطيع تولى مهام منصبه ، فقد كان الهدف هو إتاحة الفرصة للملك للتحكم في عملية انتخاب كبار رجال الكنيسة. وفي سبيل المزيد من الضمانات لسيطرة الملك على التعيينات الكنسية، كانت فروض الطاعة التى يقدمها الكنسيون مرتبطة بالتقليد العلمانى لدرجة أن

الأسقف أو مقدم الدير المنتخب لم يكن يستطيع أن يحوز الأملاك المرتبطة بمنصبه الا بعد أن يصير فصلا اقطاعيا للملك، وفي ظل هذه الظروف تحولت الانتخابات الكنسية إلى مجرد شكل رسمي داخل الامبراطورية الأوتوية، فقد كان الملك يملأ المناصب الكنسية بأقاربه، وبالكتاب المواليين العاملين في مجلسه الاستشاري ، والذين كان يعينهم أيضا على رأس الأديرة الألمانية الكبرى.

وقد تدعمت سيطرة أوتو على الكنيسة بفضل استمرارية الافكار القانونية الجرمانية المتعلقة بالملكية والتي كانت بمثابة الأساس الذي قام عليه نظام الكنائس الامتلاكية -Ei-genkirchen. ولم يكن هذا النظام قاصرا على ألمانيا بأي حال من الأحوال، وإنما وجد في شتى أنحاء أوروبا في النظام المعروف باسم Advowson^(٢). ولكن نظام الكنائس الامتلاكية لم ينل أهمية كبرى سوى في الامبراطورية الألمانية إبان القرنين العاشر والحادي عشر، وذلك لأنه صار أحد الأسس التي تستند اليها السلطة الملكية، فقد كان القانون الألماني يشترط أن يكون أي بناء يقام فوق أرض أحد الملاك، من حق هذا المالك بقوة القانون ، بما في ذلك البنايات الكنسية. وهكذا كان بمقدور ملك الأراضي التي قامت عليها الكنائس والأديرة أن يمارسوا دور السادة الاقطاعيين ويعينوا الموظفين الكنسيين من لدنهم، ولم يكن هذا أمرا مهما اذا ماكانت الكنيسة كنيسة صغيرة، الا أن أهميته كانت تبدو واضحة إذا كان الأمر يتعلق بدير كبير يمتلك ضياعا واسعة، وقد استحوذ ملوك أسرة أوتو على حقوق امتلاكية على اسقفيات وأديرة ألمانيا بفضل هباتهم للكنيسة من جهة، وبفضل وسائل أخرى، أكثر عنفا، من جهة أخرى، مما ترتب عيه أن صار من حقهم تعيين الأعضاء الهامين من كبار رجال الكليروس كما تمكنوا بذلك من السيطرة على دخل الكنيسة ومواردها.

(٢) يعني هذا النظام حق صاحب الأرض في التقدم إلى منصب كاهن الإبرشية والتمتع بالنخل المرتبط بهذا المنصب من أوقاف الكنيسة.
(المترجم)

أما الأساس التنظيمي الثالث الذي قامت عليه سيطرة أسرة أوتو على الكنيسة الألمانية فكان هو نظام الوصاية Advocacy. فقد كان الوصى Advocate رجلا علمانيا يتولى إدارة الضياع المملوكة للكاتدرائية أو الدير، مما يتيح له فرصة الاستحواذ على جزء كبير من الدخل، وجانب كبير من حقوق السيادة الاقطاعية على الناس في الضياع الكنسية. وكانت أسرة أوتو حريصة كل الحرص على تجميع غالبية حقوق الوصاية في يديها.

وبمنتصف القرن العاشر كانت ثروة اللكية الألمانية وقوتها العسكرية تنمو بمعدل متزايد نتيجة لهذه الوسائل التي استخدمت لاحكام السيطرة على الكنيسة، ومن المعلوم أن نصف الجيش الألماني الذي استخدمه أوتو في ايطاليا سنة ٩٨١ كان مجندا من الاراضى الكنسية. كذلك استخدم أوتو كبار رجال الاكليروس في جهازه الإداري على نطاق واسع، ولم يكن استخدامهم قاصرا على المجلس الاستشاري الملكي وحده. وفي أحيان كثيرة تمتع مقدمو الأديرة بسلطة الكونتات، كما أنيط بهم مهام كبيرة في الإدارة المحلية لصالح الملك. ولم يجد أوتو صعوبة في أخضاع الدوقيات القبلية، بما فيها اللورين. وبحلول سنة ٩٥٥ صار أوتو هو المتدخل في كل شئون الشمال الايطالي، التي اتسمت بالفوضى، بفضل زواجه من اديلايد Adelaide التي كانت «ملكة» ايطالية، وقد أدعى لنفسه الحق في التاج اللمباردي.

لقد كانت تلك السنة منعطفا هاما في مسار حكم أوتو. فقد ألحق هزيمة نكراء بالمجريين في معركة ليشفيلد Lechfeld وصار بطل الغرب الأوربي. كما بدا في عيون النبلاء الألمان أنه قد جعل من زعمه بأنه خليفة شارلمان حقيقة واقعة. وفي الميدان الذي شهد انتصاره على المجريين رفعه كبار السادة الاقطاعيين على دورعهم على الطريقة الجرمانية وأعلنوه أمبراطورا. وبعد ذلك بعدة سنوات، أي في سنة ٩٦٢، ذهب أوتو الى روما وهناك توجه البابا امبراطورا.

انخرط المؤرخون الألمان المحدثون في نقاش كبير حول ماهية الدوافع الكامنة وراء التتويج الامبراطوري لأوتو. ومن الواضح أن هناك عوامل عديدة كانت وراء ذلك، منها رغبته في أن يخضع المملكة الوسطى القديمة لسلطاته، ولاسيما مناطق اللورين وشمال إيطاليا، كما أنه كان بحاجة إلى اللقب الإمبراطوري حتى بعد السند القانوني لمزاعمه في هذا الخصوص. لقد ركز أوتو اهتمامه على الشمال الإيطالي بشكل خاص، وكانت أحوال تلك المنطقة نهبا للفوضى، كما أنه كان يريد أن يفرض على بوقات الجنوب الألمان أن يقوموا بمحاولات جديدة لغزو لمبارديا، وثمة دافع آخر تمثل في حاجته إلى احتذاء خطى شارلمان قدر المستطاع حتى يقوى من الأساس القانوني لسيطرته على الكنيسة الألمانية. أما السبب الثالث وراء إرتداء أوتو التاج الامبراطوري فقد تمثل في الخوف من تجديد اللقب الامبراطوري وأحيائه خارج ألمانيا على يد الملك الفرنسي أو أحد البوقات الفرنسيين، وثمة موضوع آخر، حبذه المؤرخون الألمان بشدة في الثلاثينيات القرن العشرين، وهو رغبة أوتو في الحصول على اللقب الامبراطوري حتى يتسنى له أن يكون الزعيم المعنوي للتوغل الألماني فيما وراء نهر الألب Elbe.. هذه الدوافع جميعها أو معظمها، ترتبط بالتتويج الامبراطوري لأوتو، ولكن مهما كانت طبيعة الأسباب الخاصة التي أدت إلى إحياء أوتو اللقب الامبراطوري، فقد كان ذلك هو التداعي الطبيعي لمركزه كأقوى حكام أوروبا وأبرزهم. فقد كانت تحت إمرته أكبر قوة عسكرية شهدت أوروبا منذ شارلمان، كما كان ملكا ثيوقراطيا يفرض سيطرته على الكنيسة داخل مملكته، فضلا عن أنه كان، في نظر المجتمع الجرمانى، المحارب البطل. هذه السجاياء والميزات جعلت أوتو يبدو، أمام نفسه وأمام معاصريه على السواء، خليفة جديرا بخلافة شارلمان. وإذا كان شارلمان أمبراطورا، فينبغى أن يصير أوتو أمبراطورا هو الآخر. لقد كان لقبه الإمبراطوري تكريسا لحكمه على ألمانيا وشمال إيطاليا.

لم يكن ثمة شيء رومانى في مفهوم أوتو عن اللقب الامبراطوري، وقد صوب مؤرخو

اللكية الألمانية Kleindeutsch فى القرن التاسع عشر لومهم على الملك السكسونى لأنه أوقع الملكية الألمانية فى شباك سحر ايطاليا الخطير الموهن. بيد أن أوتو لم يكن يقضى فى ايطاليا سوى أوقات قليلة، بل أنه لم يبذل أى جهد فعلا للمشاركة فى انقاذ البابوية من النشاط الهدام الذى كان النبلاء الرومان يقومون به ضدها. لقد كان أوتو الكبير جنديا صعب المراس وادرايا حازما كما كان ذكيا بالقدر الذى جعله يفيد من الايديولوجية، الا أنه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذين تلهمهم الأفكار. وعلى أية حال فإنه سقط فريسة النزعة الوصولية حين أراد أن يحصل على اعتراف المجتمع بوريثه، وكان الاعتراف الوحيد الذى يبدو مناسباً لابن الامبراطور الألمانى هو الزواج من أميرة بيزنطية. وفى بداية الأمر رفض البيزنطيون أوتو باعتباره بربريا حديث النعمة، الا أنه عندما تغيرت الأسرة الحاكمة سمح الامبراطور البيزنطى لابن أوتو بالزواج من واحدة تنتمى له بصلة القربى بعيد (٢). وكان زواج أوتو الثانى فاتحة نمط من السلفية السياسية التى تميزت بها الإمبراطورية الكارولنجية بعد شارلمان وتحت تأثير زوجته البيزنطية حول انتباهه إلى بناء سلطة فعالة فى جنوب الألب. وقد أتاح أوتو الثانى للسلاف فرصة تدمير المستوطنات الألمانية فى شرق نهر الألب، على حين قام جيشه فى حملته فى جنوب ايطاليا، حيث لقي حتفه وهو يحارب ضد المسلمين فى سنة ٩٨٣ (٤).

(٢) عندما أعتلى عرش الامبراطور البيزنطية الامبراطور حنا الاول (٩٦٩ - ٩٧٦) أراد تصفية موقف سوء التفاهيم القائم بين الامبراطورية الألمانية من طريق المصاهرة. وبالفعل تمت الموافقة على زواج أوتو الصغير والى العهد الألمانى من الأميرة ثيوفانو Theophano ابنة رومانوس الثانى امبراطور بيزنطة الاسبق على أن يكون الصداق الذى تقدمه العريس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا، وتم هذا الزواج فعلاً سنة ٩٧٢. أنظر : سعيد عاشور، أوروبا المصور الوسطى، ٢ ج ١ ص ٢٩٤ ص ٢٩٥ (الترجم)

(٤) فى سنة ٩٨٢، وأبان الصراع بين المسلمين وجيوش الامبراطور، نصب المسلمون كمينا للقوات الامبراطورية بالقرب من خليج كولون Colonne ومزقوها شر ممزق، وهرب الامبراطور نفسه بصعوبة. وفى الوقت نفسه جاءت الأخبار بارتداد السلاف إلى الوثنية وقتلهم لبعض رجال الكنيسة. فعقد الامبراطور أوتو الثانى مجمعا فى فيرونا سنة ٩٨٣ واتد المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب ضد المسلمين. وفى غمرة الاستعداد لهذه الحرب مات الامبراطور فى نهاية هذه السنة، ودفن بكنيسة القديس بطرس فى روما. (الترجم)

وخلال حكم أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) أبين أوتو الثاني، توطدت العلاقة بين الامبراطورية الألمانية وروما، واهملت سياسة أوتو الأول إهمالا تاما. وبفضل قوة المؤسسات التي أوجدها أوتو الكبير لم يحدث إنهيار الملكية الألمانية في عهد حفيده، ذلك أن أوتو الثالث أرتقى العرش وهو طفل، وحتى سنة ٩٩٥ كانت أمه البيزنطية ثيوفانو هي التي تحكم الامبراطورية، ثم أعقبتها جدته أديلاد Adelaide.. وخلال السنوات السبع التي قضتها أوتو الثالث في الحكم لم يذهب إلى ألمانيا الا نادرا، ولكنه كرس نفسه لتحقيق وإنجاز خطة طموحه لبناء امبراطورية تكون روما مركزا لها. وكانت هذه الخطة نتيجة للنفوذ والتأثير الذي أحدثه في نفس الامبراطور الشاب مدرسه الفرنسى جريير الأوريلاكى Gerbert d'Aurillac، الذي كان قد درس في أسبانيا الاسلامية وصار واحدا من أعظم علماء عصره. وكان جريير وغيره من رجال الكنيسة ممن احتلوا مكانه وطيدة في بلاط أوتو الثالث يتحدثون عن « تجديد الامبراطورية الرومانية ». وقد استطاع جريير أن يكسب أوتو الثالث الذي كان شابا سريع التأثر إلى جانبه، وأقنعه بخطته لبناء امبراطورية رومانية جديدة تكون روما فيها مركز العالم الغربى مرة أخرى. وبناء على ذلك أتخذ أوتو الثالث روما مركزا لاقامته، كما أقام جريير على العرش البابوى تحت اسم سيلفستر الثانى Sylvester II. وكان المقصود أن تكون هذه اللحظة أهم لحظة في تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ عصر قسطنطين . فقد كانت المسكوكات، والمخطوطات المصورة، والأشعار التي خلفها لنا بلاط أوتو الثالث كلها تدعو إلى ايدولوجية امبراطورية مركبة متشابكة تفوق السلفية السياسية التي عرفتھا الفترة الكارولنجية المتأخرة. فقد كانت مدينة روما ترمز إلى وحدة العالم السياسية ووحدة الكنيسة في رأى واضعى النظرية الامبراطورية في بلاط أوتو الثالث. وثمة وثيقة ترجع إلى عهد أوتو الثالث امبراطور الرومان. كلماتها : « نحن أوتو، عبد الصارين، وأوقسطين امبراطور الرومان. بمشيئة السيد المخلص، نعلن روما عاصمة العالم، ونعتز بأن الكنيسة اللاتينية هي الكنيسة الأم لجميع الكنائس ». وقد صورت هذه

الأفكار فى الرسوم التى تم تنفيذها بمهارة فائقة فى عصر أوتو الثالث، وهناك صورة يبدو فيها أوتو جالسا على عرشه وقد أحاط به من الجانبين القديس بطرس والقديس بولس . وفى صورة أخرى تبدو بلدان أوروبا وهى تقدم له الهدايا دليلا على ولائها وخضوعها .

ولم تقتصر خطة جريير على الجانب الايديولوجى، والفن واحتفالات البلاط فحسب ، فقد كانت روما، باعتبارها رأس العالم، تستدعى انتهاج سياسات معينة يمكن اذا نفذت، أن تكون ذات أثر شامل على تطور أوروبا، وكانت أولى هذه السياسات تتضمن خلق امبراطورية فيدرالية كبرى تضم شرق وسط أوروبا حتى تتحاشى تجدد الصراع بين الألمان والسلاف، والواقع أن أوتو قام برحلة إلى بولندا لكى يمنح دوق بولندا المسيحي لقباً تشريفياً، ولكى يضمه الى الامبراطورية الرومانية المجددة. كذلك تم ترقية فيدرالى مع المجر، أما السياسة الثانية التى دفع جريير أوتو الثالث إلى تبنيها، فكانت فى مجال العلاقات بين البابوية والامبراطورية، فلم تكن البابوية قد لعبت أى دور فى الحياة الأوروبية على مدى مايقرب من قرن من الزمان بسبب خضوعها المخزى للنبل الرومان، ولأن البابا سلفستر الثانى كان على وعى بالصراع الذى قد ينشأ بين الامبراطور الألمانى والبابوية فى حالة إحيائها، ومن هذه النظرة لم يكن ينبغى للبابوية أن تدعى لنفسها مزاعم دنيوية، ولكنها ينبغى أن تصير مؤسسة روحية خالصة، ولم يكن جريير يعتقد أن هبة قسطنطين هبة حقيقية ، وأقنع الامبراطور بأنها « أكاذيب اقتحلها بعض البابوات ونسبوها إلى اسم قسطنطين الكبير ».

وفى سنة ١٠٠٢ مات أوتو الثالث، ولحق به سلفستر الثانى بعد سنة واحدة، ومعها تلاشى مشروعهما الطموح . وفى السنة الأخيرة من حكم أوتو كان السكسون النبلاء قد أعلنوا عصيانهم بالفعل ، لأن ايديولوجية أوتو الامبراطورية تجاهلت المانيا، كما كانت تسير فى اتجاه مضاد لمصالحهم. وقد تولى خليفة أوتو، وابن عمه، هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) تماماً عن خطط أوتو، وكرس نفسه لمواصلة تدعيم السلطة الملكية فى المانيا .

ومن المؤكد أن هذه الوسيلة كانت أكثر واقعية في معالجة المشكلات التي واجهت الملكية الألمانية من الوسائل التي اتخذها كل من أوتو الثاني وأوتو الثالث، وثمة شك في أن المؤسسات التي أقامها أوتو الكبير كانت قادرة على إقامة حكم آخر على غرار حكم ابنه وحفيده، وعلى أية حال، فإنه مما يلفت النظر أن جريبير تتبأ باثتين من أكثر الصراعات مرارة وهما : صراع الألمان ضد السلاف ، والنزاع بين الامبراطورية والبابوية. وهناك جوانب كثيرة من خطة تجديد « الامبراطورية الرومانية » تبدو غير ذات نفع وخالية من أى مضمون حقيقى. الا أن جريبير وتلميذه أوتو الثالث أبديا تفهما واعيا لهاتين المشكلتين اللتين كانتا من المشاكل الأساسية رغم أنهما كانتا ما تزالان في طور التكوين.

لقد كانت الامبراطورية الأوتوية تفسر أحيانا على أنها مجرد استمرار للملكية الكارولنجية، وقد أبرز الدارسون أن ملوك أسرة أوتو كانوا يعتمدون في سلطانهم على الرابطة التي تربطهم بالكنيسة، وأنهم استفادوا من مذهب الملكية الثيوقراطية، كما أنهم زعموا الايديولوجية الامبراطورية، وهذه كلها أفكار ومؤسسات يمكن أن نجدها في عصر شارلمان وخلفائه، حقا أن أسس الحكومة الأوتوية كانت قد أرسيت بالفعل في زمن الملكية الكارولنجية. بيد أن ملوك أسرة أوتو استخدموا هذه السوابق لكي يقيموا على أساسها ملكية ناجحة طويلة العمر، على حين لم تنتج الجهود الكارولنجة سوى الفشل المرير . ولم يكن ملوك أسرة أوتو مضطرين إلى التعامل مع مثل هذه المنطقة الشاسعة، كما أنهم لم يصادفوا أية متاعب من جراء التأثيرات اللامركزية التي نجمت عن مبدأ السيادة القطاعية . وفضلا عن هذه الميزات الأولية ، فإن نجاح الامبراطورية الأوتوية يجب أن يعزى إلى التحكم الصارم في موارد الكنيسة، وهو ما كان أوتو الكبير قد بدأه ليصير هو الأساس الذي قامت عليه السلطة الملكية القوية حتى في غياب الملك ذى الشخصية القوية كما حدث في المانيا إبان عهدي أوتو الثاني وأوتو الثالث. لقد استطاع الحكام الساليون في أواسط القرن الحادى عشر أن يبنوا فوق انجازات بنى جلدتهم الأوتويين، بحيث فاقوا ما حققه

الكارولنجيون من قبل، واضفوا مزيدا من القوة على الأسس التنظيمية للامبراطورية الألمانية.

والفترة الأوتوية ، التى تعتبر فاتحة التاريخ الألمانى، تبدو صورة مصغرة لكل تقلبات الأحوال التى شهدتها الحضارة فيما بعد . ففى الامبراطورية الأوتوية نرى هذا الامتزاج بين الكفاءة العدوانية التى لا ترحم من ناحية، والتعبير عن الأفكار الصببانية الخيالية من ناحية أخرى، أو على حد تعبير أحد الكتاب الألمان الوحدة بين الـ *Macht* والـ *Geist* وهو الأمر الذى غالبا ما تتميز به الفترة المتأخرة من تاريخ المنطقة الواقعة بين نهري الراين والألب.

٤ - المثال الكونى

كلن التداخل بين الكنيسة *celcesia* والعالم *mundus*، والذي اتسمت به الأسس التنظيمية لكل من الامبراطورية الألمانية والنوقية الرومانية قائما إلى حد بعيد على موارد الأديرة البندكية وما تقوم به نشاط . والواقع أن العلاقات بين الكنيسة والملكية فى القرنين العاشر والحادى عشر، والنظرية المعاصرة فى التمييز بين الكنيسة والعالم، قد قامت بفضل التعاون الوثيق بنين البندكتيين وزعماء المجتمع العلمانى، فقد كان النظام الديرى هو حجر الأساس الذى قام عليه التوازن الدولى فى العصور الوسطى الباكرة.

هذا التوازن ، حين صارت أسسه ثابتة وطيدة فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، كان يتميز بخاصية القيم والمثل والأنشطة التابعة من دير كلونى *cluny* فى برجنديا والأديرة المنتسبة له، وصار البرنامج الكلونى هو التعبير الثقافى عن النظام العالمى السائد لأنه كان يجسد قيم زعيم الحركة الديرية الغربية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر . إذ كان مقدم دير كلونى هو أكبر رجل دولة فى أوروبا فى منتصف

القرن الحادى عشر. وكان الرهبان الكلونيون قد ارتبطوا بحكومة الاسرة السالية الالمانية، التى اعتلى أول ملوكها العرش الالمانى سنة ١٠٢٤ وقد لعب الرهبان الكلونيون دورا بارزا فى بناء الكنيسة النورمانية. أما دير كلونى نفسه فكان أكبر أديرة أوربا وأكثرها أوقافا ، وأعظمها مكانة وهيبة فقد حاز اعجاب رجال الكنيسة واخلاص العلمانيين، وكانت الحياة الدينية التى يلقنها تحتل مكانة القلب فى نفوس المتدينين فى مطلع القرن الحادى عشر.

كانت الحياة التى يجسدها دير كلونى فى مجملها، استمرارا وتكثيف» للشكل البندكتى الذى وجد فى القرن التاسع. فقد اكتسبت الحركة الكاروانجية شكلا رسميا من خلال النظم التى وضعت سنة ٨١٧ لتنظيم الحياة الديرية، وهى النظم التى وضعها بندكت الأنبانى St. Benedict of Aniane الذى كان لويس التقى قد عينه رئيس» لجميع الأديرة فى المملكة الكاروانجية . وكان هدف بندكت الثانى هو تدعيم القاعدة التى وضعها بندكت الأول، وأن يعترف بما طرأ على الحياة الديرية الغربية من تطورات وتغيرات إبان القرون الثلاثة السابقة، حين أخذت جماعات الرهبان السود على عاققها القيام بالمهام الاجتماعية الضرورية. فقد تحقق بندكت الأنبانى من أن الرهبان أهملوا العمل اليدوى ، كما أنهم بدلا من ذلك باتوا يتصرفون باعتبارهم وسطاء رسميين للمجتمع العلمانى لدى الرب من خلال صلواتهم وطقوسهم الدينية، كذلك فإنهم قاموا بمهام تعليمية وسياسية واقتصادية . هذا النمط من أنماط الحياة الديرية هو الذى تميز به دير كلونى إبان القرنين العاشر والحادى عشر.

أما البداية الحقيقية لدير كلونى فكانت متواضعة تماما فى سنة ٩١٠ . فقد تأسس هذا الدير فى ركن مجهول من برجنديا Burgandy على يد دوق اكويتانيا فى موضع كان يشغله أحد أكواخ الصيد ، بل أن الدوق ترك كلاب الصيد فترة دون أن يفكر فى نقلها حتى يفسح مكانا للرهبان. ومع ذلك صار كلونى هو الدير القائد فى أوربا على مدى قرن من الزمان، كما صاغ لنفسه نظاما خاصا به، وكانت هناك أديرة كثيرة تخضع

لمقدم دير كلونى خضوعا مباشرا ، كما أن دير كلونى نفسه أسس عدة أديرة تابعة، كذلك قام عدد كبير من الأديرة التى سبقت دير كلونى فى الوجود بالانتساب إلى دير كلونى واعترفت بزعامة رئيسه، فقد كان لدير كلونى نفوذ قوى على دير جورز Gorze الكبير فى اللورين، كما أن الكلونيين أصلحوا دير فليرى Fleury الملكى الفرنسى الواقع على نهر اللوار ثم فرضوا سيطرتهم عليه، كذلك كان تأثير دير كلونى قويا على عملية احياء الديرية الانجليزية التى قادها سان دونستان St. Dunstan فى أواخر القرن العاشر، هذا كله فضل» عن أن دوق نورمانديا استقدم أحد الرهبان الكلونيين ، وهو مقدم دير ديجون Dijon، لكى يبدأ عملية تطوير وتنمية الكنيسة النورمانية.

ويجب أن نعزى نجاح دير كلونى فى جانب منه إلى حقيقة أن الدير كان محصن» ضد التدخل العلمانى والكنسى على حد سواء وأنه كان تحت الاشراف المباشر للبابا، وبما أن البابوية كانت ، فى منتصف القرن الحادى عشر، تعاني من التدهور الشامل ، فإن رهبان دير كلونى كانوا يواجهون مصير جماعتهم بحرية تامة. وقد اختاروا لديرهم سلسلة من الرؤساء اتصفوا بالمهارة والقدرة الفائقة، كما أنهم كانوا من أصول أرستقراطية عادة، وتولى أولئك الرؤساء قيادة هذا الدير حتى وصلوا به إلى مكانته البارزة فى أوروبا. وهذه المقولة تصدق بشكل خاص على اثنين من مقدمى الدير توليا رئاسته معظم سنى القرن الحادى عشر وهما : أوديلو Odilo (ت ١٠٤٩) وهوف الكبير Hugh the Great (١١٠٩) ، وطالب دير كلونى الأديرة الكلونية وغيرها من الأديرة المستقلة والأديرة المنتسبة إليه أن تلتزم بالقاعدة البندكتية كما عدلها بندكت الأنبانى. وقد أحرز رهبان كلونى شهرتهم بفضل احتفالاتهم وطقوسهم التى كانوا يمارسونها فى الدير. فقد كان الملوك والنبلاء، فى شتى أنحاء أوروبا ، ممن أخذوا تعاليم الكنيسة مأخذ الجد وحرصوا على ضمان الخلاص لأرواحهم وأرواح أقاربهم، متحمسين لإغداق الأوقاف الضخمة على الدير حتى يرد ذكر أسمائهم فى الصلوات الكلونية. ولكن لم يكن هذا الفرص الصارم للنظام الديرى، ولربط

هذا النظام بالتدين الشعبي من مكونات رصيد زعامة كلونى للعالم الأوربى في القرن الحادى عشر، فبينما كان دير كلونى نفسه خارجا عن نطاق أية سيطرة علمانية، لم يحرص مقدمو الدير على جعل هذا الاستقلال مطلباً أساسياً لسائر الأديرة الكلونية والأديرة المنتسة إلى كلونى. بل على العكس من ذلك، كان الرهبان الكلونيون العاملون فى جميع أنحاء الغرب الأوربى يبدون اهتماما وشغفا كبيرا بالحصول على حماية الملوك والنبقات لأديرتهم. كما كان مقدم دير كلونى ينظر بعين ملؤها الاحترام والاعجاب إلى أصدقاء الكنيسة الحاكمين فى ألمانيا، وفرنسا، ونورمانديا، وإنجلترا وغيرها من الدول فى غرب أوربا. كذلك كان الرهبان الكلونيون تواقين إلى تقديم خدماتهم الاستشارية ولم يكونوا يتحذرون من قبول الهدايا المعتادة مكافأة على هذه الأعمال - أى التعيين فى المناصب الأسقفية. وقد تقبل الكلونيون انتشار مذهب الملكية الثيوقراطية فى ألمانيا، بل أن بعضهم شجع هذا الانتشار، كما أنهم تزعموا حركة تبجيل الحاكم باعتباره حاميا للكنيسة وصديقا لها حتى فى نورمانديا التى لم يكن بها وجود لمثل هذه التقاليد.

وقد دخلت الحركة الكلونية إلى ألمانيا عن طريق برجنديا واللورين فى مطلع القرن الحادى عشر، ومنذ البداية كان موقف الحكام الألمان مشوبا بالتعاطف إزاء نشر الحركة الكلونية فى ألمانيا. وكان كونراد الثانى Conrad II (١٠٢٤ - ١٠٣٩)، أول ملوك الأسرة السالية، جنديا خشن الطباع، وإداريا فذا، فاستغل رجال الكنيسة الألمانية شر استغلال، بيد أنه كان يحبذ انتشار الحركة الكلونية فى ربوع مملكته، إلا أن التقدم الكبير فى مدى النفوذ الكلونى فى ألمانيا حدث أثناء عهد ابن كونراد، هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦)، الذى كان يتصرف باعتباره راعيا وحاميا للحركة الكلونية فى مملكته. فقد كان هنرى قد تزوج من إبنة دوق اكويتانيا الذى كانت أسرته قد أسست دير كلونى فى مطلع القرن العاشر، إلا أن حمية هنرى لصالح الكلونيين كانت قائمة على دوافع أكثر عمقا من مجرد الرابطة التى تربط زوجته بأكبر أديرة أوربا الغربية. ذلك أننا يمكن أن نجد فى شخصية

هنرى الثالث وقيمة ومثله العليا مانراه فى المظهر الخارجى والسلوك الظاهرى لحكام فرنسا وانجلترا ونورمانديا فى منتصف القرن الحادى عشر - أى الحرص على تنصير أوروبا تماما. فقد كان زعماء الغرب الأوربى ، وهم تقريبا حكام تلك الفترة ، وكثيرون من النبلاء العاديين، يأخذون تعاليم الكنيسة مأخذ الجد بحيث تتحكم فى حياتهم . وكان معاصرو هنرى الثالث يشعرون أنه راهب فى ثياب دنيوية، كذل كان انوارد المعترف Edward the Confessor ملك انجلترا، الذى كرس قديسا فى فترة لاحقة، من نفس الطراز. وفى جميع أنحاء أوروبا منتصف القرن الحادى عشر كان الملوك والدوقات والنبلاء يشيرون الكنائس ويفدقون الأوقاف على الأديرة. وقيض للكليروس النظامى (الرهبان)، على نحو خاص ، أن يلاقوا من المجتمع العلمانى كافة ضروب الإخلاص والاحترام. فقد كانت الوساطة أو الشفاعة التى يقوم بها الديرىون ضرورية للدخول فى رحاب الرحمة السماوية. ومن ثم كان النبلاء حين يحسون بدنو المنية يلجأون إلى أقرب دير حيث يموتون وهم فى ثياب الرهبنة. ولم تكن الهبات تمنح للأديرة من أجل خلاص أرواح أقارب محددين بالاسم، وإنما كانت تعطى من أجل جميع المؤمنين الأحياء منهم والأموات. وفى القرن الحادى عشر تم تثبيت يوم عيد أرواح الموتى^(٥) فى تقويم الكنيسة.

ولم يكن انتشار روح التقوى بين العلمانيين يعنى ، بأى حال من الأحوال ، أن الملوك والدوقات كانوا على استعداد للخضوع للسلطة الكنيسة . فعلى العكس ، أتاح هذا الانتشار المزيد من الأسس العقلانية لسيطرة الملوك على الكنيسة ، لأنه جعل الملوك يشعرون أنهم روحانيون مثل رجال الكنيسة بالضبط . وليست هناك حالة يمكن أن نلاحظ ذلك من خلالها مثل حالة الامبراطور الالمانى هنرى الثالث . فلم يكن مجرد حاكم وراع كبير للتنظيم الكلونى فى ألمانيا ، ولكنه هو نفسه كان به هوى إلى تبنى المواقف الديرية . فقد كان من أعظم دواعى سروره أن يشارك فى تحويل النخائر المقدسة (مخلفات

(٥) يحل فى الثانى من نوفمبر كل سنة.

القديسين ورفاتهم) إلى مزار جديد . كما أنه كان ولوعا بإلقاء الخطب التي يعلن فيها العفو عن جميع أعدائه . وفي الوقت نفسه ، كان يعتقد أنه قد تولى منصبا قدسيا عندما تم تنصيبه ، وأن لديه سلطة روحية كاملة تخول له أن يخلع رموز المنصب الكنسي على الأسقف أو مقدم الدير ، كما تخول له أن ينظم شئون الكنيسة . وكان يعتقد أن المسيح يبارك سلطته الملكية كما يبارك عمل القسيس في احتفال القداس ، وباعتباره ممثلا للمسيح على الأرض ، كان هنري الثالث يشعر أنه مضطر إلى حكم الكنيسة الألمانية ومرتغم أيضا على تنظيم أمور البابوية التي كانت في حال من الهوان وغارقة في الفضائح على مدى أكثر من قرن من الزمان . وفي سنة ١٠٥٤ كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة بابوات يتنافسون على عرش القديس بطرس في روما . وكانوا من سلالة النبلاء الرومان المشاغبين الفاسدين ، ويعتبر مجمع سوتري Sutri الذي عقد سنة ١٠٥٤ ، والذي دعا إليه وتولى رئاسته هنري الثالث ، الخطوة الأولى على طريق إصلاح البابوية في القرن الحادي عشر . وفي مدى عامين عين هنري ثلاثة من الأساقفة الألمان على عرش القديس بطرس ، وصارت بابوية أخرمهم ليو التاسع Leo IX (١٠٤٩ - ١٠٥٤) هي المنعطف الهام في طريق تطور وتقدم بابوية القرن الحادي عشر .

ولم تكن اهتمامات هنري الثالث في مجال التقوى والكنيسة لتحجب وراء مواصلته للعمل الذي كانت أسرة أوتو قد بدأت ، أو وراء اضافاته إلى الأسس التنظيمية للسلطة الملكية في ألمانيا . ولأنه كان شخصية قوية ، ومحاربا مقتدرا ، وملكا ثيوقراطيا ، واداريا عظيما ، فإنه كان بمثابة التجسيد الحي للملكية في العصور الوسطى المبكرة . فقد جمع كل السجايا والميزات التي تخلق الملكية الناجحة . وقد أدرك هنري الثالث أن الملكية الألمانية ما تزال بحاجة إلى المؤسسات القوية الثابتة ، كما أدرك أنها ما تزال تعتمد على موارد الكنيسة ، وعقيدتها ، ورجالها بشكل شامل . وقد توصل إلى نمط جديد من الجندي الملكي والإداري الملكي في النظام المعروف باسم المنستر ياليس ministerialis وهو اصطلاح

يدل على الفارس - القن الذى حصل على أفضل تدريب وتجهيز عرفه ذلك الزمان ، ولكنه لم يكن يتمتع بالمكانة القانونية للرجل الحر . ولم يكن دخوله فى علاقة التبعية الاقطاعية vassalage تطوعا أو بإرادته ، وإنما كان اعتماده على سيده اعتمادا كاملا . ولم يكن الفرسان - الاقنان serf-knights نظاما ألمانيا شاملا ، بل أنهم لم يلعبوا أى دور هام خارج الامبراطورية السالية . ويبدو أن رجال الكنيسة الألمان هم أول من جندوا الاقنان فى ضياعهم ودربوهم كفرسان ، ولكن هنرى الثالث كان هو الذى جل من نظام ministerialis مؤسسة ملكية هامة . فقد استخدم هذا النظام لتوفير حاميات القلاع التى كان يشيدها فى شتى أنحاء الشمال الألمانى . وكانت خطته أن يوصل سكسونيا بفرانكونيا ، مسقط رأس الأسرة السالية ، ويجعل من هذه البوقيات جزءا من أراضى التاج الدائمة . وهكذا اكتشف هنرى الثالث نمطاً جديدا من الأفراد لجيشه ولأجهزة الحكم المحلى . وفى غمرة اهتمامه بتكوين أراضى التاج الألمانى وضع أسسا سياسية مشابهة لتلك السياسة التى كان ملوك آل كاييه ينتهجونها بنجاح كبير فى أخريات القرن الثانى عشر وأبان القرن الثالث عشر . كما جعل عاصمته عند قلعة جوسلر Goslar الكبيرة فى سكسونيا ، التى كانت تقع بالقرب من مناجم الفضة التى اكتشفت فى عهد أوتو الأول . ثم انطلق مستخدما فرسانه الكنسيين والفرسان الاقنان Serf - Knights فى عملية اخضاع النبلاء السكسون المتمردين والفلاحين الأحرار لسيطرة الأسرة السالية التامة.

وفى سنة ١٠٥٠ كان يبدو أن مصير ألمانيا السياسى لا بد وأن يتأثر بسلطة الحكومة المركزية الأخذة فى النمو ، على نحو ما حدث لنورمانديا . ولم يكن العالم الذى كان فيه دير كلونى هو القوة الروحية الرائدة يتميز فقط بأنه شهد المرحلة الأخيرة من مراحل تنصير أوروبا ، ولكنه أيضا شهد فى كل من نورمانديا وألمانيا تحقيق قدر من التنظيم السياسى والاجتماعى لم تكن أوروبا الغربية قد عرفتة منذ انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية.

لقد اتخذت المثل والقيم والملكية التى سادت فى القرن الحادى عشر شكلا ثابتا

تمثل فى طراز المباني التى اختار لها مؤرخو الفن المحدثون اسم الرومانسك - Roma- nesque وفى وديان الأنهار فى ألمانيا الغربية، وفرنسا ، وشمال أسبانيا قامت عند منتصف القرن الحادى عشر كثير من الكنائس المشيدة بالأحجار لكى تفى بحاجات الصفوة من الملوك والاقطاعيين ورجال الكنيسة. وهذه الكنائس التى وصفت بأنها من طراز الرومانسك تكشف عن اختلافات اقليمية ومحلية شديدة فى طريقة بنائها. إلا أنها، مع هذا تشترك فى عدة أمور عامة. هذه الأبنية الكنسية تجه إلى صغر الحجم إذا ما قارناها بالكنائس الفخمة التى شيدت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. فقد كانت الكنائس الرومانسك مجرد كنائس صغيرة للهيكلية العلمانية والدينية، على حين كانت الكنائس القوطية اللاحقة قد صممت على أساس أستيعاب الجماهير فى الصلوات العامة. والأمر الثانى العام بين الكنائس الرومانسك، هو أنها كانت قلاعاً كنسية ، إذ أنها بنيت على أيدى نفس المهندسين والفنانين الذين شيدوا القلاع الاقطاعية فى القرن الحادى عشر. لقد كانت الكنيسة الرومانسك هى قلعة الرب، وكانت تعكس الرؤية التى ترى المسيح رئيساً للهيكلية الاقطاعية والملوك الثيوقراطيين. أما الأمر الثالث، فهو أن الكنائس الرومانسك كانت معتمدة من الداخل، فقد كانت بالحوائط نوافذ قليلة تسمح للضوء بالدخول ، ولم تكن هذه نتيجة التخلف التكنولوجى فحسب، وإنما كانت أيضاً من نتائج الشخصية الخاصة لهذا النوع من بيوت العبادة باعتبارها مكاناً للصفوة. وأخيراً فإن الطراز الرومانسك يتميز بوفرة الزخارف والتماثيل ، التى تتميز بسماتها الفردية ويكونها أقل عالمية من الطراز القوطى الذى شاع فى القرن الثالث عشر. ومرة أخرى تعكس هذه الخاصية الشخصية الخاصة التى تمثل الصفوة وهى الخاصية التى يتميز بها الفن الرومانسك، بيد أنها تكشف أيضاً عن ازدياد الوعي بالذات وعن الثقة التى سادت فى العالم الكلونى فى منتصف القرن الحادى عشر. وباعتبار الكنائس الرومانسك المشيدة بالأحجار الأساس الذى تقوم عليه الهندسة الانشائية. فأنها تعد علامة على التقدم المذهل الذى فاق الكنائس الكارولنجية بكثير. وفى حوض الراين وجنوب فرنسا، وشمال أسبانيا لاتزال معظم هذه

المباني قائمة كآثار تشهد على العقلانية، والتقوي والثروة ، والسلطة العامة النامية - وهي كلها أمور تميز بها عصر هنري الثالث، كما تشهد أيضا على قيادة دير كلونى للحياة الثقافية فى أوروبا.

الفصل العاشر

بيزنطة والعالم الاسلامى والغرب

١ - مواطن الضعف فى الحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية

فى ستينيات القرن العاشر ارسل الامبراطور الالماني اوتوالاول اسقفا من لمبارديا، هو لويديبراند الكريمنى Liudprand of Cremona فى سفارة الى القسطنطينية للبحث عن عروس من الاميرات البيزنطيات لابنه. ولم تنجح هذه السفارة، ولكن لويديبراند ترك تقريراً عن خبراته أثناء هذه السفارة صور فيه رؤيته التوضيحية من داخل العلاقات بين الحضارة الأوربية التى كانت ما تزال فى طور حداثتها، وحضارة البحر المتوسط العريقة الثرية. فقد كان البيزنطيون يعتبرون الالمانيون برابرة همج من محدثي النعمة، كما كان لويديبراند نفسه مدركاً لحقيقة انه لم يكن هناك شئ فى الغرب يمكن أن يتشابه ، ولو من بعيد، مع ثروة القسطنطينية ورفاهيتها. وتعين عليه أن يعرض شعوره بالنقص بأن يصمم البيزنطيين بأنهم مخنثون فاسدون، يعيشون على أمجاد عصر غابر، وقد رسم صورة لبطله أوتو يبدو فيها رجلاً شجاعاً أميناً ، على حين صور الامبراطور البيزنطى فى صورة الجبان الملتو. ويعكس التقرير الذى كتبه لويديبراند عن سفارته المواجهة بين القديم والجديد، أو المواجهة بين حضارة بدأت لتوها فى تطوير شكلها المميز، وحضارة وصلت إلى أقصى حدودها. وفى منتصف القرن العاشر كانت المقارنة بين حضارة غرب أوربا من ناحية، والحضارتين البيزنطية والاسلامية من جهة أخرى، تكشف عن ان غرب أوربا منطقة متخلفة فقيرة. وبعد ذلك بمائة سنة بدأت بيزنطة تدخل طريقها الطويل صوب السقوط - كذلك كان العالم العربى قد وصل الى قمة نموه الثقافى والسياسى - على حين كانت أوربا العصور الوسطى على أعتاب عصر الابداع والتقدم ، كما كانت الشعوب اللاتينية قد بدأت توغلها الاقتصادى والسياسى فى عالم البحر المتوسط. هذا التغير الأساسى فى المواقف النسبية لكل من بيزنطة والعالم الاسلامى

والغرب يعتبر علامة على نهاية فترة العصور الوسطى الباكرة.

وفى منتصف القرن العاشر دخلت بيزنطة آخر عصورها الذهبية تحت حكم الأسرة المقدونية الذى اتسم بالحكمة والعدوانية معا، ولاسيما خلال عهد باسيل الثانى Basil II (٩٦٣ - ١٠٢٥) فقد تبذرت قوة النظام الحكومى ، والاقتصاد، والحياة الثقافية البيزنطية فى عنفوان قوتها على نحو لم يحدث منذ عهد جستنيان فى القرن السادس. فقد اخمدت الأسرة المقدونية النزاع الأيقونى ، الذى ظل ناشبا بصورة متقطعة منذ النصف الأول من القرن الثامن، وأخذت برأى الكنيسة الارثوذكسية فى مسألة الصور المقدسة. كما أن ملوك هذه الأسرة تولوا حماية طبقة الفلاحين من النهب الذى كانوا يتعرضون له من قبل ملاك الأراضى الأثرياء الذين كان هدفهم تحويل السلطة السياسية الى سلطة لامركزية على النحو الذى أودى بالامبراطورية الكارولنجية . وقام باسيل الثانى بالقضاء على قوة البلغار الأسىويين الذين كانوا يضغطون على الحدود البيزنطية فى البلقان، كما شن هجوما مضادا ضد القوى الاسلامية فى الشرق الأوسط ، واستعاد انطاكية وقبرص وكريت تحت الحكم البيزنطى من جديد. كما أفاد الامبراطور من سيطرته على تجارة القسطنطينية التى ربما كانت أغنى مدينة فى العالم فى القرن العاشر، هذه الانجازات السياسية والاقتصادية كانت مصحوبة بازدهار ورواج ثقافى أطلق عليه مؤرخو الفن « النهضة المقدونية Macedonian Renaissance. وقد تميزت المخطوطات المصورة الفخمة بدرجة عالية من الطبيعة الكلاسيكية فى تصويرها للشخص الانسانية.

ولكن العصر المقدونى كان آخر انجازات بيزنطة قبل أن يبدأ الغروب الطويل للحضارة البيزنطية. فقد أدى ظهور مبدأ السيادة الاقطاعية ، بعد الربع الأول من القرن الحادى عشر، الى اضعاف سلطة الدولة البيزنطية من الداخل. وفى منتصف القرن الحادى عشر جاءت موجة جديدة من الغزاة الأسىويين يطرقون عالم البحر المتوسط، أولئك هم الاتراك السلاجقة الذين أجبروا البيزنطيين، مرة أخرى، على الدخول فى صراع من

أجل البقاء . ومع بداية سبعينيات القرن الحادى عشر كانت الاماكن التى فتحها باسيل الثانى قد عادت من جديد الى المسلمين، وتعين على الامبراطور اليانس أن يطلب المساعدة من البابوية حتى لاتسقط القسطنطينية.

إن تاريخ بيزنطة عبارة عن دراسة للفشل والاختفاق. إذ أن الامبراطورية ، التى اتخذت من القسطنطينية مركزا لها، بدأت حياتها بجميع المميزات المتحصلة من موروثها فى ميادين السياسة، والاقتصاد والفكر فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع. وباستثناء مجال الفن، الذى امتاز فيه البيزنطيون، لم تضيف بيزنطة شيئا ذا بال الى هذا الاساس . ذلك أن الامبراطورية الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى لم تقدم أية مساهمة هامة فى مجال الفلسفة أو اللاهوت أو العلوم أو الآداب ، وبقيت مؤسساتها السياسية ثابتة فى مقوماتها الأساسية ولم تتغير عن تلك المؤسسات التى كانت موجودة زمن ثيودوسيوس الكبير فى نهاية القرن الرابع، وبينما استمر البيزنطيون يستمتعون بحياة حضرية وتجارية نشيطة، فانهم لم يحرزوا أى تقدم أساسى فى تكنولوجيا الصناعة والتجارة يخرج بها عن حدود التطورات التى تمت فى مدن العالم القديم. وكثيرا ما أنحى المؤرخون المحدثون المتخصصون فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى باللائمة ووجهوا النقد المرير الى الاتجاه الذى ساد بين مؤرخى القرن التاسع عشر لتصوير بيزنطة كما لو كانت حضارة ذابلة ضامرة. ومع هذا فانه يصعب أن نجد، خارج نطاق الفن، أية مساهمة من جانب الشعوب الناطقة باليونانية سواء من خلال الافكار الابداعية أو من خلال المؤسسات والنظم وربما كانت طبيعة بيزنطة العصور الوسطى غير التقدمية راجعة الى الميراث الشاسع الذى خلفه العالم الرومانى، والذى ورثه البيزنطيون أنفسهم لها كانت مجرد مهمة واحدة هى الحفاظ على الكيان المريح المرضى الذى ورثوه. وبطبيعة الحال، ينبغى أن تعزى جوانب القصور فى الحضارة البيزنطية الى الضغوط الهائلة التى تعرضت لها الامبراطورية، بلا انقطاع تقريبا ، منذ القرن السادس

فصاعدا . فقد كان على البيزنطيين ان يسخروا كل الموارد التى فى متناولهم لى يصدوا العرب وغيرهم من الأعداء ، وبهذا أهدروا طاقاتهم على نحو جعل ثقافتهم تتخذ طابع الجمود رويدا رويدا .

ولم يكن توغل الاتراك السلاجقة فى عالم البحر المتوسط نعمة على الحضارة الاسلامية فى القرن الحادى عشر . فقد كان مستوى الثقافة التركية أقل كثيرا من مستوى الشعوب المتحضرة الناطقة باللغة العربية فى شرق البحر المتوسط . وقد نتج عن محاولة الاتراك الاستحواذ على السلطة السياسية فى الشرق الاوسط أن انقسم العالم الاسلامى على مدى أكثر من قرن من الزمان . وعند الطرف الغربى من البحر المتوسط حدث توغل مماثل فى القرن الحادى عشر حين تمكن رجال قبائل البربر البدوية القاطنة فى صحراء شمال أفريقيا من عبور مضيق جبل طارق وفرضوا سيطرتهم على اسبانيا الاسلامية . وهكذا كان العالم الاسلامى عند طرفى البحر المتوسط فى منتصف القرن الحادى عشر يعانى من انتقال السلطة السياسية الى التطهرين المتعصبين الذين لم يكن يعنيه شىء من الانجازات الرائعة التى أحرزها الفكر العربى ، والذين استجابوا للقيود السنية على الفلسفة والعلوم . وبعد القرن العاشر بات ضعف التراث السياسى العربى أكثر وضوحا ، اذ كانت المؤسسات السياسية الاسلامية القائمة آنذاك هى بالضبط مؤسسات الطغيان والاستبداد الشرقى . ويتميز تاريخ الاسلام السياسى فى أواخر العصور الوسطى بعدم مسئولية الحاكم عن رفاهية الرعية ، كما يتميز بتعدد ثورات القصر التى هى من لوازم هذا النمط من النظام الاسلامى . وقد نتج عن عدم الاستقرار السياسى الذى تفشى فى العالم الاسلامى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر أن أهمل نظام الرى فى حوض البحر المتوسط ، وهو النظام الذى عرف طريقه إلى الوجود فى بعض الأحوال منذ ثلاثة آلاف سنة وقامت عليه رفاهية ورخاء البلاد العربية . ومع ذلك فان العالم الاسلامى لم يكن قد دخل بعد مرحلة التدهور العميق فى سنة ١٠٥٠ ، فقد كان المستقبل ما يزال يخبىء له

بعض أعظم انجازاته العسكرية والفكرية، كذلك كان التاجر المسلم ما يزال هو المسيطر فى عالم البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر، بيد أن أعظم أيام الاسلام كانت قد ولت، كما أن قوة الحضارة الاسلامية كانت قد بدأت تنزل عن مستواها الابداعى . هذه النقائص التى شابت الحضارة الاسلامية هى السبب وراء عدم قدرة العرب على منع الشعوب الاوربية من التوغل فى عالم البحر المتوسط فى القرنين العاشر والحادى عشر.

٢ - صعود أوروبا

كان الغرب الأوروبى فى القرن العاشر ما يزال منطقة فقيرة متخلفة ريفية الطابع، وقليلة السكان بالنسبة إلى العالمين البيزنطى والاسلامى . ولكن بينما كان البيزنطيون والعرب قد وصلوا إلى أبعد مدى فى تطورهم الاقتصادى كانت أوروبا الغربية تبدأ لتوها ثورة ديموجرافية وتكنولوجية قدر لها أن تحمل العالم اللاتينى ، خلال قرنين من الزمان ، إلى مستوى تجارى وصناعى يفوق فى مداه الانجازات الاقتصادية التى تمت فى أى مكان ، وخلال أية فترة ، فى العصور الوسطى الباكرة ، بل وربما فى العالم القديم أيضا . فأوروبا الغربية فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ تتوافق مع المرحلة الثانية من نظرية روستو W.W. Rostow عن مراحل النمو الاقتصادى ، وهو تفسير للتاريخ الاقتصادى نشرت سنة ١٩٦٠ ، ووفقا لرأى روستو تكون المرحلة الزراعية التقليدية هى أولى مراحل النمو الاقتصادى ، وهو ما ينطبق على شكل الاقتصاد الأوروبى فيما بين سنة ٥٥٠ وسنة ٩٠٠ وبعد ذلك يحقق المجتمع الشروط اللازمة «للإنطلاق» إذ تكون «الوسائل الزراعية المتطورة قد حررت المزيد من السكان من ريقة الممارسات الزراعية» واستخدمت الوسائل التقنية من أجل إيجاد مصدر للتصدير ، كما تم رصد الأموال العامة لخدمات النقل ، والتعليم ومصادر الطاقة . هذا الوصف يلخص تاريخ أوروبا الاقتصادى بين سنتى ٩٠٠ ، ١٠٥٠ . وقد كان للتطور فى مجال السكان والتكنولوجيا ، والتجارة، والصناعة خلال هذه السنوات المائة والخمسين

فضل وجود فترة الانطلاق التي شهدت نموا سريعا فى عدد من القطاعات الأساسية فى المجال الاقتصادى. هذه المرحلة الثالثة التي خلالها « يتم النمو بشكل تلقائى ، وتظهر الاستثمارات الكافية لتحقيق الزيادة فى معدل الانتاج بالنسبة الى المستهلكين » - هذه المرحلة تنطبق على الاقتصاد الأوربي منذ منتصف القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر .

والمرحلة الثانية من مراحل النمو الاقتصادى ، أى المرحلة التي مهدت ظروف ما قبل الانطلاق صارت ممكنة بفضل التوازن الدولى فى اوربا اوائل العصور الوسطى. فالنظام السياسى والاجتماعى الجديد ، والتحسين الذى طرأ فى مجال السلم والتنظيم الحكومى الجيد، وتنصير اوربا ، وانتشار التعليم والذكاء الاجتماعى - كل ذلك خلق مناخا شجع على التفاؤل، والقيام بالمشروعات، والاتصالات المتطورة، والابتكارات التكنولوجية. وكانت الحياة الأوربية ما تزال تعاني قدرا كبيرا من العنف بيد أنه كان هناك قدر كاف من السلم والنظم فى مناطق عديدة أتاح للناس أن يسخروا طاقاتهم فى سبيل شىء أفضل من الحرب التي كان الكل يشنها ضد الكل - هذا الشىء هو تحسين احوالهم المادية. وفى القرن العاشر أخذ الشعب الأوربي بوسائل التطور التكنولوجى التي كانت متاحة فى عالم البحر المتوسط منذ قرون سلفت. فقد أتاح استجلاب لجام الفرس والركاب للناس فى اوربا فرصة زيادة استفادتهم من طاقة الخيل، وقال بعض المؤرخين ان الركاب قد أتاح الفرصة لظهور الفارس الذى يستطيع الوقوف فى الركاب وقذف الحربة ضد خصمه، ولكن هذا الشكل المتقدم من الفروسية العسكرية لم يظهر فعلا حتى القرن الثانى عشر. وحتى ذلك الحين كما توضح الرسوم المعاصرة، كان فرسان العصور الوسطى يقذفون حراهم الخشبية بسنونها المعدنية بطريقة محاربى الكومانش comanche فى القرن التاسع عشر. اما الابتكارات فى مجال التحكم فى قوة الخيل، فقد تركزت أساسا فى نطاق تحسين وسائل النقل فى اوربا القرن العاشر، كما أن الأوربيين بدأوا يفيدون من قوة المياه على

أرض، ومن قوة الرياح فوق البحر بدرجة أكبر من ذي قبل. وكان اختراع الطواحين المائية من اسباب تسهيل زراعة الغلال مما ساهم في توفير المزيد من الطعام. كذلك استخدمت قوى المياه لتشغيل مصانع نشر الأخشاب بحيث امكن توفير قدر اكبر من الأخشاب الجيدة اللازمة للبناء. كما أن تطور الشراع أتاح للسفن العاملة في تجارة شواطئ المحيط الاطلنطي وبحر البلطيق أن تبحر ضد الرياح، وهو الأمر الذي لم يكن ممكنا باستخدام الشراع المربع القديم، واستخدم الايطاليون، في إبحارهم وتجارتهم البعيدة المدى في البحر المتوسط سفنا بيزنطية الطراز كانت تطويرا لسفن العالم القديم ذات المجاديف.

هذه التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية تساعدنا الى حد كبير في تفسير تزايد عدد سكان اوربا تزايدا مطردا منذ منتصف القرن العاشر. إذ لم يكن هناك ثمة تغيير في أحوال أوربا في مجال الطب الذي كان ما يزال على بدائيته، كما لم يطرأ أى تحسن أو زيادة في متوسط العمر. بيد أن توفر الطعام قد أدى بالضرورة الى تناقض وفيات الأطفال. ولاح الأمل أمام جميع طبقات المجتمع في إمكانية التحكم في البيئة الطبيعية، كما كان الأمل يزداد في حياة أفضل. وقد أدت الثقة في المستقبل، وانتشار تعاليم المسيحية بين جميع الطبقات، الى ازدياد احترام قيمة الحياة الانسانية، كما خلقت مناخا افضل لوجود الاسرات الكبيرة العدد.

ولاشيء يكشف عن تأثيرات التغير الاجتماعى والتكنولوجى فى غرب اوربا بطريقة أفضل مما يتضح من خلال الأبناء الكثيرين للسيد الاقطاعى، والفارس، والفلاح، وغيرهم من الناس الذين كانوا يبحثون عن حياة أفضل لأنفسهم. وقد تمكن أحفاد العائلات الارستقراطية أن يحصلوا لأنفسهم على املاك شاسعة فى اقاليمهم التى كانت السلطة المركزية فيها فى اضعف حالاتها. وبينما انتقل آخرون الى مناطق الحدود او حتى الى ماوراء البحار سعيا وراء محاولة انتزاع اقطاعات لأنفسهم. وكان صفار الفرسان يتنافسون مع بعضهم البعض لكى يصيروا أفضالا لسيد اقطاعى ذائع الصيت، فاذا ما

فشلوا في ذلك راحوا يتبعون النبلاء الطموحين في مغامراتهم المتجددة بقصد السلب والنهب. كذلك كانت الفرصة متاحة أمام الفلاحين الفقراء في القرن العاشر على نحو أفضل من ذي قبل، وأفضل من الفترة اللاحقة على مدى قرون أربعة على الأقل. لقد كان القرن العاشر هو أعظم فترات استعمار أوروبا من الداخل، أي تحويل بعض المساحات الشاسعة التي تشغلها الغابات وتغطيها المستنقعات إلى أراضى زراعية، فقد تعلم الفلاحون كيف يستفيدون أكثر من الدورة الزراعية، بأن يتركوا حقلا أو اثنين من الحقول المفتوحة في زمام القرية في كل سنة لكي تستعيد خصوبتها، ومن ثم تزيد غلتها. وفي ألمانيا كان أبناء الفلاحين الأقوي جسديا يناهزون فرصة من نوع خاص لتحسين أحوالهم، وذلك بأن ينخرط بعضهم في سلك الفرسان - الألقان Ministerialis. وفيه كانوا يترقون حتى يصل الواحد منهم إلى رتبة قائد قلعة ملكية.

وفي مناطق عديدة من أوروبا القرن العاشر، لجأ بعض فقراء الفلاحين والاذكياء إلى وسيلة لم يسبق لها مثيل لتحسين أحوالهم الاقتصادية. فقد أقاموا بالمدن وصاروا تجارا وحرفيين، وتبدو عملية ظهور الحياة الحضرية في أوروبا القرن العاشر غامضة بسبب المعالجة التقسيمية التي قام بها هنري بيرين في مقاله الرائع Medieval "cities". فقد أصر بيرين في هذه المقالة، وفي مؤلفاته الأخرى القيمة، على أن مدن القرن العاشر نبتت أصلا في ظل التجارة النولية. فقد ذكر أن التجار المشتغلين بالتجارة العالمية قد تجمعوا طلبا للحماية في ظل قلعة ما Burg يملكها أمير علماني أو أمير كنسي. وقام أولئك البورجوازيون بتحويل مدنها إلى مراكز للتجارة العالمية. وعندما تزايد عدد البورجوازيين بنوا سورا حولهم. ومع نمو الضواحي بات من الضروري، بعد خمسين أو مائة سنة أخرى، بناء سور جديد. وهكذا، استطاع بيرين، قياسا على الأسوار الباقية في مدن وطنه بلجيكا، أن يوضح أن نمو المدن قد تم على شكل دوائر متحدة المركز ظلت تقوم

بدورها كمؤشرات دالة على النمو المستمر للمدن التجارية. هذا النموذج المرتب للنمو الحضري في العصور الوسطى وجد بالفعل في اقليم الفلاندرز واراضى الراين. بيد أنه كانت هناك مدن في مناطق أخرى من أوروبا كانت بداياتها وطبيعتها مختلفة إلى حد ما، فقد كانت معظم المدن الإيطالية موجودة منذ العصور الرومانية ولكنها تعرضت للإهمال ونقص السكان على مدى قرون عديدة. في القرن العاشر بدأ الناس يتحركون من المناطق الريفية المجاورة إلى داخل المدن لكي يعملوا في التجارة والصناعة. ومرة أخرى تحولت هذه المدن إلى مراكز للحياة الحضرية بعد أن ظلت فترة طويلة مراكز للإدارة الكنسية والسياسية فقط. كذلك كانت هناك بعض المدن التي ظهرت في بداية الأمر من القلاع burghs ، ثم آل أمرها إلى أن صارت مجرد مراكز للتجارة المحلية. وبحلول سنة ١٠٥٠ ظهرت في شتى بقاع أوروبا مدن كانت مجرد قرى كبيرة تسكنها مجموعة من الفلاحين الأثرياء الطموحين فحولوها إلى أسواق لخدمة جيرانهم المباشرين ، وهناك العديد من المدن الصغيرة في إنجلترا ما يزال الشارع الرئيسي في كل منها يحمل اسم سوق الغلال.

وثمة رجل من رجال الكنيسة الانجليزية في القرن العاشر حدد لنا ثلاث طبقات في المجتمع هي : من يحاربون ، ومن يصلون ، ومن يعملون ، ولم يذكر شيئاً عن البورجوازيين الذين لم يكن لهم مكان في البنية التقليدية للمجتمع. بل أن القانون الجرمانى لم يجعل للبورجوازي دية Wergeld فهل كان البورجوازي رجل حراً أم كان غير حر ؟ ، في ذلك الحين لم تكن هناك اجابة واضحة على هذا السؤال في مناطق شمال أوروبا ، ولم تستطع المدن أن تحصل على حق إدارة شئونها الداخلية قبل مضي ثلاثة قرون ، وعندها صار الرجل البورجوازي يتمتع بنفس مكانة الرجل الحر في دوائر المحاكم الملكية والدوقيات ، وعادة ما كان يتم شراء هذه الحقوق بأثمان باهظة يمنح الملك أو السيد الاقطاعى أو الأسقف مقابلها وثيقة للمدينة تتضمن كافة حقوقها وحرياتها.

لقد كان السواد الأعظم في المجتمع، آنذاك، ينظرون بغيون ملؤها الشك والريبة إلى مجموعة من الرجال الذين كانت أصولهم متواضعة وغامضة للغاية، ويكسبون عيشهم بسبل

ارتبطت، بالضرورة، بطريدى المجتمع والأجانب من أمثال اليهود والعرب، وبينما كان ملاك الأراضى يستمتعون بعوائد التبادل التجارى والانتاج الصناعى، التى كان البورجوازيون يعطونها لهم، ولم يكن الملوك والدوقات والأساقفة والسادة الاقطاعيون يرون فى أكثر البورجوازيين ثراء نذا لهم، كما انهم كانوا يرفضون منح شعب المدينة حريته، كان بورجوازيو القرنين العاشر والحادى عشر يتعرضون للضغط والابتزاز والضرائب الباهظة، كما كانوا يلقون الكثير من صنوف الامتهان والاحتقار، وقد ادى هذا إلى اعتماد البورجوازيين على مواردهم الخاصة، وهو ما أدى إلى التضامن والنظام اللذين كانا من أبرز سمات مدن العصور الوسطى، وفى القرن العاشر، بدأ سكان المدن، الذين كانوا يسكنون المنازل الصغيرة المعتمدة على جانبي الشوارع القذرة المليئة بالنتومات والكسور، والذين يحيط بهم عالم معاد لا يحفل بهم على الاطلاق - بدأوا ينظمون كافة جوانب الحياة الحضرية بكفاءة أخاذة.

وفى أخريات القرن العاشر كانت قد وجدت بالفعل نقابات للتجار والحرفيين فى ايطاليا بل وفى حوض الراين، وهى النقابات التى نظمت التجارة والصناعة على أسس وامية وكانت نقابات التجارة تجمعات تضامنية تضم المشتغلين بالتجارة العالمية. أما النقابات الحرفية فكان يسيطر عليها معلمو الحرف الذين كانوا يضعون أسس تحديد مستوى المنتجات الصناعية، ويحددون الأسعار، ويتحكمون تماما فى الصناع والصبيان العاملين فى حوانيتهم. وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر اتبعت المدن الإيطالية نظام الكوميون - أى الرابطة التى تقوم على اداء اليمين من قبل اناس تجمعوا سويا لغرض ما - الذى كان معروفا فى المناطق الريفية، وهما هذا النظام بمثابة الأساس القانونى الذى بمقتضاه تحولت المدن الإيطالية إلى جماعات تتمتع بالاستقلال الذاتى. وبحلول سنة ١٠٥٠ كانت ثمة ملامح عامة من ملامح الحياة فى العصور الوسطى قد تبذت واضحة فى اوليجاركية صغيرة من كبار التجار الذين فرضوا سيطرتهم على نقابات التجار فى كل مدينة، كما تحكموا فى حكومة المدينة. وفى مدينة ميلانو، التى كانت مركزا آخر.

وقد شهدت المرحلة الثانية من مراحل النمو الاقتصادي ، التي كانت أوروبا تعاني مخاضها بما بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ ، توجيه بعض المصادر الطبيعية الى التصدير. وكانت المدن الفلمنكية هي التي اكتشفت اول انتاج رئيسي في التجارة العالمية في أوروبا العصور الوسطى ؛ فقد قام الفلاحون في اواخر القرن العاشر بتجفيف مستنقعات الفلاندرز، وحين اكتشفوا أن الاراضي التي استصلحوها لاتصلح للزراعة استخدموها كمراعى للماشية. وكانوا يحصلون على قدر من الصوف يكفي لصناعة اقمشة التصدير، وعلى اساس هذه التجارة ازدهرت مدينتا جنت Ghent وبيرس Ypres الفلمنكيتان في القرن الحادي شر . وبيزوغ شمس سنة ١٠٥٠ ، وجدت اولى طرق التجارة الداخلية، وكانت هذه الطرق تعتمد من الفلاندرز مرورا بوسط أوروبا حتى شمال ايطاليا، وكان التجار المرتادون لهذه الطريق يرحبون بتبادل بضائع الشرق الفاخرة مقابل الأقمشة الفلمنكية. وكانت ارض اللقاء بين التجار الفلمنكيين والتجار الايطاليين هي بلاد شامباني Champagne التي كان حاكمها في القرن الثاني عشر يقيم معرضا سنويا فيها.

أما مدن شمال ايطاليا فقد كونت ثروتها اساسا من دورها في الوساطة بين التجارة البيزنطية والتجارة الاسلامية . فقد حصل البنادقة، الذين كانوا من رعايا الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر، على امتيازات تجارية خاصة في القسطنطينية مكنت لهم من أن يصيروا وسطاء تجاريين بين أوروبا وبيزنطة. ولم يقنع البنادقة بهذه التجارة ذات الارباح الطائلة، فاقاموا علاقات مع كافة المراكز التجارية الاسلامية في البحر المتوسط . وفي العقود الاخيرة من القرن العاشر، بدأت كل من جنوة وبيزا، على ساحل ايطاليا الغربى، تبحث لنفسها عن نصيب من ثروة العالم الاسلامى، وهو ما تمكنتا من الحصول عليه عن طريق التجارة والقرصنة على السواء. لقد كان للتجار الجنوبية والبيازنة فضل جعل وادى الرون جزءا من عالم البحر المتوسط مرة اخرى، كما كانوا هم

اول من بدأوا فى استخدام معرات جبال الالب كطريق للتجارة مع شمال اوربا .

وفى أعقاب إحياء مشاركة أوربا فى حياة البحر المتوسط الاقتصادية جاء التوغل السياسى والعسكرى خلال العقدين الاوين من القرن الحادى عشر، ذلك ان الفرسان الفرنسيين الذين تميزوا بطموحهم الشديد وجوعهم للأرض احتنوا خطى التجار الايطاليين فى محاولة للحصول على نصيب من الثروة الاسلامية الاسطورية، وظهر القراصنة النورمان فى صقلية ابان العقد الثانى من القرن الحادى عشر، وبدأوا صراعا طويل المدى فى سبيل الحصول على ممتلكات خاصة بهم فى جنوب ايطاليا التى كانت تفوق فى غناها احلام الجشع الاقطاعى، وكذلك انضم مغامرون اخرون من النورمان والفرنسيين الى الصراع الذى كان دائرا فى شمال اسبانيا ضد المسلمين ، هذا التقدم من جانب نبلاء الغرب الأوربى هو الذى قيقض له أن يبلغ أوجه فى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .

لم يكن البورجوازيون، والنبلاء ، والفلاحون هم وحدهم الباحثين عن فرص جديدة فى اواخر القرن الحادى عشر. فقد بدأ رجال الكنيسة يظهرون قدرا اكبر من الحركة . فقد ذهب احد الفرنسيين وعدد من الالمان الى ايطاليا حيث تولوا المنصب الاسقفى هناك، كما ان احد النورمان الفرنسيين تولى منصب كبير اساقفة كانتربورى فى انجلترا فترة من الوقت فى خمسينيات القرن الحادى عشر . كذلك كان زعماء الحركة الكلونية يتحركون فى جميع ارجاء اوربا يؤسسون الاديرة، ويقدمون مشورتهم الى الحكام . اما الامر الذى لم يسبق له مثيل فى كنيسة العصور الوسطى الباكرة فكان ظهور نمط جديد من العالم المتجول الذى كان يجوب الأفاق البعيدة سعيا وراء المناخ الثقافى المناسب، او من اجل التلمذ على واحد من الاساتذة المشهورين. كما كانت المدارس الديرية الكبرى فى نورمانديا تجتذب باستمرار اشهر العلماء الايطاليين، وكان آخرون غيرهم يشقون طريقهم صوب المدن الكاتدرائية فى شمال فرنسا وفى اللورين لكى يدرسوا اللاهوت والقانون الكنسى، بل ان بعض ذوى الهمم العالية كانت شجاعتهم تدفعهم الى السفر الى الأراضى

الاسلامية لكي يدرسوا الرياضيات والعلوم فى قرطبة . هؤلاء العلماء المغمورون، خاويو الوفاض، هم الذين كانوا يمهّدون للصحة الادبية الهائلة فى مجال الحياة الثقافية.

وفى سنة ١٠٥٠ ، كانت هناك مجموعات من الناس، فى كل بلد من بلدان اوربا تتجمع حول نمط ما من المشروعات الجديدة . فلم تعد اوربا تلهث وراء بيزنطة والعالم الاسلامى بل انها تجاوزت أعظم إنجازات هاتين الحضرتين، اللتين كانت الشعوب الناطقة باللاتينية آنذاك تنافسهما فى سبيل الهيمنة على عالم البحر المتوسط، فى بعض الميادين . وفى جميع مجالات النشاط الانسانى كانت ثمة اهداف جديدة يسعى الناس اليها، واساليب جديدة يجربها الناس فى اوربا الغربية ١٠٥٠ . لقد تشكلت الحضارة من اتحاد الثقافات اللاتينية والمسيحية والجرمانية، وبدأت تدخل مرحلة من الابداع والانجازات التى لم يسبق لها مثيل. اما السؤال الذى يبقى فى إنتظار الإجابة، فهو عما إذا كان النظام الإجتماعى فى ظل التوازن الإجتماعى الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة، والذى كان بمثابة الخلفية التى ارتكز عليها النجاح السياسى والاقتصادى والثقافى ، قادرا على أن يظل سائدا فى العالم المتغير الذى كان فجره وشيك البزوغ.

رقم الإيداع ٩٣/٩٦٦٧

I.S.B.N. 977 - 5514 - 00 - 2

طبع بمطابع دار روتا برينت

المصور الوسيط الباكسة



للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES